

# المؤمنون والغرباء

وَالنَّاسِيسِ الْقَرَانِي لِلْمُشْتَرِكِ الْإِنْسَانِي



أَحْمَدُ الْفَرَائِكُ

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المسلمون والغرب

والناسيس القراني للمشارك الإفسياني



# المسلمون والغرب

والناسيس القراني للمشترك الانساني

الدكتور  
احمد الفراء



المعهد العالمي للفكر الإسلامي





© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية  
الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

المسلمون والغرب والتأسيس القرآني للمشارك الإنساني  
تأليف: أحمد الفراخ

- موضوع الكتاب: ١- دراسات قرآنية  
٢- المشارك الإنساني  
٣- أصول المشارك الإنساني  
٤- الإسلام والغرب  
٥- حوار الحضارات  
٦- الفكر الإسلامي

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٨١٢-٨

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٧/٧/٣٢٧٣)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought  
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA  
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922  
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٩ الرمز البريدي ١١١٩١  
هاتف: +٩٦٢٦٤٦١١٤٢١ فاكس: +٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠

www.iiitjordan.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعتبر  
بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء مؤلفيها واجتهاداتهم

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]



## إهداء

إلى والدي وأهل بيتي والإخوة والأصدقاء جميعاً  
إلى من علمني وأرشدني ودلني على الحق والمعروف  
إلى أئمة الخير وفرسان العلم وأهل المعرفة والمنهاج  
إلى العاملين لإسعاد الإنسانية في العاجل والآجل



## المحتويات

١١	..... المقدمة
٢٧	الفصل الأول
	مدخل مفاهيمي تأسيسي للكتاب
٢٧	أولاً: "المسلمون": من الدلالة التاريخية إلى الدلالة القرآنية
٣٠	ثانياً: مصطلح "الغرب" من الدلالة الجغرافية إلى الدلالة الفلسفية
٣٣	ثالثاً: علاقة المسلمين بالغرب: من المعترك إلى المشترك
٣٥	رابعاً: "المشترك" بين المسلمين والغرب
٤١	خامساً: لماذا المرجعية القرآنية في التأسيس للمشترك الإنساني؟
٥٥	الفصل الثاني
	الأساس الديني مدخلاً للمشترك الإنساني بين المسلمين والغرب
٥٧	أولاً: الدين المشترك بين المسلمين والغرب
١٠٠	ثانياً: القيم الدينية المشتركة بين المسلمين والغرب
١٥١	الفصل الثالث
	المشترك العلمي المعرفي مدخلاً للمشترك الإنساني
١٥١	أولاً: العلوم التجريبية والمشارك الإنساني
١٨٧	ثانياً: المعرفة القرآنية والقراءة الجامعة
٢١٣	الفصل الرابع
	المشترك العمراني بين المسلمين والغرب
٢١٣	أولاً: العمران الإنساني: من دلالات العمران إلى علم العمران
٢٤٢	ثانياً: خصائص العمران الإنساني ومقاصده

٢٧٣

## الفصل الخامس

### المشترك البيئي الطبيعي مدخلاً للمشارك الإنساني

٢٧٣

أولاً: البيئة بين قصور التصور المادي وشمولية التنزيل القرآني

٢٩٨

ثانياً: المشترك البيئي: عالمية الأزمة البيئية وعالمية الحل القرآني

٣٣٧

..... الخاتمة

٣٤٧

..... المراجع

٣٧٧

..... الكشف

## المقدمة

الحمد لله تعالى ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان: ١]،  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل ﴿شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ  
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق، "رحمة للعالمين"،  
حاملاً نداء النبوة الخالد للناس أجمعين، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ  
لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَلُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]. أما بعد؛

فليست علاقة المسلمين بالغرب وما يرتبط بها من إشكالات نظرية ومن مشكلات  
تاريخية وواقعية، وليدة الزمن الحاضر، وإنما هي علاقة ممتدة امتداد التفاعل بين الطرفين،  
الذي هو تفاعل عميق الجذور ومتعدد الأبعاد ومتداخل العناصر، تحضر فيه فلسفة الدين  
ومعطى الجوار، وتراكمات التاريخ، وإنجازات العلوم ومصالح الناس. وقد تناوبت على  
هذه العلاقة التواصلية -التي لم تخل يوماً من التلافح والتلامس- حالات الصراع  
وحالات الانسجام، وعلى الدوام ظل يطبعها تبادل الأخذ والعطاء، والسلب والإيجاب.

والبحث في إشكالات هذه العلاقة ضرورة ملحة على الجانبين معاً، قصد استجلاء  
طبيعتها بروابطها المختلفة، والإسهام في ترشيدها عبر التخلص من القراءات التقليدية  
الموروثة عند الفريقين حول علاقة الأنا بالآخر المخالف دينياً وعرقياً وجغرافياً، خاصة  
في ظل ظروف عالمية متغيرة، ومعطيات زمانية متسارعة، وتحولات كونية غيرت جغرافية  
المكان وطرائق التفكير وطبيعة المصالح. مما يستدعي تجديد النظر في رؤية الذات ورؤية  
الآخر من خلال هذه المتغيرات التي عمّقت الإيحاء بعجز الذات عن الاستقلال والعزلة  
عن الحياة مع الغير. فلا تستطيع أمة قط أن تحصن نفسها عن تأثير غيرها ولا أن تحقق  
كفايتها الذاتية مهما ادعت لنفسها من خصوصية وتفرد، أو استعلاء وتسيّد. وتزداد أهمية  
تجديد النظر في تلك العلاقة بشيوع الفكر الصدامي التشاؤمي، سواء عند المسلمين أو



عند الغرب، والذي قسّم العالم إلى أعداء، تنتظم علاقاتهم وفق صراعات حتمية حُشر فيها الآخر المخالف طرفاً معادياً، وأُخذ الدين من الطرفين سلاحاً ماضياً.<sup>(1)</sup>

يحمل إشكال العلاقة بين المسلمين والغرب أهم التساؤلات الكبرى التي نضجت واختلفت حولها الآراء والمواقف، وطرحت قضاياها الحديثة بحدة كبيرة، سواء في السياق الإسلامي العربي أو في السياق الغربي. ففي السياق الأول؛ برز الخطاب الإسلامي المعاصر مع بداية القرن التاسع عشر، لما طرحت أسئلة المقارنة بين الذات والآخر، وقد اختلفت صيغ هذه الأسئلة وإن اتفقت في مضمونها: ما علاقة المسلمين بالغرب؟ "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟" هل في الإسلام ما يتعارض مع المدنية الحديثة؟ وما موقف الإسلام من القيم الأخلاقية والسياسية الغربية؟

وقد أفرزت هذه الأسئلة جملة من المفاهيم تؤرخ لوعي تساؤلي مزدوج أنتج مواقف متقابلة، بعضها يحتزل طبيعة العلاقة مع الغرب في الصراع والمواجهة، مثل القول بالتناوب بين الإسلام والمدنية، الإسلام والديمقراطية، الإسلام والعقلانية، الإسلام والحداثة... وبعضها ينتقل إلى الضفة النقيض ليعلن ضرورة التماهي والذوبان في الغرب. وبناء على ازدواجية هذا الوعي تراوحت الأجوبة عن الأسئلة السابقة بين إثبات التعارض التام بين نموذجين معرفيين "مختلفين" هما: النموذج الحضاري الإسلامي، والنموذج الحضاري الغربي، وبين نفيه، دون تغييب الفارق بين الصورتين الذهنتين، حيث يحضر الأول بوصفه ذكرى ومثالاً نظرياً، بينما يحضر الثاني بوصفه واقعاً متحققاً ومتفوقاً. وبين عمليتي الإثبات والنفي، تتنوع الاقتراحات والمواقف، وتختلف الفلسفات باختلاف الأطر المرجعية والمقاصد الكلية والمصالح الظرفية.

خلف هذا الواقع عند الطرفين وعياً حضارياً عمّق الأسئلة وكشف التناقضات، وأيقظ الفكر لفحص هذه الإشكالية من وجوهها المختلفة، ومحاولة الجواب عن

---

(1) Huntington, Samuel. *The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order*, New York: Touchstone, 1977.

الأسئلة المتعلقة بها. إلا أن الأجوبة التي قُدمت طيلة قرنٍ ونيّفٍ من الزمن، وإن ساهمت في استجلاء الصورة التي يضمورها أو يعلنها كل طرف عن ذاته وعن الآخر، فهي تحتاج إلى المزيد من تعميق النقاش حولها، ومراجعتها والعمل على تجاوزها إلى أجوبة تستحضر المتغيرات الواقعية مع الرجوع إلى الأصول الفكرية والحضارية الكبرى التي تُستمد منها الرؤية المنهجية والمعرفية.

أما فيما يخص السياق الغربي فلا يمكننا الحديث عن صورة موحدة ونمطية تنسحب على الغرب برمته، وإن تشكلت الصورة العامة عن المسلمين عبر تراكم جملة من التجارب والأحداث والمواقف التاريخية التي يحملها التراث الديني والاستشراق الغربي عنهم باعتبارهم مخالفين دينياً، وما تكرر من خلال القراءات المتعددة للتعارف والتبادل الذي وقع بين المسلمين وغيرهم بالأندلس، وزيارات الوفود المسيحية إلى القدس، ودخول صقلية سنة ١٠٦٠م، وطيطة سنة ١٠٨٥م، واحتلال القدس سنة ١٠٩٩م، وقد أدى هذا الالتقاء المباشر إلى تكوين رؤية معرفية غربية توارثها العقل الغربي إلى اليوم، وإن كانت هذه الرؤية متعددة الأبعاد؛ منها ما هو واقعي مستشف من ممارسات فعلية لبعض المسلمين أو من كتاباتهم، ومنها ما هو في الغالب من استصناع البراغمية اللاهوتية التي تتوسل بمنهجية انتقائية متحيزة، هدفها أن تُبعد الناس عن التأثر بدين المسلمين وقيمهم ومعرفتهم.<sup>(١)</sup>

تأسيساً على ذلك، لا يكابر أحد من العقلاء في أن علاقة المسلمين بالغرب بقدر ما هي مثقلة بآثار الصدام التاريخي بينهما، مع ما كان يتخللها من علاقات تلامس وتواصل، فهي تجر معها أزمة مركبة تنبئ من جهة عن عمق التفاعل سلباً وإيجاباً بين الحضارتين، وعن كون المشكلات الدينية والثقافية بينهما ناجمة عن وجود التلاقي والتشابه في الأصل، وليس عن الاختلاف الحاد أو التناقض. ومن جهة أخرى تكشف

---

(1) Norman, Daniel. *Islam and the West: The Making of an Image*, Edinburgh: University of Edinburgh Press, 1980, p. 79.

عن وجود اختلافات منهجية ومعرفية عميقة عند الطرفين، تجد أثر هذه الاختلافات في جميع الحقول وعلى كل المستويات، وهي تزداد في الاتساع مع مرور الزمن وتطور التقنية وتسارع الأحداث وتداخل المصالح.

لذا يفرض هذا المعطى على كل من المسلمين والغرب تجديد النظر في طبيعة هذه العلاقة القائمة، وبحث إمكانات تجاوز العوائق التي رسخت الأزمة وأبدت المشاكل، انطلاقاً من استلهام العناصر الجامعة التي يُبنى عليها غيرُها؛ أي تلك المشتركة الكبرى التي تجمع بين فلسفات الدين ونظريات العلم وأصول العمران وقضايا البيئة، وما يقتضيه ذلك من مراجعة فكرية لفلسفة الصراع والصدام والتناكر بين الأغيار. وقد تبلورت كثير من الأفكار الحديثة في الفلسفة السياسية والأخلاقية وفلسفة القانون تصبُّ في فكرة المشترك بوصفه أساساً للعقد الاجتماعيّ منذ أغرُوسِيوسُ وجان جاك روسو إلى جون رُولسُ وما تلا ذلك من نقاشات حول إمكانية نقل مفهوم العقد الاجتماعي من مستوى الدولة إلى المستوى العالمي الذي ينشد القيم الإنسانية الكلية؛ العدل والحرية والسُّلم. ذلك أن المشترك ليس هو ما تتبجح بامتلاكه واحتكاره والاستكبار باسمه على الآخرين أمة من الأمم، وإنما هو الذي تشعر جميع الأطراف بالنسبة له، والانتفاء إليه، والمشاركة فيه، واستحالة الإعراض عنه.

من جهة المسلمين -أتباع الرسالة الخاتمة- لا فكاك لهم عن مصدر معرفتهم وتميزهم، وهو الوحي المنزَّل، بتدبُّر مضمونه، واستنطاق آياته، واستخراج كنوزه، وتمثل أنواره، من أجل تجديد النظر وتسديد العمل في التعامل مع الغير، ونقد التصورات الاختزالية الموروثة عن ماضي الفتنة والانحطاط والجمود. واكتشاف المنهاج القرآني النبوي، الذي يخاطب الإنسان في إنسانيته المتخلصة من العرق واللون والطبقة والمكان والزمان، فيدعوه إلى مراعاة ارتباط وجوده الذاتي وحاجاته ومقاصده المتفرعة عنه، بوجود غيره وحاجات هذا الغير ومقاصده. ليجد أن الغايات المقاصدية الكبرى لبني آدم لا تختلف فيها الملل. والتاريخ شاهد على أن رسالة القرآن قد

احتضنت زمن النبوة الخاتمة نموذجاً استيعابياً للتفاعل بين الأديان والأجناس والأعراق والشعوب؛ إذ وجدت العالمَ أمامها في صراعٍ جاهليٍ مريرٍ بين أمتين متناحرتين - الرومية والفارسية - فبنت الذات الإسلامية بناءً مستقلاً ومستوعباً في الوقت ذاته لقضايا العالمين، وقدمت النموذج الأول في التعايش المشترك بين ذوات مختلفة لا تُلغي الواحدة منها الأخريات.

أما من جهة الغرب وهو يحمل اليوم قيماً إيجابية جُلِّيَّ للإنسانية وفرت لها خيراً كثيراً لا ينكره عاقل، فهو في حاجة إلى مراجعة تلك النظرة الاستعلائية الفردية التي تمنعه من الاستماع للآخر والحوار معه بوصفه شريكاً فاعلاً وليس فقط تابعاً مفعولاً؛ إذ لا يخفى إعجاب الحضارة الغربية بقيمتها المادية التي صنعتها برفاهيتها الاقتصادية وتفوقها التكنولوجي وقوتها العسكرية، مقارنة بواقع المسلمين اليوم الذي لا يرقى إلى مستوى المثال الذي تحمله الرؤية القرآنية الكونية والتطبيق الأول. لذلك فالغرب عندما يقدم نموذجاً فهو يُشهر قيماً قابلة للتطبيق والقياس، ومن ثمة يعمل على تصديرها إلى العالم وتعميمها على الثقافات الأخرى. إلا أنه يصطدم برؤيةٍ أخرى مخالفة تستعصي على الذوبان والتلقي الآلي والتصديق المطلق، بل تتوجس منها خيفة، وتردد في قبول القيم الوافدة منها قبولاً مطلقاً، لأنها لا تجدها قيماً مشتركة ومستوعبة.

ولتجاوز وضع الصدام هذا والانتقال إلى وضعٍ بديلٍ، لا بد من التفكير المزدوج في بناء المستقبل المشترك الذي تتغياها البشرية لتسعد به، وهذا يدعو الغرب إلى مراجعة ذاته عبر الإسهام في بناء المشترك الإنساني بدلاً من فرض نموذجٍ عولميٍ قاهرٍ على الجميع وإلغاء الآخرين. وذلك باستثمار الأسس الدينية والعلمية والعمرانية والبيئية الكبرى التي تشيد القواسم المشتركة الكبرى بينه وبين المسلمين؛ أي استثمار خيرية البقية الصالحة في كل أمة وملة في دفع قيم الاستفساد والتخسير والظلم في الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْمَعْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

لا شك أن هذه البقية الصالحة مقتنعة بضرورة الإعداد لمستقبلٍ تلتقي فيه مصالح الناس وتتقارب ثقافتهم وتتعايش حضاراتهم، وبوجوب البحث عن مشتركٍ تلتقي فيه الإنسانية وتتخلص من تبعات عصور الفتن والكرهية والظلم. مثلما حصل الوعي بضرورة تجاوز الخطاب التحريضي السلبي الصدامي الذي يجتال الناس ويؤبد الصراع بينهم، فكيف تنصلح العلاقة بين المسلمين بمرجعيتهم المعرفية وهم يجرون معهم تراثاً ثقيلاً ومختلطاً، والغرب المشبع إلى جانب تفوقه التقني والعسكري والسياسي بقيم الوضعية والعقلانية والبراغماتية واللائكية؟ كيف نتقل من التفكير والسلوك وفق فلسفة الصراع والكرهية إلى التفكير والسلوك وفق فلسفة المشترك الإنساني؟ وما هي الأسس والأصول الكبرى لهذا المشترك الإنساني؟

ومن خلال هذا الإشكال المركزي يمكننا أن نرتب جملة من التساؤلات المنهجية والمعرفية كما يلي:

١- ما هي أسس المشترك بين "المسلمين" و"الغرب" على المستويين الديني والعلمي؟ وكيف تُسهّم الأديان باعتبار وحدة أصلها ووحدة غاياتها في بناء مشترك إنساني عالمي؟ وما هي خصائص الرؤية القرآنية لوحدة الدين؟ ووفق أي تصور ينشد العقلاء تأسيس حضارة المشترك الإنساني على مستوى المناهج العلمية سواء منها التي تدرس النصوص المرجعية المؤسسة أو التي تبحث الظاهرة الطبيعية البسيطة أو التي تحاول فهم الوضع البشري المركب؟

٢- لما كانت القيم الأخلاقية في كُليتها وخلودها قيماً ومطالب إنسانية مشتركة ومُلحة -ديناً وعمراً ومعرفةً وبيئة- فكيف تسود هذه القيم بين الحضارات والثقافات والأمم، ليُقدم كل طرف إسهامه ومساهمته في إغناء المشترك الإنساني، وتطويره لصالح النفع البشري العام وفق تعاقده عالمي مشترك؟

٣- إن كان من إنجازٍ برعت فيه الإنسانية المعاصرة اليوم ووفر لها القدرة على تغيير نمط حياتها فهو الإنجاز العلمي والتقني، إلا أن هذا التغيير يحمل معه البشارة

والندارة للإنسانية، مما يدعو إلى ضرورة التفكير المشترك في تسخير علوم النص وعلوم النفس وعلوم الكون لخدمة الإنسانية جميعاً، وتحليلها من خدمة الأهواء والسُّلْط اللاهوتية والمعرفية والسياسية والاقتصادية. فبماذا تتحدد منطقة المشترك العلمي والمعرفي بين الإنسانية؟ وكيف تُحمى من التوظيفات والتحيُّزات غير العلمية؟

٤- أُنسهم العلوم الطبيعية والاجتماعية بمناهجها وإشكالات البحث فيها ونتائجها المتغيرة وما راكمته من إنجازات في التأسيس لهذا المشترك؟ وهل بطبيعتها العلمية تفرض حيادها التجريبي وترتفع بموضوعيتها عن التوظيف الإيديولوجي والسياسي؟ أم أنها لصيقة فلسفة تحيزية تستخدم العلم لأغراض غير علمية؟

٥- كيف يتأسس مشروع العمران الإنساني المشترك، ليحافظ على الخصوصيات، ويؤسس في الوقت نفسه ومن غير تعارض للمشارك الذي يتعارف فيه الجميع، ويتعايشون إخوة مكرمين في الإنسانية، دون تعصب للون أو العرق أو اللغة أو القومية أو المذهب؟ وما هي دلالات ومقاصد هذا العمران المشترك وخصائصه في معمعان "الأزمة الحديثة"؟

٦- إذا كانت البيئة الطبيعية هي مجموع العناصر الطبيعية المشتركة بين جميع الناس، وقد ازداد تقارب العالم اليوم جغرافياً أكثر من أي وقت مضى بسبب التزايد السكاني وتقدم المواصلات وتطور التقنيات وانجراف القارات، وما على الأرض وما حولها من فضاء أضحى مشتركاً بين الإنسانية، بحيث إذا ما وقع ضرر بالغ بالبيئة في مكانٍ ما سيؤثر حتماً على باقي الأمكنة وباقي الناس، فهل يقود الوعي بعالمية الأزمة البيئية إلى الوعي بعالمية الحل المشترك؟ وما هي معالم هذا الحل وما هي فلسفته؟

أما عن الجدوى من البحث في موضوع المشترك الإنساني بين المسلمين والغرب ففتبين من خلال المعطيات الآتية:

١- قتامة الصورة التي عليها العالم اليوم، نتيجة سيطرة رؤية أحادية تشاؤمية تنشر قيم الاستكبار والإقصاء والكرهية، وتُشعل فتائل الصدام والصراع، وتدعو إلى تجاوز هذه الرؤية الضيقة إلى رؤية كُلية تقوِّم الصورة المتوارثة والشائعة، وتستوعب الاختلاف لتنظمه عوض القضاء عليه وإلغاء المخالف، وهذا يستدعي إظهار ما بين الأمم من مقومات وقيم مشتركة مثلت وتمثل قواسم موحدة للبشرية.

٢- التركيز على المشترك الإنساني يُغني التفكير الإنساني، ويوفر السند الفلسفي النظري للمضي قدماً نحو التكامل والتعاقد بين بني الإنسان، عوض الارتداد إلى معارك الفتن التاريخية التي تُلهي الإنسان وتعيق تفكيره في واقعه ومستقبله، وتتلفع خلف مقولات تُشيطن الغير وتتهمه بالمؤامرة والخيانة ابتداءً. وخاصة أن العالم قد أضحى اليوم شبكة مركبة ومتداخلة من العلاقات الصلبة التي لا يمكن فصمها أو تجاهلها.

٣- تذكير الإنسانية بوحدة الأصل الخُلقي؛ إذ خرجت من روح واحدة، ونشأت من زوج واحد، وتشكلت من أسرة واحدة، وتصاهرت بين العُمومة والحُوولة، وامتدت قبائل وشعوباً وأُمماً، وكُلِّفت التكليف نفسه، وتعيش على الأرض نفسها، وترجع الرّجعة عينها، وتخضع للسُّنن الإلهية ذاتها. وبناء عليه وجب أن تستثمر هذه الوحدة الأصلية من أجل بناء المشترك الإنساني بين مختلف الدول والشعوب في المستقبل، وبشكل من الأشكال الممكنة.

٤- من شأن بيان أسس المشترك الإنساني في مجالات: الدين والعلم والعمران والبيئة أن يساعد نظرياً وعملياً على بلورة تصور واضح المعالم عن فكرة "وحدة الإنسانية"، ومن ثمّ إقامة علاقات إيجابية بين الشعوب وتكامل فعّال بين الثقافات، على أساس القيم المشتركة؛ الدينية والأخلاقية والحقوقية والبيئية... ونبذ قيم الاستكبار والاستضعاف والاستفساد. كما سيحاصر في نظرنا

الفلسفات الصّراعية والعبثية والفوضوية التي تذكي روح الحرب والصدام والكراهية بين الأمم.

٥- الاقتناع بالمشارك الإنساني يجعل الذات تعترف بالآخر المخالف، وتُعنى بالبحث في ثقافته عن عناصر الاتحاد والاتفاق والتفاهم، وإمكانات التعاون والتكامل والتنافس. ومن ثمّ ضرورة الانفتاح على مرجعيات الآخرين، واحترام خصوصياتهم، ونشدان القيم المشتركة معهم دون استعلاء ولا استتباع، موازاة مع مراجعة الوعي الذاتي المشوه بالتمثيلات التراثية والإيديولوجية والفلسفية المتقلصة التي تصدر عن سوء فهم كبير في تأويل النصوص المؤسّسة وشروحاتها المتحيزة. مع العلم أن المشترك لا يطلب من الطرفين التنازل للأصول المرجعية المنطلق منها بقدر ما يطلب تجديد النظر فيها بمنهجية تستوعب الآخر ولا تلغيه، وتُحضّره ولا تنفيه.

لذلك نسعى في هذا الكتاب لنقدم إسهاماً إضافياً في الحوار الدائر بخصوص إشكال العلاقة المركبة بين المسلمين والغرب، ومحاولة اكتشاف الأسس والأصول المشتركة دينياً ومعرفياً وعمرانياً وبيئياً، والتي يمكنها أن تكون مدخلاً لإعادة النظر في طبيعة هذه العلاقة من أساسها، وتقويم القراءات المقدّمة بصددّها. مع استحضار العوائق التي عطلت المشترك الإنساني ووسعت الفجوة بين المسلمين والغرب بالرغم من إمكانات التقارب والتعارف الهائلة بين الجانبين،<sup>(١)</sup> كما وسعت الفجوة بين الأقوال المُلحّة على المشترك والأفعال المعطّلة له. مستندين إلى المنهاج القرآني النبوي في معالمة الكلية المستوعبة للفكر الإنساني، استجابة للدواعي الآتية:

- الدواعي الدينية العقديّة: وتتجلّى في وحدة الدين الأصليّة، فالدين الذي أرسل الله من أجله جميع الأنبياء والمرسلين أسوة للناس أجمعين، وأنزل الكتب

(١) انظر:

- الفراك، أحمد. فلسفة المشترك الإنساني؛ بحث في العوائق المنهجية والمعرفية، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٦م.



والصحف من أجل إقامته، هو واحد لا يتعدد، يدل على وحدانية الله ومنهاج المسلمين في عبادته والدعوة إليه، أو ما يسميه إسماعيل الفاروقي بـ"مركزية وحدانية الله" في الدين، والتوحيد هو جوهر الدين وجوهر الحضارة، ومبدأ التاريخ والمعرفة والأخلاق، الذي يحمل نداء الله إلى الإنسان وتكليفه الشرعي ومنهاج تمثل ذلك التكليف، كما حذر من الوقوع في دروب الضلال والظلم والغفلة، ويجب عن الأسئلة الوجودية والمعرفية والمنهجية والقيمية الكبرى التي يطرحها هذا الإنسان المستخلف في الكون، مما يتطلب ضرورة معالجة الإشكالية المطروحة في إطار وحدة الرسائل الدينية.

- **الدواعي التاريخية الزمنية:** وعياً بقضايا الحاضر ومخاضاته، ومتطلبات المستقبل وآفاقه، وما نحمله معنا من إرث تاريخي يختلط فيه الحق بالباطل، والخير بالشر، والأصيل بالدخيل، واستحضاراً لما تمر به الإنسانية اليوم من محن فكرية وواقعية تراكمت عبر الزمن وأنتجت مقولات مغلقة، نشعر بالحاجة إلى تصحيح المنطلق وتجديد الرؤية واستشراف المستقبل الذي تتجاوز فيه الإنسانية أنانياتها وتحيزاتها إلى أفق أرحب، يحتضن الإنسان احتضاناً مستوعباً للاختلاف والتنوع والتنافس.

- **الدواعي المعرفية العلمية:** تلتخص في أهمية البحث في موضوع العلاقات بين منظومتين فكريتين، وكشف العوائق المنهجية والمعرفية التي تعطل تحسين هذه العلاقات، خاصة في عصرنا هذا الموسوم بالتقدم التقني والعلمي والمعلوماتي، وإبراز معالم المنهاج القرآني في حل جملة من المشكلات البشرية المحلية والعالمية، ومعالجة جملة من الإشكالات النظرية والتساؤلات الفلسفية التي يطرحها العقل البشري.

- **الدواعي الحضارية العمرانية:** ذلك أن البحث في المشترك العمراني والمشارك البيئي من شأنه أن يظهر المسؤولية المشتركة للإنسانية أفراداً ومؤسسات عما تتعرض له الطبيعة من تدمير وتبوير، أو تلوث واستفساد، لا تقوى شعارات الهيئات والمنظمات والدول والمنظمات الدولية على إيقافه، بل إنه يزن ادعاءاتها

بميزان الواقعية، والنجاعة العملية، والرؤية المقاصدية التي تعود على الإنسانية جميعاً بالخير المشترك.

أما بخصوص المنهج فقد اقتضت طبيعة البحث وموضوعه الجمع بين عدة مناهج:

١- منهج تحليلي تفكيكي: يعطي الأولوية للأنساق المعرفية، ويعمل على تحليل وتفكيك النصوص والمعطيات العلمية والمواقف الفكرية والاجتهادات التاريخية، وإعادة تركيب عناصرها بشكل يخدم أطروحة الكتاب ويحجب عن أسئلتها.

٢- منهج تاريخي: يستحضر السياقات التاريخية لإنتاج المعرفة وتطورها، سواء في تاريخ المسلمين أو في تاريخ الغرب، ذلك أن المعرفة تبنى عبر مراحل زمنية مختلفة، يؤثر السابق فيها في اللاحق، وهو ما يُسَعِّفنا في استيعاب إشكالات الواقع الحالي عبر إرجاعها إلى جذورها وأسبابها التاريخية، وتوقع اتجاهاتها في استشراف المستقبل. فالمنهج التاريخي عموماً يساعد على حل مشكلات معاصرة على ضوء خبرات الماضي.

٣- منهج نقدي: يروم الاعتماد على نقد منهجي ومعرفي للمعرفة الشائعة في الفكر الإسلامي من جهة وفي الفكر الغربي من جهة ثانية، سواء كانت معرفة فقهية أو علمية أو فلسفية ما دامت لا تمثل في النهاية سوى اجتهادات بشرية حول النص أو حول النفس أو حول الكون، وعدم التسليم بالأحكام والمسلمات المنهجية والمعرفية إلا بعد إعادة فحصها، وهذا يقتضي الجمع بين المراجعة والتقويم والاستدراك والتجاوز.

٤- منهج مقارن: يعمل على تتبع المجالين الثقافيين؛ المسلمون والغرب، ورصد القيم المشتركة نظرياً في النصوص المؤسسة للرؤيتين المعرفيتين، وعملياً في حياة الناس وتصرفاتهم، وكشف علاقة السلوك التاريخي بالمبادئ الموجَّهة، وكذا العوائق التي حالت دون تجسيد تلك الأصول في الواقع التاريخي.

وقد فرضت الإشكالية وأسئلتها الفرعية على الكتاب أن يُوزع إلى خمسة فصول:  
سأتناول في الفصل الأول تحديد دلالات عناصر العنوان الذي تحمله الأطروحة،  
وهي: "المسلمون"، "الغرب"، "علاقة المسلمين بالغرب"، "المشترك الإنساني"، وأخيراً  
"المرجعية القرآنية" وما تزخر به من الإمكانيات الدينية والأخلاقية والاستيعابية  
والوسطية والواقعية والانفتاحية والحوارية والتواصلية والعالمية، في صناعة هذا  
النموذج واقتراحه على العالم.

أما الفصل الثاني فينظر في مفهوم الدين في اللغة والاصطلاح والقرآن، وفي  
أساس المشترك الديني والأصل الاعتقادي بين الرسالات السماوية الثلاث، البريئة من  
"الطغيان الديني" الذي غطّى النزعات المنحرفة في الماضي والحاضر بغلاف الدّين،  
ويُخرج الفصل على وحدة الفطرة التي فطر الإنسان عليها ابتداءً، بالإضافة إلى وحدة  
القيم الإنسانية الكبرى المنبثقة عنها.

ويختص الفصل الثالث ببيان المشتركات العلمية والمعرفية بين البشرية على  
مستوى المناهج والموضوعات، ويثير جملة من الإشكالات الإبستمولوجية المرتبطة  
بالعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، من قبيل العلمية والموضوعية، الاتصال  
والانفصال، وحاجة تأسيس النموذج العلمي في تكامل المعارف إلى الوحي، ثم يحاول  
اقتراح معالم التأسيس القرآني للمشترك العلمي المعرفي.

وفيما يخص الفصل الرابع فانتقل فيه إلى معالجة دلالات العمران في الزمان  
والمكان والإنسان، وضرورة الانتقال من علم العمران إلى عمل العمران، واستنباط  
الأساس العمراني لوحدة الجنس البشري، وبيان مقومات وخصائص العمران البشري  
ومقاصده الكلية المشتركة بين المسلمين وغيرهم.

بينما يختص الفصل الخامس والأخير بمعالجة المشكلة البيئية والمظاهر العالمية  
للأزمة، وإبراز قصور التصور المادي لقضية البيئة في مقابل شمولية التنزيل القرآني،  
الذي ينقلنا من سجن فلسفة التخسير المادية إلى فساحة علم التسخير القرآني، وبلورة  
فلسفة بيئة بديلة تسترشد بمعالم الحل القرآني للمشكلة.

وتبعاً لذلك فقد جاءت مصادر ومراجع هذا الكتاب متنوعة تتنوع الأسئلة التي تطرحها إشكالية البحث، بدءاً من القرآن الكريم والكتاب المقدس، وبعض التفاسير، وكتب الصحاح والسنن والمسانيد في الحديث النبوي، وفلسفة الدين وعلم مقارنة الأديان والسوسولوجيا والإبستمولوجيا وفلسفة البيئة، والفكر الإسلامي القديم والمعاصر. كما أفدت بلا حصر من مؤلفات عدد من كبار الفلاسفة والعلماء والمفكرين في الثقافتين الإسلامية والغربية. لا تسمح مقدمة البحث بذكرهم. ولم أعر خلال فترة البحث إلا على كتابين باللغة العربية يحملان عنوان "المشترك الإنساني" هما:

١- كتاب "نظرية المشترك الإنساني. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب"،<sup>(١)</sup> وهو كتاب يجمع الشواهد من النصوص الدينية والتاريخية ما يثبت أن هناك مشتركاً بين الناس، حيث أحصى ٢٠ مشتركاً إنسانياً، مقسماً على أربعة أقسام كالآتي: المشترك الأسمى، ومشاركات إنسانية عامة، ومشاركات إنسانية خاصة، ومشاركات إنسانية داعمة. إلا أن هذا الكتاب على أهميته وكثافة معرفته بقي وفيماً للنفس الدفاعي الذي يعتمد على حشد الأدلة التفصيلية الجزئية وتعميمها في اتجاه إطراء الذات ودعوة الآخر للالتحاق بها. كما أنه لم يتطرق للأسس العمرانية والبيئية للمشارك الإنساني، ولا إلى العوائق التي تحول دون إقامة هذا المشترك.

٢- وكتاب "في الطريق إلى المشترك الإنساني"،<sup>(٢)</sup> وهو مؤلف لا يمت للإشكالات المنهجية والمعرفية التي يطرحها هذا الكتاب إلا في مسألة واحدة تتعلق ببعض الجوانب المشتركة بين الأديان، وقد عاجلها الباحث بشكل عام ومستعجل، وانصرف إلى الحديث عن وحدة الأمة الإسلامية، وخصائص اللغة العربية. مثلما أهمل ما أهمله الكتاب السابق.

---

(١) السرجاني، راغب. نظرية المشترك الإنساني؛ نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، (١٤٣٢هـ/٢٠١٠م).

(٢) التطاوي، عبد الله. في الطريق إلى المشترك الإنساني؛ مؤشرات وتداعيات، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٨م.

أما فيما يتعلق بالمراجع غير العربية، وأقصد بالإنجليزية والفرنسية، فلم أعرّض فيها على مؤلف يختص بمعالجة قضية المشترك الإنساني، أو يعالج العلاقة بين المسلمين والغرب في ضوء المشتركات الكبرى بينهما، إلا أن تكون بعض الفقرات أو المقالات أو الإشارات المتفرقة هنا وهناك، وقد اعتمدت على بعضها وذكرت ذلك في متن الكتاب.

وحتى هذه اللحظة لم نعرّض على دراسة جامعة ومفصلة لموضوع المشترك الإنساني بأبعاده الدينية والعلمية والعمرائية والبيئية، ونأمل أن يكون بحثنا هذا إسهاماً متواضعاً في سبيل التأسيس المنهجي والمعرفي العميق لهاته النظرية، والتفصيل العلمي لها. إلى جانب الجهود التي يبذلها عدد من الباحثين ومراكز البحث التي وصلتنا في شكل مقالات ودراسات في دوريات ومجلات فكرية ومواقع إلكترونية، أذكرها في هوامش الكتاب، وبين مراجعه.

ومن أهم الكتابات التي كانت على قدر كبير من الوعي المنهجي، والتكثيف العلمي، والمحاورة المنصفة، والاستقراء الواعي لما هو موجود عند الذات وعند الآخر، نذكر إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومنها كتابات إسماعيل راجي الفاروقي، وخاصة في موضوع علاقة الإسلام بالغرب؛ إذ يعد من أوائل المفكرين المسلمين الذين نظروا بعمق وشمولية في طبيعة العلاقة بين الذات والغير.<sup>(١)</sup> ومن بين البحوث التي لامست الموضوع من بعض جوانبه الجزئية، أذكر كتاب "الماضي المشترك بين العرب والغرب"،<sup>(٢)</sup> حيث اشتغل فيه رانيا على إبراز أصول الآداب الشعبية المشتركة بين العرب والغرب من خلال القصص المشهورة في الثقافات العربية والغربية - الإسكندر الأكبر، وعنتر وعبله، وألف ليلة وليلة... - ولم يوف الموضوع حقه

---

(١) للمؤلف كتابات وترجمات ومقالات كثيرة يصعب حصرها، جميعها تؤسس لتصور معرفي تكاملي، أفنى الراحل عمره في إعداد علمياً وعملياً، من مؤلفاته: "التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة"، و"محاضرات في تاريخ الأديان"، و"الحوار الثلاثي بين الأديان الإبراهيمية"، و"أطلس الحضارة الإسلامية"، و"The Great Asian Religions" ...

(٢) رانيا، أ.ل. الماضي المشترك بين العرب والغرب، ترجمة: نبيلة إبراهيم، مراجعة: فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة (٢٤١)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

من الشمولية والعمق. وكتاب "قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة"،<sup>(١)</sup> لصاحبه؛ محمد عبد الفتاح الخطيب. إلا أنه على وعيه بضرورة تجديد النظر في العلاقة مع الآخر، إلا أنه اقتصر على تمجيد حضارة الإسلام وقيمه والدعوة إلى نشرها بـ"الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية"، و"الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض"، دون اقتراح أية ملامح للمشارك الإنساني على المستويات الأربعة. وكتاب "مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي"،<sup>(٢)</sup> لهانس كينغ، الذي بذل جهداً كبيراً في تأكيد وحدة الأديان الكبرى؛ الإسلام والمسيحية واليهودية وغيرها في بعض القيم المشتركة، كالسلم والحوار والعدل والخير، سواء في هذا الكتاب أو غيره من الكتب، غير أن ما أسعى إليه هو محاولة التأسيس القرآني للمشارك في المجالات الكبرى الآتية: الدين، والعلم، والعمران، والبيئة. ومقال رفيع محماد بعنوان "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"<sup>(٣)</sup> في التأصيل القرآني العام للمشارك الإنساني.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يجزي عني خير الجزاء الأستاذ سعيد شبار على إشرافه على أصل هذا الكتاب تأطيراً وتوجيهاً وتقويماً. وأنا مدين أيضاً لأساتذتي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة بني ملال، وخاصة وحدة الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية، لما وفروه من خدمات منهجية ومعرفية تنير الطريق للباحثين وتيسر لهم السبل. كما أعتنم الفرصة لأشكر أساتذتي الأجلاء في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، وعلى رأسهم أستاذي الفيلسوف طه عبد الرحمن. وأسأله سبحانه أن يتقبل مني جهد المقل، وأن يتجاوز عن تقصيري وخطئي، وأن يوفقني لتدارك ما فاتني. ووصلى الله وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

---

(١) الخطيب، محمد عبد الفتاح. قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة، سلسلة كتاب الأمة (١٣٩)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

(٢) كينغ، هانس. مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وأورسولا عساف، بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٨م.

(٣) رفيع، محماد. "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة (١٧)، عدد (٦٦)، ٢٠١١م.



## الفصل الأول:

# مدخل مفاهيمي تأسيسي للكتاب

### مقدمة:

بعد بيان موضوع البحث وإشكاليته ودواعيه وأهدافه في المقدمة، ننصرف في هذا الفصل إلى تحديد المفاهيم المحورية في عنوان الكتاب وتعريفها، حتى يتضح المعنى الذي تحمله وتختص به عن غيرها، ويتبين القصد من هذا التأليف ويتميز به عن غيره، ما دامت المفاهيم هي "اللبنات التي منها تؤسس المنهجية، ومن ثم فما من عمل منهاجي إلا ويكون قوامه عملية التأصيل للمفاهيم"<sup>(١)</sup> المستعملة في متنه، مثلما "لا يستقيم الحديث عن موضوع معين في مجال ما، دون الإحاطة بالمفاهيم التي تتضمنها المصطلحات الدالة عليه."<sup>(٢)</sup>

## أولاً: "المسلمون": من الدلالة التاريخية إلى الدلالة القرآنية

يصدق على مصطلح "المسلمون" ما يسمى بـ"التعدد المفهومي"؛ أي إننا بصدد مصطلح تتعدد تعريفاته، وتتسع مجالاته، وتختلف وتباين دلالاته، فهل هو يخص قوماً بلغتهم؟ أم سكان إقليم بأرضهم؟ أم أتباع نبي بدينهم؟ ومن يمثل المسلمين اليوم؟ هل "العلماء" أم الحكام؟ أم الشعوب؟ هذه الطائفة أو تلك؟ هذا القطر أو ذلك؟ التاريخ أم الحاضر؟ الواقع أم المثال؟

أمام هذا الواقع الذي يجمع "صوراً وحقائق متعددة عن الإسلام والمسلمين من النواحي الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية"<sup>(٣)</sup> آلينا على أنفسنا التمسك بالدلالة

---

(١) أبو الفضل، منى عبد المنعم. نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص٨.

(٢) جسوس، عبد العزيز. إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط١، ٢٠٠٧م، ص٨.

(٣) اسبوزيتو، جون. ومجاهد، داليا. من يتحدث باسم الإسلام؟، ترجمة: عزت شعلان، القاهرة: دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٥٢.



القرآنية لهذا المفهوم، فالمسلمون هم مجموع الناس الذين يدينون بدين الإسلام، ودين الإسلام في القرآن هو دين العالمين؛ لأنه دين جميع الأنبياء والمرسلين. فالنبوات متتابعة ومتوافقة، وتنبع من مشكاة واحدة، وليس الإسلام ديناً جديداً وإن عُدَّ القرآن تجديداً للدين وختماً له، فكان رسالة عالمية، تقرر بالنبوات والرسائل السابقة عليها ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وتخطب مطلق الإنسان وتتفاعل مع مختلف الأنساق، وانطلاقاً من عالمية الكتاب وشموليته للقضايا الكلية التي تشترك فيها جميع الملل تأسست "المواطنة العالمية الأولى" التي استوعبت جميع الناس في إطار القيم الدينية العالمية "المراعاة في كل ملّة؛" (١) كالعدل والحرية والسلم، بـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يخاطب القرآن الناس جميعاً، بمختلف أجناسهم وأعراقهم ولغاتهم وثقافتهم وجغرافياتهم وتاريخهم، ويناديهم ببناء الإسلام والإيمان ليكونوا مسلمين، فيتوجه إليهم: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَلَا سَبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] فهو إذاً مصدق لكل الرسائل السماوية وجميع الشرائع باعتبار إيمانها برسلها، وهذا ما يجعل رسالة القرآن أحق بهؤلاء الرسل والأنبياء من أية منظومة عقديّة أخرى. والقرآن بكونه وارث الرسائل السابقة منفتح على جميع الأجناس حيثما كانوا، ومستوعب بعالميته وشموليته وانفتاحه وتجده لجميع الأزمان والأماكن، والخصوصيات الثقافية والحضارية.

إلا أنه من الخطأ البين، الخلط الذي وقع فيه بعض المستشرقين في دراساتهم للثقافة الإسلامية العربية، والذي يتعلق بالمصادرة على التطابق بين الإسلام وتاريخ المسلمين في تجربتهم الحضارية. والحقيقة أنه لا تطابق بين الوحي المنزل المطلق والتجربة التاريخية للمسلمين، ولا ثبات في العلاقة بينهما تاريخياً ولا جغرافياً؛ "لأن

(١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ص ١٦.

التاريخ قد شهد حالات فصام عديدة بين الإسلام والمسلمين على مستويات مختلفة. وبين تاريخنا الحديث من تلك الفترات التي يتعذر فيها ادعاء التطابق بين الإسلام والمسلمين،<sup>(١)</sup> وإن كان من المستشرقين من "لا يزال يرى في مصطلح الإسلام وصفاً لكل المسلمين والمسلمات، والدين الإسلامي، ولكل أفعال المسلمين والمسلمات،"<sup>(٢)</sup> من أمثال هؤلاء الذين يخلطون بين دين الإسلام وتجارب مَنْ يُظهرون تدينهم به -وشتان بين الأمرين- نذكر المستشرق الأمريكي المعاصر برنارد لويس في كتابه "الإسلام والغرب."<sup>(٣)</sup>

لا شك في أن الإسلام في أصوله المؤسسة فوق تدئين الناس واجتهاداتهم المتفاوتة بتفاوت قدراتهم على استنتاج آيات الكتاب وتثويره في واقعهم، وهو واقع نسبي متغير. وتعاقب الأجيال حيث يُحصّل كل جيل حظه من عطاءات الوحي الذي لا تنتهي علومه ولا تنقضي كنوزه، فيُنسب المسلمون إلى الإسلام، ولا ينسب الإسلام إلى المسلمين، فهم يشكلون نمطاً حضارياً معيناً قد يجسّد مبادئ الإسلام الكلية، وقد يُقصر فيها أو يسئ فهمها، وتمر عليهم مراحل تراجع وانحطاط ومراحل تقدم وازدهار، كما لا يرتبط المسلمون بجغرافيا محددة، رغم انتماء كثيرهم العددية لموقع جغرافي يشكل ملتقى القارات الثلاث، ويمثلون نسبة عددية متزايدة في باقي بقاع العالم.<sup>(٤)</sup>

بناء على ما سبق تتحرر مرجعية النظر في طبيعة العلاقة بين المسلمين والغرب من مجموعة من الآفات والمزالق المنهجية والمعرفية. لتكون الرسالة الخاتمة لجميع الرسائل التي سبقتها بمنزلة الأصل الثابت والمصدر المطلق الذي تؤسس عليه رؤيتنا للإنسان والكون والحياة، للماضي والحاضر والمستقبل، للذات وللغير، ونرجع إليه لتقوم به

(١) العلواني، طه جابر. الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣م، ص ١٢٣.

(٢) أبو خليل، أسعد. "الإسلام والروابط الدولية"، التشريع الدولي في الإسلام، تنسيق: فاروق حمادة، الرباط: منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (٧٠)، ١٩٩٧م، ص ١٥٢.

(3) Lewis, Bernard. *Islam and The West*, New York: Oxford University press, 1993.

(٤) تظهر الإحصائيات أن هناك أكثر من ١.٥ بليون مسلم، موزعون في أنحاء العالم.

اعوجاجنا الذاتي من جهة، ونقوم به اعوجاج الغرب من جهة ثانية.

## ثانياً: مصطلح "الغرب" من الدلالة الجغرافية إلى الدلالة الفلسفية

أول سؤال يصح طرحه بصدد الحديث في موضوع "العلاقة مع الغرب" هو: ما الغرب؟ ما هويته؟ وما حدوده التاريخية والجغرافية والثقافية والحضارية؟ وما هي محدداته؛ الدين أم الثقافة أم الجغرافيا أم الإيديولوجيا؟ هل هو أوروبا أم أمريكا أم هما معاً؟

جمعت المعاجم العربية عن "الغرب" دلالات لغوية كثيرة تستعصي على التصنيف، لا نرى ضرورة لإحصائها، ففي لسان العرب لابن منظور نجد: "الغَرْبُ والمَغْرِبُ: بمعنى واحد... الغَرْبُ خِلافُ الشَّرْقِ، وهو السَّمْعَرِبُ... والسَّمْعَرِبُ في الأَصْلِ: مَوْضِعُ الغُرُوبِ، ثم اسْتَعْمِلَ في المِصدرِ والزمان... وَأَعْرَبُوا: أَتَوُا العَرَبَ؛ وَتَغَرَّبَ: أَتَى من قِبَلِ العَرَبِ... وَعَرَبَ أَي بَعَدَ؛ ويقال: اغْرُبْ عني أَي تَبَاعَدْ... التَّغْرِيبُ: النْفِيُّ عن البلد الذي وَقَعَتِ الجِنَايَةُ فيه...،" (١) وفي القاموس المحيط: "الغَرْبُ: المَغْرِبُ، والذَّهَابُ، والتَّنْحِي، وأوَّلُ الشَّيْءِ، وَحَدَّةٌ... (٢) وفي مقاييس اللغة "فالغَرْبُ حَدُّ الشَّيْءِ. يقال: هذا عَرَبُ السَّيْفِ." (٣)

وفي معجم روبر Robert: يفيد لفظ "Occidens" في اللغة اللاتينية شيئاً يسقط أرضاً، والنقطة التي تغرب فيها الشمس، ومنه اشتق اللفظ الفرنسي "Occident" الذي حُصر في مكان غروب نجم ما. وابتداء من القرن السادس عشر -١٥٧٥م- أصبح لفظ الغرب يعني جميع الجزء الغربي من الأرض، وفي المرحلة الكلاسيكية أطلقت الإمبراطورية الغربية على الإمبراطورية الرومانية القديمة والإمبراطورية

(١) ابن منظور، أبو الفضل محمّد بن مكرم الإفريقي. لسان العرب، بيروت: دار الجليل، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، مادة: (غ رب).

(٢) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، مادة: (غ رب).

(٣) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ط ٢، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، مادة: (غ رب).

الألمانية الحديثة، وعُرِّفَ الغرب على أنه الجزء الغربي من القارة الأوروبية متضمناً للشعوب التي تسكنه الإسبان، الفرنسيون والإيطاليون، وفي ١٩٥٢م أضيف العالم الجديد أمريكا إلى الغرب، وأصبحت الكلمة تدل على الدول الأعضاء في منظمة حلف الشمال الأطلسي. N.A.T.O. (١)

وفي معجم لاروس Larousse: لكلمة "الغرب" عدة دلالات: فهي تعني مكان الغروب "جانب من الأفق حيث تغرب الشمس"، و"جزء من النصف الشمالي للكرة الأرضية حيث تغرب الشمس"، مثلما تطلق على "جميع سكان أوروبا الغربية، وحضارة الشعوب التي تعيش فيها"، أو "مجموع بلدان حلف الشمال الأطلسي في مقابل دول شرق أوروبا ودول آسيا". (٢)

هذه الدلالات اللغوية لا توافق مفهوم "الغرب" كما هو متداول في الكتابات الفكرية المعاصرة، ولا توافق ما نرومه في هذا البحث، فمفهوم "الغرب" اليوم بوصفه واقعاً معاصراً لا تحمله المعاجم اللغوية والاصطلاحية، لكونها تقتصر على الدلالات الجغرافية والاجتماعية المتداولة في الماضي، ونحن نقصد الغرب المعاصر لنا اليوم بوصفه نظاماً معرفياً تتداخل فيه العقيدة والفكر والثقافة بالفلسفة والقانون والجغرافيا. وهو مفهوم تطور بشكل ملحوظ تبعاً لتغير موازين القوى في العالم، وتبدُّل النماذج الحضارية، فقد كان يطلق لفظ "الغرب" قديماً على أهل المغرب والأندلس، وكان الشرق يطلق على الصين والهند، ثم تلاشى هذا التحديد ليصبح مصطلح الغرب يطلق على أمريكا في مقابل الاتحاد السوفييتي، ثم نُجُووز من جديد ليُطلق على أوروبا وأمريكا معاً، ثم هما معاً وروسيا واليابان حيث أضيفت اليابان إلى الغرب، وهي تقع في أقصى الشرق.

---

(1) Rey, Alain (direction). *Le Robert Dictionnaire Historique de la langue Française*, Paris: Dictionnaires le robert, 2000, p. 2425.

(2) Guilbert, Louis. et Lagane, René, et Niobey, Georges. *Grand Larousse de la langue française*, Paris: Librairie Larousse, 1976, p. 3726.

لقد تشكل الغرب، إذن، بصورة تدريجية تراكمية عبر قرون، إلى أن وصل إلى الشكل الذي هو عليه الآن، فهناك من يعدّ أن تشكله الحديث انطلق سنة ١٤٩٢م،<sup>(١)</sup> وهي سنة اكتشاف أمريكا وخروج المسلمين واليهود من إسبانيا، وهناك من يعزي تشكله المعاصر إلى نهاية الحرب "العالمية" الثانية سنة ١٩٤٥م، وتعزز بتضامن أوروبا مع أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، مثلما أن انخراط أوروبا مع أمريكا في حربها على أفغانستان والعراق سمح بظهور "الغرب" بوصفه نموذجاً شبه موحد استراتيجياً وفكرياً وعاطفياً، يتجاوز حدود أوروبا وأمريكا والتقابلات التقليدية المتجاوزة اليوم،<sup>(٢)</sup> ليرتبط بنموذج حضاري وثقافي يحتزن مرجعية متكاملة تحمل دلالات دينية وفلسفية ومعرفية وسياسية واجتماعية، تتصافر لتحديد ماهية "الغرب" المعاصر في ذاته ومن خلال تفاعله مع ذوات وقيم أخرى تختلف معه ثقافياً وحضارياً، ومنها الذات والقيم الحضارية الإسلامية العربية.

لقد انتقل المفهوم من معناه الجغرافي إلى معنى ثقافي وإيديولوجي جديد، غير مرتبط بمنطقة جغرافية معينة كما كان عليه الحال في السابق، "وإن كان لم يمثل أبداً للمعنى الجغرافي الذي يوحي به، فقد راهن منذ البدء على المقاصد الثقافية والسياسية والدينية، ومن ثم أثبت مجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية والدينية على أنها ركائز قارة، تشكل أسس هويته."<sup>(٣)</sup>

لكن الغرب، وإن كان منظومة متكاملة متداخلة، فلا يصح التعامل معه باعتباره كتلة صماء، فبداخله تتعدد القيم وتختلف الأحكام وتتباين المواقف، فالغرب "ليس هو كل

---

(١) بسيس، صوفي. الغرب والآخرين: تاريخ تفوق، باريس: منشورات لاديكوفارت، ٢٠٠٣م.

(٢) التقابل بين الغرب والشرق تقابل متغير، فقد كان بين الأرثوذكسي/الشرقي، والكاثوليكي/الغربي، ثم بين الشيوعية/الشرق، والرأسمالية/الغرب، أميركا/الغرب، والهند والصين، وما وراء السند/الشرق. ونظرة الانفصال بين الشرق والغرب كانت أيضاً داخل الكنيسة المسيحية -أي في الدين الواحد- بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية، ثم أصبحت بين البروتستانت والكاثوليك.

(٣) إبراهيم، عبد الله. المركزية الغربية، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠م.

العالم ولا كل العصر... إن الغرب ليس شراً كله ولا ضللاً، فكم فيه من علم نافع، وكم فيه من عمل صالح، وكم فيه من خُلق كريم، وكم فيه من إنجازات هائلة، وإمكانات ضخمة، يمكن توظيفها لصالح الإنسان، كل إنسان،<sup>(١)</sup> ألم نجد كثيراً من فلاسفة الغرب وعلمائه ومفكره يعارضون الحرب، والتحيز والتمركز، والظلم والاحتلال والاستكبار مثل إيمانويل كانط، إلى جانب من يدعو إلى إشعال الحروب مثل توماس مالتوس؟<sup>(٢)</sup> فعدد غير قليل من المفكرين المعاصرين الذين يقاومون الفكرة الاستعمارية الاحتلالية، مثل: نعوم تشومسكي،<sup>(٣)</sup> بل لا يتردد في أن ينتقد سياسات الغرب العولمية الاستحواذية، وخرق بعض الدول الكبرى للقانون الدولي، واستعمال حق النقض "الفيتو" الظالم لتوجيه السياسات الدولية، وإكراه الشعوب على السير في ركابها. وإذا كان لا يصح أن نسحب حكم الجزء على الكل، فإن الحكم يُبنى على الغالب، والغالب في الغرب عموماً أنه محكوم بمرجعية دينية وفلسفية معينة، وبخصوصية فكرية وحضارية تميزه عن غيره.<sup>(٤)</sup>

### ثالثاً: علاقة المسلمين بالغرب: من المعترك إلى المشترك

المسلمون والغرب كتلتان حضاريتان مختلفتان تنوعت العلاقة بينهما من الخصام إلى الصراع، ومن التفاهم إلى التعاون والعطاء المتبادل، وقع بينهما التناكر والتحارب مثلما وقع التعارف والتآلف، لكن دون أن يختفي المشترك المعلن منه والمضمّر بين الطرفين، انطلق الحوار بالاتصال والتبادل والتنافس، واستمر في صور متعددة

(١) القرضاوي، يوسف. الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٩٠.

(٢) توماس، روبرت مالتوس (Malthus R.Thomas) (١٧٦٦-١٨٣٤) باحث سكاني ومفكر اقتصادي وسياسي إنجليزي.

(٣) أفرام، نعوم تشومسكي (Avram Noam Chomsky) فيلسوف وعالم لسانيات ومؤرخ وناقد وناشط سياسي أمريكي، ولد سنة ١٩٢٨م.

(٤) الفاروقي، إسماعيل راجي. "نحن والغرب"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٣)، العدد (١١)، (رمضان ١٣٩٧هـ/ سبتمبر ١٩٧٧م).

ومتباينة تبعاً لموازن القوى وتداول الأيام. لكن لم تبرز العلاقة مع الغرب بمعناه المعاصر إلا بعد الاحتكاك العسكري والثقافي في القرن التاسع عشر نتيجة الصدمة التي أحدثها الاتصال بالغرب الصناعي والمسلح والمنظم؛ إذ عُرف الغرب بوجهين متناقضين: وجه الديمقراطية والتقنية والرفاهية، ووجه الاحتلال والهيمنة والامبريالية، كما عُرف المسلمون بوجهين أيضاً: وجه الموقع الاستراتيجي المغربي، ووجه عدو منافس "منافسة العبد للسيد، إذا تمرد انهارت السيادة."<sup>(١)</sup>

لذلك، نسارع إلى تأكيد حقيقة مفادها أن تجاوز الأزمات الراهنة والتصورات السلبية السائدة بين المسلمين والغرب، يتطلب فتح باب "النقد المزدوج" للمسلمين والغرب على حد سواء، وذلك بنقد الأطروحات التاريخية التي تتعارض مع الأسس المشتركة لبناء حضارة بديلة تتوافق والطور الذي تعيشه الإنسانية اليوم وتستشرفه غداً، مع استثمار القواسم المشتركة في الدين والعلم وال عمران والبيئة، والمقومات الجامعة في القيم الروحية والمادية، والرهان على خطاب التقريب والاشترك، ونبذ خطاب التفرقة والصدام.

وغير خافٍ على أحدٍ، أن تناول موضوع يهم الحوار الديني والثقافي بين المسلمين والغرب يقتضي اللقاء بين المتحاورين، فعلى أي أساس يتم هذا اللقاء؟ وكيف يحصل تجاوز تلك الرؤى التقليدية القائمة على الصراع والحقد والكراهية إلى رؤية استيعابية تعترف بالآخر وتتعارف معه، وتحقق الدماء وتنشر السلام، وتضع حداً للصراعات السوداء التي تنزل الأنعام منزلة الأنعام؟ فكيف يتحقق النموذج التعارفي الذي ينص عليه الوحي الكريم في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي الحديث: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف؟"<sup>(٢)</sup> ومتى يتم

(١) الجابري، محمد عابد. "الغرب والإسلام"، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد (٣)، ١٩٩٧م، ص ١٤.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط ٣، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة، ج ٣، ص ١٢١٣، حديث رقم: (٣١٥٨).

الكف عن ترديد مقولات التقابل<sup>(١)</sup> التقليدي الموروث بين "شرق" و"غرب" والقطع مع "الولع بالثنائيات المتناقضة، أو خلق التناقض حيث لا يوجد إلا التكامل والتواكب؟"<sup>(٢)</sup> كيف نتخطى عند الجانبين التصورات الانغلاقية التي تطري الذات، وتتهم الغير؟ فمن جهة المسلمين كيف يرقى خطابهم من التقسيم المتجاوز للعالم بين "دار الإسلام" و"دار الحرب"، أو "دار الهدنة" و"دار الأمان"، لينظروا إلى العالمين كمخاطبين معنيين بإقامة التعارف والتعاون معهم على أسس المشترك الإنساني الذي يمحو الثنائيات الضدية، ويثبت الأزواج التكاملية؟ ومن جهة الغرب كيف ينتبه إلى ضرورة إقامة هذا المشترك بين كيانين أثقلتها جراح الماضي ونُدوب الحاضر وتخوفات المستقبل، ويتجاوز الذهنية الخصامية بين الشرق والغرب، وبين المسيحية والإسلام؟

#### رابعاً: "المشترك" بين المسلمين والغرب

يعود مصطلح المشترك في اللغة العربية إلى الجذر "شرك" ومنه "الشركة والمشاركة: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً؛ عيناً كان ذلك الشيء، أو معنىً، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية، ومشاركة فرس وفرس في الكُمْتَةِ، والدُّهْمَةِ، يقال: شَرِكْتُهُ، وشاركتُهُ، وتشاركوا، واشتركوا... وجمع الشريك شركاء،"<sup>(٣)</sup> وفي الحديث: "المسلمون شركاء في ثلاث في الماء والكلاء والنار وثمنه حرام،"<sup>(٤)</sup> والمعنى نفسه يحمله مصطلح Common في المعاجم الإنجليزية (أو كسفورد مثلاً)، فهو يدل على ما يشترك فيه بعض الناس مثل "الأرض المشاعة" و"السياسة الزراعية المشتركة" و"التاريخ المشترك" و"العامل المشترك."<sup>(٥)</sup> فالناس شركاء مع بعضهم في الحلقة

(١) الفاسي، علال. نداء القاهرة، الرباط: مطبعة الرسالة، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٥١.

(٢) غليون، برهان. وأمين، سمير. حوار الدولة والدين، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٦م، ص١٠٦.

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن محمد بن الفضل. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٤، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، كتاب: الشين، ص٤٥١-٤٥٢.

(٤) القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د.ت.)، كتاب: الرهون، باب: المسلمون شركاء في ثلاث، ج٢، ص٨٢٦، حديث رقم: (٢٤٧٢).

(5) Simpson, John. and Weiner, Edmund (Editors). *The Oxford English Dictionary*, Oxford:

Claerdon Press, Second Edition, 1991.



الآدمية والأرض والفطرة والدين والعقل... جميعهم أوتوا هذه الآيات والأعطيات ابتداءً بوصفهم ينتمون إلى الإنسانية المشتركة قبل تمايز الثقافات بين الأمم والشعوب. غير أن هذا المعنى اللغوي والتاريخي الذي يحمله اللفظ المشترك وإن كان أصيلاً فقد تطور واتخذ في الكتابات المعاصرة دلالة عُرْفية جديدة، تحيل على ما تشترك فيه الإنسانية اليوم، وهو ما نحاول بيانه فيما يأتي.

لا شك في أن الحياة في عالم يسوده التعارف والتبادل والحوار تقتضي التخلي عن تلك النظرة الصدامية والصراعية التي تقسم العالم إلى كيانات عدائية متكارهة،<sup>(1)</sup> والافتناع بضرورة العمل بمنطق المشترك الإنساني الذي يراعي القواسم الكبرى التي يتفق حولها الجميع، والتي تتضمن المقاصد الكلية والقيم الأخلاقية الجامعة. ولما كان درء المفاسد مقدم على جلب المصالح فواجب أن ننتصر لفقه المشترك درئاً لمفاسد التركيز على المختلف وضماناً لتحقيق المصالح والغايات المشتركة. فيكون مبدأ المشترك الإنساني هو القاعدة التي تستند إليها كل محاولة جادة في تحقيق التقريب بين الأمم، على نقيض ما انتشر في العقدين الأخيرين من مقولات تذكى الصراع والمواجهة والعداء، وتحرض على الكراهية والصدام والانتقام.

نحن مدعوون إذاً إلى التأصيل لنظرية تستوعب القضايا العالمية الكبرى المطروحة اليوم من قبيل: فلسفة الدين، حقوق الإنسان والعنف، المعرفة والأخلاق، العالمية والعمولة، الكونية والخصوصية، مشكلات البيئة، السلم والحرب، الأزمة الغذائية... هذه النظرية مدعوة إلى أن تقدم إمكانات عليا على مستوى التأصيل وعلى مستوى التععيد وعلى مستوى التفعيل، وعلى مستوى القيم والأفكار، وعلى مستوى السُنن والقوانين الكونية، ليتجدد النظر في جملة من القضايا التي تهَمُّ الجميع، قصد تحقيق عمرانٍ مشترك؛ تعارفيٍ إصلاحِي، دون الوقوع في الذوبان أو التنميط أو العمولة، بل يحفظ الخصوصية والاختلاف في إطار ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(1) Juergensmeyer, Mark. *The New Cold War? Religious Nationalism Confronts the Secular State*, Berkeley: University of California Press, 1993.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ  
بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].

إن الوعي بـ"المشترك الإنساني" هو السبيل الوحيد في نظرنا لبناء ثقافة عالمية جديدة تمكن من التخلص من الأفكار الميتة المنقولة من الماضي دون تجديد، والحماية من الأفكار القاتلة -بتعبير مالك بن نبي- المستوردة دون تمحيص، ف"بإمكان الشعوب أن تؤسس ثقافة عالمية هي جماع ثقافات مختلفة لها أراضٍ محررة تقف عليها، وقنوات وجسور تواصل وتفاعل وحوار تلتقي عبرها على المبادئ والقيم والمصالح المشتركة".<sup>(١)</sup> فالمشترك الإنساني مُعطى أصلي وضرورة حضارية آنية ومستقبلية، والإعراض عنه ينشئ واقع الصراع والكرهية، وهذا يؤدي إلى الوقوع في آفات الاستبداد والاستفساد، والاستكبار والاستضعاف. على خلاف المشترك فهو يقوم على التعارف والتعاون والتعايش والتنافس الراشد. ذلك أن "ما هو مشترك إنساني عام لا يختص بحضارة بذاتها، أو قومية بعينها، أو أهل ديانة دون غيرها... فهو كالماء والهواء، تحتاجه كل نفس، وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين".<sup>(٢)</sup>

نحاول في هذا الكتاب، رسم المعالم العامة أو قُلُّ المداخل الأساس لـ"نظرية المشترك الإنساني" ونبحث في مدامكها الكبرى المبنية على جملة من الأصول والمبادئ، هي بمنزلة ركائز أساس لبناء حضارة المشترك على مستوى إنساني عالمي يستوعب الخصوصيات الدينية والجغرافية والتاريخية والعرقية في إطار الكليات المنهجية الجامعة، وفي كل مدخل من هذه المداخل يشترك المسلمون والغرب في أصول وقواعد جامعة، وقيم مشتركة يستبعد وقوع التنازع بصددتها، فالمشتركات الكبرى في نظرنا محط توافق فطري وديني وقيمي.

(١) شبار، سعيد. "الثقافة والعولمة؛ قراءة في جدل المحلي والكوني أو ظاهرة الثقاف"، مجلة الإحياء، العدد (٢٥)، (٢٠٠٧هـ/٢٠٠٧م)، ص ١٦٣.

(٢) عمارة، محمد. الغزو الفكري؛ وهم أم حقيقة؟، القاهرة: مطابع روز اليوسف، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٥.

يُبنى المشترك، إذن، على الوحدة التوحيدية الاضطرارية؛ "لا إله إلا الله" التي تثبت الطابع المفارق المتعالي للذات الإلهية في معالجة كينونة هذا الكائن المشترك -الإنسان- وقضاياها الكلية الكبرى، وهو الذي خلقه الله من نفس واحدة، نفخ فيها من روحه، ثم يسر له السعي لإقامة العمران البشري قصد إسعاد البشرية، وهذا هو الخير الذي يسعى إليه الصالحون في الأرض مذ خُلق الإنسان ودبَّ على وجهها، "لأن الخير أصل العالم، والشر تبعي، ولأن الخير كُلِّي، والشر جزئي، لذلك لا بُدَّ من انتصار قوة الخير على قوة الشر"،<sup>(١)</sup> ولعل هذا هو ما يقصده هانس كينغ بقوله: "هناك قناعة لوحدة أساسية للأسرة الإنسانية وللمساواة ولقيمة كل البشر، هناك شعور بعدم المس بالفرد وضميره، هناك شعور بقيمة المجتمع الإنساني، هناك إقرار بأن القدرة لا تتوافق مع الحق، وبأن القدرة الإنسانية لا يمكنها أن تكفي ذاتها، وأنها ليست مطلقة، أن الإيمان والحب والرأفة والترفع وقوة الروح والصدق هي كلها في النهاية أقوى من الحقد والضغينة والأنانية، هناك شعور بواجبنا أن نكون إلى جانب الفقراء والمظلومين ضد الأغنياء والظالمين، هناك أمل عميق بأن الإرادة الطيبة في آخر الأمر ستنتصر"،<sup>(٢)</sup> هذه الإرادة الطيبة مفتاح لكل خير يعم الإنسانية.

وقد أثبتت التجارب والدراسات أن جميع الحضارات احتاجت غيرها للتفاعل معه في قيامها وانتشارها واستمرارها، وسنة التعدد مرتبطة بسنة الاختلاف، وسنة الاختلاف مرتبطة بسنة العمل الجماعي، وسنة العمل الجماعي مرتبطة بسنة التعاون، وسنة التعاون لا قيام لها من غير "الغير"، ولا علاقة إيجابية مع الغير إلا بالتأسيس لفضاء المشترك واستثماره وتوسيعه؛ إذ الأصل في المشترك هو الاعتراف والتعارف، لذلك كان التعارف عنوان الرشد في العلاقات الإنسانية، مثلما كان التناكر عنوان الظلم. ولا يتحقق هذا إلا برؤية شاملة لخالق الإنسان والحياة والكون، له الخلق وله

(١) النورسي، بديع الزمان سعيد. صيقل الإسلام «محاکمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة»، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، القاهرة: دار سوزلر للنشر، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٣.

(٢) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.



الجزئيات والتفاصيل التي لا تبني، وإنما تزين أو تشين.

إن المسلمين اليوم في حاجة إلى اكتشاف المنهاج القرآني النبوي من أجل الإسهام في إقامة دعائم حضارة عالمية يشتركون فيها مع غيرهم اشتراك كليات إنسانية جامعة، تعنى ببعث إنسانية الإنسان وإنهاضه ليشارك في بناء العمران الإنساني البديل الذي تُقَلِّص فيه الخلفيات العنصرية والطبقية والإقليمية والقومية، وتسود فيه قيم التعاون، والتكامل، والتضامن، والحوار، والتناصر الإنساني. و"انخراط الثقافة الإسلامية في القضايا الكونية والإنسانية المشتركة بإمكانه أن يؤدي دوراً مهماً في تحريرها من التحيزات المختلفة، خاصة إذا اصطحبت في هذا الانخراط نفساً إصلاحياً تجديدياً ذاتياً... انطلاقاً من الأصول الكلية المستوعبة التوحيد، والعدل، والحرية. واستشعاراً بالقدرة على العطاء في الأفق العالمي، لافتقاره إلى ما نملك ولا يملكه. كافتقارنا في حالة الضعف إلى ما يملك ولا يملكه."<sup>(١)</sup>

وهذا يتطلب من المسلمين التزود بضوابط المنهاج القرآني النبوي في قراءة الذات التاريخية والحاضرة من جهة، وفي قراءة التراث الإنساني من جهة ثانية، وبلورة فقه جامع ينطلق من الواقع المتدني الذي تعيشه الإنسانية اليوم، ويبحث سبل النهوض به إلى الواقع المأمول. وهذا يستدعي ضرورة الانطلاق من الذات لتجديد أصول قوتها وصقل عناصر نهضتها، والتخلي عن تلك النظرة التراثية المنغلقة، والانفتاح على الآخر والإنصات له واستيعاب عناصر قوته، ليصحح كل طرف تلك الصورة السائدة اليوم بسوادها وقتامتها، ويوقن بأننا "جيران في عالم واحد" ولا استقرار ولا سعادة إلا في إطار استقرار وسعادة الإنسانية جمعاء.<sup>(٢)</sup>

---

= العالمية للكتاب، ط١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص١٤٦.

(١) شبار، سعيد. "من مظاهر التحيز في العلوم الإسلامية"، مجلة الإحياء، العدد (٢٩)، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص١٠٣.

(٢) زقزوق، محمود حمدي. "إعادة الثقة بين العالم الإسلامي والغرب"، مجلة الإسلام اليوم، العدد (٢٢)، ٢٠٠٥م، ص٣٩.

## خامساً: لماذا المرجعية القرآنية في التأسيس للمشترك الإنساني؟

من أجل بناء مشترك إنساني يستوعب الجميع، يُطرح سؤال المرجعية الكونية بحدة وعلى الشكل الآتي: أية مرجعية كونية تستند إليها نظرية المشترك الإنساني في إقامة العمران البشري الأخوي؟

يمكننا أن نميز بخصوص موضوع اشتغالنا بين مرجعيتين متباينتين؛ مرجعية واحدة مُضَيِّقَة ومرجعية توحيدية مُوسَّعة، الأولى أحادية متحيزة ومتمركزة حول ذاتها، وهي المرجعية المادية الغربية، والثانية عالمية ومنفتحة ومستوعبة، وهي المرجعية القرآنية. لذلك سنحاول اتخاذ المرجعية التوحيدية التي تعبّر عن الفطرة الإنسانية السوية أساساً، لنقد ومراجعة وتجاوز قصور المرجعية المادية التي تستند إليها الحضارة المعاصرة، من أجل القدرة على إنتاج نظرية معرفية لها من الإمكانيات ما يؤهلها لمخاطبة الإنسان خطاباً متخلصاً من النظرة الضيقة التي تفرضها الرؤية الوضعية على العالم بسلطانها العلمي والاقتصادي والإعلامي، ومن النظرة التراثية التقليدية الجامدة التي تحولت بفعل عامل الزمن وسلطان التقليد إلى أصل يقاس عليه.

نروم التأسيس للمشترك الإنساني انطلاقاً من المرجعية القرآنية، بناء على كونها مرجعية جامعة لجملة من الإمكانيات المنهجية والمعرفية التي تحتضن استنباط النظرية وبنائها:

### ١ - إمكانيات دينية:

تتأسس المرجعية القرآنية على القرآن الكريم وهو وحيٌّ مُصَدِّقٌ ومُتَمِّمٌ ومكَمِّلٌ للوحي السابق عليه وللمعرفة البشرية قديمها وحديثها، فأصول العقائد الدينية واحدة، وأظهر الله القرآن على الدين كله بالهيمنة والتصديق وليس بالإنكار والإلغاء، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، ومن ثمّ فالمرجعية القرآنية تحفظ المشترك الديني وتؤسس له عبر خطابٍ يعترف

بالآخر المخالف دينياً، ويمد له يد التعاون والتآخي، وهذا ما يتيح لأتباع جميع الرسائل السماوية أن تتعاون في بناء المشترك الإنساني، وحفظ التنوع الطبيعي والثقافي "لينهضوا جميعاً بأمانة أداء مهمة الاستخلاف في الأرض، وليكون التنوع مصدراً لبعث روح التنافس بينهم، في ميادين الإبداع والارتقاء الحضاري، وليحول دون تعطيل أو تخلف أسباب الأداء والإبداع والارتقاء في ميادين عمارة الأرض... وليكون هذا التنوع كذلك سبباً لقيام قاعدة الحاجة والضرورة بين الناس والمجتمعات، فلا يستطيع أحد أفراداً ومجتمعات الاستغناء عن أحد، ولتقوم من بعد الحاجة بينهم حياة مشتركة، يسوسها نظام عالمي مشترك." (١)

يشترك القرآن مع الكتب السابقة في الكليات الاعتقادية الكبرى التي على أساسها تبنى المواقف والأفكار وتنظم العلاقات، فالقيم القرآنية قيم عالمية جامعة، تصون حرية المعتقد والفكر والرأي. ومن الجوامع المشتركة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما ورد في الآيات الآتية: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَفَقِينَا عَلَىٰ مَا نَرَاهُمْ يَعْسَىٰ أَيْنَ مَرْيَمَ مَصِدًّا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۗ وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦]. وهذا الأساس المشترك من "الهدى والنور" يشكل إطاراً ومرجعاً دينياً للتفكير في المشترك وبناء حضارته. وإقامة المشترك مع أهل الكتاب لا يمنع من البناء المشترك مع أهل الأرض قاطبة على الأسس الفلسفية الكبرى التي تحملها المقاصد الكلية للدين، و"شيئاً فشيئاً يدرك عقلاء العالم، من مختلف الحضارات، وتدرك فطرة الجماهير حاجة العمران البشري إلى العامل الديني، وإلى النظرة المؤمنة والمعايير الدينية." (٢)

(١) الرفاعي، حامد بن أحمد. "الوسطية مرتكز لحوار الثقافات لتحقيق المشترك الإنساني"، الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، كتاب المنتدى (١)، عمان: منتدى الفكر العربي، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ٨٢.

(٢) عمارة، محمد. الإسلام والسياسة، القاهرة: دار السلام، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٢٦.

## ٢- إمكانات إنسانية:

القرآن كتاب العالم بلا تحيزٍ جغرافي، وكتاب الإنسان بلا تحيزٍ قومي، وكتاب الحياة بلا تحيزٍ زمني، يخاطب الإنسان في وجوده ومعرفته وقيمه، فخطابه عالميٌّ وحضارته عالمية؛ حضارة الرحمة والتراحم والمرحمة، حضارة العدل والحرية والسلام، حضارة التعارف والتعايش والعمران، والجميع منتمٍ لأمة الإنسانية، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. إن الخطاب القرآني موجه إلى الذات الإنسانية أئى كانت، إلى كل فردٍ وكل جماعة، "فإذا جعلنا في بؤرة وعينا أن خطاب القرآن الكريم إنما هو بكل بساطة تعبير عن الفطرة الإنسانية السوية الغائية الإعمارية الأخلاقية، وعن سنن الفطرة والكون من حولها، والتي ليست هي إلا حقائق الخلق وجوهره، والتي جاء الوحي... لا ليتجاوزها، أو ليتنكر لها، أو ليغيرها، وإنما جاء لكي يجعل جوهر هذه الفطرة السوية الإنسانية والسنن الكونية في بؤرة وعي الإنسان، وفي بؤرة إدراكه، وذلك لكي يرشُد فطرة الإنسان، ويهدي مسيرته في سعيه لتحقيق ذاته وفطرته الانسانية الروحية السوية، والاستجابة لحاجات فطرة خلقه ونوازعه التسخيرية الإعمارية الحضارية."<sup>(١)</sup>

## ٣- إمكانات واقعية:

أثبت القرآن الكريم قضية الخلق من النشأة الأولى إلى أن أصبح الناس قبائل وشعوباً وأمماً، أنزلت عليهم الكتب وأرسلت إليهم الرسل، ليتحقق ميزان العدل في الحياة، ويقوم الناس بالقسط، إخوة في الإنسانية، لا فضل لعرقٍ على عرقٍ أو لسانٍ على لسان. وبَيَّن السنن الكلية التي ينتظم وفقها الكون والتاريخ والواقع، والغاية من الخلق والمصير الحتمي للكون، وحث الإنسان على الاعتبار من كل مظاهر الخلق المختلفة، والتفكر في آلاء الله المنتظمة، مع التدبر في آيات الله المنزلة، والتبصر في

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص٣٤-٣٥.



الأنفس، ف"الآيات المخلوقة والمتلوة، فيها تبصرة وفيها تذكرة: تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة،"<sup>(١)</sup> تدعوه إلى معرفة خالقه والوعي بمخلوقيته، وإحسان العلاقة مع بني جنسه ومع الخلق أجمعين. ووصف القرآن للإنسان مسيرة الوجود والسعي في الدنيا إلى الخلود في الآخرة، وعلمه منهجاً نقدياً، لتصحيح المعارف المتوارثة عبر سلطة الآباء ومراجعتها. وأنهضه إلى العمل والإصلاح والكدح، كما نهاه عن العجز والكسل والخمول. وحمله مسؤولية اختياراته وتبعاتها على ذاته وعلى غيره، فهو مسؤول عن نفسه ومسؤول أيضاً عن غيره من حيث تأثيره فيه واقتداؤه به، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

#### ٤ - إمكانات حوارية تواصلية:

بنية النص في القرآن الكريم بنية حوارية تفاعلية إقناعية، تحرص على التواصل مع الآخر والاشترك معه، والاقتراب منه، واستثمار المشترك الجامع معه، والإنسان مخاطب بنداء القرآن ليسمعه، سواء اتبع الحق واهتدى به أو بقي في دائرة الاستماع والتعرف والحوار. لذلك تكثر عبارات: قال، قالوا، قلنا، يقولون، قل لهم، قيل لهم، يا أيها الناس،... مما يبين حوارية لغة القرآن التي أوردت مادة "قال"، وهي تفيد قيمة التحاور والمجادلة والمناقشة والمراجعة والمجاوبة بين الناس، أكثر من ألف وسبعمائة مرة.

يؤكد القرآن الكريم على مبدأ "الكلمة السواء" بوصفه أساساً للحوار المتكافئ الذي يسوي بين المتحاورين، ولا تُحْضَرُ فيه صيغة الغالب والمغلوب، والمستكبر والمستضعف، والقاهر والخاضع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فكانت تلك الكلمة الجامعة أرضية فكرية وأخلاقية سلوكية، لتنظيم الاختلاف وبناء المشترك؛ مما يعني أن الحوار قضية عقدية من صميم

(١) ابن تيمية الحزاني، أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى، الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، (١٤١٢هـ / ١٩٩١م)، ج٧، ص٢٣٦.

دعوة القرآن، وتؤكد مقصد التوحيد الذي جاءت الرسائل الإلهية بالدعوة إلى استيعابه والعمل وفق مقتضياته، والكلمة السواء ليست "سواء ذاتية" متحيزة لجهة ما استعلاء واستكباراً وأنانية، وإنما هي "سواء بينية" بين ذاتين أو أكثر، وسط مشترك بين طرفين مختلفين؛ نحن وإياكم... نتداعى إليها جميعاً لنشيد على أساسها بناء مشتركاً جامعاً، لا عبودية فيه إلا للخالق، ولا اعتداء فيه على المخلوق.

والدعوة إلى الكلمة السواء، "المؤسّسة على الوحدانية، والمسدّدة في الحياة الإنسانية بالمساواة وعدم الترتّب"،<sup>(١)</sup> دعوة لمراعاة المقاصد الكبرى التي نصت الشرائع السماوية على حفظها إن وُجدت، وعلى المطالبة بها إن غابت. وبهذا تكون الكلمة السواء، هي الأصل الجامع، والأساس المشترك الذي يحسم كثيراً من نقط الخلاف، وبهذا تتبين ضرورة التجاوب مع القضايا المرتبطة بالكلمة السواء، مهما تعددت وجوه عرضها. والدعوة بالتي هي أحسن إلى هذه الكلمة تتعارض مع الدعوات التي لا ترى في الوجود سوى ثنائيات جدلية، من قبيل: جدلية السيد والعبد الهيجلية؛ إذ لا يمكن أن تكون "التي هي أحسن" نفيّاً وظلماً وسخرية واستهزاء وعنصرية وعنفاً.

## ٥- إمكانات الوسطية:

الوسطية خصيصة من خصائص القرآن الكريم وأمر من الأوامر الإلهية الكلية، ومفهوم يحكم الفكر والسلوك، فالإنسان روح وبدن، عقل وقلب، "لا يعيش تناقضاً داخلياً بين روحه وجسده، بين القيم الدينية ومتطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فعدم وجود قطيعة بين الدين والدنيا، بين الدنيا والآخرة، ينتج عنه من الناحية الفلسفية أن النمط الفكري المستخرج من الإسلام ينفر من الثنائية، ولا يمكن أن يدرج في إطار الثنائية، ولا يمكن أن يدرج في إطار المثالية أو المادية... فالوسطية

---

(١) السالمي، عبد الله بن محمد. "الإيمان والعمل الصالح؛ رؤية مفتوحة لعالم جديد"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ٣٦٩.

هي الأرضية الفكرية والمنهجية للمفاهيم الإسلامية." (١)

ومن معاني الوسطية الالتزام بالفضيلة التي هي توسط بين رذيلتين أو بين طرفين مذمومين، كالجود الذي هو توسط بين البخل والإسراف، والشجاعة التي هي وسط بين الجبن والتهور، ومن معانيها أيضاً العدل والقسط والإنصاف في التعامل مع الآخر، كيفما كان، وعدم الظلم على أي حال، وضد كل أنواع التطرف والغلو، والتشدد، والتنطع، والتعصب الفكري والإيديولوجي والفلسفي والديني وغيره، ففي الحديث: "الظلم ظلمات يوم القيامة." (٢)

الوسطية وصفٌ للأمة القرآنية الشاهدة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهي التي عبر عنها الحديث النبوي: "إن الدين يُسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة،" (٣) فالوسطية تيسر وتسديد وتقريب وتبشير واختيار أعدل المواقف والأوقات، كما أن من معاني الوسطية الجمع في الرؤية بين موضوع الإنسان وموضوع الكون، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وبين الذات والآخر، وبين الحاضر والمستقبل، فيكون الإنسان بمنهج الوسطية "محور حركة الخلائق في أداء مهمة عمارة الأرض، وإقامة الحياة الآمنة في ربوعها... وتبقى قدسية حياة الإنسان وكرامته، وسلامة البيئة، والعدل، والتنمية الراشدة، هي المعايير التي يحتكم إليها في صحة الأداء الحضاري في الأرض وسلامته." (٤)

---

(١) عمارة، محمد. معالم المنهج الإسلامي، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٥١.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة، ج٢، ص٨٦٤، حديث رقم: (٢٣١٥).

(٣) المرجع السابق، كتاب: الإيذان، باب: الدين يُسر، ج١، ص٢٣، حديث رقم: (٣٩).

(٤) الرفاعي، "الوسطية مرتكز حوار الثقافات لتحقيق المشترك الإنساني"، مرجع سابق، ص٧٩.

## ٦ - إمكانات استيعابية ومنفتحة:

تستوعب المرجعية القرآنية الأديان السابقة وحكمة الأمم الماضية، وتفتح على جميع التجارب المفيدة في الأجيال الحالية والمستقبلية، علمياً وتربوياً واقتصادياً واجتماعياً وسياساً. والقرآن كتاب مكنون، وهو يتكشف عبر العصور عن كنوزه اللامتناهية، ليستوعب مشكلات وقضايا العصور كلها، وبحسب سقوفها المعرفية وعلى اختلاف أنساقها الثقافية والحضارية، فهو مستوعب لما بين يديه من الكتب والأنساق المعرفية ومنفتح عليها في الوقت نفسه، فقد استوعب تراث النبوات كلها، وختم الرسائل السابقة وهيمن على الكتب المنزلة مصداقاً لها، وهو منفتح لكل جيل ليُحرز حظه من مَعينه الذي لا ينضب وكنوزه التي لا تنفذ.

والسبيل الوحيد للاستيعاب الذي لا ينتهي من هذا المعين هو التلاوة والتدبر والتفكير والاستبصار والاجتهاد، بمنهاجية قرآنية تراعي السياق التاريخي والحضاري والعمراني والبيئي والثقافي للإنسانية، والمنهاج القرآني هو منهاج الهدى ودين الحق، الموافق لفطرة الإنسان ورشد عقله، من غير تكلف ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ [ص: ٨٦]، منهاج تزكية الإنسان قبل إصلاح الأشياء، يسمو بتفكير الكائن البشري وتفكره ليهيئه روحياً وعقلياً لبذل جهده حتى يتحول خلقاً آخر وينشأ نشأة أخرى، فيصير غير هذا الإنسان المادي المرذول بغفلته عن الحق والهداية، الشقي باستكباره وانحداره الأخلاقي.

## ٧ - إمكانات قيمة أخلاقية:

القرآن المجيد كتاب الهداية للإنسان، ينتشله من ظلمات الهوى والتدسية والخسران، وينيره بقيم التوحيد والتزكية والعمران، يصدّق على جميع القيم الأخلاقية المشتركة التي توارثتها البقية الصالحة من الأمم السالفة، ويتممها، وما هذه القيم إلا أثارات الدين التي حافظ عليها الناس وتناقلها صالحوهم جيلاً بعد جيل. وهي قيم كلية تتسع لجميع الأفعال الإنسانية سواء المتعلقة بذات الفرد، أو بعلاقة الفرد أو الجماعة بالآخرين، أو بالبيئة الطبيعية أو بالعمران؛ وعن تلك القيم الكبرى تصدر قيم

الصدق والأمانة والأخوة والتراحم والتبادل والسلم والتعاون،<sup>(١)</sup> وهي أيضاً مشتركة وخالدة، منسجمة مع الفِطْر السليمة والعقول الحكيمة. وفي مقابل ذلك ينكر القرآن جميع الفواحش والردائل؛ القتل والظلم والخيانة وشهادة الزور والحقد...

ومن الآيات التي نزلت في مكة أول البعثة النبوية قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١] مما يفيد عالمية القيم القرآنية وغائيتها، وهي "تمثل ثوابت بالنسبة للبشرية كلها؛ ألا وهي قيم الهدى ودين الحق، تطالب البشرية بالمعروف في فطرتها، وتنهاها عن المنكر الذي ترفضه فطرتها، وتحل لها الطيبات، وتحرم عليها الخبائث، وتضع عن البشرية إصرها والأغلال التي كانت عليها... وتدعو الناس كل الناس أن يلتزموا بتلك القيم ويدخلوا في السلم كافة، في حضارة تنظر للناس كلهم على أنهم لآدم، وآدم من تراب، وتستوعبهم جميعاً."<sup>(٢)</sup>

أرسل النبي ﷺ ليغرس القيم في القلوب والعقول والجوارح، فيُهذب الأخلاق ويُصحح الأفكار ويُقوم السلوكات، يجمع بين الشهادة والبشارة والندارة والإنارة والدعوة بالتي هي أحسن، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ليقوم حضارة الإنسان السوي المتوازن في تربيته وفهمه وسلوكه وحُكمه، الشخص المؤمن، القوام لله، الشاهد بالقسط، وهي نفسها حضارة الأمة الشاهدة المُتَّبِعَة، وحضارة العمران البشري الجماعي الأخوي، التي تسع الجميع بأخلاق أهلها، لما تزكّوا تزكية ورثت فيهم الفلاح والصلاح، فد"الرسول يزكّي أمته، ويتلو عليها الآيات، ويعلمها الكتاب، ويعلمها الحكمة، وهي أربع مهمات اقترنت مع بعضها وتكررت أربع مرات في القرآن الكريم،"<sup>(٣)</sup> قال الله

(١) أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٢) العلواني، طه جابر. نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، بيروت: دار الهادي، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٤٨٨.

(٣) ملكاوي، فتحي حسن. منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص ٨٧.

تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

## ٨- إمكانات العالمية:

القرآن الكريم كتاب العالم، المصدق للكُتب والأفكار والمعارف، والمهيمن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فلا إلغاء ولا إقصاء ولا عدا، وإنما هو إتمام وتصحيح واستيعاب. وهذه العالمية المصدقة والمهيمنة تتجاوز ثنائيات الصراع: الأنا/ الآخر، الإسلام/ الغرب، الدين/ الدولة، الأصالة/ الحداثة... وتستوعب جميع التعدديات الدينية والثقافية والعرقية. هذه العالمية "تنطبق على البشر بوصفين: من جهة بوصفهم فاعلين مكلفين بتحقيق الأوامر التكليفية، ومن جهة، بوصفهم موضوعاً لها." (١)

أما عن ختم النبوة فلا شك أنها خُتمت ختماً توحيدياً مُصدقاً ومُهيمناً ومُتمماً، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فيكون المسلمون هم كل من آمن بجميع الرسالات وبجميع الرسل الذين خُتموا بسيدنا محمد ﷺ، ولا يفرقون بين أحدٍ منهم؛ إذ إن المقصد الأعظم لجميع الأنبياء من أقوامهم هو أن يكونوا مسلمين في عقائدهم وأخلاقهم وسلوكهم، وأن يعيشوا مسلمين في إقامتهم لل عمران البشري المتآخي المتراحم، وأن يموتوا مسلمين موحدين لا ضالين ولا مُضلين.

وبخصوص التوجه إلى العالم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، فالخطاب القرآني خطاب موجه للعالمين بغض النظر عن انتفاءات الناس الجغرافية والثقافية والعرقية، لذلك "يؤكد القرآن وحدة المؤمنين حول الإيمان

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٢٩٨.

المشترك، بغض النظر عن العرق أو القبيلة" <sup>(١)</sup> بصيغ جامعة مثل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾، ﴿يَكْتَبِي آدَمَ﴾، فهو لا يقتصر على قومية أو عرق أو نحلة أو رجل دين. كما أن مقاصد القرآن عالمية مشتركة بين البشر جميعاً بوصفهم شركاء ينالون من عطاءات الله اللامتناهية بحسب استعدادهم وقيامهم بواجبات أزمانهم.

هذه العالمية التي ورثت رسالات السماء كافة، وانفتحت عليها تصديقاً ونسخاً بذات الوقت، ورثت النبوات كافة، وانفتحت عليها، وورثت الحضارات كافة وتفاعلت معها، واندجت مع كل الأعراق والسلالات... عالمية قيادها الرحمة وشرعة التخفيف وخطابها للناس كافة، وشعارها رفع الإصر والأغلال والتأكيد على مبدأ التطهير بديلاً عن التكفير، <sup>(٢)</sup> وهي اليوم في حاجة إلى اكتشاف منهجي ومعرفي من أصولها المؤسسة؛ إذ ما تزال معطلة ومرتبطة بوصفها بديلاً عن العالمية العولمية المادية القاهرة؛ لأنها عالمية صراع التأويلات والمصالح المادية، سواء في رؤيتها المتفائلة مع فرنسيس فوكوياما الذي وسع فكرة المدينة الفاضلة من النمط الليبرالي الحديث وجعلها قطب الفضائل والقيم؛ الديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة، أو في رؤيتها المتشائمة مع صمويل هنتنغتون التي تلخص العلاقات المستقبلية في صراع بين أكبر الحضارات في العالم المعاصر. أما عالمية المشترك الإنساني ذات المرجعية القرآنية فهي عالمية رحمة الآيات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ إذ العالم اليوم في حاجة إلى عالمية مستوعبة ومتجاوزة، تحتزن كل إمكانات التعارف والتعايش والتعاون بين المسلمين وغيرهم، وتصلح مفاصل العالمية المادية الاستكبارية وتقضي على تحيزات النزعات العرقية والقومية والبراغماتية السلبية والعنصرية والأسطورية والفرعونية الاستعلائية.

باجتماع هذه الإمكانيات في إطار ناظم كلي هو المرجعية القرآنية المعرفية، وبالعامل بها ستتجدد أسس العلاقات بين الثقافات، وستهاوى الأوهام المعرفية المتركمة عبر

(١) اسبوزيتو، ومجاهد، من يتحدث باسم الإسلام؟، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) حاج حمد، محمد أبو القاسم. الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)، ص ٤٢٤.

الزمن والتقليد، وستتوقف كثير من النزاعات العنيفة، وتتجنب الإنسانية الصراعات المدمرة التي أصّلتها الفلسفات المادية الصراعية. وفي مقابل ذلك يُبنى العالم من جديد على قوام المشترك الإنساني بدلاً عن الصدام الحضاري؛ لأن "القول بقيم مشتركة أو عالمية أو إنسانية لا يعني أن المشتركات يجب أن تكون شاملة، وتسري مقتضياتها على جميع الناس في كل الظروف والأحوال،"<sup>(١)</sup> وإلا سنسقط في عوامة تفرض نظرة أحادية وقيماً إقليمية متحيزة، وتلغي الاختلاف والتباين والتمايز.

في إطار هذه المرجعية واستيعاباً لها انتشرت الدعوة الخاتمة انتشاراً واسعاً في جميع بقاع المعمورة، واستوعبت حتى الشعوب التي كانت وثنية من مغول وفرس وأتراك وبربر وغيرهم، وانهارت تلك الثنائية العصبية: شرق وغرب، بالتفاعل الإيجابي لحضارة القرآن مع باقي الحضارات واستيعابها وتجاوزها في الوقت نفسه، ولم تكن متحيزة منغلقة على ذاتها.

لا ينبغي أن يوظّف مفهوم المشترك الإنساني في القول بتذويب الفوارق وإلغاء الخصوصيات الذاتية، والتنكر للمختلف فيه، ولا لعوامة ثقافة ما أو تعديل الأنساق القيمة للآخرين، مما يتفق ومعايير أنساق الثقافة الغالبة، فهو ليس إدماجاً للثقافات، ولكنه نداء المستقبل للشعوب والأمم والأديان والمصالح من أجل تشييد علاقات المشترك الإنساني التي تحفظ الأسس الكبرى لحضارة الإنسان، وتحترم التنوع والاختلاف والتنافس، والإقرار بأن هناك حضارات متعددة وليست حضارة واحدة نسخت الحضارات السابقة عليها. ومن ثمّ لا مندوحة عن إعادة النظر في المناهج والنظريات والمعارف الناتجة عن حضارات عالمنا المعاصر والمنتجة لقيمها في الوقت نفسه، وليس فقط ما ينتج عن الحضارة الغربية التي يزعم بعضهم أنها خلاصة التطور البشري ونهايته ونهاية التاريخ.

---

(١) أشتاين، جين بتكي. "هل توجد قيم إبراهيمية مشتركة"، مجلة التفاهم، العدد (٣٣)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٦٨.



فمن مظاهر الأزمة التي تعيشها الإنسانية اليوم تلك الإشكالات الفكرية المرتبطة بعلاقة المسلمين بغيرهم، ويندرج فيها تبادل الاتهام وتركيزه على القضايا المختلف حولها، والغفلة عن الأصول والمطالب المشتركة بين جميع الناس، ويأتي على رأس هذه المشتركات: "الدين"، الذي لا تخلو منه حضارة من الحضارات، ولا ثقافة من الثقافات، ولا سياسة من السياسات، نظراً لأن "الدين مسألة المسائل في العالم"،<sup>(١)</sup> ولا يتصور خلو زمان من الأزمنة من ملازمة الاعتقاد الديني للإنسان، ولم يثبت مؤرخو الأديان أن جماعة بشرية أو أمة من الأمم لم تتدين، بغض النظر عن طبيعة الدين؛ إذ "الاعتقادات هي بمثابة الغذاء، مهما يكن نصيب هذا الغذاء من الجودة أو الرداءة، وأن الإنسان لا مفر له من الاعتقاد بكائن أسمى تجب له الطاعة والتقديس، ويستمد منه الإيمان بقيمة الحياة"،<sup>(٢)</sup> ولعل ذلك ما وضعه الفيلسوف الألماني إريك فروم Erich Fromm (١٩٠٠-١٩٨٠م) بقوله: "لا توجد بكل تأكيد حضارة في الماضي، ولا توجد في الحاضر، ويبدو أنه لن توجد في المستقبل حضارة، يمكن اعتبارها بلا دين. وهذا التعريف للدين لا يصف لنا محتواه الخاص، فالناس قد يعبدون حيوانات أو أشجاراً أو آلهة مصنوعة من الذهب، أو من الحجارة، أو لها غير منظور، أو بشراً قديساً أو بشراً كالشيطان، وقد يعبدون أسلافهم أو أوطانهم، أو الطبقة أو الحزب الذي قد ينتمون إليه، أو يعبدون المال أو النجاح، ويمكن أن يقودهم دينهم إلى تنمية نوازع التدمير أو روح المحبة، إلى تنمية النزوع للتسلط والسيطرة أو روح التكافل والتضامن، إلى تنمية قدراتهم العقلانية أو إصابتها بالشلل... وطالما هو دين جماعة من البشر، فإن له جذوراً في الشخصية الاجتماعية... إن الحاجة الدينية مغروسة في الشروط الأساسية لوجود النوع الإنساني"،<sup>(٣)</sup> ذلك أن دراسة الإنسان

(١) الفاسي، علال. النقد الذاتي، الرباط: مطبعة الرسالة، ط ٦، ١٩٩٩م، ص ١١٤.

(٢) الكتاني، محمد. منظومة القيم المرجعية، الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ٦٨.

(٣) فروم، إريك. بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، مراجعة: لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة (١٤٠)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨م، ص ١٢٧-١٢٨.

تسمح لنا بإدراك أن الحاجة إلى مذهب مشترك للتوجيه، وإلى موضوع للعبادة. هذه الحاجة تضرب بجذورها عميقاً في أحوال الوجود الإنساني.

لا شك في أن هذا الوجود مؤلف من حضارات متعددة دون أن يمنع تعددها من وجود قواسم كبرى مشتركة يلتقي فيها كل بني الإنسان على اختلاف ثقافتهم وعاداتهم،<sup>(١)</sup> وتتلاقح فيها حضاراتهم وتتكامل ثقافتهم، ويحصل التعارف والتعاون. وبهذه القواسم نتحدث عن الحضارة الإنسانية الكونية التي تتعاقد وتتداخل فيها إسهامات الدين والعلم والعمران والبيئة.

وسنخصص الفصل الثاني من هذا الكتاب للحديث عن الأساس الديني لهذا المشترك الإنساني، إيماناً بأن الإشكالات الكبرى المطروحة على البشرية اليوم هي إشكالات كُلية ومعقدة ومشاركة؛ إذ "المشكلة كونية، ولا يمكن للجواب إلا أن يكون على المستوى الكوني".<sup>(٢)</sup> يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، والإقليمي بالعالمي، والفردى بالجماعي، والحاضر بالماضي، والنظري بالعملي.

---

(١) عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١٢٥-١٢٧.

(٢) غارودي، روجيه. وعود الإسلام، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ٦٣.



## الفصل الثاني:

# الأساس الديني مدخلاً للمشارك الإنساني بين المسلمين والغرب

يختص هذا الفصل بمحاولة الجواب عن سؤال الأساس الديني للمشارك الإنساني<sup>(١)</sup> بين المسلمين والغرب، انطلاقاً من المسلمات الآتية:

- إنه "لا وجود لإنسان بغير دين" يدين به، حتى قيل: إن "الإنسان كائن حي متدين"،<sup>(٢)</sup> وأن هوية الكائن البشري هي في الأصل "هوية دينية".

- إن الأديان بينها مشترك كلي، يُعبّر عنه بمبدأ "الوحدة المتعالية للأديان"،<sup>(٣)</sup> إذ غالب أهل الأرض يدينون بدينٍ مُنزل. وبين المسلمين والغرب مشترك التوحيد العقدي في الأصل الإبراهيمي.

- وجود وحدة وظيفية تكوينية خلق الله من أجلها الإنسان، وهي مؤكدة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

- إن الأسئلة الكبرى المُلحّة والمشكلات المطروحة اليوم والمتعلقة بقضايا الإنسان المعاصر تتسم بالكونية وتنسحب على جميع الثقافات تأثيراً وتأثراً. وكذلك تكون الأجوبة في مستوى كليتها وكونيتها.

---

(١) أقصد بالدين خصوصاً الرسالات الساوية الموحى بها إلى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (التوراة، والزيور، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى...) والموجهة إلى الإنسان لدلالته على الله وهدايته وحثه على العمل الصالح.

(٢) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٣) طه، أنيس مالك. التعددية الدينية؛ رؤية إسلامية، حلب وكوالالمبور: دار الملتقى والجامعة الإسلامية العالمية، ط ١، ٢٠١١ م.

- الحضور الكبير والدائم للدين في العالم قديماً وحديثاً، وحيوية هذا الحضور وديناميته، وتأثيراته الواسعة في الأفراد والجماعات والأمم: رغم مختلف التغيرات الطارئة في الحياة العلمية والتقنية وغيرها.<sup>(١)</sup>

- تنظيم العديد من المؤتمرات والندوات والملتقيات الدولية،<sup>(٢)</sup> وإصدار مجموعة من الكتب والوثائق والإعلانات والاتفاقات،<sup>(٣)</sup> فضلاً عن غزارة البحث والتأليف والدراسة في ما يعنى بموضوع فلسفة الدين والمشارك الديني.

لذلك نرى مع إسماعيل الفاروقي أنه لا يمكن الحديث عن المشترك الإنساني دون التأسيس له على مستوى الدين،<sup>(٤)</sup> ولعل هذا ما يؤكد هانس كينغ<sup>(٥)</sup> بقوله: "كل

---

(١) دراز، محمد عبد الله. الدين؛ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، الكويت: دار القلم، ط ٢، (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ١١.

(٢) نذكر مثلاً: المؤتمر العالمي الأول للأديان أو ما عُرف باسم "برلمان أديان العالم" في شيكاغو سنة ١٨٩٣م، والمؤتمر الدولي في موضوع "المشارك الديني: نحو منظومة عالمية للأخلاق"، من تنظيم رابطة الجامعات الإسلامية بالقاهرة، بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، في مدينة روما - بإيطاليا، بين ٢٢ و ٢٥ أبريل ٢٠١١م.

(٣) مثل: وثيقة "كلمة سواء بيننا وبينكم" وأصلها رسالة مفتوحة بتاريخ ١٣ أكتوبر ٢٠٠٦م، أرسلها مجموعة من العلماء والمفكرين المسلمين إلى بابا الفاتيكان (بنديكت السادس عشر) بعد خطابه المسيء للإسلام في محاضراته في جامعة ريغنسبورغ بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م، ثم تحولت الرسالة إلى وثيقة شارك فيها ١٣٨ شخصية إسلامية، تدعو إلى السلام والتعايش بين المسلمين والمسيحيين، وتدعو لإيجاد أرضية مشتركة بين الإسلام والمسيحية قائمة على وصيتين: حب الله، وحب الجوار.

(٤) الفاروقي، إسماعيل. "الأساس المشترك بين الإسلام والمسيحية"، مجلة العلم والإيمان، العدد (٦)، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ص ٦٤-٨٧.

(٥) هانس كينغ (١٩٢٨-...) مفكر سويسري، يولي أهمية فائقة لموضوعات الأخلاق العالمية، وينحاز بقوة للحوار بين الحضارات والثقافات وبين الشعوب والمجتمعات، له العديد من القراءات والأبحاث النقدية المهمة في مواجهة دعوات صراع الحضارات لصموئيل هنتغتون. صاغ مشروعاً فكرياً متميزاً سماه "الأخلاق العالمية"، وهو محاولة عميقة واستثنائية لشرح ما يمكن أن تجتمع عليه الأديان. ويروم هذا المشروع صوغ الحد الأدنى من القوانين السلوكية المشتركة بين الجميع، وضمن رؤيته هذه في الوثيقة التي كتب مسودتها في إعلان مبدئي ووقع عليها قادة وزعماء دينيون وروحيون وفلاسفة وعلماء من جميع =

تحليل يتجنب البعد الديني في هذا العصر يبقى ناقصاً،<sup>(١)</sup> بل متقلصاً وسطحياً ومتجنباً على أهم الحقائق العلمية والتاريخية والاجتماعية.

ويتوزع هذا الفصل إلى موضوعين:

## أولاً: الدين المشترك بين المسلمين والغرب

رغم الاختلاف الاصطلاحي حول مفهوم كلمة "دين"،<sup>(٢)</sup> فإنها لا توجد بين المسلمين والغرب قطيعةً دينيةً كليةً وتضادً عقدياً مطلقاً، وإنما بينهما مشترك ديني أصلي،<sup>(٣)</sup> هو دين الأنبياء جميعاً عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يقول عبد الله دراز: "من الواضح أنه وإن تفاوتت الأديان في نفسها، أو في مصادرها، أو في أهدافها، أو في قيمها، فإنها كلها يجمعها اسم "الدين" فلا بد أن تكون هناك وحدة معنوية تنتظمها، ويعبر عنها بهذا الاسم المشترك،"<sup>(٤)</sup> إضافة إلى أن نزعة التدين مشتركة بين جميع الأجناس البشرية ومغروسة في أعماق النفس الإنسانية؛ إذ لكل إنسان نزوع فطري نحو التدين حتى عند أكثر الجماعات الإنسانية بدائيةً وجهلاً. فقد نجد جماعات من غير علوم وفنون، ولكننا لا نكاد نعثر على جماعة بشرية لا دين لها. لذلك كان الدين فطرة فُطر عليها جميع الناس، وهو يعكس حاجة الوجود البشري إلى أمرين أساسيين: حاجته إلى الدين والتدين؛ لأنه يشكل البعد النفسي والروحي العميق الذي يربط المخلوق بالخالق،

---

= أنحاء العالم في ما سمي وقتئذ "برلمان الأديان العالمي" الذي عقد في ولاية شيكاغو الأميركية في العام ١٩٩٣ م. ينظر موقعه الشخصي على الانترنت:

- www.hansking.com

(١) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص ٨٩.

(2) Gunn, T. Jerenny. "the Complexity of Religion and the Definition of Religion in International Law", *Harvard Human Rights Journal*, vol. 16, 2003, issn 1057-1607.

(٣) يتفق على ذلك حتى أشد الناس انتقاداً للإسلام والمسلمين. انظر:

- Lewis, *Islam and The West*, p254.

(٤) دراز، الدين؛ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، مرجع سابق، ص ٢٨.

وتمنحه المعنى والغاية من الوجود، ثم حاجته إلى التنظيم والانتظام داخل كيان جماعي يؤمن معاشه ويوفر حاجاته الإنسانية.<sup>(١)</sup>

في الأصل التوحيدي للرسائل السماوية الثلاث: التوراة والإنجيل والقرآن، والفطرة المشتركة بين الإنسانية. ينظر هذا الموضوع إلى وحدة الإنسانية على مستوى الدين، من حيث المصدر والغاية، ومن حيث القيم الدينية المشتركة، وذلك من خلال الآتي:

## ١ - رسالات "الدين المشترك" ووحدة العقيدة الدينية:

### أ- "الدين" في المقاربة اللغوية:

نبدأ بالتحديد اللغوي في المعاجم العربية، ونحن على وعي بمحدودية وتعدد التعريفات التي تقدمها هذه المعاجم، ما دامت تقوم -في الغالب- على الجمع والتكرار دون تمحيص وتحقيق، تأثراً بما جرى في مراحل التاريخ وتجاربه النسبية من تغيرات وتبدلات أدت إلى إحداث تباعدات متفاوتة عن الأصل الشرعي المستوعب للزمان والمكان. حيث "وُضعت لضبط الألفاظ، لا لتحديد المعاني... وُضعت أيضاً لسرد المترادفات والمتقابلات، وتقديمها لمن يفرض فيه أنه يعرف معنى كل مفرد على حدته"،<sup>(٢)</sup> ولعل هذا ما سنلاحظه من خلال تتبع مصطلح "الدين" في جملة من المعاجم المشهورة، وإن كنا سنحاول تجاوز الخلط فيها بالرجوع إلى مصدر القرآن الكريم بوصفه المصدر العلمي المطلق للمصطلحات والمفاهيم.

يدل لفظ "الدين" عند العرب على معان متعددة، منها الطريقة والمذهب والملة والعادة والشأن والحساب،<sup>(٣)</sup> كما يدل على الطاعة، ودانته ديناً؛ أي أدله واستعبده.

(١) بريانتي، الف. "الإسلام والغرب تعاون أم صدام؟" ترجمة: عبد الله جاد الله وعبد الغني خلف الله، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٠)، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ٢٧.

(٢) دراز، الدين؛ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٣) تقول العرب في الريح: "عادت هيفاً لأديانها"، ويقولون: ما زال ذلك ديني وديني، ومنها الجزء المكافأة يقال: دانه يدينه ديناً؛ أي جازه، ويقال: كما تدين تُدان؛ أي كما تجازي تُجازى بفعلك، وبحسب ما عملت... ومنها: السياسة، والديان السائس، ومعنى دَيَّانٍ سائسي.

يقال: دِنَّهُ فدانَ. والدينُ الطاعةُ. ودانَ له؛ أي أطاعه... ومنه الدينُ؛ والجمع الأديانُ. يقال: دانَ بكذا ديانةً وتدينَ به، فهو دينٌ ومُتدينٌ. ودَيَّنْتُ الرجلَ تديناً، إذا وکَلْتُهُ إلى دينه.<sup>(١)</sup> وفي مقاييس اللغة: "فالدين: الطاعة، يقال: دان له يدين ديناً، إذا أصحَبَ وانقاد وطاعَ. وقومٌ دينٌ؛ أي مُطيعون منقادون... والمدينة الأُمَّة. والعبدُ مدينٌ، كأنَّها أذهما العمل."<sup>(٢)</sup>

وفي تعريفات الجرجاني: "الدين وضعُ إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول ﷺ؛"<sup>(٣)</sup> أي إنَّ الدين يفرض الاقتناع بالنبوة ومقتضياتها، وعند الرازي: "الدينُ، بالكسر: العادةُ، والشأن ودانه يدينه ديناً بالكسر أذله واستعبده فدان... والدين أيضاً الجزاء والمكافأة."<sup>(٤)</sup> وعند ابن منظور: "الدين من أسماء الله عز وجل، معناه الحكم القاضي، وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب فقيل: كان ديان هذه الأمة بعد نبينا أي قاضيا وحاكما... والمدين الذي يبيع بالدين... والمدان الذي لا يزال عليه دين... وتدين الرجل إذا استدان... والدين الجزاء والمكافأة... ويوم الدين يوم الجزاء... والدين العادة والشأن... والذل... والدين: الحال... والسلطان... والورع... القهر... المعصية... الطاعة،"<sup>(٥)</sup> كما في القاموس المحيط: "دانَ يدينُ: عزَّ، ودَلَّ، وأطاعَ، وعَصَى، واعتادَ خيراً أو شراً."<sup>(٦)</sup> والدين كما يقول التهانوي في كشف اصطلاحات الفنون: "وضعُ إلهي سائق لذوي العقول

(١) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠م، مادة: (دي ن).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣١٩.

(٣) الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي. التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١٠٥، مادة: (دي ن).

(٤) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح، سوريا: دار الإرشاد للنشر، ط ٢، ٢٠٠٨م، مادة: (دي ن).

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة: (دي ن).

(٦) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، مادة: (دي ن).



باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال، ويطلق على ملة كل نبي، وقد يخص بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ويضاف إلى الله عز وجل لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له.<sup>(١)</sup>

وفي الموسوعة العربية العالمية: "الدين لغةً: الملك والحكم والتدبير، من دانه ديناً؛ أي ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وجزاه وكافأه"، وفي الموسوعة العربية: "لفظة "دين" العربية تضم معاني مختلفة، ولكنها وثيقة الارتباط فيما بينها. فاللفظة مشتقة من فعل "دان" وأصله "دين" ومعناه أذل، واستعبد، وحاسب. ومنه يوم "الدين" وهو يوم "الجزاء" أو "المكافأة".<sup>(٢)</sup> وتشير أغلب المعاجم اللغوية إلى أن "النزعة الدينية مشتركة بين جميع البشر حتى أكثرهم بدائية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبها وراء الطبيعة، إنما هو إحدى النزعات العالمية الخالدة عند الإنسان."<sup>(٣)</sup>

في معجم أوكسفورد Oxford نجد أن اللفظ "غولجيون" Religion يعني: "حالة الحياة الملتزمة بوعود رهبانية، حالة العضو في نظام ديني، ونظام رهباني أو ديني معين، وفعل أو سلوك يدل على الاعتقاد في تقديس، والرغبة في إرضاء سلطة إلهية حاکمة، أو فرض أو ممارسة شعائر أو احتفالات تتضمن ذلك."<sup>(٤)</sup>

وفي معجم ويبستر Webster، نجد لـ Religion عدة معاني منها: "خدمة وعبادة الله أو الخارق، الالتزام أو التفاني في العقيدة الدينية، مجموعة شخصية أو نظام

(١) التهانوي، محمد بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٨١٤.

(٢) جدعان، فهمي. المحنة؛ بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، عمان: دار الشروق، ط ١، ١٩٨١م.

(٣) الحسن، إحسان محمد. موسوعة علم الاجتماع، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٢٩٧، والتعريف من معجم لاروس Larousse.

(4) Simpson, J.A. & Weiner, E.S.C., *The Oxford English Dictionary*. Oxford: Clarendon Press 2nd ed, 1989, Vol. 5, p. 568-571.

مؤسسي للمواقف الدينية، والمعتقدات والممارسات، استعمال قديم للكلمة: امثال كثير الشكوك والوساوس، يقظة الضمير، قضية، مبدأ أو منظومة معتقدات يتشبه بها بحماس وإيمان.<sup>(١)</sup>

في كل ما سبق من تعريفات يتضح لنا التباس التحديدات اللغوية لكلمة "الدين" وتعددتها وتداخلها، بل وتناقضها أحياناً، غير أنه يمكننا جمع الدلالات اللغوية للدين في علاقة تربط بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له. فإذا وُصف بها الطرف الخاضع عُرف الدين خضوعاً وانقياداً، وإذا وُصف بها الطرف الآخر عُرف الدين حُكماً وسلطاناً، وإذا قُصد بها الرباط الجامع بينهما كان الدين هو القانون المنظم لتلك العلاقة. ويستنتج دراز من التعريفات اللغوية للدين أنها تتمحور حول علاقة اللزوم، يقول: "إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد، ففي الاستعمال الأول، الدين هو: إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني، هو: التزام الانقياد، وفي الاستعمال الثالث، هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له؛"<sup>(٢)</sup> أي المبدأ الذي ينظم عملية الإلزام والالتزام.

أما التعريفات الفلسفية فهي كثيرة ومختلفة باختلاف المدارس الفلسفية والأنثروبولوجية والسوسيولوجية والنفسية، نظراً لشمولية "الظاهرة الدينية" وتنوعها في الوقت نفسه، واختلاف المرجعيات الفكرية والإيديولوجية والعلمية التي تؤطر البحث والتفكير في موضوع الدين بصفة عامة، منها التي صنفت الدين إلى جانب السحر والأسطورة (جون بيير فرنان)، ومنها التي ميزت في الأديان بين الطقوسية وأديان الخلاص أو الفداء وأديان الإنقاذ (ماكس فيبر)، ومنها من حاول رصد المشترك بين جميع الاعتقادات الدينية وهو الإيمان بالآله (إيميل دوركهايم)، ومنها التي ميزت بين الدين التاريخي والدين العقلاني (إيمانويل كانط)... إلخ.<sup>(٣)</sup>

(1) <http://www.merriam-webster.com/dictionary/religion>

(٢) دراز، الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، مرجع سابق، ص ٣١.

(٣) كيلاني، منذر. "الكلبي والجزئي في أنثروبولوجيا الدين"، مجلة كتابات معاصرة، العدد (٧٧)، ٢٠١٠م، ص ١٧-٢٥.

## ب- مصطلح "الدين" في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم يأخذ كل مصطلح موضعه ومعناه وغايته داخل نسقه؛ إذ إن لكل لفظ دلالة خاصة وإيحاء خاصاً وانسجماً في التركيب،<sup>(١)</sup> و"كل كلمة توضع في مكانها في البناء لا يصلح غيرها في موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها،"<sup>(٢)</sup> فكيف إن جئنا بدلالة مقطوعة من خارج القرآن وألبسناها لكلمة القرآن الخالدة؟ مثل ما يقع مع مصطلح "دين"، حيث ظلم ظلماً شنيعاً، وقُصص معناه إلى مجرد ثقافة قديمة أو نحلة مذهبية، أو طقس خاص بقبيلة ما، في حين أن الدين في القرآن الكريم يتجاوز ذلك إلى الدلالات الموزعة على الاستعمالات الآتية بحسب سياقاتها المختلفة:

### - الدين بمعنى: التوحيد الإلهي:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالدين هنا هو عبادة الله وحده ومعرفة أن الحكم لله يفعل ما يشاء بمطلق إرادته؛ إذ ما دام الحكم لله وحده فبيّن أن العبادة الحق لا تصح أن تكون إلا لمن له الحكم سبحانه. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]؛ أي إسلام الوجه لله وإخلاص العبادة له، ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وذلك باتباع حنيفية النبي إبراهيم عليه السلام والابتعاد عن كل الانحرافات التي لحقت الدين الحق؛ إذ إن "محمدًا عليه الصلاة والسلام إنما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه السلام... ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الكل."<sup>(٣)</sup>

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. الصحابي في فقه اللغة، تحقيق: مصطفى الشويبي، بيروت: مؤسسة بدران، ١٩٦٣م، ص ٣.

(٢) زاير، عادل عبد الجبار. معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٦٥، مادة: (دي ن).

(٣) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ج ١١، ص ٤٦.

فالدِّين هنا استسلام لأمر الله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؛ أي "تطهير الوعي الديني من الشرك على نحو لا رجعة فيه"،<sup>(١)</sup> واتخاذ هذا الاستسلام والاتباع عقيدة وشريعة ومنهاج حياة شامل، منهاج عمل بمعية الله وتوفيقه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُكَ وَحْدَهُ فَاِتَّقْ فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل: ٥١-٥٢]، الدين بمعنى الطاعة المطلقة والخضوع المستسلم،<sup>(٢)</sup> وواصباً؛ أي دائماً، لا يبليه الزمان ولا يلغيه المكان ولا يزهده فيه إنسان. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ عَبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١-١٢]؛ أي محضاً الاتباع لله تعالى في جميع أوامره الشاملة لجميع جوانب الحياة، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٤٦]؛ أي: أخلصوا عبادتهم وطاعتهم لله. وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢٩]، والمعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا نَارًا بِهَمِّ دَعْوَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أٰبٰجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، لذلك فخلاصة هذا المعنى إنما هو في توحيد الله وإخلاص الوجه له تعالى؛ إذ "القصد الإنساني الأنقى فيما يعلمنا الإسلام، هو الذي تراح فيه كل إرادة أخرى وتزول، من حيث لا يصير له من شاغل غير الله تعالى".<sup>(٣)</sup>

#### - الدين بمعنى: الحكم القانوني:

في كثير من الآيات يفيد لفظ "دين" معنى القانون والملة والنظام والتقاليد التي تسير عليها جماعة بشرية ما، منها قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَٰ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]؛ أي في ملة الملك ومذهبه وحكمه وقانونه، وقوله تعالى:

(١) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) إيزوتسو، توشيهيكو. بين الله والإنسان في القرآن؛ دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، ترجمة: عيسى العاكوب، حلب: دار الملتقى، ط ١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٣٨.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، فدين الملك سياسته وقانونه وشريعته ونظامه. ومعنى "القانون"؛ أي مجموع العلاقات التي تنظم علاقات الناس وفق قواعد كلية ومجردة، ويتضح ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النور: ٢]، ﴿ وَلَا يُجْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ أي لا يحترمون في سلوكهم ضوابط وقوانين الدين التي ما أنزلت إلا لتطبَّق في حياتهم المعقدة والمتغيرة والمهددة بالاختلال بقدر ابتعادها عن الوحي. فـ"دين الله: شريعته... دين الملك: قانونه وشريعته... دينكم شريعتم وعبادتم." (١)

#### - الدين بمعنى الجزاء والمكافأة:

من معاني لفظ "الدين" أيضاً الجزاء، قال الله تعالى: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاحة: ٤]، و﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]، و﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥]؛ أي يوم الجزاء والقضاء الإلهي، فـ"الدين: الجزاء" (٢) ومنها مدينون التي تعني مجزيون محاسبون، ﴿ هَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَهْلًا لِمَدْيُونٍ ﴾ [الصفات: ٥٣]؛ أي "إن يوم الدين هو تماماً اليوم الذي سيُدان فيه كل الناس دون استثناء "مدينون"، كلٌّ بحسب فعله في هذه الدنيا،" (٣) والمعنى نفسه يستفاد من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، (٤) وقوله تعالى لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ

(١) مجمع اللغة العربية. معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار إحياء التراث، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ج ١، مادة: (دي ن).

(٢) المرجع السابق، مادة: (دي ن).

(٣) إيزوتسو، بين الله والإنسان في القرآن؛ دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(٤) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة، ط ٥، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ج ١، ص ٢٤.

إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ [الحجر: ٣٥]. ويتلخص هذا المعنى في الجانب الجزائي من الدين.

### - الدين بمعنى الإسلام:

ورد مصطلح الدِّين بمعنى الإسلام في جملة من الآيات منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، و﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، و﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فالدين مقرون في هذه الآيات الكرييات بالإسلام، بمعنى أن الدين هو الإسلام أو قل: دين الله الحق الذي ارتضاه للإنسانية إنما هو الإسلام. و﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

الإسلام، إذن، هو الدين الجامع، وهو ملة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا ما أكده البغوي في "معالم التنزيل" بقوله: "بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة"،<sup>(١)</sup> وابن تيمية بقوله: "جميع الأنبياء وأمهم كانوا مسلمين... لأن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان. وقد أخبر الله عن نوح وإبراهيم وإسرائيل إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين مؤمنين"،<sup>(٢)</sup> لذلك قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ومن ثم فالإسلام هو دين الله للبشرية منذ نزول الوحي على أول نبي إلى ختم النبوة مع خاتم

(١) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. معالم التنزيل «تفسير البغوي»، الرياض: دار طيبة، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ج٤، ص١٢٢.

(٢) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. الرد على المنطقيين، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٥٨٧.

الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

## ت - المشترك بين الرسالات الإلهية والتصديق القرآني:

انطلاقاً من بدهية وحدة الخالق، ومن وحدة الرسالة الإلهية للرسول جميعاً عليهم الصلاة والسلام، ومن وحدة الفطرة البشرية، يشترك جميع الناس في الخضوع الحُبلي لنواميس الكون التي تخضع لقدر الله الكوني، ويشتركون في التكليف بمضمون هذه الرسالة، وبوجوب العمل بمقتضياتها، حيث أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، فكل ما قيل لهذا النبي الخاتم ﷺ من تبليغٍ للقضايا الكلية والواجبات الإلهية قيل للأنبياء من قبله عليهم الصلاة والسلام جميعاً؛ إذ هي رسالة إلهية واحدة في الأصل، تُنبئ عن حكمة ربانية تقوم على الوحدة والانسجام في المهام والوظائف بين الأنبياء، وهذا هو الدين الجامع العام الذي اشترك فيه جميع الأنبياء، والإسلام العام والإيمان العام،<sup>(١)</sup> وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وبقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ادْعُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَاتِ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، فجمع في الملل الأربع: مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا.<sup>(٢)</sup>

وكون "أن الدين عند الله الإسلام في جميع الرسالات، وعند كل المرسلين،"<sup>(٣)</sup> لا يتعارض مع ما يميز الكتاب الخاتم من خصائص الهيمنة والتصديق والتخفيف، قال

(١) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الرياض: مطابع المجد التجارية، (د. ت.)، ج ٤، ص ٣٣.

(٢) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. رسائل من السجن، المحمدية: مطبعة فضالة، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٣٦.

(٣) عمارة، محمد. "إسلامية المعرفة؛ البديل الفكري للمعرفة المادية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٦٣)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٣.

الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨]. وهذا يفيد أن "القرآن جاء مؤكداً لما جاءت به الكتب السابقة من الحقائق والعقائد والأصول التي لا تختلف فيها الأديان، كما جاء القرآن مهيمناً على تلك الكتب؛ أي مصححاً لما وقع فيها من تحريفات وأخطاء، وناظراً ما اعترأها من أباطيل، وسوء تأويل. فضلاً عن هيمنته عليها بأن جاء متمماً لها، مرتقياً بالبشرية إلى أبلغ مدى تستطيع الوصول إليه، في زمن الرسالة الخاتمة، التي ليس بعد نبيا نبي، ولا بعد كتابها كتاب. ومن هنا جاء الإسلام في أصل رسالته ليطمئ ويبيّن، لا ليلغي ويهدم، إلا ما كان من باطل" (١) طراً في التاريخ من فعل الإنسان.

القرآن، إذن، كتابٌ خاتمٌ مُصدّقٌ لما سبق من الكتب المنزلة من الله تعالى، ومخدر من اتباع الأهواء في فهم تلك الكتب، ومما لحق بها من تحريف وتزوير وتأويل مُغرض يحرف الكلم عن مواضعه، قال تعالى: ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ [المائدة: ١٥]. هذا التحذير هو نفسه الموجه لتحذير أتباع الكتاب الخاتم في مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣].

إن التصديق القرآني للكتب السالفة يؤكد وحدة الرسالات جميعها من حيث الأصل، وإن مرت بمراحل متعددة، وتأثرت بظروف تاريخية خاصة، فهي في نظر طه عبد الرحمن "نوع واحد تقلب في أطوار مختلفة، حتى إن ذكرها بصيغة الجمع هو من باب التجوز فقط، وإلا فهي عبارة عن دين واحد منظور إليه من جهة أطواره،" (٢) ممتدة

(١) القرضاوي، يوسف. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، القاهرة: دار الشروق، ط٣، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص٣٦.  
(٢) عبد الرحمن، طه. رُوح الدِّين؛ من ضيق العُلَمَانِيَةِ إِلَى سَعَةِ الاِثْنَانِيَةِ، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢٠١٢م، ص ٦٥.



على فترات زمنية، تحدث فيها الغفلة والنسيان والبُعد عن الهدى والحق، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ [المائدة: ١٩]. فالرسول الخاتم ﷺ جاء على فترة من انقطاع الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ أي بعد حوالي ستماية سنة من نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

غير أن فارق الزمن لا يفيد بالضرورة فارق المضمون الرِّسالي، أو بعبارة أخرى: بين الأنبياء أزمان وليس بينهم "خلافات"، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُمْ لَكُنُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ [النحل: ٤٣]. فهي نبوة مستمرة إلى الختم المحمدي، بيَّنها أيضاً قول رسول الله ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثلي رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة! فأنا تلکم اللبنة وأنا خاتم النبيين.<sup>(١)</sup>

هذا الرسول العالمي الخاتم العاقب جاء برسالة عالمية على فترة من الرسل بشيراً ونذيراً للعالمين، برسالة خاتمة مصدقة للرسالات السابقة ومتممة لها؛ لأن الكل خرج من مشكاة واحدة، من عند الله وحيّاً ربانياً خالداً دائماً بدوام البشرية على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ [الشورى: ١٣]، لذلك فالدين الذي ارتضاه الله للإنسانية هو دين المرسلين جميعاً من غير استثناء لأحد منهم، وكأنه شجرة واحدة ممتدة جذورها من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمد ﷺ وأمته، وذلك ما يسميه ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ بِـ"الدين المشترك"<sup>(٢)</sup> مروراً بسيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال لقومه: ﴿فَإِنْ

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين، ج ٣، ص ١٣٠٠، حديث رقم: (٣٣٤٢).

(٢) ابن تيمية الحرائي، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٣٥-٢٣٩.

وَأَيَّدْتُمْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ [يونس: ٧٢]،  
والملة الإبراهيمية ملة مشتركة، قال تعالى: ﴿يَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾  
[الحج: ٧٨]، و﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ  
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ  
يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]. وَقَالَ تَعَالَى  
عَنْ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]. وَقَالَ  
سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].  
وَقَالَ السَّحْرَةُ لِفِرْعَوْنَ لَمَّا أَقْنَعَهُمْ حَامِلَ النَّبُوءَةِ بَنِيوتِهِ: ﴿وَمَا نُنْفِخُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ آمَنَّا بِآيَاتِكَ  
رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْكَ رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وَبَلْقِيسُ مَلِكَةُ اليمَنِ:  
﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى  
عَنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ  
أَسْلَمُوا ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ  
قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْحَوَارِيُّونَ مَنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾  
[آل عمران: ٥٢]، وَعَنْ حَوَارِيِّ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا  
بِي وَرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وَخَشِيَةَ الْاسْتِطْرَادِ نَكْتَفِي بِهَذَا  
القدر من الآيات الدالة على وحدة رسائل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

لذلك أكد رسول الله ﷺ أن طريق الهداية والاستقامة والمنهاج ممتد في دين الله  
الذي ارتضى للخليفة عبر اتباع رسالاته إلى أنبيائه جميعهم، وتلك هي ملة أبي الأنبياء  
إبراهيم الخليل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ  
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]. ومستأنف في تاريخ الإنسانية صعوداً  
ونزولاً إلى يوم الدين.

من كل ذلك نستطيع القول: إن الرسالة الإلهية بعد توالي الأزمنة والدهور إنما هي  
رسالة واحدة ووصية خالدة حددت صراطاً مستقيماً، وحملت وصية الله الخالدة إلى

الإنسانية، وأغلب المباحث الفلسفية المهمة بنشأة الدين وأصوله تتفق على أن الدين كان في البداية اعتقاداً إيمانياً بالآله الواحد قبل أن تنأى به رياح التحريف من التوحيد إلى الإشراك والتجسيم والتعطيل. لذلك توارثت النبوات التركيز على أصل الإيمان التوحيدي، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَسَبَّحْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فأنصار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على الحقيقة هم أنفسهم أنصار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم أيضاً أنصار محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنهم أولاً وأخيراً حافظوا على الأصل التوحيدي وناصروا دعوة التوحيد وعملوا بمقتضاها؛ سمعوا نداء الإيمان بالله من الرسل والكتب فاستجابوا. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا أَنْصَارًا اللَّهُ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، ف"الإسلام وهو أحدث الأديان السماوية العالمية، وهو منبثق من ذات المشكاة السامية التي نبعت منها اليهودية والمسيحية من قبله، فإنه مرتبط بهما بالضرورة. فهما وهو يشكلون لحظات متتالية من الوعي السامي في مسيرته الطويلة كحامل لرسالة إلهية على الأرض، وممثلاً من ثم لقاطرة التاريخ الإنساني؛"<sup>(١)</sup> إذ الأسس والأصول واحدة وإن تنوعت الشرائع بين الأمم؛ لكل أمة جعل الله شريعةً ومنهجاً.

### ث- الدين المشترك والمدخل التقريبي بين الرسالات:

المشترك الديني - وهو يحمل الأصول الكبرى التي تتقاسمها الرسالات السماوية- طاقة محرّكة ومنظمة للحياة البشرية ومهذبة لها، وحافر بناءٍ لقيم الأخوة الإنسانية؛ من تعارف وتبادل وتكامل وتنافس وتعاون، وبناءٍ للفكر السليم حين يبنى على الحوار والإقناع والتفاهم،<sup>(٢)</sup> وفلسفة الدين قائمة على ترسيخ معاني التوحيد في عمقها وشمولها، وتحقيق القيم المتصلة بها في القلوب والعقول والواقع، وكف الأيدي حين تسود قيم الكراهية والبغضاء والمنكر، وردع قوى الظلم والاستكبار والطغيان،

(١) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) عناية، عز الدين. "قراءة في أعمال المؤتمر الدولي للحوار بين المسيحية والإسلام"، مجلة الحياة الثقافية، العدد (١٠١)، ١٩٩٩م، ص ٦١.

ورفض جميع صور الشطط والظلم والعدوان حين تنتهك الحرمات وتكثر المظالم. ولا يفيد ذلك فرض نظرة أحادية تُكره الناس على اعتقادٍ معين بوصفه الحقيقة المطلقة، بقدر ما يفيد جمع شمل الإنسانية من غير إكراه، على "احترام الكرامة الإنسانية واحترام النفس الإنسانية من غير نظر إلى دينها أو جنسها، فنفس غير المسلم على سواء في المعاملة مع نفس المسلم... ومن الكرامة الإنسانية التسوية المطلقة بين بني آدم في التكريم؛ لأنهم جميعاً متساوون في هذا القدر الذي يستحق التكريم"<sup>(١)</sup> تلك هي فلسفة الدين كما يقدمها القرآن الكريم في نفي الإكراه أصلاً عن الدين، وإثبات الحرية بوصفها أصلاً سابقاً عن الاعتقاد، شاهداً ببراءة الإنسان لا بخطيئته الأصلية. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

من أجل مشترك فكري وحضاري لا مندوحة عن الأساس الديني بوصفه الوجه الأكبر والحافز الأقوى للأفراد والشعوب والأمم، انطلاقاً من الإيمان المشترك بوحدة الخالق ووحدة المخلوق ووحدة الحق ووحدة الحياة، ووحدة القيم الكبرى الخالدة خلود الحياة البشرية، فيكون الدين الجامع لله وليس للدولة أو الطائفة أو المذهب، لذلك كان المقصود بخلق الخلق، وإنزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون الدين كله لله.<sup>(٢)</sup> ولا يزال الخطاب البشري يتمتع من عقائد الدين وتشريعاته الأخلاقية والقانونية والتربوية ما يثبت عدم إمكان تخلص الإنسان من الدين. شاهد ذلك في واقعنا الفكري والاقتصادي والسياسي المعاصر دور العامل الديني في حفز الناس وإنهاضهم للإصلاح واقتراحهم للبدائل على جميع المستويات، سواء عند المسلمين أو عند غيرهم.<sup>(٣)</sup>

(١) أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٦٥م، ص ٢٨.

(٢) ابن تيمية الحراني، رسائل من السجن، مرجع سابق، ص ٣٧، وانظر أيضاً:

- ابن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) "القادة القوميون الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوروبي الحالي وهم: كونراد أديناور (Konrad Adenauer) وألسيد دو جاسبير (Alcide de Gasperi) وروبيرت شومان (Robert Schomann)، كانوا جميعاً من الديمقراطيين المسيحيين، ومن الكاثوليك المخلصين." انظر:

- عمارة، محمد. الغرب والإسلام، سلسلة في التنوير الإسلامي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ص ٢٢.

التأسيس الديني للفكر والفعل البشريين يساعد في ترسيخ القواسم المشتركة التي تحمي الإنسانية من السقوط في النزعات المادية اللادينية التي تجتال<sup>(١)</sup> الناس وتستغفل فيهم الفطرة والعقل؛ أي المشتركات التي تحصن البشرية من الوقوع في جحيم الإباحية البهيمية التي توقع الإنسان في حضيض البهائم وتنسيه اصطفاؤه ووظيفته في الوجود، وتلهيه عن طرح الأسئلة الوجودية والمعرفية والأخلاقية الكبرى المتعلقة بمجيئه إلى الدنيا وتكليفه فيها، والقيم التي تنظم حياته ومصيره بعد مغادرتها! وما يترتب على ذلك من أجوبة تعيد للإنسان البحث عن الأجوبة الشافية على الأسئلة الكبرى التي تؤطر حياته بوصفه مخلوقاً له حقوق وعليه واجبات تجاه غيره من المخلوقين، وتجاه خالقه رب العالمين.

ولعل من نتيجة الاقتناع بضرورة التركيز على الأساس الديني للمشارك الإنساني ظهور وانتشار الخطاب الذي ينادي بضرورة العودة إلى الأصل التوحيدي لجميع الأديان، ويقابله في الفكر الإنساني المعاصر النداء المتكرر بـ"الأخلاق العالمية"<sup>(٢)</sup> للدلالة على وجود قواعد أخلاقية مشتركة بين الناس أو ما يسميه إيمانويل كانط بـ"الدين الحقيقي الكلي" أو "دين حقيق واحد" أو "الدين الحقيقي والأوحد"<sup>(٣)</sup> تلك القواعد تحمي الإنسان من السقوط في الإلحاد والكفر والبهيمية والفردانية، وهو نداء راسخ في مجموعة من الدراسات مثل تلك التي قام بها "ماثيو آرنولد" في كتابه الثقافة

---

(١) "اجتألم الشيطان: حوهم عن القصد"، واجتال الشيء إذا ذهب به وساقه، و"اجتألم: حوهم عن قصدهم". انظر:

- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة: (ج و ل).

- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، مادة: (ج ا ل).

(٢) يعدّ الألماني هانز كوينج مُدرس علم الأديان المقارن بجامعة توينجن، وهانز كينغ في كتابه "مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي" من المدافعين عن فكرة "الأخلاق العالمية". كما نذكر بيان المؤتمر الثاني لـ"برلمان أديان العالم"، سنة ١٩٩٣م بشيكاغو تحت عنوان: "إعلان من أجل أخلاق عالمية"، و"الإعلان الكلي للأخلاق العالمية"، الذي وضعه الأمريكي ليونارد سويدلر سنة ١٩٩٦م.

(٣) الخشت، محمد عثمان. فلسفة الدين في ضوء تأويل جديد للنقدية؛ الكانطية، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ط ١، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ١٦٨.

والفوضى Culture and Anarchy الصادر عام ١٨٦٩م، حيث اعتبر "أن الدين من العناصر التي استعان بها الإنسان في محاولته الوصول إلى الكمال،" و"توينبي" حين تناول أسس الحضارات وقيامها، واعتبر أن الدين العنصر الوحيد الذي يمثل الحركة الصاعدة في الدورة الحضارية.<sup>(١)</sup> وهذا يفيد في نظرنا أن التأسيس الديني للمشارك الإنساني يفضي بنا إلى تكسير الأساس الاعتقادي الذي تنبني عليه دعوات التمركز والصراع والاستكبار. هذه الدعوات التي لا ترى لنفسها وجوداً ولا قيمة ولا مستقبلاً إلا بإلغاء وتخوين وتكذيب الدعوات الأخرى المخالفة.

فما هي معالم هذا الأساس الديني للمشارك بين المسلمين وغيرهم؟

## ٢- توحيد الخالق في الرسائل السماوية الثلاث:

### أ- التوحيد جوهر الرسالة الخاتمة:

إذا كان "الدين هو التوحيد؛"<sup>(٢)</sup> أي "الإقرار بوحدانية الله تعالى والتصديق بها،"<sup>(٣)</sup> و"كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسوله،"<sup>(٤)</sup> فإن جميع الرسائل السماوية مشتركة في هذا الأصل ومجمعة عليه؛ إذ التوحيد هو أسّ الرسائل وعمودها الفقري والقاسم المشترك بينها، وتعدّ أن الدين رحمة إلهية وحكمة ربانية مهداة للناس أجمعين بحكم إنسانيتهم، ينظم حياتهم ويوجه تعایشهم وتعارفهم، ويوفر لهم التزكية والتطهير للنفوس والبناء لل عمران الأخوي للجماعات، والتعارف بين القبائل والشعوب والأمم، وبه يسعدون في الدنيا والآخرة، ويكون الحوار وحسن الجوار بين الناس هو

(١) مؤنس، حسين. الحضارة؛ دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٧)،

الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ٣٧٨.

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٣) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، بيروت:

دار الفكر، (١٣٩٤هـ/١٩٧٧م)، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٤) ابن تيمية الحراني، رسائل من السجن، مرجع سابق، ص ٤٥، وانظر أيضاً:

- ابن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٤٥٢.

الأسلوب الأمثل لتعاملهم، وإلى الله بعد ذلك مصيرهم ومعادهم والبت في اختلافهم. الله تعالى هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ واحدٌ أحدٌ، لا والد له ولا صاحبة ولا ولد، ربُّ جميع الخلق، في جميع الأزمان والأماكن بلا نهاية، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ودين الله واحدٌ، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وكتب الله تؤكد ذلك وتعلمه وتنفي خلافه، ورُسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أمناء الوحي وأسوة الخلق جاؤوا برسالة التوحيد، وقصصهم شهادة على ذلك. إذ على أساس التوحيد تشيد باقي الأركان الإيمانية والمعرفية والسلوكية في المنظومة القرآنية،<sup>(١)</sup> وكثيرة هي الآيات الدالة عليه في القرآن الكريم، بل إن القرآن كله مبني على التوحيد، نذكر منها:

- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

- ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصفات: ٤-٥].

- ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْنَا اللَّهُ وَإِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدْ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

- ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا

(١) العلواني، طه جابر. التوحيد والتزكية والعمران، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣م، ص ١٢.

﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

- ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٤-٥].

- ﴿ءَأَمِنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُكَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

- ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

وإذا استعرضنا آيات القرآن الكريم في حديثها عن رُسل الله -عليهم الصلاة والسلام- نجدها تركز على مبدأ "وحدة الدين" للإنسانية، فكل رسول حمل لقومه هذا المبدأ ودافع عنه وبين مقتضياته للناس، وسط صراعات ونزاعات قومية وعرقية وإيديولوجية وعنصرية مختلفة تذكى نار الجهل والتجاهل والجاهلية، قائلاً: ﴿... يَقْوَى اْعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا نُنقِذُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، بدءاً من نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وانتهاءً بخاتمهم محمد ﷺ.

دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد، هو الإسلام، وجميعهم أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا أقوامهم وأممهم والعالم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيرَه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿١١﴾ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل



عمران: ٢٨٥]، وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد، هو الإسلام ودعوتهم واحدة، وهي الدعوة لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة والإصلاح في الأرض،<sup>(١)</sup> وعلى هذا مضى رُسل الله والمسلمون من أمهم.

لذلك كان الأنبياء جميعاً إخوة في الرسالة الربانية للإنسانية، في الحديث: "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"،<sup>(٢)</sup> وفي رواية مسلم: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة. قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبي"،<sup>(٣)</sup> لأن ما جاءوا إلا بدين واحد، وبنو العلات هم أولاد الرجل من نسوة شتى، وأما وجه التسمية فرجح القاضي عياض وغيره أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي الخاتم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال: أنا أولى الناس بعيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ. قالوا: كيف يا رسول الله؟ فقال: "الأنبياء إخوة من علات"،<sup>(٤)</sup> وبوّب الإمام البخاري في صحيحه، باباً بعنوان "باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد" وذكر هذا الحديث وقال: هذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد. فهو بمنزلة الأب الواحد. قال ابن تيمية: "فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يُعبد في كل وقت بما أمر به في

---

(١) قطب، سيد. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، القاهرة: دار الشروق، ط ١٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص ١٨٢.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، ج ٣، ص ١٢٧، حديث رقم: (٣٢٥٩).

(٣) القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج ٤، ص ١٨٣٧، حديث رقم: (٢٣٦٥).

(٤) انظر تخريج الحديث أعلاه.

ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت.<sup>(١)</sup>

المقصد المشترك بينهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، هو: ﴿أَنْ أَيْمُوا لِلدِّينِ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، حيث وصَّى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف في الدين. لذلك كان على جميع الناس أن يؤمنوا بكل نبي سبق، ويصدقوا بكل كتاب نزل، ويحترموا كل شريعة فرضت، ويوادوا كل أمة من المؤمنين خلت، وأن يعبدوا الله وفق ما شرعه من شرائع، ويتبعوا من أرسلهم أسوة دالة عليه، هادية إلى صراطه المستقيم، نموذجاً كاملاً يمشي في الأرض. يتلو كتاب الله ويعتبر بآياته في خلقه، ويسعى بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ إذ الأصل هو التوحيد حيث خلق الله الناس على فطرة الاعتقاد بوحدة الإله الخالق، وما طرأ على هذا الأصل من انحراف إنما هو نتيجة لما اعترى الناس من غفلة وشرك وكفر، حتى إن الذين كفروا وطغوا في البلاد وجحدوا بآيات الله لم يتخلصوا كلية من الاعتقاد بوجود إله خالق، يرجع إليه الحكم والأمر، ومثال ذلك ما ذكره الله تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]، فرعون لم ينكر الربوبية بصفة مطلقة بهذا السؤال؛ إذ سأل سؤالاً استفهامياً يريد من خلاله معرفة الرب، معتقداً أن للعالمين رباً واحداً.

بناء على ذلك نؤكد على أنه لا يتحقق التواصل والتعارف والتشارك بين الأمم إلا برؤية موحدة لخالق الإنسان والحياة والكون، له الخلق وله الأمر، والانطلاق من قاعدة المساواة في الخلق الأدمية التي ترتفع عن اعتبارات اختلاف الأجناس والأعراق والألوان والألسن، قال النبي ﷺ: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على

(١) ابن تيمية الحرائي، أحمد بن عبد الحليم. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، بيروت: دار عالم الكتب، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ج ٢، ص ٣٧٩.

أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ. ثم قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم. قال: ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ. قال: لِيُبَلِّغُ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ".<sup>(١)</sup>

### ب- الرسائل النبوية والدعوة إلى الكلمة السواء:

تكشف رسائل رسول الله ﷺ إلى عطاء الأقسام<sup>(٢)</sup> على مركزية التوحيد، استئنافاً لمهمة الأنبياء السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في تذكير البشرية بميثاق الفطرة الأزلي المشترك ومقتضياته التنزيلية؛ إذ "التوحيد ظاهرة متأصلة في الفطرة البشرية، يتعرف إليها الإنسان، ويكتشفها بالنظر والتأمل والتفكير والبحث، حين يرى أطراد الوحدة، ويتيقن منها بالوحي الإلهي المنزل على الأنبياء،"<sup>(٣)</sup> من أمثلة تلك الرسائل نذكر: كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه إلى عظيم بصرى، وهو الآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]."

(١) الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ج٣٤، ص٢٤، حديث رقم: (٢٠٣٨٦).

(٢) نذكر ممن وصلتهم هذه الرسائل: النجاشي ملك الحبشة، المقوقس ملك مصر، كسرى ملك فارس، المنذر بن ساوى ملك البحرين، هوزة بن علي صاحب اليمامة، الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام، ملك عمان. انظر:

- المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٢٤٦-٢٥٤.

(٣) ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، مرجع سابق، ص٧٧.

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: "قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرزعت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه وأولى الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به، فقال رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه دين الإسلام، فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً، وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤]، "سواء": عدل بيننا وبينكم مستوية؛ أي أمر مستو يقال: دعا فلان إلى السواء؛ أي إلى النصفة، و"سواء" كل شيء وسطه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٥٥] وإنما قيل للنصف "سواء" لأن أعدل الأمور وأفضلها أوسطها و"سواء" نعت لكلمة إلا أنه مصدر، والمصادر لا تثني ولا تجمع ولا تؤنث، فإذا فتحت السين مددت، وإذا كسرت أو ضمنت قصرت كقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ (٥٨) [طه: ٥٨]... وقيل: محله خفض بدلاً من الكلمة؛ أي: تعالوا إلى أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحْبَتَهُمْ أَزْكَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال عكرمة: هو سجدوا بعضهم لبعض؛ أي لا تسجدوا لغير الله، وقيل معناه: لا نطيع أحداً في معصية الله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) [آل عمران: ٦٤]، فقولوا أنتم لهم اشهدوا، "بأننا مسلمون": مخلصون بالتوحيد،<sup>(١)</sup> إذ التوحيد لب الأمر وأساسه وأصله.

الهدف الواضح من الرسائل النبوية إلى الملوك إنما هو مد جسور التواصل والتعارف معهم، ودعوتهم إلى الإسلام الجامع الذي يربط الناس بربهم ويدلهم على مفاتيح السعادة في الدارين، بالرفق واللين والكلمة الصادقة المحاطة بالاحترام لشخص المدعو وثقافته وعوائده، والتركيز على المشترك معه. وهو بذلك يؤكد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أن النبوة رسالة عالمية شاملة تحاطب جميع الناس، وتستهدف كل

(١) البغوي، معالم التنزيل «تفسير البغوي»، مرجع سابق، ج ٢، تفسير الآية ٣١ من سورة التوبة.

الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب وكل الطبقات وكل الثقافات، ولا تلغي الاختلاف الذي جعله الله قدراً مقدوراً، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

إنها ليست رسالة لثقافة واحدة تعلو على باقي الثقافات، وليست وصية لشعب معين يتفوق عرقياً على غيره، ويزعم أنه وحده الشعب المختار! وأن باقي الأجناس جميعاً يجب أن يخضعوا له خضوع العبيد لسيدهم، ولا يؤسس لمجتمع مقفل على ذاته، ومنتهم للأغيار من بني آدم. والمطلع على الوثيقة الدستورية التي أبرمها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران يدرك أهمية التركيز على المشترك الذي يتعايش من خلاله الفرقاء، حيث جاء فيها "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... أن أحمي جانبهم وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم، وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح... وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي... لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم... حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم." (١)

بلغت هذه الوثيقة التي تنظم العلاقة بين المسلمين والنصارى "في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية - القديم منه والوسيط والحديث والمعاصر أيضاً - مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيداً لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين - كل دين - كما هو الحال

(١) الحيدر آبادي، محمد حميد الله. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٥٦م، ص ١٢٣-١٢٨.

مع الوثائق الوضعية العلمانية التي تؤسس للعلاقات بين المختلفين!"<sup>(١)</sup>

يتبين من هذا أن التطبيق النبوي للوحي الحرص على إشراك الآخر والتعاون معه والتركيز على المشترك الجامع الذي ترضيه جميع الأطراف وتحقق به تكاملها. بل حفظ المختلف فيه أيضاً واحترام التنوع دون منازعة المختلفين أو إجبارهم على مغادرة اعتقاداتهم، وفي هذا انسجام مع فطرة الحياة، حيث "التنوع ظاهرة فطرية أصيلة لا بد من القبول بها واستثمارها... [وهو] أساس في الفطرة الطبيعية للإنسان: والناس أعراق ولغات وقبائل؛ والتنوع أساس في التصور والاعتقاد والتدين، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة."<sup>(٢)</sup> ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن نأترف ونختلف.

### ت- التوحيد عند أهل الكتاب:

يقصد بأهل الكتاب اليهود وكتابه التوراة، والنصارى وكتابهم الإنجيل، قال الله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾<sup>(١٥٦)</sup> [الأنعام: ١٥٦]. وقد وردت صيغة "أهل الكتاب" في القرآن الكريم أربعاً وعشرين مرة، تُذكر بأصل التوحيد ومقتضياته، وتنفي الشرك وتوابعه، وذلك بثلاث صيغ:

- خطاب من الله إليهم: يا أهل الكتاب؛ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٥٦)</sup> [آل عمران: ٦٥]، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾<sup>(١٧١)</sup> [النساء: ١٧١].

- خطاب عبر رسول الله ﷺ: بصيغة: "قل يا أهل الكتاب؛ من ذلك قوله تعالى:

(١) عمارة، محمد. الإسلام في مواجهة التحديات، القاهرة: دار نهضة مصر، ط٣، ٢٠١٠م، ص ٢٩.  
(٢) ملكاوي، فتحي حسن. منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، هرنان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ١٥.



### ث- التوحيد في العهد القديم:

نجد في نصوص العهد القديم دلائل كثيرة على أن التوحيد جوهر الدين. نكتفي منها بما يأتي:

- وصية الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني إسرائيل: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تماثلاً منحوتاً، ولا صورة ما، كما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض." (١)

- "أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي." (٢)

- من وصايا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي كتبها الله له على لوح الحجر، وأمر بني إسرائيل بحفظها، وجاء المسيح بعده فأكد عليها في سفر التثنية: "اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، ومن كل قوتك، ولتكن هذا الكلمات التي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يديك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك." (٣)

- "أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي." (٤)

---

(١) الخروج: ٢٠/٤-٤، وقد اعتمدت في النقول على:

- باسيم، بولس. الكتاب المقدس "العهد القديم والعهد الجديد"، بيروت: دار المشرق، ط ٢، ١٩٨٨ م.

- موقع الكتاب المقدس التوراة والإنجيل (<http://alinjil.net>).

(٢) إشعيا: ٤٥/٥.

(٣) التثنية: ٤/٦-٩.

(٤) التثنية: ٦/٥.



- "ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر."<sup>(١)</sup>
- "كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب، ويمجدون اسمك، لأنك عظيم أنت، وصانع العجائب، أنت الله وحدك"<sup>(٢)</sup> هو وحده الله، لا إله إلا هو لا شريك له.
- "يقول الرب: قبلي لم يصور إله، وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب، وليس غيري خلص، أنا أخبرت وخلصت."<sup>(٣)</sup>
- "أيها الرب إلهنا، خلصنا من يده، فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك."<sup>(٤)</sup>
- "أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السماوات وحدي، باسط الأرض، من معي؟! "<sup>(٥)</sup> الله وحده هو خالق السماوات والأرض وما فيهن، فأني شريك هذا الذي شارك الله تعالى في صنع العالم؟
- وجاء في نبوة إشعيا أيضاً: "يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود: أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري. ومن مثلي ينادي، فليخبر به ويعرضه لي... هل يوجد إله غيري، ولا صخرة لا أعلم به."<sup>(٦)</sup>
- ومثله كثير في أسفار العهد القديم.<sup>(٧)</sup> وتعد أسفار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأصل الأول

(١) سفر الملوك (١): ٨ / ٦٠.

(٢) مزامير داود: المزمور ٨٦ / ٩-١٠.

(٣) إشعيا: ٤٣ / ١٠-١٢.

(٤) إشعيا: ٣٧ / ٢٠.

(٥) إشعيا: ٤٤ / ٢٤.

(٦) إشعيا: ٤٤ / ٦-٩.

(٧) ملاخي: ٢ / ١٠، وانظر أيضاً:

- الملوك (١): ٨ / ٢٧.

لكتاب اليهود، والذي يقده النصارى في كنائسهم، ولقد جاءت نصوص التوحيد في هذه الأسفار - وخاصة سفرى التثنية والخروج - واضحة المعالم، فيما يسمى بالوصايا العشر،<sup>(١)</sup> والتي قدر لها أن تبقى وأن يرددتها نصف سكان العالم على حد تعبير ديورانت.

وجاءت الوصايا العشر بصيغتين: الأولى تتصل بالعقيدة، والثانية تتصل بالعادات والتقاليد. جاء في الأولى، في سفر الخروج، في الوصية الأولى: "فإنك لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو،" و"لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"، وفي الوصية الثانية: "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور،" والوصية الخامسة "أكرم أبك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك،" والسادسة "لا تقتل"، والسابعة "لا تزني"، والثامنة "لا تسرق"، والتاسعة "لا تشهد على قريبك شهادة زور"، والعاشر "لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك."

يعلق ديورانت: "إن الوصية الأولى تضع أساس المجتمع الديني الجديد وهو المجتمع الذي لا يقوم على أية شريعة مدنية بل على فكرة الله الملك القدوس الذي لا تدركه الأبصار... أما الوصية الثانية فقد سمّت بفكرة الله، وحرّمت أن تصور له أي صورة منحوته، وقد افترضت هذه الوصية وجود مستوى عقلي راق لدى اليهود، ولأنها تنبذ كل الخرافات كما نبذت فكرة تجسد الإله، وحاولت أن تصور الله منزهاً عن جميع الأشكال والصور."<sup>(٢)</sup>

---

(١) تلخص هذه الوصايا حوالي ٦٠٠ وصية موجودة في العهد القديم. انظر:

- سفر خروج: ٢٠ / ١-١٧.

- سفر التثنية: ٦ / ٥-٢١.

(٢) ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م، ج٢، ص٣٧١.

وبتتبع باقي الوصايا - باستثناء الوصية الرابعة التي تنسب للخالق صفات المخلوق<sup>(١)</sup> - نجد أنها تركز على توحيد الله وتقديسه ونفي الإشراك به أو تجسيده أو تشبيهه بأحد المخلوقات الظاهرة والخفية؛ من إنس أو ملك أو جان أو كائن من كائنات الطبيعة كالشمس والقمر وباقي النجوم والكواكب...

### ج- التوحيد في العهد الجديد

جاءت أسفار العهد الجديد تؤكد تفرد الخالق بالألوهية والربوبية، وتؤكد أن السيد المسيح عبد الله ورسول منه لهداية الناس؛ إذ إن كلمة مسيح نفسها تعني "في العهد القديم، من مُسح فصار أهلاً للقيام بوظيفة تجعل منه ممثلاً للرب... وفي العهد الجديد لم تنسب كلمة يشوع إلا إلى المسيح... والمسيحية في العهد القديم انتظار ورجاء مجيء المسيح"<sup>(٢)</sup>، ومما جاء على لسان المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواريه<sup>(٣)</sup> بشأن التوحيد ونفي الشرك نذكر:

- "ولا تدعوا لكم أباً على الأرض؛ لأن أباكم واحد، الذي في السموات. ولا تدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد، المسيح."<sup>(٤)</sup>

- "وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح؛ أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد، وهو الله."<sup>(٥)</sup>

- قال يوحنا: "كلم يسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الأب قد أتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً؛ إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته، وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله

---

(١) في الوصية الرابعة ينعت الله بصفة التعب، فتقول: "في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدهس."

(٢) اليسوعي، صبحي حوي. معجم الإيمان المسيحي، بيروت: دار المشرق، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ٤٥٦.

(٣) أحمد، إبراهيم خليل. محاضرات في مقارنة الأديان، القاهرة: دار المنار، ط ٢، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ٢٥ وما بعدها.

(٤) متى: ٢٣/٩-١٠.

(٥) متى: ١٩/١٧.

- الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته،"<sup>(١)</sup> فليس من إله على الحقيقة إلا واحد، وهو الأب الذي كان المسيح يخاطبه في أول الفقرة: "أيها الأب".
- في إنجيل مرقص: "إن أول الوصايا هي: الرب إلهنا رب واحد،"<sup>(٢)</sup> وهذا واضح في كون الأصل هو التوحيد، أما الشرك فهو طارئ وغريب.
- وفي إنجيل رومية: "لأن الله واحد، للجميع رب واحد،"<sup>(٣)</sup> وكذلك: "لكن لنا إله واحد؛ الأب الذي منه جميع الأشياء ونحن له."<sup>(٤)</sup>
- وفي متى: لما جرب الشيطان يسوع عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له: "أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان. لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد."<sup>(٥)</sup>
- وفي يوحنا قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لليهود: "أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد، وهو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكتتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي، بل ذاك أرسلني."<sup>(٦)</sup>

التوحيد، إذن، معتقد تلاميذ المسيح وتلاميذهم من بعده، كما نقل عنهم ذلك العهد الجديد وما طرأ التحريف إلا بطول الأمد وبُعد الشقة:

- جاء على لسان التلميذ يعقوب: "أنت تؤمن أن الله واحد. حسناً تفعل."<sup>(٧)</sup>

(١) يوحنا: ١٧/٢-٣.

(٢) مرقص: ٢/٢٩.

(٣) إنجيل رومية: ٣/٣٠، ١٠/١٢.

(٤) كورنثوس (١): ٨/٦.

(٥) متى: ٤/١٠، ومثله في لوقا: ٤/٨.

(٦) يوحنا: ٨/٤١-٤٢.

(٧) يعقوب: ٢/١٩.

- "واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك."<sup>(١)</sup>

- يقول يهوذا: "الإله الحكيم الوحيد مخلصنا."<sup>(٢)</sup>

- حتى بولس الذي يقال عنه أنه مؤسس المسيحية، نجد له بعض النصوص التي تثبت إيمانه بوحداية الله، ومن ذلك قوله: "يوجد إله واحد ووسيط بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح"<sup>(٣)</sup> إله واحد، له رسول واحد يُبَلِّغُ اللهُ من خلاله وحيه وهديه، هذا الرسول هو الإنسان يسوع. ويقول واصفاً الله بالوحدانية وغيرها من صفات الجلال والكمال: "المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكناً في نور، لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس، ولا يُقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية."<sup>(٤)</sup>

- "لكن الله واحد."<sup>(٥)</sup>

- "إن الله واحد وليس آخر سواه."<sup>(٦)</sup>

- "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك."<sup>(٧)</sup>

- "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد."<sup>(٨)</sup>

- تقدم واحد من الناس سائلاً سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: "أيها المعلم الصالح...

---

(١) يعقوب: ١٢/٤.

(٢) يهوذا: ٢٥.

(٣) تيموثاوس (١): ٥/٢.

(٤) تيموثاوس (١): ١٥/٦-١٦.

(٥) غلاطية: ٣/٢٠.

(٦) مرقس، ٣٢/١٢.

(٧) يوحنا: ٣/١٧.

(٨) متى: ٨/١٠-٨.

أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله." (١)

- سُئِلَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟ فَأَجَابَ: إِنَّ أَوَّلَ الْوَصَايَا هِيَ: الرَّبُّ إِلَهُنَا وَاحِدٌ، لِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرَ سِوَاهُ." (٢)

فهذه النصوص وكثير مثلها تتحدث عن الإله الواحد، وليس في واحد منها أو غيرها حديث عن الإله المتعدد الأقانيم (٣) المتوحد في الجوهر، فسيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يَدَّعِ يوماً ما أنه إلهٌ أو ابنُ إلهٍ؛ إذ حرص كل الحرص على توضيح مهمته بجلاءٍ كَنَبِيٍّ لا أقل ولا أكثر، (٤) يكمل ما جاءت به التوراة من التوحيد وليس ناسخاً له؛ إذ صرح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل،" (٥) ففي القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦].

### ح- "النصرانية" والتوحيد:

معلوم أنه لم يرد في القرآن الكريم كلمة "مسيحية" ولا صفة "مسيحي"، وإنما وردت كلمة "نصارى" ثلاث عشرة مرة، منها ثماني مرات مُعرفة وخمس مرات نكرة، وسبب عدم ورود كلمة "مسيحية" وهي شائعة "ربها؛ لأن كلمة مسيحي استخدمت

(١) متي: ١٩/١٦-١٧.

(٢) مرقس: ١٢/١٨-٣٤.

(٣) الأقانيم الثلاثة هي: الآب، الابن، روح القدس. كلمة أقنوم Hypostasis باليونانية هي: هيبوستاسيس، وهي مكونة من مقطعين: هيبو وهي تعني تحت، وستاسيس وتعني قائم أو واقف، وبهذا فإن كلمة هيبوستاسيس تعني تحت القائم. ولاهوتياً معناها: ما يقوم عليه الجوهر، أو ما يقوم فيه الجوهر أو الطبيعة. والأقنوم هو: كائن حقيقي له شخصيته الخاصة به، وله إرادة، ولكنه واحد في الجوهر والطبيعة مع الأقنومين الآخرين بغير انفصال.

(٤) نجد هذا في: لوقا: ٧/١٦، ويوحنا: ٦/١٤، وبرنابا: فصل ٩٣، ويوحنا: ١٧/٤، وتيموثاوس (١): ١٧/٢-٥.

(٥) متي: ٥/١٧.

بعد ذلك نوعاً من الشتيمة. (١)

دُعي المؤمنون بالمسيح لأول مرة بـ"مسيحين" في أنطاكية (٢) نحو سنة ٤٢ أو ٤٣م. ويرجح أن ذلك اللقب كان في الأول شتيمة، (٣) قال المؤرخ تاسيتس المولود نحو ٥٤م. أن تابعي المسيح كانوا أناساً عاميين ولما قال أغريباس لبولس: "بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً." (٤) فالراجح أنه أراد أن حسن برهانك كان يجعلني أرضى بأن أعاب بهذا الاسم. (٥) وقد شاع بمعنيين:

- المقرّ بالديانة المسيحية.

- المؤمن الحقيقي القلبي.

إن الكلمة الحق في النصرانية والنصارى هي ما جاء في القرآن الكريم؛ إذ ينطلق "من الاعتراف بهم، لا كـ"آخر" بالمعنى الأوروبي للكلمة، بل كواحد من "آخرين" يعترف بهم، كأهل دين، وهم جميعاً بما في ذلك "الأنا"/الإسلام، متساوون أمام الله... وهذا الموقف الذي يمكن وصفه بـ"الغيرية الإيجابية" لم يكن يخص النصارى العرب وحدهم، بل يعم النصارى عموماً،" (٦) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ فَضَّلْنَا عَلَىٰ آخَرِهِمْ يُرْسِلْنَا وَفَضَّلْنَا يُعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ

(١) انظر تطور المصطلح في المعاجم الفرنسية من خلال لفظ: Cretien.

(٢) أعمال الرسل: ١١ / ٢٦.

(٣) رسالة بطرس (١): ٤ / ١٦.

(٤) أعمال الرسل: ٢٦ / ٢٨.

(٥) نخبة من علماء اللاهوت. قاموس الكتاب المقدس، بيروت: مطبعة الحرية، ط ١٣، ٢٠٠٠م، ص ٨٨٩، مصطلح: (مسيحي).

(٦) الجباري، "الغرب والإسلام"، مرجع سابق، ص ٦.

ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَعْزَمُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ [الحديد: ٢٦ - ٢٧]. فالأصل في نبوءة المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو دين التوحيد الخالص، حيث كانت بعثته حلقة في سلسلة الوحي واستمراراً في الدعوة إلى عبادة الله وحده من غير نِدٍّ ولا شريك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، إلا أن قومه اختلفوا فيه؛ منهم من استمع واتبع، ومنهم من استمع ولم يتبع، وكلاهما يسمى: قوم عيسى. وكانت رسالته تذكيراً لما تركه ونسيه الفاسقون من الأمة (الموسوية) من دين الله تعالى.

من كل أمة أيضاً كان مهتدون صالحون متبعون، وكان كثيرٌ من الفاسقين الذين أفسدوا دينهم بالشرك والكفر والجحود. وتكرر الآيات الكريمة ذكر الفسق وذكر الكثرة. قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ الْقَلْبَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وإخبار الله عز وجل عن كثرة الفاسقين من مدعي اتباع سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تشمل تاريخ النصرانية بطوله، لا يقتصر الإخبار الإلهي على فترة ما قبل البعثة المحمدية. ولعل هذا الفسق الكثير هو الذي كان سبباً لثورة الفطرة الإنسانية على الكنيسة، وهو من ثمَّ كان سبب مولد الدعوة الإلحادية العلمانية التي تطورت في تلك البيئة، واستوردتها الأمم المستضعفة عبر ريح الاحتلال والاحتكاك و"نحلة الغالب" كما عبر عن ذلك عبد الرحمن بن خلدون.

الأمر في كتاب الله "الإنجيل" أن يكون سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عبداً لله داعياً الناس إلى إفراذ الله وحده بالعبادة، لكن من جاء بعد السيد النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ من المنتسبين إليه حرّف الرسالة من التوحيد إلى الشرك، من دعوة الفلاح إلى دعوى الخلاص، ففي



سورة النساء: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال أيضاً: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نَبِّئْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وتصحيحاً للتحريف الذي لحق دين الله، قال الله تعالى مستفسراً بنيه عيسى عليه السلام: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [١١٦] مَأَقَلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [١١٧] إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُعَذِّبْهُمْ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨]، فكان دين سيدنا عيسى إذن - وجميع الأنبياء عليهم السلام - هو ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ووظيفة النبي شهادة وشهود، بشارة ونذارة. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].  
 وشهد الله بما أتى من رأفة ورحمة لأتباع كلمته ورسوله عيسى عليه السلام، وبين تفریطهم في الرهبانية التي قصدوا بها خيراً في بداية الأمر. حيث كانت الدعوة (العيساوية) تجديداً لدين الله إلى أن وقع التحريف الفظيع في إلغاء التسامي المفارق المطلق للذات الإلهية، والقول بوحدة الجوهر بين الله وعيسى، بل جعل الإله الواحد ثلاثاً أقانيم...

كانت الأمة (الموسوية) تحت وطأة الاستعمار الروماني يومئذ. فظهرت الرأفة والرحمة تكديماً لقسوة بعض الأحرار، وكان الانزواء عن المجتمع الوثني الروماني وعن ثقافته السائدة وما استلزمه الانكفاء على الذات من تراحم أخوي. وظهرت المقاومة السلبية في المجتمعات المسيحية قبل غياب عيسى عليه السلام.

لا ندري متى ظهر شعار "اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وهو شعار "تصالح" مع الدولة بصورة مطلقة، بل تسويغ لمظالمها، وإن كان بعض المسيحيين ينسبونه للمسيح

عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قِصَّةِ مَشْهُورَةٍ عِنْدَهُمْ تَقُولُ: "ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تَبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللَّهِ. أَجُوزُ أَنْ تُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لَا؟ نُعْطِي أَمْ لَا نُعْطِي؟" فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: "لِمَاذَا تُجْرِبُونَنِي؟ إِيْتُونِي بِدِينَارٍ لِأَنْظُرَهُ" فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: "لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟" فَقَالُوا لَهُ: "لِقَيْصَرَ". فَأَجَابَ يَسُوعُ: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ". فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ. (١)

المشهور أن قيصر قاد تفتيلاً خطيراً في صفوف المؤمنين برسالة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، رسالة الإسلام آنذاك، واستمر الاضطهاد أكثر من ثلاثمائة سنة! مجازر فظيعة تدل على مدى حق قيصر وغضبه أن يظهر في الأرض سلطان غير سلطانه، أثناء هذه القرون الثلاثة عاش النصارى في السرية والتخفي، وعاشوا تحت السياط.

ثابت، إذن، أن بين الرسائل السماوية ما يمكن تسميته بـ"المشترك التوحيدي"، الذي تلخصه الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله"، وهي كلمة الله إلى الإنسان، تكريباً وتكليفاً وتشريفاً، وهي أعظم وأطيب وأجمل كلمة، وهي طريق الإنسان إلى الله، ومن ثم إلى المعرفة الحق والسعادة الحق وال عمران الحق. حيث الإنسان مخلوق مكلف ومكرم بإنسانيته المتصلة بمعية الله، لا بعرقه ولونه وجغرافيته وحسبه ونسبه وثقافته. و"كل ما يحتويه الإسلام من تنوع وثراء وثقافة وتعاليم وحكمة وحضارة متضمن في تلك العبارة بالغة الإيجاز: لا إله إلا الله. فالتوحيد هو رؤية عامة للحقيقة، وللواقع، وللعالم، وللمكان والزمان، ولتاريخ الإنسانية ولمصيرها." (٢)

الدين دعوة ربانية هداية الناس إلى الحق والطريق المؤدية إليه في إطار منهجية كونية قائمة على شريعة تخفيف ورحمة وعدل. وطريق التكريم الحق الممتد من الدنيا إلى الآخرة يمر عبر إسلام الوجه لله واتباع ملة الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ

(١) إنجيل مرقس: ١٢ / ١٢-١٧.

(٢) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٤٥.

أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، لهذا جاء التأسيس القرآني لحل هذه المعضلة بإنسانية الهداية وعالميتها، وأخوة البشرية وتعاونها، ووحدة الرسالة الإلهية إلى الناس، قال الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَاتَّبِعْ مَا وَصَّيْنَا وَمَا أَوْحَيْنَا وَمَا نُنزِلُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا نُنزِلُ مِنَ الْوَحْيِ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى اذْهَبْ بِهَذِهِ السِّلَّةَ أَلْقِهَا فِي الْبَلَدِ الْكَافِرِ فَتَحَوُّهُمُ إِلَى الصَّالِحِينَ وَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِلَّا أَنْ قُلْ لِلَّهِ الْإِسْلَامُ وَاللَّهُ يُسَلِّمُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٦]، فصَحَّ ذلك الظن الأناني الحاسد والمتحيز بقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١١٢] لا فتوية ولا عرقية ولا قومية ضيقة.

#### خ- التوحيد عند الطوائف المسيحية الموحدة:

مما سبق نستشف أن أعظم ما لحق الأديان من تحريف في تاريخها الطويل أصاب جوهرها الذي لا قوام لها دونه؛ التوحيد. لكن هذا لا يعني أن الموحدين انتهوا تماماً، بل إن وثائق التاريخ تثبت استمرار وجود أعداد كثيرة من علماء النصراني وعامتهم وطوائفهم ممن أنكروا تأليه الأنبياء والصالحين، ورفضوا عقيدة التجسيد والتثليث والتشبيه، مؤكدين تفرد الله وحده بالألوهية والربوبية والأزلية، وأن النبي مهما علا شأنه يبقى بشراً مخلوقاً كما ولد يفنى.<sup>(١)</sup>

وقد حظي أولئك العلماء من الأساقفة والبطارقة الموحدون بالآلاف، بل عشرات آلاف الأتباع والمقلدين،<sup>(٢)</sup> ونذكر من أشهر الفرق والشخصيات النصرانية الموحدة البارزة عبر التاريخ التي تحدثت عنها المراجع التاريخية النصرانية، أسماء عدة فرق في

(١) الأعظمي، محمد ضياء الرحمن. دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ط ٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ٤٦٤ - ٥١٤.

(٢) ذكر محمد عطاء الرحيم الفرق النصرانية الموحدة القديمة، وتحدث في فصل كامل عن أعلام الموحدين في النصرانية، استوعب فيها أسماءهم وتراجهم وكتاباتهم ودلائلهم على التوحيد وأحوالهم، وما لاقوه من اضطهاد ومحاربة في سبيل عقيدتهم. انظر:

- عطاء الرحيم، محمد. عيسى يبشّر بالإسلام، ترجمة: فهمي الشما، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٦م.

القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تنكر التثليث والتجسيد وتأليه المسيح وهي: فرقة الأبيونيين، فرقة الكارينثانيين، وفرقة الباسيليديين، وفرقة الكارثوقراطيين، وفرقة الهيبسيستاريين، وفرقة الغنوصيين. وهي فرق نصرانية تعتقد أن الله واحد، وأن المسيح رسول الله، وترفض التثليث، وتؤمن بالوحي والعبادة، وبذلك يتميزون عن عامة الكنائس النصرانية التي تؤمن بعقيدة التثليث المنصوص عليها في قانون الإيوان الذي أقره مجمع "نيقية"<sup>(١)</sup> الذي انعقد بتعليمات الإمبراطور وتحت إشرافه.

وتعود جذور عقيدة الموحدين النصارى إلى الدين نفسه الذي علمه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الإسلام في العقيدة، واتباع التوراة في الشريعة؛ فهم في الأصل الطائفة التي آمنت من بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَرَّتْ طَّائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]، وتمسكوا بالإيمان الذي أعلنه الحواريون الذين قالوا: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ عَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدَ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وظل بعضهم على هذا الإيمان إلى البعثة المحمدية.<sup>(٢)</sup>

أما أشهر القساوسة والشخصيات المسيحية الموحدة القديمة التي توردها تلك المصادر<sup>(٣)</sup> فنذكر منها:

"ديودوروس" أسقف طرطوس، و"بولس الشمشاطي، وكان بطريركاً في أنطاكية ووافق على مذهبه التوحيدي الخالص كثيرون وعرفوا بالفرقة البوليقيانية، و"الأسقف لوسيان الأنطاكي أستاذ آريوس" (توفي: ٣١٢م) و"آريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية" (توفي: ٣٣٦م) وقد صار له ألوف الأتباع عرفوا بالآريوسيين وبقي

(١) أشهر المجامع الكنسية، عقده علماء النصرانية بطلب من الإمبراطور قسطنطين الذي أراد توحيد الإمبراطورية على عقيدة مشتركة بين الوثنية والنصرانية؛ وذلك سنة ٣٢٥م؛ أي قبل الهجرة النبوية بحوالي ثلاثمائة سنة.

(٢) الأنبا غريغوريوس، وهيب عطا الله جرجس. موسوعة الأنبا غريغوريوس «اللاهوت المقارن»، القاهرة: شركة الطباعة المصرية، ٢٠٠٣م، ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٣) عطاء الرحيم، عيسى يبشر بالإسلام، مرجع سابق، وانظر أيضاً:

- أبو زهرة، محمد. محاضرات في النصرانية، القاهرة: دار الفكر العربي، ط ٣، (١٣٨١هـ/١٩٦٦م).

مذهبهم التوحيدي حياً لفترات زمنية طويلة وصار آريوس علماً للتوحيد حتى أن كل من جاء بعده إلى يومنا هذا، وأنكر التثليث وألوهية المسيح، يصمه رجال الكنيسة الرسميون بأنه آريوسي!! و"يوزيبوس النيقوميدي" وغيرهم كثير.

أما أشهر الموحدين من رجال الدين والفكر المسيحيين المحدثين فنذكر منهم:

- الطبيب الإسباني ميخائيل سيرفيتوس Michael Servitus (١١٥١-١٥٥٣م): الذي تأثر بحركة الإصلاح البروتستانتية وأعلن بطلان عقيدة التثليث ورفض ألوهية المسيح بشدة، وكان يسمى الثالث بـ"الوحش الشيطاني ذي الرؤوس الثلاثة!" وقام بحركة نشطة جداً في الدعوة إلى التوحيد الخالص، وقد اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً.

- القسيس الروماني فرانسيس ديفيد Francis David (١٥١٠-١٥٧٩م): انتقل إلى التوحيد الخالص بعدما كان أسقفاً كاثوليكياً أولاً، ثم اعتنق البروتستانتية، فأبطل التثليث ونفى ألوهية المسيح، وقد أثمرت أفكاره فرقة من الموحدين في بولونيا والمجر هنغاريا وأثرت أفكاره حتى في ملك هنغاريا الذي أصدر بياناً أمر فيه بإعطاء الموحدين حرية العقيدة.

- فاستو باولو سوزيني Fausto Paolo Sozini (١٥٣٩-١٦٠٤م): صاحب "المذهب السوسيانى"، وهو لاهوتي إيطالي اشتهر باسم سوسيانوس Socianus، نشر كتاباً إصلاحياً ينتقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث وتجسيد وكفارة وغيرها، ثم اهتدى إلى التوحيد الخالص وأخذ يؤكد عليه في كتاباته، وانتشرت تعاليمه واشتهر مذهبه اللاهوتي باسم "السوسيانية"، تعرض أتباعها لاضطهاد وحشي منظم منذ عام ١٦٣٨م وحرقت الكثير منهم أحياء، وفي سنة ١٦٥٨م حُيِّرَ الناس بين قبول الكاثوليكية أو الذهاب للمنفى، فتوزَّع التوحيديون في أطراف أوروبا، وظلوا فئات منفصلة لفترات طويلة، وقد لقيت السوسيانية رواجاً عميقاً في هنغاريا المجر، ثم بولندا وترانسلفانيا إقليم في رومانيا وانتشرت

منها إلى هولندا، ثم بريطانيا وأخيراً سرت للولايات المتحدة الأمريكية وكانت وراء نشوء الفرقة الشهيرة التي تسمت باسم التوحيديين The Unitarians.

- المحقق البريطاني جون بيدل John Biddle (١٦١٥-١٦٦٢): ويعدّ أباً لمذهب التوحيد في إنجلترا، حيث قام بنشاط إصلاحى قوي ورائع في بريطانيا ونشر رسائله التوحيدية المدللة بأقوى البراهين المنطقية على بطلان إلهية المسيح وبطلان إلهية الروح القدس، وتفرد الله الأب وحده بالألوهية والربوبية، أثرت أفكاره في الكثيرين من مفكري بريطانيا فأمنوا بها، ومن أشهرهم: ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤م)، وإسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م).

- القسيس البريطاني توماس إيملين Thomas Emlin (١٦٦٣-١٧٤١م): وقد كان من القساوسة البروتستانت المشايخية Presbyterian ونشر كتاباً بعنوان: "بحث متواضع حول رواية الكتاب المقدس عن يسوع المسيح" بيّن فيه بطلان القول بإلهية المسيح وبطلان القول بتساويه مع الأب، فقبض عليه واتهم بالهرطقة ونفي من بريطانيا، لكنه رغم ذلك لم يتوقف عن دعوته للتوحيد التام، ونشر رسائله المدللة بالبراهين القوية من الكتاب المقدس، على نفي الألوهية عن النبي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإثبات التوحيد لله تعالى وحده، وتعدّ رسائله من أقوى وأحسن ما كتب في هذا الباب، واتبعه عدد كبير من القساوسة البريسبيتاريين.

- القسيس البريطاني ثيوفيلوس ليندسي Theophilus Lindsay (١٧٢٣-١٨٠٨م): منظم أول جماعة مصليين موحدة في إنجلترا، وكان يؤكد أنه ليست الكنائس فقط مكان عبادة الله، بل للإنسان أن يختار أي مكان لأداء الأدعية والصلوات لله وحده.

- القسيس والعالم البريطاني جوزيف بريستلي Joseph Priestly (١٧٣٣-١٨٠٤م):

وكانت أكثر كتاباته أثراً كتاب "تاريخ ما لحق بالنصرانية من تحريفات" وجاء في مجلدين. وقد أثار هذا الكتاب ثائرة أتباع الكنيسة الرسمية وأمروا بإحراقه فيما بعد، كما ألف كتاباً رائعاً آخر في دحض التثليث وإبطال ألوهية المسيح سماه "تاريخ يسوع المسيح". هذا وقد اهتم بريستي كذلك بالكيمياء واكتشف الأوكسجين الأمر الذي أكسبه شهرة عالمية. وقد هاجر بريستي في آخر عمره إلى أمريكا وأنشأ هناك الكنيسة التوحيدية Unitarian Church.

- القسيس الأمريكي ويليام إيليري تشانينغ William Ellery Channing (1780-1842م): وقد أسهم في نشر تعاليم الكنيسة التوحيدية في أمريكا وبريطانيا، وأثرت أفكاره في قادة حركة اللاهوت العصرية في جامعة هارفرد.

- البروفيسور البريطاني المعاصر جون هيك John Hick مُدرس اللاهوت في جامعة برمنجهام وصاحب كتاب "The Myth of God Incarnate"؛ أي: "أسطورة الله المتجسد"،<sup>(1)</sup> وتُرجم إلى العربية وإلى عدة لغات عالمية، ويضم مقالات له ولمجموعة من كبار الأساتذة والدكاترة في اللاهوت ومقارنة الأديان في جامعات بريطانيا، يتلخص مضمونه في ما أشار إليه هيك نفسه في المقدمة: "إن كُتِّبَ هذا الكتاب مقتنعين بأن هناك، في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، حاجة ماسة لتطور عقائدي كبير آخر. هذه الحاجة أوجدتها المعرفة المتزايدة لأصول المسيحية، تلك المعرفة التي أصبحت تستلزم الاعتراف بعيسى أنه كان: "رجل أيده الله" لأداء دور خاص ضمن الهدف الإلهي، وأن المفهوم المتأخر عن عيسى والذي صار يعدّه "الله المتجسد والشخص الثاني من الثالوث المقدس الذي عاش حياة إنسانية" ليس في الواقع إلا طريقة تعبير أسطورية وشعرية عما يعنيه عيسى المسيح بالنسبة إلينا."

---

(1) Hick, John (Edi.). *The Myth of God Incarnate*. Philadelphia: Westminster Press, 1977.

## ثانياً: القيم الدينية المشتركة بين المسلمين والغرب

لا شك أن القيم والأخلاق الدينية هي أساس ومحور السلوك الإنساني؛ إذ أثبتت الدراسات التاريخية والاجتماعية للأديان أن القيم الدينية هي المحدد الأول لهوية المجتمعات من حيث لا حياة للإنسان من غير أخلاق، ولا أخلاق من غير دين، لهذا لا يخفى على أحد الحضور القوي للقيم الأخلاقية في القرآن العزيز، بل يكفي أن تُعد النبوة تمييزاً للأخلاق المشتركة بين الإنسانية وتهذيباً لها وتقويماً وتصحيحاً للتحريف الذي يطالها، ففي الحديث: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق،"<sup>(١)</sup> ولا ريب في أن المجتمعات المعاصرة تعيش أزمة قيم أخلاقية، تعبر عنها تلك الدعوات المتكررة المنادية بضرورة تخليق الحياة العامة في جميع جوانبها السياسية والثقافية والاجتماعية والبيئية والعمرانية والعلمية، وبناء "أخلاق عالمية" تشترك فيها الأمم والشعوب. مع العلم أن هذه القيم في مجملها تنبع من مصادر دينية؛ إذ القيم الدينية متجذرة في البشرية أكثر من غيرها من القيم، وهي عبارة عن نسق مركب ومرن ومفتوح، يقبل التكيف مع الزمان والمكان، ويخاطب الإنسان في كينونته العالمية والكونية، في الماضي والحاضر والمستقبل، ويوظف فطرته وينبه عقله، ويوضح له غاية وجوده ومآله بعد مماته.

### ١ - وحدة الإنسانية والمشارك الإنساني:

ذكر "الإنسان" في أول آية نزلت من القرآن الكريم، مع التوحيد والكرم الإلهيين والبعثة النبوية والخلق والتكوين والعلم بالقلم، في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥]، كما ذكرت عائلته المفاهيمية في أغلب السور: الناس، الإنس، البشر، بني آدم، العباد، العبيد. فهو مكرم بإنسانيته ابتداءً، حيث اصطفاه الله من بين خلقه، وحمله أمانة الوحي، وسخر له مما في السماوات ومما في الأرض، مما يعلم الإنسان ومما لا

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج ١٠، ص ١٩١، حديث رقم: (٢٠٥٧١).



يعلمه إلا الله، وليس ذلك التسخير والإنعام إلا للإنسان، بصفته إنساناً وكفى، لا بكونه شرقياً أو غربياً، عربياً أو عجمياً.

#### أ- الإنسان وحدة نفسية متفردة:

يتميز الإنسان عن غيره من الخليقة التي هي صنْع الله وتدبيره، وتجري عليها سننه بحسبانٍ لا يتخلف،<sup>(١)</sup> بباهيته التي تخصه؛ هي التي نبّه الله عليها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فهو يجمع بين الطين والروح ويتفوق على باقي المخلوقات بكونه المنادى والمخاطب والمسؤول والمؤتمن والمستخلف والكادح إلى ربّه. وهذه الميزة لا تستثني قوماً دون آخرين ولا جنساً دون بقية الأجناس ولا جهة من غير الجهات الأخرى، وإنما تجعله كائناً معرفاً بإنسانيته مكلفاً بأمانة الاستخلاف، وحدته الخلقية مستمدة من وحدانية الخالق سبحانه.

#### ب- الإنسان بين المخلوقية والاستخلاف:

الإنسان مخلوق من نفسٍ واحدة، هي الإنسان الأول، وخلق الله منها زوجها، قال الله تعالى في كتابه المهيمن: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، و"صيرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة"،<sup>(٢)</sup> فتشكلت الأسرة، ومن تكاثر الأسر تشكلت العوائل والقبائل والمدن والشعوب والأمم، ومع تكثر الناس وتكاثر حاجاتهم حدث التعامل والتعاون والتدافع والتنافس. ولما جعل الله الإنسان خليفة في الأرض جاءت الأوامر الإلهية عبر الرسالات النبوية ليني العميران الإنساني. فأصل الناس جميعاً من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، رحمّم آدمية ممتدة بلا نهاية، وآدم من تركيب مزدوج؛ قبضة من طين فكان بشراً ونفخة من روح

(١) هيشور، محمد. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م.

(٢) عبد السلام، جعفر. والسايح، أحمد. المسلمون والآخر؛ أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي، القاهرة: جامعة الأزهر، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص٣٦.

فصار إنساناً. وأبوته سارية على جميع الناس إلى يوم القيامة، لهذا "يمثل مفهوم الناس الأنا الإنساني الجامع"<sup>(١)</sup> الذي ميزه الله بقدرات إدراكية وروحية وعملية مشتركة.

الإنسان كفو للإنسان، إخوة متكافئون خلقياً وتكريباً أصلياً، مشدود إلى الأرض بترابيته ومشرَّب إلى السماء بروحانيته، لا غنى له عن السعي في الأرض كما لا غنى له عن الاستمداد من الوحي. والقرآن في دعوته إلى وحدة الشرائع في مصدرها وفي جوهرها، وإلى الإيمان بجميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بلا تفریق بينهم ولا تعصب، إنما يدعو جميع المخلوقين من الناس؛ الأفراد والشعوب والأمم مذكراً إياهم بالوحدة الإنسانية الكبرى التي خرجت من ذكر وأنثى، من أسرة واحدة، وعنهما تكاثرت الشعوب والقبائل التي لا يصح أن نفاضل بينها إلا بمعيار التقوى والإنجاز، والعمل الصالح.

وتكاثر الشعوب والقبائل ليس تكاثر عدا و سلب وإقصاء، وإنما هو تكاثر تكامل وتبادل وتواصل وتعارف، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]؛ إذ الإنسان الفرد - كائناً من كان - عضو من أسرة صغيرة تنتمي في النهاية إلى أسرة كبيرة جامعة هي أسرة الإنسانية، التي أصلها نفس واحدة هي: النفس الواحدة الجامعة ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

لما كان خلق الإنسان مقروناً بإرادة الله عز وجل الكاملة المطلقة، فإن "هذا الخلق أيضاً جاء على الكمال المطلق الممكن تخيله في شأن مخلوق قد ذرأ في هذا البعد من أبعاد الوجود، وقد نص الله تعالى على هذا بقوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥]؛ أي إن هذا الخلق بيد الله تعالى وأن هذا الإنسان قد خلق في أحسن تقويم، وجُهِزَ أفضل تجهيز بكل ما ييسر له النهوض بواجبه الرسالي الشامل الذي وُجد على وجه البسيطة مكرماً مهيباً بغية القيام به. حتى كان الإنسان محوراً لاهتمام القرآن، إما حديثاً له أو حديثاً عنه.

(١) عمر، السيد. الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق: دار الفكر، ط ١، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص ١٥٩.

لم يخلق الإنسان عبثاً ولم يخلق سُدىً، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فهو ليس هيكلًا مادياً فقط، ولا عقلاً منطقياً للفحص والتمحيص فحسب، ولا مجرد آلة بيولوجية تلتهم الأطعمة والأشربة، وليس آلة رياضية للعد والمقارنة والترتيب، وإنما هو كيان خاص متفرد بمجموع الخصائص المتداخلة والمتكاملة؛ جسدية، عقلية، روحية، أخلاقية... تجعل منه الكائن الوحيد المؤهل للاستخلاف، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. إن كينونة الإنسان، إذن، هي كينونة غائية قاصدة، فهو خليفة الله في الأرض، وقضية القضايا في الوجود؛ إذ "المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو أن يوجد الإنسان... وجعل الله الإنسان سلالة العالم وزبدته،"<sup>(١)</sup> ومن أجل النهوض بمهمة الاستخلاف في الأرض، هُيئَ هذا الإنسان وعُلمَ وحُصِّ بالتكريهات الربانية التي لا تحصى ولا تُعد، ولا يملك أن يؤدي شكرها لمن وهبها.

ينتمي الإنسان إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان، التي تشكل مجتمعة وحدة كبرى تتقاسم الضرورات والمآلات، وتعترضها تبعاً لذلك نفس التحديات والمعضلات الكبرى، والتي لا تُرفع إلا بالعمل الجماعي المشترك الذي يتجاوز مردوده مردود العمل الفردي، ولعل ذلك ما يجعل من الإنسان كائناً كونياً يتبنى هموم العالمين في كافة امتداداتهم وبكل انتماؤاتهم، وهذا الإحساس الجمعي هو ما تنتج عنه ابتداء حالة من المشاركة الوجدانية بين سكان المعمورة في القضايا ذات الاهتمام المشترك والمصير المشترك.

إخوة في الخليقة هم جميع الناس. وإخوة في المنشأ كلهم من طينة الأرض، وإخوة في المصير الأكبر كلهم صائرون إلى الله. وإخوة في الإنسانية كلهم من نفس واحدة وجعل الله منها زوجها. "والناس كلهم، أو ينبغي لهم، أن يعبدوا الله ويلتقوا في حماه. إخوة في الاتجاه. ومن هنا ينشأ الحب للإنسانية، والصلة بين بني الإنسان. وبروح

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، بيروت: دار النفائس، ط ١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٧٤.

الإسلام يغذيه بكل توجيهاته وكل تطبيقاته حتى يصبح جزءاً من العقيدة حياً متمزجاً بالكيان. وحين يكون هذا هو المبدأ، حين تكون هذه هي الركيزة الموجودة في باطن النفس، فإن صراع الشر في الناس يكون هو الحالة الطارئة التي لا تلبث أن تزول. ويصير السلام هو الأصل في الحياة، والحرب هي الشذوذ. وحتى لو طال الصراع واستمر، وحتى لو بلغ الأذى مبلغه، فليس هناك الحقد على بني الإنسان، وإنما هو الكره للشر الذي في نفوسهم، والرجاء لهم في الوقت ذاته أن يهتدوا ويكفوا عن الطغيان... ذلك الشعور الإنساني النبيل هو مفتاح الحياة الصالحة في الأرض. وهو وصية الله للناس في الأرض. وهو ثمرة العبادة الدائمة والاتصال الدائم بالله. <sup>(١)</sup>

### ت- الإنسان بين التكريم والتكليف:

تكريم الله تعالى للإنسان ممتد من لحظة خلقه وعلى طول سعيه في مسيرته إلى مصيره، وهو مقصد أساس من مقاصد القرآن، ولقد جاءت النبوات تحذر الإنسان من أن ينكص على عقبيه، ويحط من كرامته، فيفسد في الأرض، ويسفك الدماء، وينسى رسالته ومصيره، ويتحول من مخلوق مجتبي إلى مجرد شيء من الأشياء. يقول الراغب الأصفهاني في فصل عنوانه بـ "في كون الإنسان هو المقصود من العالم وإيجاد ما عداه لأجله": لأنه "المخصوص بالكرامة... وجعل ما سواه كالمعونة له، كما قال تعالى في معرض الامتنان: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فليس فضله بقوة الجسم... ولا بطول العمر... ولا بشدة البطش... ولا بحسن اللباس... ولا بالقوة على النكاح... ولا بكثرة الذهب والفضة... ولا بعنصره الموجود منه كما زعم إبليس حيث ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، بل ذلك بما خصه الله تعالى به وهو المعنى الذي ضمنه فيه، والأمر الذي رشحه له، وقد أشار إليه تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وبقوله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. <sup>(٢)</sup>

(١) قطب، محمد. منهج التربية الإسلامية، بيروت: دار الشروق، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج ١، ص ٧٠-٧١.

(٢) الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، مرجع سابق، ص ٧٤-٧٦.

هذا التكريم الأصلي هو الذي شهدت به الكتب الثلاثة: القرآن والإنجيل والتوراة، ففي التوراة رغم ما طرأ عليها من تحريف<sup>(١)</sup> تحفظ ذكراً للتكريم الإلهي للإنسان، حيث نجد مثلاً: "فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم،" و"باركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض،"<sup>(٢)</sup> وهذا تكريم وتسخير خص به الإنسان دون غيره... وكذلك نجد في الإنجيل وفي القرآن.

كرّم القرآن الإنسان بصفته إنساناً، بل القرآن نفسه تكريم له، فهو خطاب الله تعالى للإنسان، بمضمون إلهي، لكنه بلغة إنسانية، ومن أجل إسعاده السعادة التامة الأبدية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، لم يخص بهذا التكريم العام فئة أو سلالة دون الآخرين، بل الإنسان مكرم بحكم آدميته وانتسابه البشري أولاً، الذي سواه الله ونفخ فيه من روحه، فجعل صنعه في أحسن تقويم، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، بعدما حاور ملائكته عليهم السلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجعل لخلقه موكباً حافلاً، احتفلت به الملائكة، وأسجدوا له، وعُلم الأسماء كلها، ونال شرف الرسالة وعظمة الأمانة ومهمة الاستخلاف ووظيفة العمران. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(١) مثل ما ذكر في صموئيل: ١ / ١٥: "فأذهب الآن وهاجم عماليق... لا تغف عن أحد منهم بل اقتلهم جميعاً رجالاً ونساءً، وأطفالاً ورضعاً." وفي إشعياء: ٦١ / ٥: "ويقوم الغرباء على رعايتهم فطعانكم، وأبناء الأجنبي يكوّنون لكم حُرّاً وكرامين. ٦ أما أنتم فتدعون كهنة الرب،... فتأكلون ثروة الأمم وتتعظمون بغناهم"

(٢) سفر التكوين: ١ / ٢٨.

لكن التكريم الأولي مقرون بشرط التكليف؛ إذ الأمانة التي قد أنيطت بالإنسان وأبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها هي أمانة المعرفة والعمران والبلاغ، واستقبال هذه الأمانة يتوقف على فعل التزكية؛ أي تزكية النفوس حتى تتلقى الآيات بالتصديق والتحقيق والتطبيق، فالوحي في الجانب الكوني يعمل طوعاً وتقديراً وهداية، قال ابن حزم: "فصح بهذا كله ضرورة أن الناس كلهم مولودون على الإسلام، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فقبول الملة الإسلامية هي الأمانة، وأن الله تعالى خلق الأنفس كلها جميلة، وهي الحساسة العاقلة المميزة، ثم واثقها بالإسلام فقبلته." (١)

الإنسان رسول إلى الكون يحمل من الله عهد الأمانة العظمى؛ خليفة الخالق في كونه، عليه تقع مسؤولية العمران، وواجب الاستجابة للنداء، "وما الأمانة أو المشيئة المقدسة التي عجزت السماوات والأرض عن تحملها، إلا القانون الأخلاقي المؤسس على حرية الخليفة،" (٢) لذلك اقترن مصطلح الأمانة في القرآن الكريم بمعاني المسؤولية والتبعية والعهد، وكان الإنسان ظلوماً؛ لأنه يتعدى الحدود ويخرق الضوابط وهو يعرفها، وجهولاً؛ لأنه يتجاوز تلك الحدود وعنده أمانة العقل التي تهديه إلى معرفة تلك الحدود، فلا عذر له في الجهل بها أو تجاهلها. فكما ولد بريئاً من أية خطيئة أصلية فهو يتحمل مسؤوليته كاملة في أفعاله، ولا أحد يتحمل وزره عنه، كذلك النبي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ تحمّل خطيئته بنفسه ولم يحملها أحداً من أبنائه، قال إسماعيل الفاروقي بهذا الصدد: "وخطيئة آدم خطيئة عادية. كانت هي أول خطأ في التقدير الأخلاقي، وأول إساءة تصرف، وأول جناية يرتكبها إنسان. إلا أنها رغم كونها الأولى من نوعها من كل هذه الجوانب، فإنها جريرة إنسان واحد. وتندرج، بالتالي، ضمن مسؤوليته

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاکر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ٢٠٠٨م، ج ٥، ص ١٠٥.

(٢) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٣٩.

الشخصية، ولا يتعدى أثرها إلى أحد غيره... ولما كان كل إنسان رهيناً بعمله، فإن فلاحه أو خسارته يتقوّم بالكلية على عمله." (١)

قال النبي الخاتم ﷺ في أشهر خطبة في حجة الوداع: "إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب. لينتهين أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون على الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها التنتن،" (٢) بل حتى في السماء وفي أعماق البحار، فتسخير الشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال والأنهار، والبحار والقفار... أو قل باختصار: ما في الأنفس وما في الآفاق، ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، آيات بينات لبي الإنسان تسخيراً وتكليفاً وابتلاء. ليحيا حياة طيبة ويعمل عملاً صالحاً ممتداً من الدنيا إلى الآخرة، ويشهد شهادة الحق بالقسط على العالمين، "وتكون مسؤولة الإنسان بكرم الله هي على قدر ما يدرك عقله، ويقدر جهده من تسخير الأسباب لإبداع شؤون حياته وإعمار حاجات وجوده على أساس الخير والحق والعدل." (٣)

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (٤) [البلد: ٤]. والمكابدة بذلٌ متواصل للجهد الفردي والجماعي في تثبيت الآيات في الذوات، لكي تغرس المعايير في العقول، وتغرس القيم في القلوب، وتغرس الإبصار في النفوس، حتى تستوعب الفرقان والبرهان، وتكتسب المهارات والمعارف التي تجعل الإنسان عارفاً بما هو منوط به من وظيفة وجودية، وموفقاً في اكتشاف المنهاج القرآني- المحجة البيضاء- الذي لا سعادة للإنسانية إلا بالاهتداء به في ظلمات الفتن. أما الإنسان المهذور الغافل الذي تحدث عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٣٤٩، حديث رقم: (٨٧٣٦).

(٣) الفاروقي، إسماعيل راجي. إسلامية المعرفة، قضايا إسلامية معاصرة، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص ٩٤.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

[الأعراف: ١٧٩]، فهو الذي عطل قدراته ومواهبه وكفاءاته وإمكاناته العقلية والجسمية والروحية فسقط بهذا التعطيل في الحياة "البهيمية" التي شعارها وشعورها وسلوكها الظن والحمية والجهل.

مرّت جنازة فقام لها رسول الله ﷺ واقفاً، فتعجب الناس وقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فقوموا"،<sup>(١)</sup> وفي رواية: "أنه ﷺ وأصحابه قاموا لجنازة فقالوا: يا رسول الله إنها يهودية، فقال: إن الموت فرع فإذا رأيتم الجنازة فقوموا. وفي رواية: قيل: إنه يهودي فقال: أليست نفساً؟"<sup>(٢)</sup> لذلك كان الخطاب القرآني بريء من التحيزات الذاتية أو القومية أو العرقية، بل متوجه إلى الإنسان بثقافته وحضارته وعقله وواقعه وفهمه، ليخاطب فيه إنسانيته ويحرض فيه بواعث الخير حتى يكون صالحاً مصلحاً قائماً بالقسط، شاهداً لله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. وأعلن النبي ﷺ في حجة الوداع حين خطب الناس يوم النحر، فقال مقررراً حقوق الإنسان: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فَأَعَادَهَا مَرَّاراً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا لَوْصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَلْيَبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لَا تَرَجِعُوا بَعْدِي كَفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ."<sup>(٣)</sup>

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، ج ١، ص ٤٤١، حديث رقم: (١٢٤٩).

(٢) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: الجنائز، باب القيام للجنازة، ج ٢، ص ٦٦٠، حديث رقم: (٩٦٠).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، ج ٢، ص ٦١٩، حديث رقم: (١٦٥٢).



لذلك كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي أسند الله له المشيئة والاختيار دون سواه من المخلوقات، ومبتدأ هذا الاصطفاء هو تكريمه بنفخة الروح الربانية التي أودعها سبحانه في كل فرد من أفراد الإنسان، أياً كان لونه، أو جنسه، أو لسانه، أو مكانه، فكانت بمثابة صلة روحية تربط بين الإنسان المخلوق المبتلى والله تعالى الخالق المدبر الحكيم. وكانت للدين رسالة في الحياة وهي هداية الخلق، وإصلاح الأفكار، وتقويم انحراف الاعتقادات، وتهذيب الأخلاق والضمائر، وتطهير النفوس والمجتمعات ورعاية كرامة الإنسان وحرية، وحفظ حقوق الأفراد والجماعات والشعوب والأمم، والنهوض بالإنسانية والسير بها قدماً نحو التعارف والتعاون، يقول الطاهر بن عاشور: "والحرية بهذا المعنى حق للبشر على الجملة، لأن الله لما خلق للإنسان العقل والإرادة وأودع فيه القدرة على العمل فقد أكنّ فيه حقيقة الحرية، وخوّله استخدامها بالإذن التكويني المستقر في الخلقه."<sup>(١)</sup>

### ث- الإنسان ووحدة المصير المشترك:

مثلاً وحّد الله تعالى الإنسانية في الخلق والأرض وحّدها في المصير، فكلُّ إليه راجعون، ما كتب لأحدهم الخلد في الأرض، عودة مشتركة إلى الله، له الخلق والأمر، فيُجزئ الناس على ما أنجزوا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وإن اختلف الناس في شرائعهم ف﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰلِحِينَ وَالصَّٰلِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ [البقرة: ٦٢]، حيث الشرط هو العمل الصالح في الأرض، والجزاء رفع الخوف والحزن في العاجل والآجل، وفي تدبير المعاش على الأرض، وفي إحسان السعي للفوز بالدارين.

الدين هو شريعة الإصلاح في الدنيا والصلاح في الآخرة، وهو قانون سماوي مقدس له في نفوس الناس الحب والتقدير، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط ٢،

والبناء والنهضة والحضارة، والنبع الأزلي للحقيقة والإيمان والعدالة، والفصل الحق بين الناس فيما فيه يختلفون، وهو الذي أنبأ الناس نبأ الآخرة ومعنى الوجود والمصير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠]، حيث لما كان أصل الإنسانية واحداً فإن مصيرها أيضاً واحد؛ هو الرجوع إلى الله. من أجل ذلك جاء الخطاب القرآني مؤكداً على هذا المبدأ بوصفه أصلاً مشتركاً، دعا له وعمل بمقتضاه جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وتمحورت حوله جميع الكتب السماوية.

وأخيراً يمكننا القول: إن المشترك الإنساني بين الأديان يحرص على حفظ الدوائر الثلاث الآتية:

- دائرة الأبدان: وهو ما يحفظ على الأفراد عافيتهم وسلامتهم وحقوقهم المادية، وتوازن نموهم وغذائهم واستعمالهم لجوارحهم وسعيهم وسياحتهم في الأرض، ويصرف عنهم الأضرار والشُرور والمفاسد المتحققة والمحتملة التي تمنعهم من معرفة الحق المنزل، والعمل بما تقتضيه هذه المعرفة، وينهاهم عن الوقوع في الرذيلة وارتكاب الفواحش الظاهرة والباطنة، مثل الظلم، والعنف، والقتل، والربا، والزنا...

- دائرة الأنفس: الدين طمأنينة وانسجام للنفس مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتقويمها من الاعوجاج الذي يلحقها جراء غفلتها ونسيانها، وتحريرها من العِلل الباطنة التي تشوش عليها الصفاء والفطرة كالمرء والكبر وظن السوء والخوف المرضي والكآبة والحزن والغضب الشيطاني، ودعوة لها لاستيعاب خطاب الوحي وتمثله سلوكاً في الحياة.

- دائرة الجماعة: سواء أكانت الجماعة صغيرة كالأُسرة، أو كبيرة كالإنسانية، فنظرية المشترك تقوم على حفظ مصالح الناس العامة والخاصة وتنظيم علاقاتهم

الجماعية المختلفة تنظيماً تعاريفياً تعاونياً تنافسياً، قوامه حياة عمرانية إنسانية طيبة، ممتدة ثمرتها من الدنيا إلى الآخرة، بعيدة عن قيم الصراع والكرهية والتسلط والبغي... وذلك مقصد العمران في القرآن.<sup>(١)</sup>

## ٢- وحدة الميثاق بين المسلمين والغرب:

إن القرآن الكريم - كتاب الحق إلى الخلق - قد جعل للإنسان ميثاقاً ثلاثياً ليحيا الحياة الطيبة، تجلت هذه الثلاثية في استغراقها لثلاثة مجالات كبرى تحيط بمختلف أنواع الكون<sup>(٢)</sup> عند الإنسان وهي: كون الإنسانية، وبعث النبوة، وتكوين الأسرة.

وفي لغة العرب تدل كلمة "وثق" على السكون والاعتقاد على شيء مكين مأمون. "ووثقت الشيء: أحكمته... والميثاق: العهد المُحَكَّم."<sup>(٣)</sup> والميثاق "عقد مؤكد بيمينٍ وعهد". وفطرة الإنسان هي "ما خلقه الله عليه جسداً وِعَقْلاً"<sup>(٤)</sup> وفي القرآن الكريم ثلاثة أنواع من الميثاق المشترك بين الناس أجمعين من بدء الخليقة إلى يوم الدين، وهي ميثاق الفطرة التي خلق الله عليها الإنسان، وميثاق النبيين المبعوثين شاهدين ومبشرين ومنذرين، وميثاق الأسرة التي عليها ينهض قوام الأمة وقوام الجماعة البشرية. وما أصاب الإنسانية من أدواء وشرور هو من نقض هذه المواثيق والإخلال بمقتضياتها.

### أ- ميثاق الفطرة:

وهو الميثاق الأول، أو ميثاق الإنسانية، الذي أخذه الله على بني آدم قبل أن ينتشروا في الأرض ويمشوا في مناكبها وتختلف أعراقهم وألسنتهم وألوانهم، ويتشتت سعيهم وتكاثرت أفضيتهم، وتكثر معاناتهم، ويُجعل منهم الشعوب والقبائل والدول، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا بِمَا كُنَّا فِيهِ كَافِرِينَ﴾

(١) ينظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) أقصد بالكون: الوجود.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، مادة: (و ث ق).

(٤) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ج ٢٠، ص ٩٠.

بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢]، و"يقضي مبدأ الفطرة بأن قدرة الإنسان على التشهد تأتي من كونه خُلق، أول ما خُلق، على هيئة تحفظ سابق صلواته بعالم الغيب، بحيث تحمل روحه قوة خاصة أشبه بذاكرة سابقة على ذاكرته التي يملكها في العالم المرئي، وهذه القوة الروحية التي تحفظ ذكريات عالم الغيب- أو قل هذه الذاكرة "الغيبية" أو "الأصلية"- اختصت، في الإسلام، بمصطلح "الفطرة".<sup>(١)</sup> أي إنها سابقة حتى على التعقل والتدبير، بل مرد التحاقق في العقليات أحياناً يكون إلى الفطرة السليمة التي يقر فيها المتحاققان بصحة الإدراك، يقول ابن تيمية بهذا الصدد: "العقليات الصحيحة ما كان معقولاً للفطر السليمة الصحيحة الإدراك التي لم يفسد إدراكها."<sup>(٢)</sup>

بهذا الميثاق وهو عهدٌ شهد به الإنسان على نفسه بإفراد الله بالربوبية يُلزم جميع الناس بوجوب عدم الغفلة عن مقتضاه، ومقتضاه: الدين لله؛ أي الاستماع إلى الوحي واتباعه، والسعي في الأرض بالصلاح والإصلاح من أجل الفلاح، والقيام لله شهداء بالقسط والعدل بين الناس، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيْنَ لِلّٰهِ شَهِدَاءٌ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْٓا اَعْدِلُوْٓا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللَّهَ اِنَّ اللَّهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٧-٨].

الميثاق الفطري عهدٌ مقدّسٌ بين الله تعالى والإنسان، أخذه سبحانه على عباده قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فشهدوا بمقتضاه على أنفسهم بالإيمان بالله وحده وعدم الإشراف به، والتزامهم باليقظة بمطالبه وعدم الغفلة عنها. فكان ميثاقهم الأوّل أصل معرفتهم بفاطرهم ووليّهم، فالخالق تجلّى لهم وهم على هيئة الذرّ، وكلمهم قِبلاً،

(١) عبد الرحمن، رُوح الدّين؛ من ضيق العلّمانية إلى سعة الاتّمانية، مرجع سابق، ص ٥١-٥٢.

(٢) ابن تيمية الحارثي، أحمد بن عبد الحليم. درء تعارض العقل والنقل، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٧٩م، ج٧، ص ٧٣.

فعرفوه، وأقروا له بالتوحيد، وأخذ عهدهم، وأشهد عليهم، وكتب أقدارهم، ثم أعادهم حيث كانوا، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه وقد غرس في فطرته أثر تلك المعرفة وذلك الإقرار الذي أقرّ به بين يدي رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرّوم: ٣٠]. ومما يؤكد مشترك الفطرة ما أكده هوبل أديسون، ووليام سميت، والبيروني من أن "شعوباً في أفريقيا وأستراليا والهند لم ينشأ اعتقادهم في الإله الواحد بتأثير أي دين سماوي طراً عليهم من خارج بيئتهم، وإنما اهتمدوا بفطرتهم إلى عبادة الله الإله الواحد." (١)

ويقتضي ميثاق الفطرة إذن:

- الإقرار بخالقية الله تعالى: ذلك أن الله تعالى لما خاطب "بني آدم كافة وهم في عالم الغيب قائلاً: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟"، فأجابوه أجمعين شاهدين على أنفسهم: "بَلَىٰ!" ذلك هو الميثاق الذي أخذه الشارع الأسمى من العقلاء وعقولهم،" (٢) ومقتضاه الإقرار بمبدأ المخلوقية لله تعالى والتعلق به، يقول ابن تيمية: "القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده." (٣)
- عدم الغفلة عن هذه الخالقية أو التنكر لمقتضياتها: أي التخلق بأخلاق الاستقامة الجامعة، وعدم الوقوع في الكفر أو الطغيان أو العصيان أو الاستعلاء، يقول ابن تيمية: "الرُّسُلُ إِنَّمَا بَعَثُوا لِقَرَارِ الْفِطْرَةِ وَتَكْمِيلِهَا لِتَغْيِيرِهَا وَتَحْوِيلِهَا." (٤)
- إقامة الوجه للدين: وذلك معنى الحنيفية الإبراهيمية الجامعة المشتركة التي لا يزيغ عنها سوى ضال أو مغضوب عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾

(١) الكتاني، منظومة القيم المرجعية، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٣) ابن تيمية الحراني، رسائل من السجن، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[الروم: ٣٠]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ بَلْ مَلَّ إِبرَهُمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال: ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [يونس: ١٠٥]، دون تغافل أو تحايل أو تجاهل، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ شِجْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٣].

### ب- ميثاق النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قدوة الإنسانية في كل خير، وناذج مشرقة في كل عصر، وميثاق النبيين تأسيس وتذكير وتأکید، وتبيين وتفصيل لمقتضيات الميثاق الكوني الأول، لمعالجة ما يطرق على النفوس من غفلة ونسيان وجحود، وما يستتبع ذلك من نقض للميثاق وطمس للفطرة وقسوة للقلب وبعُد عن الله، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تُطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [المائدة: ١٣].

أخذ الله عز وجل الميثاق من جميع النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله تعالى بين يدي قصة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧]، حيث يشترك أئمة الإنسانية ومنقذوها - من الجاهلية والفتنة - في ميثاق النبوة، وهو ميثاق يتصف بالديمومة وعدم الانقطاع من إبراهيم إلى محمد - عليهم الصلاة والسلام -. وما اشتركهم في ذلك الميثاق إلا لوحدة رسالتهم ومقصدهم، التي هي دعوة العالمين إلى الخير - كل الخير - وكفهم عن الشر - كل الشر - ومنه شرور الظلم والكفر والقيود والسقوط والغفلة عن الله وعن سننه في الكون، مما يفقد الوجود البشري توازنه وصلاحه، إلى أن يحيله مختلاً ومتخلفاً ومفتوناً.

إن ما لحق الإنسانية من فساد وأذى في تاريخها الطويل كان وما يزال بسبب الابتعاد عن ميثاق الفطرة وخبر الوحي، وتكذيب الأنبياء والامتناع عن اتباعهم والفهم عنهم؛ إذ يقص علينا القرآن الكريم نقض الميثاق مثلاً من طرف الذين كفروا

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِبَيْتِ اللَّهِ وَقَالُوا الْآيَاتُ الْغَيْرُ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٤-١٥٥].

مما سبق يتبين بوضوح أن ميثاق النبيين واحد وثابت، وأن الخروج عنه نسياناً أو غفلة أو جحوداً وتكبيراً أو طغياناً يؤدي إلى اختلاق الأكاذيب واتباع الأهواء وتحريف الرسائل وادعاء الصلاح والإصلاح، وإلحاق الضرر والأذى بالناس والأشياء المسخرة لهم في الكون، وظهور الفساد في البر والبحر، والطغيان والعلو في الأرض، وما يتبعه من أنواع البلاء الذي يلحق الإنسانية جراء تنكبها عن الصراط، وإعراضها عن نداء الهداية الخالد، وهذا الذي يستجلب عليها غضب الله في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨]، لستم على شيء إن أخللتم بالميثاق وأذيتم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعطلتم الوحي واتبعتم الأهواء والشهوات والشبهات. وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ قَوْمٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيئْتُهُ لِنَاسٍ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّنًّا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

### ت- ميثاق الأسرة:

تقوم مؤسسة الأسرة في القرآن الكريم على ميثاق غليظ بين الزوجين الذكر والأنثى، يعبر بمقتضاه وأمام الأشهاد كل منهما عن رضاه وقبوله دون إكراه، وهذا الرضا والقبول يتضمنان العهد واليمين والأمانة، حيث "الزواج عقد وثيق، وشركة مقدسة، حرص القرآن على أن تدوم وتستقر وتتوطد، ففرض لكل من الزوجين حقوقاً، وألزمه واجبات، بحيث إذا التزمها سعاداً بحياة زوجية هانئة وارفة الظلال.

وخلاصة هذه الحقوق والواجبات تتركز في كلمة واحدة هي المعاشرة بالمعروف،<sup>(١)</sup> قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، و﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وفي صحيح مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: "استوصوا بالنساء خيراً. فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله،" فالميثاق، إذن، أمانة الله وكلمته، كما الأبناء أمانة عند الآباء، قال رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه."<sup>(٢)</sup> والكتاب أمانة، والكون المسخر أمانة، والبدن أمانة...

ومعلوم أن الأسرة جذع الإنسانية وأصلها، من "العائلة الممتدة" تنطلق وعليها تنبني، تصلح إن صلحت، وتفسد إن فسدت، ويتشوه وجودها إن تشوهت. لهذا أورد القرآن قصة المرأة التي جاءت الرسول ﷺ تحمل شكوى تفيد حدوث عطبٍ عَطَل سير الأسرة، تمثل العطب في ظلم زوجها لها. فسمع الله تعالى شكوى المجادلة في زوجها؛ لأن وقوع البغي خرقاً للعهد الوثيق، بل إن ميثاق الأسرة ليس فقط عقداً بين ذكر وأنثى لإرضاء الغريزة الجسدية، ولا هو عادة اجتماعية متوارثة يمكن التخلص منها. بل هو عهد وطيد غليظ. بهذا وصفه الله عز وجل في الزجر عن رجوع الرجل في صداق المرأة وأكله بالباطل فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، والإفضاء وصلة بين جسمين أعطاهما القرآن حرمتها، والميثاق عهد بين ذمتين. فتلاءم الاعتباران، الجسدي والنفسي القلبي، ليكونا الوثاق ويمتئنا، وهو ميثاق جامع لقيم المودة والرحمة والسكن والسكينة، و"الفطرة في العلاقات الجنسية التي تتحقق بها المصالح الحقيقية للناس، هي التمكين للمودة بين الزوجين، وحصول السكن النفسي والإحصان لكل منهما، وحفظ النوع

(١) القرضاوي، يوسف. مدخل لمعرفة الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص ٢١٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، ج ١، ص ٤٦٥، حديث رقم: (١٣١٩).



بالإنجاب، وتحقيق النسب والصهر بين العائلات، ثم تكوين الشعوب والقبائل، وما يتحقق من كل ذلك من تكافل وتكامل وتماسك في النسيج الاجتماعي. وكل علاقة جنسية تشدُّ عن الفطرة حين تتم خارج إطار الزوجية، أو تكون علاقات مثلية سحاقاً أو لواطاً، هي فساد في الأرض الصالحة، وخلل في البناء النفسي وتدمير للعلاقات الاجتماعية،<sup>(١)</sup> على خلاف هذا "أدت النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأسرة إلى إضعاف الروابط والعلاقات الأسرية، وأدت الروح الفردانية في الغرب إلى انفرط عقد الأسرة وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار. وأسهمت النظريات الأنثروبولوجية التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات إلى غسل أدمغة الناس بعدم وجود فوارق مهمة، وإلى إلغاء الدور المكرم للأسرة."<sup>(٢)</sup>

كلمة الله وأمانته وعهده وشريعته في مسيرة الزواج هي: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. فالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان هما ضابطا الوفاء بالعهد في الزوجية وأداء الأمانة. يُمسكُ زوجه بمعروف أو يطلِّقاً مرتكباً أبغض الحلال إلى الله، لا جناح على أحدهما ما لم يظلم في الإمساك بالمعروف شرعاً وطبعاً وإنسانية ومروءة من احترام المرأة وأداء لحقوقها، وما لم يظلم في التسريح مبادئ الإحسان ورعاية الفضل الذي كان بينهما والعشرة السابقة.

ميثاق بين رجل وامرأة يبقيان عليه بشرط المعروف أو ينقضانه بشرط الإحسان. ما نسب سبحانه الميثاق إلى نفسه، لأن ميثاقه أبديٌّ مُلزم. وإنما هو ميثاق بين رجل وامرأة وكفى. وقد ذُكر في القرآن "الميثاق الغليظ" ثلاث مرات، إحداهن ميثاق الزواج وتشكيل الأسرة، والرابطة بين الزوجين ليست رابطة صراع وتظالم وتنافر، وإنما هي رابطة تواد وتراحم وتكامل، "فمن خلال وحدة الجنسين التكاملية يتسق

(١) ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٢) ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، مرجع سابق، ص ٥٦.

ويمتد الوجود الإنساني، ويتكامل البناء الجسدي والنفسي والاجتماعي للرجل والمرأة الذكر والأنثى، ليُكوّن الاثنان معاً كياناً تكاملياً... وهذا الأمر يجعل الجنسين في وحدة تكاملية بديعة، وليست تماثلية<sup>(١)</sup> تكرارية.

### ٣- وحدة المطالب الكبرى:

الدين دعوة تعتمد الوحي المنزل من السماء إلى أهل الأرض، وتهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان إن في عاجله أو في آجله، ولا سعادة للإنسان إلا في بيئة حاضنة لهذا الإسعاد، توفر له العدل والحرية، حيث العدل بأنواعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي... هو الذي يؤهل المجتمع إلى الرشد والخيرية والشهادة ويمحيه من البغي والظلم والطغيان، والحرية -وهي التحرر من القيود- تحفظ للإنسان حقوقه، وتزيل عنه العوائق التي تمنعه من التصرف وفق قناعاته التي لا يضر بها نفسه ولا غيره، مثلما توفر له الحق في بناء تصورهِ واعتقاده وموقفه عن اقتناع وتصديق لا عن إكراه أو وصاية.

#### أ- مطلب العدل:

العدل اسم من أسماء الله تعالى، وصفة من صفاته، وميزانه في الكون ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، ومطلب كوني تنشده الإنسانية جمعاء، ومن أجل إقامته في الأرض بعث الله الأنبياء وأنزل الكتب، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والعدل هو الميزان الذي تقدر به الأعمال ويوزن به الأشخاص وهو الوحيد الذي لا تميل كفته، ولا يختل وزنه، ولا يضطرب مقياسه، وهو قوام الدنيا والدين، وبه يكتمل صلاح العباد وعمران البلاد.

(١) أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، مرجع سابق، ص ٦٥-٦٦.



ارتبط بالفرد أو الجماعة أو الأمة، أو ارتبط بالعقيدة أو المعاملة أو العبادة، بل إن القرآن جعله أهم المطالب التي يجب تحقيقها، وصلب الدين الذي لا قوام له إلا به. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ف"هذه الآية استتفان لبیان كون الكتاب تبياناً لكل شيء، فهي جامعة أصول التشريع... والعدل: إعطاء الحق إلى صاحبه، وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات... ومن هذا تفرعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق، وأقضیة، وشهادات، ومعاملة مع الأمم،" (١) وفي هذه الآية قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنها "أجمع آية في القرآن." (٢) فيتبين أن العدل مطلب البشرية جميعاً، وفي ذلك يقول بول ريكور: "العدالة هي الوجه الذي توليه كل الفضائل الأخرى شطر الآخر، حيث هذه الفضائل تضع في اعتبارها وجود الغير واحتياجاته ومطالبه." (٣)

ولذلك جاءت الآيات الأمرة بالعدل كثيرة ومتواترة، منها: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، و﴿وَإِنْ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٤٢]

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٢٥٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، تفسير الآية (٩٠) من سورة النحل، ج ٤، ص ٥٩٦.

(٣) ريكور، بول. العادل، ترجمة: عبد العزيز العيادي وآخرون، قرطاج: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٥٩٥.

[المائدة: ٤٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]، ورفع الحجاب عن دعوة المظلوم. ولأهمية العدل أثنى رسول الله ﷺ على "الإمام العادل"، وهو من السبعة الفائزين بظل الله يوم الحشر، ففي الحديث "سبعة يُظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله؛ إمامٌ عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"،<sup>(١)</sup> فليس العدل إذن قضية ثانوية في القرآن، ولا يقتصر على مجال دون آخر؛<sup>(٢)</sup> إذ ليس لسلطانه حدود، فهو يتجاوز العقيدة والمذهب والقراية والجغرافية والجنس واللون واللغة، ويتصل بوحدة الإنسانية الكونية المتساوية والمشاركة؛ "كلكم من آدم".

لكل ما سبق يتشوف الناس عبر تاريخ البشرية إلى عدلٍ يقيم أودهم وينتشلهم من بؤس الحرمان والفقر والظلم، ولذلك أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين، شهداء لله قوامين بالقسط بمعناه الشامل، فيضعون الشيء في موضعه ويحققون التوازن في القسمة والاتزان في العمران، يؤمنون للمحتاج حقه ويهدبون فضول أموال الأغنياء، بل يصنعون العدل والرخاء، ولا ينسون الجانب الآخر المتمثل في حقوق الله على العباد، فأعظم الظلم أن يظلم العبد ربه، ولذلك جاء القرآن الكريم بالكلم الجامع وهو القسط بمعناه الشامل "الاستقامة في حقوق الله وحقوق العباد"، ولعل هذا ما وضحه ابن القيم بقوله: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة باليمين، ج ٢، ص ٥١٧، حديث رقم: (١٣٥٧).

(٢) نستحضر هنا التصور الكلامي الذي صرف معنى العدل إلى الجانب الإلهي فقط، وأغفل الجانب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهده الذي به اهتدى المهتدون." (١)

## ب- مطلب الحرية:

انطلاقاً من النداء الكوني الخالد الذي يؤسس لوحدة عالمية تنبذ الإكراه وتُقيم الاحترام، بمبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يتحرر الإنسان وتنطلق طاقاته الذاتية، وتؤمن له فضاءات الإبداع والعتاء والإسهام في البناء العمراني الشامل، ف"الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتوفر في فعله الشرط الأخلاقي، وهو الفعل الحر... وبهذه النعمة الإلهية صار الإنسان أسمى مكانة من الملائكة لكونه أقدر على فعل ما لا يقدرون هم على فعله،" (٢) لذلك تحتاج قدرات الإنسان العقلية والقلبية والعاطفية والجوارحية إلى تحرير في مستوى التمسك بمبدأ التوحيد، والذي فتح بصيرة الإنسان على ربه وعلى نفسه وعلى عوالم الكون اللامتناهي في الصغر لدقته واللامتناهي في الكبر لجلاله، وأرشدته إلى الاهتداء بالآيات البيّنات في القرآن المجيد الميسر للذكر والكون الفسيح المسخر للإعمار، والإنسان المؤمن المكلف بالاستبصار، من أجل بناء حضارة الإنسان؛ حضارة العلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان الصادق.

وعليه، لا يمكن للإنسان أن يكون حراً - إذ الأصل في الآدميين الحرية - إلا إذا كان قادراً على اختيار أفعاله؛ إذ على حريته تترتب مسؤوليته عن تلك الأفعال، "والأفعال الإنسانية الخاصة به هي ما يكون باختياره. فكل ما يفعله الإنسان باختيار

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت: دار الكتب العلمية، ج ٣، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص ١٢.

(٢) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٤٠.

فهو فعل إنساني، وكل فعل إنساني فهو فعل باختيار. وأعني بالاختيار: الإرادة الكائنة عن روية،<sup>(١)</sup> لكن حريته كما يؤكد أبو الوليد ابن رشد رهينة بضرورة مواتاة الأسباب الداخلية؛ أي القدرات الذاتية للفرد، والأسباب الخارجية "التي سخرها الله من خارج"، ويعني نظام الكون المقدر من الله، وهي قدرات وأسباب يستحيل إلغاؤها أو تجاهلها، بمعنى أن حريته مقرونة بإرادته ومسؤوليته من جهة ومشروطة بمختلف الحتميات البدنية والكونية التي تحدد وجوده من جهة ثانية. يقول ابن رشد: "الأفعال المنسوبة إلينا إنما يتم فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها،"<sup>(٢)</sup> وهذا يفيد أن حرية الإنسان ليست سائبة كما كانت تتصورها بعض الفلسفات كالوجودية مثلاً، ولا معدومة كلية كما تصورتها أخرى كموقف باروخ اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) مثلاً، وإنما هي اختيار ومواتاة ومسؤولية. اختيار الأفعال ومواتاة الأسباب وتحمل مسؤولية التبعات. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩].

يكفل الإسلام الحرية الدينية للشخص ولا يجبره على عقيدة محددة، بل يدعه يختار ما يشاء دون إكراه، لكنه يحمله مسؤولية ذلك الاختيار. فلكل إنسان الحرية في اختيار العقيدة التي يؤمن بها وفي أن يمارس شعائرها، أو أن ينتقل من عقيدة إلى أخرى بحسب اقتناعه وإيمانه، في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قال محمد الطاهر بن عاشور: "جاء بنفي الجنس لقصد العموم نصاً، وهي دليل إبطال الإكراه بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيهان يجري على الاستدلال والتمكين من النظر،"<sup>(٣)</sup> فلا يجوز حمل الناس كرهاً على الدين فبالأحرى على عقيدة

(١) ابن باجة، أبو بكر محمد بن يحيى الأندلسي. "تدبير المتوحد"، رسائل ابن باجة الإلهية، تحقيق وتقديم: ماجد فخري، بيروت: دار النهار للنشر، ط ١، ١٩٦٨م، ص ٤٦.

(٢) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢، ٢٠٠١م، ص ١٨٨-١٨٩.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٦.

بعينها؛ لأن ذلك مخالف لحكمة الله في خلقه؛ إذ جعل منهم المؤمن والكافر، البر والفاجر، التقي والشقي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) [يونس: ٩٩]. وغاية الإسلام أن يبين هذا السبيل دون أن يلزم الناس به أو ينفي وجود باقي السبل.

قاعدة "نفي الإكراه في الدين"، تثبت الحرية الأصلية للإنسان في الاعتقاد وفي السلوك، قال محمد الطاهر بن عاشور: "الحرية وصف فطري نشأ عليه البشر، وبه تصرفوا في أول وجودهم على الأرض، حتى حدثت بينهم المزاخمة، فحدث التحجير،" (١) وما دام الدين دين الله، والإنسان عبد الله فهو مخير في دينه وفي درجة تدينه، وإلا لا يسلم التدين في غياب الحرية، رغم ما طرأ على هذا الأصل من تشويه وتعطيل في التاريخ البشري حيث طغت المصالح والتأويلات المغرضة على الحقائق والمبادئ الكلية. وظهرت محاكم التفتيش تتلصص على عقائد الناس وولاءاتهم وتعبدتهم وتكيل لهم التهم، وتزهق الأرواح بغير حق. ولم يكن ذلك الفساد إلا نتيجة للإكراه في الدين، بل في تأويلٍ مغلقٍ للدين.

لقد هلك في حرب الثلاثين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت أكثر مما هلك في الحرب العالمية، وعانى البروتستانت من اضطهاد الكاثوليك الشيء الكثير، ثم عانى الكاثوليك من انتقام البروتستانت لما قويت شوكة هؤلاء خاصة بعدما تمكن "كالفن" من إنشاء حكومته في جنيف. ولا غرابة أن يصوغ القديس أغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) (٢) مبدأ الاضطهاد للمخالفين، وأن يقيمه على أسسٍ من الكتاب المقدس مستنداً إلى

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس والجزائر: الشركة التونسية للتوزيع والدار العربية للكتاب، ط ١، ١٩٧٧م، ص ١٦٢.

(٢) أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠): كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي -لاتيني- ولد في الجزائر. يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية، تعدّه الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديساً، وأحد آباء الكنيسة البارزين.



كلمات تُنسب إلى السيد المسيح في الأناجيل، فوضع بذلك دستور اضطهاد المخالفين بعقوبات النفي، والجلد، والغرامات... إلخ.

لقد أعلن القرآن حرية الفكر والسلوك للناس على اختلافهم، ودعا الإنسان إلى التدبر القلبي والتأمل الدائب وإعمال العقل والجوارح للدلالة على الهداية والرشد والطريق القويم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وإن كانت أديانهم مختلفة فقاعدة ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] لا تجعل لأحد سلطة الإكراه على أحد، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، لذلك كان الإلحاح القرآني على أصل الحرية لتحرير الأفراد من جميع الانحرافات والخرافات والعقائد الزائفة والأخلاق الفاسدة والمعاملات الظالمة، والتأويلات المغلقة، وخاصة تلك التي تعبت بإنسانية الإنسان وتبيح إهدار كرامته، وتمنعه من حقوقه البدنية والفكرية التي ولدت معه بوصفه إنساناً قبل أن يكون له رأي واعتقاد أو مذهب ومطلب.

الفلسفة العامة للدين أو مقاصد الدين الكبرى كما اختصرها بعض العلماء هي حفظ الكليات الخمس، التي رأوا أنها ما جاءت الشرائع من أول الأنبياء إلى خاتمهم صلى الله عليه وعليهم جميعاً وسلم إلا لإقامتها وحفظها، وتتلخص في قول الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) رَحِمَهُ اللهُ: "ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة،" <sup>(١)</sup> فَتَحَقَّقْ حفظ الدين، والنفس أو الحياة، والعقل، والنسل أو العرض، والمال، هو ما به يحيا الأفراد سعداء فيما بينهم حياة طيبة ممتدة من العاجل إلى الآجل. فهذه الكليات وإن كانت تتعلق بذمة الأفراد وتغفل مقاصد حفظ الأمة والبيئة

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المستصفى من علم الأصول، تحقيق: مصطفى أبو العلا، القاهرة: مكتبة الجندي، (د.ت.)، ج ١، ص ٢٧٨.

والإنسانية... فهي مشتركة بين جميع الناس.

هذه الكليات الكبرى تسعى جميع الشرائع لتحقيقها وحفظها من جانب الوجود ومن جانب العدم، وتيسير ما يحفظها ودفع ما يفسدها أو يضر بضمائها، ولا يقع الاختلاف إلا في التفاصيل والجزئيات. لذلك يقول الإمام الغزالي: "تحريم تفويت هذه الأمور الخمسة، والزجر عنها، يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر، والقتل، والزنا، والسرقه، وشرب المسكر،"<sup>(١)</sup> وبتوجيه السعي نحو هذه المقاصد المرعية "في كل ملة، بحيث لم تختلف فيها الملل، كما اختلفت في الفروع، فهي أصول الدين، وقواعد الشريعة، وكليات الملة"<sup>(٢)</sup> تتحرر الطاقات، وتتعرف الثقافات، وتتكامل الحضارات، وتحقق الغايات الكبرى للحق من الخلق.

حفظاً لأصلي الحرية والعدل أنكر الله تعالى على الذين يعتدون على الناس ويظلمونهم، وشدد النكير على الذين يتلبدون بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين يأمرون بالقسط من الناس، ويسخرون من خطابهم ويستهنئون بأخلاقهم، بل أنكر حتى على الذين يدعون التدين ويسرقون الألقاب وهم يسيئون إلى الإنسان وإلى الدين معاً؛ طوائف من الأحرار والرهبان والملوك الذين يأكلون أموال الناس بالباطل مستسيغين تأويلات مصلحية فجة لا ينهض بها دليل ولا يقوم عليها برهان. ولا شك أن الأفعال الصادرة عن هؤلاء مخالفة لتعاليم التوراة والإنجيل ذاتها ولا علاقة لها بروح تعاليم موسى وعيسى ولا غيرهم من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد ذم الله تعالى تصرفات الظالمين والمنافقين والمعتدين والمطففين والخائنين والمستكبرين ممن هم في دائرة عقيدة الإسلام أيضاً؛ لأنهم خالفوا تعاليمه بأفعالهم، كما ذم غيرهم من اليهود والنصارى دون أن يكون لذلك علاقة باليهودية والنصرانية كشرعتين

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٩.

مُنزلتين في مسيرة نزول شرائع الإسلام. والجامع في كل ذلك مخالفة تعاليم الدين والخروج عن مقتضياته.

كل سلوك إفسادي - من ظلم واعتداء وانتهاك للحرمان وسفك للدماء وهدم للبيوت وسلب للأموال والأوطان، وترويع للآمنين - لا دين له ولا دليل يقوم عليه، ينبذه كل الأسوياء والعقلاء، فضلاً عن البقية الصالحة في كل أمة وارثة عن الأنبياء، ودفعه واجب بكل السبل؛ لأنه سلوك ضد القيم الدينية والإنسانية كلها. وجاء الدين ليُحرمه ويحث الناس على اجتنابه، قال سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَقُولُوا أَوْفُوا أَلْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَاتِ بِالْفِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، وهل جاءت الرسائل السماوية إلا لإزاحة الظلم من حياة الناس وذلك بتحسين أخلاقهم وإصلاح أفكارهم وتقويم تصرفاتهم، وتقصيد سعيهم، وبيان علل خلقهم وغايات وجودهم ومآلهم. هذا ما تدعو إليه كل الشرائع المكونة لرسالة الإسلام، وكل القيم الإنسانية النبيلة. يقول هانس كينغ بهذا الصدد: "إن خير الإنسان وكرامته يبرزان في كل مكان كمبدأ أساسي وكهدف جدير بالأخلاق الإنسانية، وذلك من خلال سلطة مطلقة، ليس بوسع أحد أن يمارسها مثل الديانات. ويتلخص هذا الخير في الاستقامة والحرية والتضامن في واقع عملي كلياً. فكرامة الإنسان وحرية الإنسان وحقوق الإنسان لا تنجم كلها عن الفكر الوضعي فحسب، بل تجد في الدين أساساً له عمق لا يضاهي."<sup>(١)</sup>

ذكر الله تعالى شهادة الجن في سورة الأحقاف، حيث قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُوتُ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ﴾<sup>(٢٩)</sup> قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقِ مُّسْتَقِيمٍ<sup>(٣٠)</sup> يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَعْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُحَرِّمَ مِّنْ عَذَابِ آيِهِ<sup>(٣١)</sup> وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ

(١) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص ١٠٧.

يُمَعَّزِرُ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]، ولن تجد الإنسانية من غير القرآن مفتاحاً لفتح أفقالها، ومنهاجاً لحل إشكالاتها ومصباحاً لتنوير بصائرهما، ولن تجد سوى رسالة الإسلام العالمية كتاباً ورسولاً وخطاباً "انفراجه جوهرياً أخرجت العالم من حالة الجمود التي كان قد تردى فيها"،<sup>(١)</sup> والتي عبر عنها رباعي بن عامر وهو على بساط قائد الفرس رستم بقوله المشهور: "إن الله ابتعثنا، وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام."<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا الأساس، لا بُدَّ لمن يحمل مشروع إعادة البناء على الأساس الأول، لتحرير الإنسان من عبودية الأهواء والأشياء والأسماء إلى عبادة الله الخالق البارئ الحكيم، ومن جور تزوير الأديان وتحريفها إلى عدل الإسلام دين الرحمة للعالمين، ومن ضيق الدنيا المختزلة في الملذات البدنية وحدها إلى سعة الدنيا والآخرة سعادة ممتدة بلا انقطاع، لا بُدَّ له من تجديد النظر في الوجود والقيم والمعرفة بمنهاج القرآن الكريم المؤسس على المطالب القرآنية الكلية؛ العدل والإحسان والشورى... ولا يتحقق النظر بمنهاج القرآن إلا عبر تحرير العقل والإرادة، وتخليصهما من آفات التقليد والجمود والتجزئ من جهة، ومن آفات التغريب والتبعية والانقياد من جهة ثانية.

### ت- مطلب الأخوة الآدمية:

بالرغم من وجود أساس مشترك أكبر بين الرسائل السماوية، وهو ما ذكرنا معالمه فيما سبق، فإن حكمة الله اقتضت أن يختلف الناس فيما بينهم، ليحققوا التعايش والتعارف وإلا لكان التطابق والتوحد، ولو لم يكن الاختلاف بينهم لفقد الوجود

(١) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، القاهرة: مكتبة الصفا، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ج ٧، ص ٣١-٣٢.

سُننه التدافعية والتنافسية والتكاملية والتداولية؛<sup>(١)</sup> إذ الاختلاف واقع بمشيئة الله وحكمته، وعليه قام الوجود وبه يستمر، من حيث لا يتصور وقوع خلافه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩]؛ أي إنه لا ينقضي الاختلاف ولا تذوب الثقافات في ثقافة واحدة، ولا تستطيع قيم العولمة أن تبتلع الحضارات المختلفة وتطمس آثارها، قال ابن كثير في تفسير الآية: "ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم،"<sup>(٢)</sup> وقال الطاهر ابن عاشور: "لا جرم أن الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور... الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جُبلت عليه العقول،"<sup>(٣)</sup> واللام في ﴿وَلِذَلِكَ﴾ هي "لام التعليل، لأنه لما خلقهم على جبلة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريداً لمقتضى تلك الجبلة وعالماً به كما بيناه أنفاً كان الاختلاف علة غائية لخلقهم، والعلة الغائية لا يلزمها القصر عليها، بل يكفي أنها غاية الفعل."<sup>(٤)</sup>

ما وهب الله الناس العقل والحرية والإرادة إلا ليكونوا مختلفين؛ إذ الحكمة الإلهية والمشيئة الإلهية اقتضتا أن يختلف الناس وأن يعيشوا مختلفين.<sup>(٥)</sup> ولذلك لا يفكر العاقل في إلغاء الشرائع من الأرض أو محو اختلاف أهلها أو إجبار الناس على تنميط اعتقادهم وتفكيرهم ورغباتهم وسلوكهم. لكن المطلوب المرغوب هو التقليل من دواعي الخلاف بينهم والتكثير من دواعي الائتلاف.

(١) التداولية، بمعنى تداول القيادة وتبادل المنتجات الفكرية والسلعية، تدبراً في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَكْيَامُ يُدَّوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١٢، ص ١٨٨.

(٤) المرجع السابق، ج ١٢، ص ١٩٠.

(٥) رفيع، "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، مرجع سابق، ص ١٢٠.

رفض الاختلاف، إذن، جهل بالمشيئة الإلهية والحكمة في الخلق والغاية من الوجود، بالإضافة إلى كونه نقص في العقل وفرض الوصاية على الناس، فالله وحده يهدي، وهو وحده يحكم بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وكما جاء في القرآن: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الشورى: ١٥].

وهكذا فرغم الاتفاق على وحدة الخالق ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فإن ذلك لا يفيد وحدة العمل والإحساس والسلوك والموقف ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ إذ تدخل عوامل الزمن، والتنشئة الاجتماعية، والتطبيع الثقافي، والتكيف البيئي، والوضع الاقتصادي، وتعاقب الأجيال، وتداخل المصالح، واختلاف الأهواء في تعدد الفهم وتباين التأويل واختلاف التمثلات والأفكار المسبقة،<sup>(١)</sup> "والنتيجة الطبيعية... للتنشئة الاجتماعية هي إنتاج تطابق كافٍ في طرق العمل والتفكير والإحساس لدى كل عضو من الجماعة، وذلك ليتكيف كل شخص ويندمج مع تلك الجماعة،"<sup>(٢)</sup> ومن ثم تعدد أنماط السلوك بتعدد أنماط التنشئة الاجتماعية.

ولعل هذا ما تعبر عنه سورة "الكافرون" في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦]، ولا حجة بيننا وبينكم، بمعنى لا خصومة بيننا ولا جدال في أن يُحترم الغير ويُعامل بالحسنى والرفق والرحمة. لكن ثبوت الاختلاف لا يفيد تأييده وتوسيع دائرته، مثلما لا يفيد السعي لإنهائه وقطع دابره، فهو اختلاف داخل مشتركات كبرى، قائم بأسبابه الذاتية والموضوعية وتاريخه الحقيقي والمتوهم، وإنما

(١) التنشئة الاجتماعية عملية تطويرية مستمرة مع الفرد إلى الموت، بها يكتسب كفاءات التصرف والإحساس والسلوك، عبر آليات الاندماج والتقمص والاكْتساب والتقليد التي تمارس عليه في المؤسسات الاجتماعية، كالأُسرة والمدرسة والمُعب والإعلام...

(2) Rocher, Guy. *L'action Sociale*, Paris: Seuil coll, 1968, P. 132.

هو عامل إنهاض للقيام بواجب تنظيم هذا الاختلاف في إطار البناء على أسس المشترك بين الناس قصد حماية الحياة الجماعية للبشرية من أن تحتالها تصرفات الذين اجتالتهم الأهواء وأعمتتهم الأطماع، وقد ورد في الحديث القدسي: "خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً."<sup>(١)</sup>

إذا رفع اللبس عن ضرورة الاختلاف والتنوع بين الثقافات والحضارات والشعوب، ثبتت ضرورة الوحدة الآدمية بين الأفراد والشعوب والقبائل،<sup>(٢)</sup> وهي وحدة لا تلغي التدافع والاختلاف والمنافسة والمغالبة والحوار ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾<sup>(٣)</sup> إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٨﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فإن التحدي لا يقع في نبذ الاختلاف ومحو أثره أو مجرد الاعتراف به، وإنما يقع في كيفية تدبيره تدبيراً تشاركياً يسهم فيه الجميع كل بمؤهلاته وقدراته وإنجازاته، دون أن يطغى طرف على طرف فيستكبر عليه ويستضعفه. ولا يحصل هذا التدبير في نظرنا إلا بالاتفاق على المبادئ الآتية:

#### - مبدأ الاعتراف بالغير:

ومقتضاه أن يقر الجميع بحق الغير في الاختلاف بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الكل الإنساني وجودياً ومعرفياً وأخلاقياً، بل وأن يجب له ما يحبه لنفسه، وأن يكره له ما يكره لنفسه، ففي الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه،"<sup>(٣)</sup> وفي المسيحية: "كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، فافعلوه

(١) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج ٤، ص ٢١٩٧، حديث رقم: (٢٨٦٥).

(٢) ربيع، "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ج ٤، ص ٢١٩٧، حديث رقم: (٢٨٦٥).

أنتم أيضاً." (١)

وأول ما ينبغي استحضاره في النظر لموضوع تنظيم الاختلاف واستيعابه بغية استشاره في بناء مشترك إنساني هو قيمة الاعتراف بالغير، فالغير موجود ووجوده ضروري لوجود الذات ولا يتصور وجود لهذه الأخيرة إلا به ومعه؛ إذ "لا يتعرف الفرد إلى الخير وقواعده وطرقه وعلاماته إلا من خلال العمل الاجتماعي"، (٢) الذي يجتمع فيه مع غيره، وحتى إن ادّعت بعض الفلسفات اكتفاء الذات بذاتها وعدم حاجتها لوجود الغير (فلسفة ديكارت مثلاً)، فإنه لا يتصور حتى ذهنياً خلاص الذات من التفكير في الآخرين وبالأخرين ومع الآخرين. ثم إن معرفة الآخرين ممكنة عن طريق التواصل والتعارف والتبادل والتعايش معهم، عملاً بالوازع الأخلاقي الفطري والديني الذي يبعث في الإنسان روح التعاون والتآخي والتضامن، على خلاف الفلسفات التي تنظر للآخرين بريية وشك واتهام (الفلسفة الوجودية مثلاً)، أو نظرة إقصاء وتناف وكراهية وانتقام واقتتال كما روجت فلسفة فريديريك هيغل...

ولما ثبت أنه لا مندوحة من الحياة مع الغير، وثبت أن الحياة مع الغير لا تستقيم إلا بالاعتراف المتبادل، فإنه لا بد أن يحصل التفاضل بين الأمم والشعوب كما هو واقع بين الأفراد أيضاً، سواء في الكفاءات أو في الإنجازات، أو في الطبائع والعادات، لذلك وجب على كل طرف أن يعترف بخير الغير وما خصه الله به من مكرمات، قال الله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّن رَزَقَكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥].

(١) إنجيل متى: ١٢/٧، وانظر أيضاً:

- إنجيل لوقا: ٦/٣١.

(٢) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص ١١٢.



الاختلاف المحمود والتنوع الراشد قائدان إلى التنافس والتدافع والتكامل والتعارف، ومن ثمّ توسيع مساحة المشترك المستوعب والمنفتح، وما يقتضيه ذلك من درء أسباب ومظاهر التناحر والتشاحن والإقصاء والإلغاء؛ لأن كثيراً من النزاعات الاجتماعية وأشكال عدم التفاهم، تأتي من سوء تبادل النظرة بيننا وبين غيرنا، فكل النزاعات تحركها فئاعات أخلاقية تصدر عن مرجعيات تأسيسية توفر لها المعنى والمعقولية، حتى وإن بدت وكأنها مجرد وسائل وأدوات. ولو لم يكن الاختلاف رحمة لجعلنا الله أمة واحدةً بلغةٍ واحدةٍ ولونٍ واحدٍ وسيورةٍ واحدةٍ، وهذا غير واقع ولا يتصور وقوعه. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٥٠]، فمن سنن الله في الكون أن يستمر الاختلاف، ومن مطالب الدين أن يُنظّم هذا الاختلاف ولا يُطمس.

الغير هو الذات الأخرى، هو الإنسان نفسه، هو الإنسانية التي يشترك أفرادها في الخلق والأرض والمصلحة والمصير، لا وجود لي من غير وجوده، إنني لا أوجد إلا بمعيته،<sup>(١)</sup> أنا عاجز عن كفايتي الذاتية؛ أي غير قادر على تلبية حاجاتي بنفسي، يقول الفارابي بهذا الصدد: "وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كما لاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قومٍ يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه. وكل واحد من كل واحد بهذه الحال... ولهذا كثرت أشخاص الإنسان، فحصلوا في المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية؛"<sup>(٢)</sup> أي أن العلاقة مع الغير هي علاقة اشتراك وتعارف

(١) ريكور، بول. الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٥م.

(٢) الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان. آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، بيروت: دار المشرق، ط٤، ١٩٧٣م، ص١١٧.

وجودي عمراني لا محيد عنه، إلا من جهة الغفلة عن السنن الكونية التي تنتظم الوجود العمراني عموماً. ولعل هذا ما يؤكد ابن خلدون بقوله: "الاجتماع ضروري للنوع الإنساني. وإلا لم يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتبار العالم بهم واستخلافه إياهم. وهذا هو معنى العمران." (١)

وشراكة الغير التي يؤصلها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، تقتضي التخلص من نظرتي الازدراء للغير أو الانبهار به على حد سواء، ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، والانتقال إلى الكينونة الجماعية التي يمكن استيعاب دلالاتها من خلال حديث السفينة المشهور؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا. فقالوا: لو أنا خرقتنا في نصيبنا خرقتاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً،" (٢) وهنا تقع مسؤولية الحفاظ المشترك للحياة والكون والسعي بالإصلاح. والذي دونه يقع الفساد ويحدث الهلاك.

وهذا لا يلغي الاختلاف في ذريات آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مختلفة منها الصالح المصلح، ومنها الصالح القاعد، ومنها من يقبل الانصلاح، ومنها الظالم لنفسه أو لغيره وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال

(١) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادى، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، ٢٠٠٥م، ج ١، ص ٦٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ج ٢، ص ٨٨٢، حديث رقم: (٢٣٦١).

تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ. وَلَا يُحَدِّدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وفي هذا فضح للدعوى الملتصقة بالأنساب، والألقاب، والأساطير، والأمانى.

والتاريخ شاهد على وقوع حوادث مؤلمة، تدل على مرور فترات يعتدي فيها الإنسان على أخيه الإنسان بأسباب شتى، كان أخطرها الاعتداء باسم الدين، ومثال ذلك حروب الفرنجة التي كانت تنم عن مواقف معادية أشد العداوة للمسلمين لم تراع عهداً ولا ذمة ولا أخوة إنسانية، ولم تر في نقض العهود أية غضاضة، بل كان من الأحرار والرهبان من يزين للجنود القتل والنهب والإبادة باسم الرب. على نقيض ما كان بين المسلمين ونصارى الحبشة، أو نصارى نجران، أو نصارى الشام من العرب، أو نصارى مصر من القبط، فهؤلاء جميعاً كانت علاقتهم بالمسلمين تمتاز بالمودة وحسن الصلة.

#### - مبدأ السلم:

قاعدة الحوار السابقة لا يقوم لها أساس في مجتمع إنساني تنظمه ثقافة العنف وسلطة السيف وحق القوة والاستكبار، ولا مجتمع تجمععه حيلة "توازن القوى" كما تحدث عنها كيسنجر؛ إذ العنف تغييبٌ لثقافة الحوار والتجاور والتعارف والسلام، لذلك تحتاج هذه القاعدة إلى قاعدة السلم، ومقتضاها دخول الناس جميعاً في عقد السلام الجماعي المستوحى من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ إذ بالدخول فيه تُفك الرقاب وتُحَقَّن الدماء، ويتعايش الناس في رحاب إنسانية متراحة متآخية متواصية بالحق والصبر والمرحمة، متعاونة على البر والخير والتقوى، مرسية قواعد الأمن والأمان والطمأنينة، دافعة لكل صنوف الشر والعدوان والفساد. ويمكن سوغ هذه القاعدة كما يلي:

## "الأصل في العلاقات بين الناس السلم"

السلم تحرير للأفراد والجماعات من الخوف والانحراف، وتعايش جميع أفراد النوع الإنساني في بيئة عمرانية واجتماعية وسياسية مع الانسجام التام بالأمن والعدالة والاحترام المتبادل، بعيداً عن كل أشكال العنف والصدام والحرب. غير أن ذلك لا يفيد إقامة حياة ملؤها السلم المثالي الذي لا حرب معه، وكأنها جنة الآخرة؛ إذ من الممكن أن يحدث القتال بين طرفين أو أكثر، بين الأفراد أو بين الجماعات، والدولة جماعة. أو بين تكتلات كبرى كما وقع في ما سمي بـ"الحرب العالمية" في النصف الأول من القرن العشرين. وهذا لا يتعارض مع قاعدة السلم، وإنما هو استثناء له قاعدته التي يمكن أن نضعها كما يلي:

## "القتال ضرورة للمضطر غير باغ ولا عادٍ"

مع العلم أن مصطلح القتال لا يرادف مصطلح الحرب؛ لأن الحرب تعني المواجهة المادية أو المعنوية، المواجهة المادية واردة في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا انْحَرَّتْهُمُ فَسُودُوا أَلْوَابًا فَإِذَا مَاتَ مِنْهُ بَعْدَ وَإِنَّمَا فَدَاةٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤١﴾ [محمد: ٤]، أما المعنوية فتستفاد من قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَکُمْ رُءُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: ٢٧٩].

أما مصطلح القتال في القرآن فله دالتان: قتال مادي يُفضي إلى موت الجسد وإنهاء حياة الكائن البشري، وهو في الغالب قتال سلبي إلا أن يكون دفاعاً عن النفس لرد الاعتداء، وقتال معنوي روحي يفضي إلى تطهير النفس من الفواحش والآثام الباطنة، وهو في الغالب قتال إيجابي إلا أن يكون تعدياً للنفس وتحملاً لما لا يطاق.

القتال المادي هو الضرب الذي قد يفضي إلى الموت، قال تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخَرُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِن قُتِلُوا فَاقتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ [البقرة: ١٩١]، وهو محكوم في القرآن والسنة بجملة

من الضوابط الصارمة التي تقننه، ومنها ألا يقع القتال إلا دفاعاً لعدوان، وألا يُقتل الأسير والمستسلم والطفل والعجوز والمرأة. وحتى في الحالة التي يشرع فيها القرآن استعمال القوة في ظل شروط معينة و صارمة، فإن القيم القرآنية تدعو إلى الصفح والعتو والصبر بدلاً من الثأر والانتقام والعنف، قال الله تعالى: ﴿وَحَزْرًا وَسَيِّئَةً سَأَيْتُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣]. أما القتل انتصاراً للرأي، أو انتقاماً من الخصم، أو رفضاً للاختلاف الديني أو العرقي أو الجنسي، فهو خسران مبین، وأمر ذلك لائح في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠].

وأما القتال المعنوي فهو إلزام النفس بطاعة الله وإن كرهتها وحملها على فعل الخير واجتناب الشر، وإجبارها على الحكم بالعدل ورفض الظلم؛ أي قتل الصفات الذميمة في النفس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]؛ أي "حمل الأمر بقتل النفس هنا على معنى القتل المجازي وهو التذليل والقهر." (١)

الدخول في السلم حصنٌ وأمانٌ من الحرب التدميرية والصراع العبثي الذي ألحق أضراراً جسيمة بعالمنا، وما يزال يهدد مستقبلنا الذي تتلبد ساءه بغيوم العنف الأعمى، وزادته التقانة الحديثة دقة وقدرة على الفتك والتدمير في أقل مدة من الزمن. والسلم مجال تعايش كل أفراد النوع الإنساني؛ أي "الكافة"، في بيئة اجتماعية وسياسية منسجمة وآمنة، بعيداً عن كل أشكال العنف والصراع والدمار.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٠٣.

لقد كانت دعوة القرآن إلى السلم دعوة عالمية عامة، تشمل جميع أفراد وجماعات البشرية على اختلاف مللهم ونحلهم؛ لأنه "لا بلوغ إلى السلام الديني إلا من خلال دمج الآخرين".<sup>(١)</sup> وهي الدعوة نفسها التي جاءت بها باقي الرسالات السماوية؛ إذ "الأصل في الأديان نبذ العنف لا تشريعه، وتهذيب وتشذيب سلوك الإنسان العدواني وردع وزجر نوازعه الأنانية، بما يجعله صالحاً في نفسه ومصلحاً في مجتمعه؛ أي أداة بناء وتعمير لا أداة هدم وتدمير. فالعدوان، إذن، من الإنسان لا من الأديان، ومن نسب شيئاً من ذلك إلى الدين فيما حرّفه وبدّله هذا الإنسان من نصوص الوحي، أو ما تأوله تأويلاً متعسفاً، أو بما فهمه فهماً سيئاً من الدين. فالقرآن لم يشرع القتال إلا دفاعاً عن النفس أو ردّاً لعدوان، وليس كما يفهم بعضهم اعتماداً على فهم لا أساس له تحت راية آية شُملت "آية السيف" تجب كثيراً من الحقوق والحريات والأخلاق التي هي عماد الدين. ولو تكاملت الأديان فعلاً في دائرة ما هو مشترك بينها وهو كثير وعلى رأسه تحريم القتل، لصينت دماء كثيرة من الهدر".<sup>(٢)</sup>

السُّلم مطلب تشترك فيه جميع الأديان حتى غير السماوية منها، فالهندوس مثلاً يهتمون بعبادتهم بكلمة "شاتتي باتها" وتعني "طريق السلام"، والديانة البوذية تقدر رسالة اللاعنف ورعاية المعوزين والسلام، وتؤمن بـ"نروان" يعنى نهاية جميع الآلام، و"الكونفوشسية ترى أنه من العبث أن تقيم النظام والقانون عن طريق العنف... وأن هذا الاحترام هو الذي يولد السلام بين الناس، ويجعلهم يعيشون في محبة وتسامح، أما الفلسفة الطاوية التي أسسها لاو تسو فهي لا تعارض الحروب واستخدام العنف فحسب؛ وإنما تهدف بالدرجة الأولى إلى إبراز بساطة الإنسان وفطرته البريئة... كما

(١) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور البيانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢) حوار مع سعيد شبار بتاريخ ٢٤ يونيو ٢٠٠٨م، نُشر في موقع الإصلاح. انظر:

- و-لقاءات/20%العقل120%المسلم20%فقد20%قدرة20%الإبداع20%والاجتهاد/https://alislah.ma -  
تاريخ الاسترداد ٢٢ أبريل ٢٠١٢م) آراء- وتحليلات/حوارات

أن كلمة "أهيمسا" التي تعني المقاومة السلبية" كما استعملها المهاتما غاندي لتحقيق الحرية واسترداد الحقوق للشعب الهندي." (١) أما في المسيحية فيقول المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أقول لكم: إنه يجب عليكم ألا تقاوموا الشر... ولقد سمعتم ما قيل لكم: أن عليكم أن تحبوا جيرانكم وتكرهوا أعداءكم، ولكني أقول لكم: أحبوا أعداءكم، واستغفروا لمن يسبكم، وافعلوا الخير لمن يكرهونكم، وادعوا لأولئك الذين يسيئون لكم ويضطهدونكم،" (٢) وترنيمة عيد الميلاد تقول: "ليعم السلام في الأرض، ويعم الخير للإنسان." (٣)

يقول هانس كينغ: "هناك خمس وصايا إنسانية تقر بها الديانات العالمية الكبرى، حتى في المجالين الاقتصادي والسياسي: ١- لا تقتل، ٢- لا تكذب، ٣- لا تسرق، ٤- لا تستسلم إلى الفسق، ٥- أكرم الأهل وأحب الأَوْلَاد." (٤) إلا أن التحريف الذي لحق الأديان هو الذي جعل بعض الناس ينسبون العنف والقتل والتدمير والإرهاب والقسوة للدين ذاته وهو منه براء.

أما القرآن الكريم فقد أثنى على واقعة إنهاء المعركة دون قتال في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ولما وقع صلح الحديبية دون إراقة دماء، حيث اصطلح النبي ﷺ مع مشركي قريش وكانت الحرب مستمرة سَمَّى القرآن ذلك الصلح السلمي: فَتْحًا مَبِينًا، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ولما نزلت سورة الفتح تساءل الصحابة: هو فتح يا رسول الله؟ لظنهم بأن الفتح يأتي بعد المعركة الحربية، فتصحح فهمهم بأنه فتح دون

(١) زياكا، أنجيليكي غريغوري. "القيم الأخلاقية ودورها في نشر السلام"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، ص ٤٥.

(٢) متى: ٥ / ٣٨-٤٤.

(٣) لوقا: ٢ / ١٤.

(٤) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق، ص ١٠٨.

حرب؛ فتح سلمي، وهو أفضل الفتح؛ لأنه حقن دماء المسلمين وغيرهم، وفي الآن نفسه حقق هدفه.

ومن الوثائق المهمة التي خلفتها كتب السير والتاريخ في ترسيخ هذه القاعدة، والتي تُبين أن المعاهدات النبوية أسست "أول ميثاق وطني يوم لم يكن له مثال يُعرف لأمة في عصره، وأقامت أول صيغة للتعايش السلمي بين أهل الأديان في مجتمع يقوم على الفضيلة بكل معانيها، كالأمانة والصدق والوفاء بالعهد، وعلى المساواة في الحقوق والواجبات، مع الضمان لحرية الاختيار في التفكير والاعتقاد،"<sup>(١)</sup> نذكر: "وثيقة المدينة"<sup>(٢)</sup> أو "عهد المدينة"<sup>(٣)</sup> أو ما يمكن تسميتها بـ"وثيقة المواطنة" على عهد الرسول ﷺ، والتي قننت "التعددية في إطار الوحدة: تعددية أهل الشرائع الدينية المختلفة، في إطار الإيمان الديني،"<sup>(٤)</sup> ونصّت على المساواة في الانتساب إلى الأمة الواحدة الجامعة، ويحتفظ كل فريق بدينه وهويته وتقاليده وعلاقاته الداخلية؛ أي إن اليهود أمة مع المؤمنين، يقول طه عبد الرحمن: "الحقيقة هو أن هذه الصحيفة الدستورية أحلت الرابطة الدينية أساساً للمواطنة محلّ الرابطة القبلية القائمة على القرابة والنسب."<sup>(٥)</sup>

تقول الوثيقة: " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وعلى اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة... وأن

(١) الجديع، عبد الله بن يوسف. تقسيم المعمورة في الفقه الإسلامي وأثره في الواقع، بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر، ط١، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٢٤٧.

(٢) الشعبي، أحد قائل. وثيقة المدينة؛ المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة (١١٠)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).

(٣) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص٣٠٠.

(٤) عمارة، "إسلامية المعرفة البديل الفكري للمعرفة المادية"، مرجع سابق، ص١٧.

(٥) عبد الرحمن، رُوح الدّين؛ من ضيق العلّمانية إلى سعة الائتمانية، مرجع سابق، ص٣٥٢.



بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه،<sup>(١)</sup> وهي وثيقة شكلت ما يمكن تسميته بـ"عقد اجتماعي"<sup>(٢)</sup> فحددت العلاقة بين المسلم وإحدى مكونات المجتمع المسلم المخالفة في الدين، وهم اليهود. وخصصت أربع عشرة مادة من اثنتين وخمسين مادة لقضايا اليهود؛ أي بنسبة ٢٧ في المائة. يقول محمد عمارة: "هذه الوثيقة الدستورية أول عقد اجتماعي وسياسي وديني-حقيقي وليس مفترضاً ومتوهماً- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق،"<sup>(٣)</sup> كما "تقرر الصحيفة تحريم القتال في يثرب وتنص على الدفاع المشترك عنها،"<sup>(٤)</sup> وتفرض على جميع الأطراف بناء العلاقات في المدينة على الاحترام والتفاهم والتعاون وحسن المعاملة وجسن الجوار.

والقاعدة نفسها ﴿ادْخُلُوا فِي آلِيسْلِمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، التي تؤطر تماسك المجتمع ووحدته نجدها في معاهدة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ مع نصارى نجران، حيث جاء في المعاهدة أن لهم ولمن ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين: "ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبتها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، وعلى أموالهم، وأنفسهم وملتهم، وغائبهم وشاهدتهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يغير أسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانيته... ولا يظأ أرضهم جيش... وأن أحمي جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم... وأن أحرس دينهم وملتهم

(١) الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢) الجابري، محمد عابد. فهم القرآن الحكيم؛ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط ١، ٢٠٠٩م، ق ٣، ص ٨.

(٣) عمارة، محمد. "فلسفة الإسلام"، مجلة حراء، العدد (٩)، ٢٠٠٧م، ص ٥٥.

(٤) الجابري، فهم القرآن الحكيم؛ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، مرجع سابق، ق ٣، ص ١١.

أين كانوا... بما أحفظ به نفسي وخاصيتي وأهل الإسلام من ملتي." (١)

وعملاً بالقاعدة نفسها صاغ أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دستوراً لأخلاقيات السلم والحرب في الإسلام، عندما أوصى أميره على جيش الشام يزيد بن أبي سفيان قائلاً: "إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وإني موصيك بعشر: لا تقتلنَّ امرأةً، ولا صبيّاً، ولا كبيراً هريماً، ولا تقطعنَّ شجراً مثمرًا، ولا تحربنَّ عامراً، ولا تعقرنَّ شاةً ولا بعيراً إلا للمأكلة، ولا تحرقن نخلًا، ولا تفرقنه ولا تغلنَّ، ولا تجبنَّ"، (٢) بالإضافة إلى معاهدة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع أهل بيت المقدس؛ وفيها تأمينهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وعقائدهم وكنائسهم وصلبانهم... مؤكداً تأكيداً عملياً أن السلام والتعايش السلمي هو البشري التي يحملها القرآن للإنسانية المعذبة، ضد الظلم والقتل والهرج والفتن. (٣)

#### - مبدأ الحوار وحسن الجوار:

معلوم أنه لا يتم الحوار إلا بين ذاتين؛ فردين أو جماعتين، ونقصد الحوار بين الذات المسلمة عموماً التي تتخذ من القرآن مرجعها المطلق، والذات الغربية التي تتخذ من الفلسفة المادية مرجعيتها الحاكمة، وتساءل:

---

(١) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ج ٤، ص ١٨٨٢، حديث رقم (٢٤٢٠)، وانظر أيضاً:

- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الكويت: دار القلم، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص ٢٦٥.

(٢) راجع هذه الوثائق في:

- الحيدر أبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، مرجع سابق.

(٣) القرضاوي، يوسف. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٩٢م، وانظر أيضاً:

- العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، الفصل الثاني.

كيف يتأسس الحوار مع الغرب من منطلق عقدي؟ هل بالالتهام المسبق والبحث عن المؤاخذات والنقائص للتشهير بها؟ أم بالتسليم المطلق للآخر فقط؛ لأنه أحرز التفوق التقني والعسكري والاقتصادي؟ أم بالانكفاء على الذات والحومان على تاريخها والانغلاق عن الغير؟ كما أن التسليم بضرورة الحوار يطرح السؤال الآتي: ما طبيعة هذا الحوار، وما هي معالمة الكبرى وقيمه الحاكمة وغاياته الموجّهة؟

### الحوار لا يلغي الاختلاف:

مقتضى الحوار أن يكون اللقاء، وأن تكون الروابط بين الأغيار روابط تعاونية من أجل التركيز على المشترك بين المتحاورين، والقطع مع كل أشكال الاستكبار والإقصاء والكراهية والمعاندة، "وفي هذا الحوار الخلاق يكون المشاركون فيه واعين لحقيقة أن هدفهم ليس إلغاء الاختلافات بين الأديان، أو مواءمة عقيدتهم بما عند الآخر بطريقة ترقيعية، تتجاهل ما لا يمكن مصالحته بين معتقدات هؤلاء المشاركين؛ وإنما التخلص من العداوة والمهاترات التاريخية بين الأديان، وفوق كل هذا يكون الهدف هو التخلص من التعصب والسلوك المشين بين الجماعات الدينية المتعايشة في منطقة واحدة."<sup>(١)</sup>

معلوم أن أصل الاختلاف سُنّة إلهية أزلية في الحياة، لا يوقفها الحوار ولا ينهيهها، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[١١٩]﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ومهمة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تلغي الاختلاف وإنما تتمثل في الدعوة والبيان بالبشارة والندارة والشهادة، ويبقى حق الاختيار مكفولاً للإنسان لا يجوز غصبه، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] على بينة ووضوح.

(١) زياكا، "القيم الأخلاقية ودورها في نشر السلام"، مرجع سابق، ص ٥٨.

والقرآن الكريم إضافة إلى هذا لم يتوقف عند الدعوة إلى الحوار كآلية من آليات التوافق والتلاقي في إطار سنة الاختلاف والتنوع، بل جعله واجباً دينياً في الدعوة والتعارف والتعامل والوجود المشترك بين الناس على الأرض.

بتركيز القرآن الكريم على القواسم المشتركة في الاعتقادات بين المتحاورين، ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، يعترف بالاختلاف بينهم ويقر بوجود اعتقادات متباينة، ويدعو إلى تحقيق التقارب وتبادل الاستماع بين الطرفين من أجل مستقبل يستوعب الجميع، حيث "الحوار وحده الذي يمكن أن يولد مشروعاً كونياً يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء اختراع الجميع مستقبل الجميع"،<sup>(١)</sup> ذلك أن التركيز على المشتركات يحقق التقريب والتحبيب، بخلاف اقتصار الحوار على المختلفات فقط فهو يُبعد الشقة بين المتحاورين، ويعطل المشترك أو يشوه مساره وينحرف به عن مقاصده.

### الحوار بالتي هي أحسن:

إذا ثبت أن الحوار هو طريق التواصل الرشيد والتعارف المثمر، فإن هذا الحوار لا يستقيم إلا إذا خضع لمجموعة من الضوابط والقواعد التي تؤطر أسلوبه ومستواه وتحقق هدفه ومرماه، تجسيدا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُزِيلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

يتوقف نجاح الحوار على اختيار المحاور والعمل بقاعدة عملية هي قاعدة "التي هي أحسن"، وهذه القاعدة لا يمكنها أن تكون إلا مشتركا، فضلاً عن كونها قد

(١) غارودي، روجيه. من أجل الحوار بين الحضارات، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: دار النفائس، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٩.

تتعدد في صورها، وتتجدد في مضمونها. تجمع المحاسن في الغايات والوسائل والمقاصد والأهداف والأساليب، حتى تتحقق "الأحسن" على جميع المستويات؛ إن على مستوى النية والمقصد، أو على مستوى المنهج والكيفية، أو على مستوى الاستدلال والإقناع. فلا يميز المحاور لنفسه من ذلك ما لا يميزه لغيره، ولا يمنع غيره مما يبيحه هو لنفسه.

الحوار في أصله مشترك خطابي تفاعلي حجاجي، يدخل فيه طرفان أو أكثر في تحاور وتواصل وتحاجج لبيان ما مع كل طرف من الطرفين المتحاورين من الحق في الموضوع المختلف فيه، فلا يتحاوران أصلاً إلا في موضوع يشتركان فيه من جهة ويختلفان فيه من جهة، يسميه أهل المناظرة بـ"محل النزاع". وما يقدمه كل منهما من حجة لتصديق قوله وإسناد دعواه هو إشراك لمحاورة في ما يعتقد صدقه، كما هو مناسبة ليراجع المدعي دعواه إذا ثبت كذبها أو ضعف سلطانها أو عدم مناسبة حجيتها لمضمونها. كل ذلك في إطار الاعتراف بالاختلاف والمغايرة.

ولأن الحوار استجابة مشتركة لنداء الحق الذي يعتقده كل طرف، ورجوع إلى الصواب الذي يظنه كل مدعي، وبحث عن الحقيقة كما يتصورها كل زاعم، بقناعة عقلية واطمئنان قلبي، وجب اختيار الأسلوب الأقدر على تحقيق الإسراع الكامل؛ إذ الاستجابة ثمرة الاستماع، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ يَوْمِ رُجُوعِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٦]. وأسلوب الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة هو الأقدر على تحقيق ذلك. والحوار بالحكمة بيان للحق ورجوع إلى ما أوجبه الحجة بعد قيامها. وحاجة العقل البشري إلى وضوح الحجة، وإلى تحليل الدليل وتقليب النظر فيه للتأكد من صحته، خصلة إيجابية تهيم للمحل للحوار الناقد النزيه الكاشف للحقائق، الحريص على معرفة الحق الذي لا يحابي أحداً. وهذا يقتضي أن يفتح عقل المخاطب لاستيعاب ما عند المخاطب من غير مكابرة في الحق ولا عناد، من خلال الاحتكام إلى سلطان الدليل برهانياً كان أو حجاجياً أو تجريبياً.

## الحوار بالموعظة الحسنة:

أما الحوار بالموعظة الحسنة فهو تبليغ صادق مُبين لكلمة الحق إلى أعماق القلوب والعواطف والعقول، ونصيحة صاحب رسالةٍ حريص على إيقاع الأثر في المرسل إليه باعتبار أخوته الآدمية وشراسته الإنسانية، فضلاً عن عقيدته التوحيدية. فتنبعث الكلمة من قلب المُلقّي لتستقر في قلب المتلقي، لتحرك فيه إرادة التعارف والتفاهم والتعامل، تبشيراً لا تنفيراً، وتيسيراً لا تعسيراً. والحوار بالموعظة الحسنة يشمل كل الفنون والأساليب التي تؤثر في فكر المحاور ووجدانه بدءاً بالقول اللين والفعل الحسن والقدوة الحية، فتهيئه نفسياً وذهنياً وروحياً للتعاون من أجل طلب الحقيقة والتمسك بها، وقبول الحق والإذعان له.

لذا فالحوار بالموعظة الحسنة مُكمل للجدال بالحكمة؛ إذ مهما تبلغ الحجة من القوة، ومهما يبلغ الخطاب من الوضوح والبيان، قد لا يرفع همة المتلقي إلى مستوى الإقبال على المُلقّي وقبول دعواه؛ بل إن المتلقي للخطاب قد يقتنع بفكرة مجردة لقوة حجتها أو تأثراً بجماليات خطاب صاحبها، فيذعن لها حيناً، لكنه قد لا ينهض للعمل بمقتضى تلك الفكرة، وخاصة إذا كانت تخالف سابق رأيه؛ إذ "سرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي، وقيمتها عند الناس، فتعد التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها. والمحاورة بالتي هي أحسن هي التي تحط من هذه الكبرياء الزائفة، وتشعر المحاور أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه، وهزيمة الرأي الآخر."<sup>(١)</sup>

وبهذا يتضح أن اختيار أسلوب الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة الجامع بين رفق الكلمة وقوة الحجة البينة، هو الأقدر على بلوغ مقاصد الحوار بالتي هي أحسن بين

(١) قطب، سيد. في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ط ٧، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج ٤، ص ٤٩٨.

المسلمين وغيرهم، لأنه ينسجم وجوهر الإنسان وطبيعته؛ إذ "في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها. فأما إحداها فتنتقب عن الحق لمعرفة، وعن الخير للعمل به. وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوفي لكل هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية، والمتعة الوجدانية معاً".<sup>(١)</sup> لذا لزم على من يروم التي هي أحسن في الحوار أن يحقق البيان التام، من خلال الجمع بين إقناع العقل وإقناع القلب. وتوجيه الخطاب إليهما يتحقق الإسماع المطلوب، والبلاغ المبين، ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. آنذاك لا يلزم أحدٌ أحدًا باتباعه. إذ الواجب إسماعه وكفى.

الإسماع حجة قوية، وقوة الحجة في إحكام الدليل ووضوح الخطاب، ولين الجانب، بعد الاطلاع الكافي على حقيقة الغير ومعايشه، كما يقول أبو الحسن الأشعري: "فإنه لا بُدَّ لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها من معرفة المذاهب والمقالات"،<sup>(٢)</sup> وهي دعوة لقراءة ما للغير من مؤلفات تخص الجوانب المتعلقة بالعميقة في نصوصها الأصلية، مع مراعاة أحوال السامعين والمخاطبين، وإنزال الكلام حسب المقام ومقتضيات الأحوال. وإن كان الإقرار بالحق والرجوع إليه بالمناظرة والمحاورة هدف صعب المنال، إلا أن تحسينه وتجميله وتوجيهه قد يحقق مقصده.

### الحوار وحسن الحوار

للحوار شرطه في القرآن الكريم، وكتب الفقه تحدثك عن حقوق الجار، ديناً وسكناً ومعاملة، وبين المسلمين والغرب مجاورة عقدية وجغرافية واقتصادية وسياسية وبيئية،

(١) دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم؛ نظرات جديدة في القرآن، الكويت: دار القلم، ط ٣، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ١١٣-١١٤.

(٢) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الحديث، ط ٢، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٣٣.

ناهيك عما يوفره التطور التكنولوجي اليوم وغداً من تقارب بين الأمم والشعوب والثقافات، وتأثيره إيجاباً وسلباً.<sup>(١)</sup> حتى أضحى الناس جميعاً جيراناً لبعضهم بعضاً في الأرض. وبين الجيران مودة وتساكن وتعاون، أو بعبارة أوجز: بينهم تشارك. حتى وإن وقع الخصام والتنافس والتدافع فإن ذلك لا ينفي حقوق المجاورة وآدابها ولا يعطلها. فقد اعتبر القرآن نصارى الحبشة زمن البعثة، أقرب مودة للمسلمين من غيرهم من المشركين، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَالْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّوهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قُرْبَانَ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. مثلما بشر القرآن الروم وهم نصارى لما انهزموا أمام عدوهم الفرس وهم مشركون، بأن النصر سيكون حليفهم في المعركة المقبلة. قال تعالى: ﴿الْعَرَبُ ۙ غَلَبَتِ الرُّومَ ۚ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم: ١-٦]، فيتقاسم المسلمون الفرح مع النصارى لما بينهم من مشترك عقدي وقيم جامعة.

ومع ما سبق ليس الحوار هدفاً في حد ذاته، بل وسيلة لتحقيق أهداف كبرى، لعل أهمها على مستوى العلاقات الدولية، هو بناء المشترك الدولي على جميع الأصعدة، وإنتاج نسق جديد للعلاقات بين الأمم يتأسس على القناعة بالكلمة السواء. والعمل بـ"مبدأ المعاملة بالمثل".<sup>(٢)</sup>

الحوار من أجل المشترك الإنساني هو سعي إلى تغيير أسس العلاقة وإطارها في العالم الحالي إلى أسس جديدة تستجيب لتطلعات الإنسان المعاصر،<sup>(٣)</sup> وتعفيه من

(١) ماركوز، هربرت. الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط٣، ١٩٨٨م، ص ١٨١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن، رُوح الدِّين؛ من ضيق العُلَمانية إلى سَعَةِ الاتِّمانيّة، مرجع سابق، ص ٦٨.

(3) Arendt, Hannah. *Condition de l'homme moderne*, Paris: Clamann-Lévy, 1983.



أخطاء السابقين. أسس مشتركة لوضع دولي جديد يترجم نداءات الإنسانية وحاجاتها إلى الفكك من آلام المعاناة لإنشاء واقع يليق بكرامة الإنسان واستخلافه. آنذاك نخرج من ثقافة الخلاف الصراعي المذموم الذي أدمى تاريخنا المشترك،<sup>(١)</sup> إلى ثقافة الاختلاف التعارفي المحمود.

ولا يصح أن يلتفت إلى الدعوات التي تلخص العلاقة مع الغير في صراع حضاري يسكب الزيت على النار ليشعل فتنة الهرج بين بني الإنسان، ولا يريد لها إلا عوجاً؛ أي: إنهم يسعون في الأرض فساداً لما يؤلبوا قوماً على آخرين ويسوغوا لهم الحرب والمكر والكيد والظلم. ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٣]. والله تعالى أنزل الكتاب لصد الاعوجاج، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ﴾ [الكهف: ١].

مركزية الحوار في القرآن جعل بعضهم يعده "كتاب حوار"،<sup>(٢)</sup> بدءاً بحوار الله تعالى مع ملائكته وأنبيائه، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحوار الأنبياء مع أقوامهم، مثل حوار سيدنا إبراهيم مع قومه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِعِلْمِينِ﴾ [٥١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٤]، وحوار سيدنا موسى مع فرعون ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

(١) نستحضر ما حدث في التاريخ من صراعات طويلة نذكر منها: "الحروب الصليبية"، أو "حروب الفرنجة". حيث استمر الاعتداء على بلاد المسلمين حوالي مئتي سنة. انظر:

- قاسم، قاسم عبدو. ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة (١٤٩)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠م.

(٢) التويجري، عبد العزيز بن عثمان. "بيداغوجيا التسامح في حوض البحر الأبيض المتوسط"، ندوة دولية، تونس: ٢١-٢٢ أبريل ١٩٩٥م، ص ١١.

الْعَلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ [الأعراف: ١٠٤]، وحواره مع قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ [إبراهيم: ٦]، وكذلك حوار جميع الأنبياء مع أقوامهم، ونقل لنا القرآن الكريم حوار أصحاب الجنتين، وحوار أصحاب الكهف، وحوار سيدنا موسى مع الخضر، وحوار الأنبياء مع الملائكة، بل حاور الله إبليس، وقد ورد ذلك في عدة سور من القرآن نقلت لنا رأي إبليس بوضوح: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ [الأعراف: ١٢]... إلخ

مما سبق يظهر بجلاء أن الحوار بين المسلمين والغرب استجابة لنداء مركزي في القرآن الكريم، بل هو منهج التعامل مع الناس جميعاً، فبالأحرى مع أهل الكتاب الذين لهم كتاب يجعلهم في قلب المشترك الديني الإنساني. ونذكر هنا واقعة تدل على تمييزهم عن غيرهم، حينما انتصر الفرس على الروم حزن المسلمون وفرح المشركون؛ لأن الفرس آنذاك كانوا مجوساً يعبدون النار فهم أقرب إلى الوثنيين العرب، وكان الروم أهل كتاب نصارى فلذلك حزن المسلمون وحصل جدال بينهم ومراهنات مع المشركين، وبصدد تلك الواقعة نزلت الآيات القرآنية الأولى في سورة الروم.



## الفصل الثالث:

### المشترك العلمي المعرفي مدخلاً للمشارك الإنساني

يعيش الإنسان بأبعاد متعددة؛ عقدية، عمرانية، أخلاقية... إلا أن هذه الأبعاد لا تغني عن البعد المعرفي الناظم والموجه لها جميعاً، ما دامت "المعارف المشتركة التي هي بادئ رأي الجميع هي أسبق في الزمان من الصنائع العملية ومن المعارف التي تخص صناعةً صناعةً منها،"<sup>(١)</sup> ومن أنواع المعرفة البشرية تتميز المعرفة العلمية وتتفوق على غيرها من المعارف، لكن وإذا كانت "المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره،"<sup>(٢)</sup> فإن عمليات الإدراك والتفكير تتأثر بالذوات الناظرة وبطبيعة الموضوع المنظور فيه وبالأوضاع الثقافية والفكرية المحيطة، فضلاً عن السوابق الفطرية، من هذا المعطى نحاول في الفصل الثالث أن نجيب عن الأسئلة الآتية:

ما هي مصادر المعرفة العلمية؟ وما هي وسائلها المشتركة؟ وما هي مناهجها؟  
أبين الإنسانية قواعد علمية ومعرفية ومنهجية مشتركة أم لكل أمة علومها ومعارفها  
ومناهجها التي تخصها؟ أو بعبارة أخرى: ألا يمكن الحديث عن مشترك علمي معرفي  
منهجي موضوعي يتمنع عن كل انتفاء أو تحيز أو خصوصية؟ أليس شرف العلم يسمو  
به فوق القابلية للتوظيف القومي والسياسي والاقتصادي والإيديولوجي والسملي؟  
وكيف يتأسس المشترك العلمي في ضوء المرجعية المعرفية القرآنية؟

### أولاً: العلوم التجريبية والمشارك الإنساني

تعدُّ المعرفة التجريبية عموماً تلك المعرفة التي تُستمد من الملاحظة والتجربة  
والاستقراء، وليست تلك المستنبطة من التفكير النظري المجرد القائم على التأمل

---

(١) الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان. كتاب الحروف، تحقيق: محسن مهدي، بيروت: دار المشرق، ١٩٧٠م، ص ١٣٤.

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى بن محمد الحسيني. تاج العروس، دمشق: دار الفكر، ط ١، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، حيث ورد: "المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره... وأصله من عرفت الشيء؛ أي أصبت عرّفه؛ أي رآته، أو من أصبت عرّفه؛ أي حدّه".

العقلي الخالص أو الاستدلال الفلسفي البرهاني. ونتيجة اقتداء فلاسفة ومتكلمي المسلمين القدامى بمنهجي أفلاطون وأرسطو واقتفاء آثارهم، ابتعدوا عن بحث ظواهر الكون وخصائص المادة، فضيعوا على الأمة المسلمة دراسة الطبيعة وما يتحصله بحثها من منافع مادية.<sup>(١)</sup>

ومع ذلك ظهرت اهتمامات مبكرة بالعلوم التجريبية عند المسلمين أثمرت تميزاً محدوداً، فقد أضافوا المنطق التجريبي المادي إلى المنطق الصوري، وانتقدوا قصور هذا الأخير، وأبدعوا في منهجية التمثيل استقراء وقياساً، وفتحوا آفاقاً واسعة أمام المنطق المعاصر،<sup>(٢)</sup> لا يسمح موضوع الكتاب بالتفصيل فيها، لكن المنهج سرعان ما انتقل إلى الغرب واشتهر مع ما سمي بـ"المذهب التجريبي" الذي بُنيت عليه معارف علمية شتى، وهو المذهب الذي يعدّ التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة العلمية، ويرفض وجود مبادئ أولية أو معرفة فطرية أو أية مقولات خالصة في العقل أو متعالية على الواقع الحسي. فهو "ينبني على الظواهر الحسية؛ لأنها المقياس الصحيح في بت الحكم، وليس هناك معرفة فطرية أو ضرورة عقلية،"<sup>(٣)</sup> أما العقل فهو في نظر التجريبيين -خاصة جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م)- مجرد صفحة بيضاء خالية من أية معرفة مسبقة، ولا تأتيه المعرفة إلا من مصدرين حسيين هما: الإدراكات الذاتية الداخلية، والانطباعات الحسية الخارجية.

## ١ - المنهج التجريبي؛ خصائصه وحدوده:

تحصل المعرفة الحسية البسيطة نتيجة الاتصال المباشر بالوقائع المادية كما هي في الطبيعة، أما المعرفة الحسية المركبة فتُبنى بتركيب الأفكار البسيطة وتنظيمها كالأفكار الرياضية والمنطقية.... ولعل ذلك ما عناه دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) بالانطباعات

(١) العروي، عبد الله. مفهوم العقل، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٦م، ص١٥٧-١٥٩.

(٢) مرسل، محمد. دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، الدار البيضاء: دار توبقال، ط١، ٢٠٠٤م.

(٣) آل شير، محمد طاهر. نقد المذهب التجريبي، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٨٧م، ص٦٥.

والتصورات، حيث تشير الأولى إلى الإدراكات التي تتم بالحواس، بينما تختص الثانية بالتأليف بين الأفكار الواردة من طريق الانطباعات. الأولى تنتج حقائق واقعية تقبل التناقض، والثانية تنتج حقائق عقلية لا تقبل التناقض.<sup>(١)</sup>

### أ- خصائص المنهج التجريبي:

يتم التمييز في مصطلح "التجربة" بين دالتين:

- التجربة الحسية: وهي "كيفية إدراكنا الحسي للعالم الخارجي المحسوس"،<sup>(٢)</sup> أي كل ما تلتقطه الحواس من معرفة من العالم الخارجي، وهي معرفة التي يشترك فيها جميع الناس من غير تكلف. والتجربة في معجم أندري لالاند هي: "المعرفة المباشرة، الحدسية، الفورية التي نحرزها عن الوقائع أو الظواهر."<sup>(٣)</sup>

- التجربة العلمية: أو التجريب *L'expérimentation* وهو تلك الواقعة التجريبية الحسية المنظمة التي يقوم بها العالم أو الباحث المتخصص في فرع من فروع المعرفة العلمية، وفق خطة علمية دقيقة تقبل إعادة الإنشاء في ظروف مختلفة وباستمرار، فتسمى علوماً تجريبية، وهي تلك العلوم التي تستعمل منهج التجريب.<sup>(٤)</sup>

العلوم التجريبية هي جميع العلوم القديمة والحديثة التي تتخذ "التجريب" منهجاً لاكتساب المعرفة وبنائها، ثم نقدها وتطويرها والتحقق من صحتها وسلامتها، ذلك أن الإنسان خرج إلى الدنيا وهو لا يملك أية معرفة ما عدا الفطرة، غير أنه يولد مزوداً في فطرته بقدرات هائلة وميسرة للمعرفة والتعلم ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]،

(١) كونزمان، بيتر. وبوركارد، فرانز. وفيدمان، فرانز. أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: المكتبة الشريفة، ط ١، ٢٠٠١م، ص ١٢٥.

(٢) سعيد، جلال الدين. معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس: دار الجنوب للنشر، ١٩٩٤م، ص ٩٢.

(٣) لالاند، أندريه. موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عويدات، ط ٢، ٢٠٠١م، ص ٣٨٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٩٢.

لتتعلموا بالتلقين والتدبر والتفكر والتبصر والاعتبار.

وفعل التجربة مشترك إنساني، لأنه ينصب على موضوع المادة والعلل المرتبطة بها، وهي متاحة للإنسان إن هو أحسن استعمال قدراته وكفاءاته الذهنية والحسية، فالناس جميعاً "قد جربوا أنه إذا طلعت الشمس انتشر الضوء في الآفاق، وإذا غابت الشمس أظلم الليل... فهذا أمر يشترك في العلم به جميع الناس، لما قد اعتادوه وجربوه."<sup>(١)</sup>

تلقف الغرب - خلال القرن السادس عشر الميلادي - الخبرة التجريبية لما تكثف الاتصال بحضارة المسلمين بالأندلس، وانفصلت العلوم الطبيعية عن الفلسفة التي كانت أمماً لجميع العلوم، واستقلت بمناهجها الخاصة وموضوعاتها المحددة، عندما حلت أفكار غاليليو غاليلي في كتابه "ميكانيكا القوي" محل أفكار أرسطو في تأليفه "فيزياء الأشكال"، فأزاح التصور العلمي الجديد تلك الأفكار الأرسطية التي بسطت سلطانها على العقول قروناً طويلة. فما هي خصائص هذا المنهج؟ وكيف يُتحقق من صدقية المعرفة التجريبية المستمدة منه؟

أول شرط في العلوم التجريبية في أهلية العالم وتكوينه وخبرته؛ إذ يتطلب المنهج التجريبي منه أن يكون قادراً على تحقيق صرامة علمية عالية في ملاحظته للظواهر المدروسة، حتى تجمع الملاحظة العلمية بين الضبط والدقة والإحاطة، ثم تليها خطوة اقتراح فرضيات البحث، وهي تفسيرات احتمالية أو أجوبة تقريبية انقدحت في ذهن الباحث أثناء الملاحظة العلمية، وليس قبلها. لكن هذه الفرضيات ليست علماً في ذاتها مالم يتم فحصها فحصاً دقيقاً لبيان صدقها من كذبها، وتلك هي لحظة التحقق من صدقية الفكرة بوساطة التجربة المختبرية.

بعدئذٍ وبتكرار صحة التجربة وإثبات صدق الاستنتاج، يتم استنباط القانون المتحكم في الظاهرة وصياغته صياغة رياضية رمزية؛ أي ما يُسمى بـ"التكميم". وباحترام

---

(١) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحليم. الرد على المنطقيين، بيروت: دار المعرفة، (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م)، ص ٩٤.

هذه الخطوات يكون العالم حذراً من الوقوع في أخطاء الملاحظة الجزئية والسطحية والمستعجلة؛ لأن التساهل في شرط الملاحظة العلمية يؤدي مبدئياً إلى تشويه إدراك الظاهرة المدروسة، إن إهمالاً لبعض أجزائها أو تعميماً لبعضها على بعض، أو الاكتفاء بمعرفة مسبقة لا تغني العلم في شيء.

لهذا يرى "كلود برنار" (١٨١٣-١٨٧٨م)<sup>(١)</sup> أنه "على الملاحظ أن يكون، إذن، أثناء معانيته للظواهر بمثابة آلة تصوير تنقل بالضبط ما هو موجود في الطبيعة؛ إذ يجب أن يلاحظ دون فكرة مسبقة، وعليه أن يصمت وأن ينصت إلى الطبيعة وأن يسجل ما تمليه عليه،"<sup>(٢)</sup> أو بعبارة أخرى: "أنطلق إلى الميدان وأدع الصخور تتحدث إليّ."<sup>(٣)</sup> وفي هذا يتجلى حرص العالم التجريبي على التجرد من المعرفة الوهمية أو العامية أو الإيديولوجية الثاوية في ذهنه، والمشوشة على مسار ومصير بحثه العلمي.

### ب- مراجعة المنهج التجريبي:

تطور المنهج التجريبي المعاصر وأقدم على مراجعات وتجاوزات للمنهج التجريبي التقليدي من داخل المدرسة التجريبية ذاتها، فضلاً عن النقد من خارجها؛<sup>(٤)</sup> إذ لم تعد التجربة في صورتها الساذجة كافية لإنتاج حقيقة علمية "يقينية"، بل حتى مصطلح "منهج" تم التخلي عنه مع فلسفة "روني طوم"<sup>(٥)</sup> الذي ميّز بين

(١) كلود برنار طبيب وعالم فيزيولوجيا فرنسي شهير يعدّ من مؤسسي المدرسة التجريبية في الغرب.

(٢) برنار، كلود. المدخل لدراسة تطور الطب التجريبي، باريس: فلانماريون، ١٩٨٤م، ص ٥١-٥٥.

(٣) تريفيل، جيمس. لماذا العلم؟، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة (٣٧٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠م، ص ٢٤.

(٤) أقصد المدرسة النقدية مع إيبانويل كانط، وخاصة في كتابه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة" و"نقد ملكة الحكم".

(٥) روني توم رياضي فرنسي (١٩٢٣-٢٠٠٢)، يعد مؤسس نظرية الكوارث la théorie des catastrophes، حائز على ميدالية فيلدز la médaille Fields، سنة ١٩٥٨م، وهي الجائزة المخصصة للكشوفات الرياضية، وتعادل في قيمتها جائزة نوبل.



مصطلح "منهج" ومصطلح "فعالية"، فنسب الأول لفلسفة ديكرت ذات المنهج الفلسفي الشكي، وربط الثاني بالممارسة التجريبية التي تقبل الاختبار التجريبي، ويعدّ أن الجمع بين المنهج والتجربة كالجمع بين المتناقضات الآتية: "ثلج محرق" أو "نار متجمدة"، لهذا يرفض "طوم"<sup>(١)</sup> استعمال كلمة منهج في العمل التجريبي، ويستعمل عوضاً عنها مفهوم "الفعالية التجريبية" أو "الممارسة التجريبية"، التي قد تسبق أصولها العلم والمنهج، ويمكن أن تستعين بالخيال بوصفه تجربة ذهنية تسد ثغرات التجربة الحسية. ولا مندوحة لها عن احترام خطوات صارمة<sup>(٢)</sup> تؤهلها لتكون "واقعة تجريبية" لا ترقى إلى تأسيس "واقعة علمية" كما كانت تدعي التجريبية التقليدية؛<sup>(٣)</sup> إذ ليست كل عملية تجريبية علمياً إلا إذا حققت المطلبين الآتيين:

الأول: وافقت قابليتها للتكرار؛ أي تقبل إعادة الإنشاء باستمرار، وهذا يقتضي أن تكون بروتوكولات إعداد التجربة وإنجازها دقيقة بشكل يمكننا من إعادة التجربة في مجالات زمانية ومكانية أخرى.<sup>(٤)</sup>

الثاني: أن يكون لها أثر مادي يستجيب لحاجات نافعة في حياة الناس، وليس تأملاً فلسفياً مجرداً، وأن يسهم إسهاماً نظرياً في تطور العلم، فيضيف جديداً، كأن يجيب على إشكالية كانت مطروحة من قبل، ولم تجد لها حلاً في إطار النماذج العلمية

(1) Thom, René, *Apologie du logos*, Paris: Hachette Littérature, 1990, P. 607.

(٢) من أجل ممارسة تجريبية يؤكد "طوم" على وجوب الاحتراز في تتبع الإجراءات الآتية:

١- عزل المجال المراد دراسته: تحديد الموضوع والزمان والمكان بدقة.

٢- إعداد المجال بتوفير عناصر الموضوع المدرس (مواد كيميائية، كائنات حية...)

٣- القيام بالتجربة؛ أي تسليط أدوات البحث على الموضوع المبحوث بدقة ووفق خطة مكتوبة.

٤- تسجيل النتيجة بصيغة دقيقة قابلة للقياس، وتستجيب للنسق المدرس...

(3) Duhem, Pierre. *La théorie physique, son objet, sa structure*, Paris: marcel Rivière et Cie, 1906.

(4) Thom, *Apologie du logos*, p. 609.

والبراديغمات القديمة؛ أي أنه "يجعل البحث يندرج ضمن إشكالية قائمة".<sup>(١)</sup>

هذه الضوابط العلمية هي ضوابط موضوعية لا تتعلق بذاتية الباحث وتحيزه، إلا أن تستعمل نتائجها استعمالاً مشوهاً ينتحل الحقائق العلمية لأغراض غير علمية. ويتحدد معيار التحقق من صدقية النظرية العلمية في نظر المدرسة التجريبية عموماً في قابليتها للاختبار التجريبي، ما دامت النظرية أصلاً هي صورة ناسخة لموضوعات الواقع المادي، حيث التجربة هي منبع العلم ومحكه ووسيلة بيان صدقه من كذبه، ولا يصح نعت معرفة ما بصفة "العلمية" ما لم تخضع للفحص التجريبي، وكل تجاوز لهذا الشرط فهو خروج من دائرة العلم وارتقاء في أحضان الأسطورة والمعرفة الخيالية والمثالية المجردة.

هذا الإصرار على تجريبية المعرفة العلمية وقصر مصدر المعرفة على المحسوسات، هو ما يجعلها محط نقد ومراجعة، ومن ثمّ الدعوة إلى إنشاء نماذج علمية جديدة قادرة على إعداد أجوبة مُقنعة عن الأسئلة العلمية التي تعجز التصورات التقليدية عن أن تجيب عنها، ولعل ذلك ما دفع "كارل بوبر" (١٩٠٢ - ١٩٩٤م) لينقلب على الاتجاه التجريبي معتبراً أن المعرفة العلمية لا تطابق المعرفة التجريبية إلا إذا كانت قادرة على الاستجابة لشرط "القابلية للتكذيب"، وتُعد "خارج مجال العلم التجريبي عندما لا نستطيع وصف كيف يمكن أن يأتي التكذيب المحتمل لها... ومن ثمّ، فإن النظرية التي تعرف مُقدماً أنه لا يمكن تبيان العيب فيها أو تنفيذها هي نظرية غير قابلة للاختبار"،<sup>(٢)</sup> وفي الاتجاه نفسه يسخر روبر بلانشي من النزعة التجريبية التقليدية قائلاً: "يميل المذهب التجريبي إلى تصور الفكر كقطعة الشمع الرخو التي تنطبع سلباً بطابع التجربة".<sup>(٣)</sup>

(1) Ibid., p.609.

(٢) بوبر، كارل ر. أسطورة الإطار؛ في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يميني الخولي، سلسلة عالم المعرفة (٢٩٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣م، ص ١١٥-١١٧.

(3) Blanche, Robert. *la science Actuelle et le Rationalisme*, Pais: Presses Universitaires de France, 1973, pp. 116-120.

## ت- المعرفة التجريبية مشترك إنساني:

هذه العلوم التجريبية بموضوعاتها ومناهجها ومخاضاتها مشترك إنساني، فهي عموماً ثمار الأعمال البشري للقوى الإدراكية التي تتخذ من أشياء الطبيعة موضوعاً لها بلا طلاس ولا تكهنات، ولا يُحشى على إدراكات العقلاء إلا من إخضاع المعرفة للأهواء، أما إذا تخلصت المعرفة من استعمالاتها غير العلمية "فكل العلوم التي تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها، هي من قبيل الفكر الذي هو مشترك إنساني عام"،<sup>(١)</sup> وكذلك النتائج المتوصل إليها والحقائق التي تثبتها "لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهي لا تتغير بتغير القوميات والحضارات، بل هي واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هي الأخرى لا تختلف ولا تتغير باختلاف وتغير الحضارات، فعلوم مثل الرياضيات وفروعها، ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات."<sup>(٢)</sup>

المعرفة البشرية الحسية معرفة اجتهادية كونية لموضوع مسخر للبشرية جميعها، تصيب فيه وتخطئ، تتقدم وتراجع ذاتها باستمرار، ذلك أنها "أسرار أودعها الخالق البارئ سبحانه في خبايا المادة وتلاحمها الفيزيائي، وتفاعلها الكيماوي، وقوانينها الرياضية في الذرة والأجرام السماوية، وفي الماء والهواء، وفي المعدن والأحياء، وفي النبات والحيوان. وخلق سبحانه وقدر الأدمغة البشرية. رقد بعضها فلم يطور آلات علمية لينبش ويبحث ويستخرج. ويبحث بعضها فوجد الناس سواسية في العقل، كافرهم ومؤمنهم. وهذه الآلة الكلية الأساسية التي بها تستخرج كنوز الأسرار التي وضعها البارئ سبحانه في ثنايا الكون كان للمسلمين اليد الأولى الطولى في تدبير صنعها واستنباط طرق استعمالها،"<sup>(٣)</sup> وهذه المعرفة لا تحابي أحداً من الناس لمذهبه أو

(١) عبد السلام، والسايح، المسلمون والآخر؛ أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٢) عمارة، الغزو الفكري؛ وهم أم حقيقة؟، مرجع سابق، ص ١٦.

(٣) ياسين، عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، الدار البيضاء: مطبوعات الأفق، ط ١، ١٩٩٤م، ص ١٤٤.

عرقه أو جنسه أو لونه أو جغرافيته؛ إذ "الحقائق كلها، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع التوصل إليها بمداركة العديدة المدرجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر، ولا تدابر، ولا تناقض،" (١) لأنها سخرت لمن طلبها وأتقن مناهج تحصيلها وتطويرها وتسخيرها. ويبقى السؤال على الإنسان يطرح: انطلاقاً من أية بواعث؟ ووفق أية مقاصد وغايات؟ وبأية ضوابط منهجية وأخلاقية؟

الاستدراك الأهم يكمن في سؤال الغاية من العلم من جهة، وارتباطه بالأخلاق من جهة ثانية، مما يجعل تلك العلوم الطبيعية في حاجة إلى فقهٍ جامع يستوعبها ويوجهها جهة "القبلة"، التي تواتي حقيقة الإنسان بوصفه الكائن الكادح المستخلف، المسؤول عن إقامة العمران في الأرض بإذن الله، وفق منطق التسخير الكوني للآدميين، حتى ينعم الإنسان بالحياة الطيبة التي هي طلبة الجميع. وما يحدث في الكون "إنما يحدث بإرادة الله عن طريق المسببات الحادثة في الزمان والمكان، وكلها تخضع للبحث التجريبي والاستدلال العقلي." (٢)

بيد أن صرامة المنهج وتحديد القبلة وتأهيل العالم لا يفيد يقينية النتائج التي يتوصل إليها المنهج التجريبي كما ادعت النزعة الحتمية الصارمة، (٣) التي ترى أن تكرار الأسباب نفسها يؤدي بالضرورة إلى حدوث النتائج نفسها. قبل أن يتراجع مفهوم "اليقين" لصالح مفهوم "الاحتمال"، ويتراجع مفهوم "السببية" لصالح القول بـ"سيولة الأسباب"، كما أن "قبول بعض علماء الفيزياء المعاصرين بوجود وقائع وظواهر طبيعية فوق-حسية، يظهر الأزمة النظرية التي تعيشها بعض النظريات الفيزيائية، هذه الأزمة تؤدي إلى إعاقة قبول هذه النظريات علمياً." (٤)

---

(١) ابن عاشور، محمد الفاضل. روح الحضارة الإسلامية، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص ٢٠.

(٢) ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٣) صاغ الرياضي الفرنسي "لابلاص" مبدأ الحتمية أو الحتمانية العلمية بقوله: "ينبغي أن نعتبر حالة العالم الحاضرة نتيجة لحالته السابقة وأيضاً سبباً لحالته اللاحقة."

(٤) قوعيش، جمال. "أزمة الفيزياء المعاصرة أو محاولة البحث عن النظرية النهائية للكون"، مجلة التسامح، =

إذا كان "الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس... وإنما يتميز الإنسان بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات،"<sup>(١)</sup> والحواس مشتركة بين الناس جميعاً مثلما أن القدرة على إدراك القضايا المجردة لا تخص حضارة دون أخرى، لذلك كانت "العلوم التطبيقية والطبيعية مشترك إنساني،"<sup>(٢)</sup> تعتمد الملاحظة والتجريب والاستقراء، وتشهد القوى الإدراكية للإنسان لطلب الحق ومعرفة الحقيقة الماثوثة في الكون؛ إذ إن "الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده،"<sup>(٣)</sup> ومن ثم فإن العلوم الكونية ميسرة للإنسانية جمعاء عزَّ من طلبها فوجدها فسخرها للخير، وذل من نكص على عقبيه يتوجس خيفةً وعجزاً، فأوذى باستعمال غيره لها استعمالاً يلحق به الشر والضرر.

من هنا تظهر حاجة العالم اليوم إلى تجديد الصلة بالقرآن الكريم، لتقويم السعي المعرفي للبشرية وما انتهى إليه من اختبارات ابستمولوجية معاصرة، وتصحيح مناهجها من أجل استيعابها، ثم تجاوزها لما لا طاقة لها به، نحو دراسة تسترشد "باسم الله" في العالم اللانهائي كبراً وصغراً. فالقرآن يدعو إلى "النظر في تصريف الرياح المتعاقب، وفي تعاقب الليل والنهار والسحب، والسماء ذات النجوم، والكواكب السابحة في فضاء لا يتناهي،"<sup>(٤)</sup> نظراً قاصداً غائياً، وجامعاً، متتلماً تلمذة مباشرة على آي الكتاب، وآي الكون في تناسقٍ وانسجام، حيث يقترن التدبر في آيات القرآن بالتفكر في آيات الكون ويكتمل بالتبصر في النفس، ليحصل العلم الجامع. هذا العلم لا يشترط في

= العدد (٢٦)، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص ٢٨٤.

(١) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤١.

(٢) العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

(٣) ابن الهيثم، الحسن. الشكوك على بطليموس، تحقيق: عبد الحميد صبرة، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧١م، ص ٣.

(٤) إقبال، محمد. تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٠.

نظرنا أن يكون القرآن معادلاً للكون؛ إذ نرى في ذلك لمسة وضعية تشيئية تجعل الطبيعة حاکمة للعلم والمعرفة والقيم. ففي كل من القرآن والكون آيات وأسرار ومعارف، تُتدبر وتدرس وتستنطق، لتستخرج كنوزها وثمارها وتتكشف حقائقها، لكن ليس ذلك بالمنهجية نفسها، ولا دليل في نظرنا على أن أحدهما معادلاً للآخر.

وإذا بقيت المعرفة سجيئة عقيدة مادية فهي لا تنفك تحمل رؤية وضعية متحيزة وجامدة للإنسان والحياة والكون. ولا تقبل دعوى أن "المعرفة لا دين لها"، أمام حقيقة تلبسها بفلسفة من يتعاطاها، كما "لا نتصور علماً مستقلاً أو معرفة مستقلة بنفسها. إن لكل علم معرفة تفترض حصولها، حصول أدلتها أولاً. لا بُدَّ إذن من التساؤل عن كيفية حصول هذه الأدلة من جهة، وعن قيمة هذه الكيفيات وحجيتها من جهة أخرى"،<sup>(١)</sup> وبهذا الصدد يقول محمد عمارة: "حقائق العلم الطبيعي لا تتغير، وقوانينه لا تختلف بتغير واختلاف العقائد والفلسفات والحضارات؛ لكن فلسفة تطبيقه ومقاصد توظيفه هي التي تختلف وتتغير باختلاف المعتقدات وبتغير الحضارات."<sup>(٢)</sup> ولعل هذا ما جعل البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ)<sup>(٣)</sup> الذي درّس العلوم التجريبية في الهند حوالي ٤٠ سنة يُميز بين العلوم الطبيعية والتطبيقية المشتركة بين جميع الناس، وبين ديانات وفلسفات ومذاهب الهند،<sup>(٤)</sup> مؤكداً أهمية الوعي بفصل المعرفة عن الفلسفة أو على الأقل التصريح بذلك كيلا تختلط بالعلم القائم على المنهج الاستقرائي التجريبي.

القرآن يبيّن المعرفة ويصححها ويقومها، ويكشف النقائص المحدقة بها، ففي سورة الرعد مثلاً نجد: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَةٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَابٍ وَرَزَعٌ وَيَحْيَلُ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْتَقْنَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفْضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) النقاري، حمو. منطق الكلام؛ من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، الرباط: دار الأمان، ط١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص١٤٢.

(٢) عمارة، "إسلامية المعرفة البديل الفكري للمعرفة المادية"، مرجع سابق، ص١٩-٢٠.

(٣) عالم رياضيات وفيزياء، وله أيضاً اهتمامات في مجال الصيدلة والكتابة الموسوعية والفلك والتاريخ...

(٤) عبد السلام، والسايح، المسلمون والآخر؛ أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي، مرجع سابق، ص١٧٧.

﴿ وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَعْنَىٰ خَلْقِي جَدِيدٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ  
 الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الرعد: ٤-٥]، حيث أظهر القرآن  
 قدرة الله الأزلية في الإيجاد والإمداد بسببٍ وبغير سببٍ، بل بالسبب الواحد قد تحصل  
 النتائج الكثيرة؛ أي وحدة العناصر المركبة ولانهاية النتائج في الثمرات؛ الماء واحد بينما  
 الأشكال والأحجام والألوان والأذواق والمكونات مختلفة في الفواكه. وكذلك الأمر في  
 الآية الآتية: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا  
 طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ [فاطر: ١٢].  
 باختلاف طعم الأبحر آية من آيات الله المستأنفة إلى ما شاء الله.

## ٢- العقلانية العلمية وإشكالات المنهج:

### أ- في مفهوم العقل:

عُرّف العقل تعريفات كثيرة، أشهرها التعريفات اليونانية، التي تُرجعه إلى كلمة  
 "لوغوس" التي تعني "الكلمة أو العقل أو القانون، وهو مصطلح شائع في الأدبيات  
 الفلسفية والدينية"،<sup>(١)</sup> كما تفيد أيضاً الكلام والخطاب واللسان واللغة والمبدأ  
 والفكر... ثم انتقلت تلك التعريفات المختلطة والمتباينة،<sup>(٢)</sup> والتي لم يستطع أرسطو  
 تجاوزها رغم قوله بجوهرية العقل، إلى الفلسفات اللاحقة إسلامية ومسيحية  
 وغيرها. فاصطدمت هذه الدلالات بالدلالة القرآنية، واشتدت المعركة بين المنتصرين  
 للعقلانية البرهانية الوافدة من اليونان التي تبحث لها عن شواهد تستند إليها لتزكية ما  
 ورد، والعقلانية الإيمانية المستمدة من القرآن التي اكتشفت التمايز والاختلاف، وبينها  
 توفيقيون وتلفيقيون في مدارج مختلفة يميلون إلى هؤلاء أو أولئك، واستمرت معركة  
 العقل في الدين والفلسفة مع الفلسفة الحديثة ثم المعاصرة وإلى اليوم.

(١) الخطيب، محمد. الفكر الإغريقي، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ١٩٩٩م، ص ١٠٨.

(٢) مطر، أميرة حلمي. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، القاهرة: دار إنباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨م،  
 ص ٥٩.

تلقف بعض المتفلسفة وبعض المتكلمين مفاهيم "العقل" و"العلم" و"الكون" و"العالم" و"الطبيعة" و"الجوهر" و"العرض"... وغيرها من فلسفة اليونان القديمة ونقلوها نقلاً تعسفاً وكأنها هي الحكمة الكونية المطلقة وغيرها السفسطة والخرافة، وهي الأصل وما بعدها تبع. نقلاً "معرفياً" أعمى لا يراعي أصول "المجال التداولي"؛ لا المنقول إليه ولا المنقول منه. ولا يستحضر ضوابط "التقريب التداولي"<sup>(١)</sup> عقيدة ولغة ومعرفة. فحاضوا في عرضها وشرحها وتأويلها وتكلف الدفاع عن صحتها، على حساب الأصل الشرعي لهذه المفاهيم، التي تؤسسها حقيقة القرآن الخالدة.

العقل في الثقافة الإسلامية العربية نور إلهي موهوب للإنسان لم يتكلف في وجوده، به يعرف ويميز ويتدبر ويفهم ويحكم ويحلل ويختار، ثم يتحمل مسؤولية اختياره. وهو "نقيض الجهل"<sup>(٢)</sup> لأنه سبب العلم، والكون مُعطى إلهي مُسخر لهذا الإنسان ليُعتبر من دقة نظامه وجلال خلقه وجمال أشيائه ويعمر أرضه بالصلاح والعدل والرحمة، وكما أوتي غريزة العقل عطاء إلهياً، أرشد بنزول الوحي لطفاً ربانياً، وكلف بالاستخلاف عمراناً موجَّهاً بالوحي وعملاً صالحاً في الأرض. لكن الإنسان يطغى ويتمرد وينحرف عن الصراط، ويعرض بعقله ويعتد بذاتيته عن الوحي فيفقد حكمة الهدى والمنهاج، وتضيع منه القدرة على القراءة المنهاجية الناظمة للمعرفة باسم الله.

ذلك ما وقع للإنسانية في أطوار مختلفة من تاريخها؛ إذ نسيت عهد الفطرة، وعطلت منهاج الاستمداد من الوحي أو وظفته شاهداً لمآربها تستدعيه عند الحاجة ثم تتركه جانباً، وضيعت أمانة الاستخلاف والاصطفاء، فانعكس هذا النسيان والتعطيل والتوظيف على رؤى الناس ومناهجهم ومواقفهم حتى وقعت الغفلة عن المنهاج المستقيم، وحصل الفصام النكد في العلوم بين دراسة النص ودراسة الكون ودراسة النفس، فسميت الأولى

(١) عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م.

(٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م، مادة (ع ل).



في ثقافتنا "شرعية" وحسبها مكتملة وجاهزة، وما ترك فيها السلف للخلف إلا تكرارها وشرحها وحفظ متونها! وعُدَّت الثانية "غير شرعية" لا يضر الجهل بها فرداً ولا جماعة ولا أمة، إن لم يعدوها مجرد هرطقة محرمة كما وقع مع علم المنطق، يقول ابن الصلاح: "ليس الاشتغال بتعلم [المنطق] وتعليمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين"،<sup>(١)</sup> حتى عُد علم المنطق -وهو علم آلة- من العلوم المرفوضة لمجرد أنها تُنسب في وضعها لأرسطو طاليس! ومن الرافضين له من لم يقرأ منه ولو حرفاً واحداً،<sup>(٢)</sup> وتشتهر بهذا الصدد فتوى ابن الصلاح التي قال فيها: "وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع... وأما استعمال المصطلحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة وليس بالأحكام الشرعية، والحمد لله، افتقار إلى المنطق أصلاً،"<sup>(٣)</sup> وبقيت الثالثة علوم الإنسان قاعاً صنفصفاً.

#### - مفهوم العقل في القرآن الكريم:

لم يرد في القرآن الكريم لفظ "العقل" اسماً، إلا أنه استعمل الألفاظ المشتقة منه، للدلالة على عملية التعقل، أو الدلالة على المعقولات التي يدركها العقل، والألفاظ المرادفة للعقل، كالأفئدة والألباب والنهي، أو قريبة منه، كالنظر، والتفكير، والإبصار، والتدبر، والاعتبار، والتفقه، والتذكر. ويمكن تسميتها بـ"أفعال التفكير" أو "أفعال التعقل"، وهي تفيد إعمال جميع القوى الإدراكية للإنسان. ويأتي ذكر العقل

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ص ٣٠.

(٢) الصغير، عبد المجيد. "فصل المقال فيما بين المنطق والشريعة من الاتصال؛ النزعة الغزالية في الغرب الإسلامي"، مجلة المناظرة، الرباط، العدد (٣)، (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م)، ص ٢٣ وما بعدها.

(٣) جولد تسيهر، لاجنتس. "موقف أهل السنة القديما إزاء علوم الأوائل"، التراث اليوناني للحضارة الإسلامية؛ دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: دار النهضة العربية، ط ٣، ١٩٦٥م، ص ١٦١.

في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به،<sup>(١)</sup> مثلما يكثر استخدامه في مقامات مختلفة، الحكم والتذكر والتفكير والتنبيه... وخلافه اتباع الأهواء والظنون وتقليد الآباء، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجنانية: ٢٣].

وعلى خلاف التصور الذي يتوهم أن العقل هو الدماغ؛ أي "العقل الإنساني عضو نشط جداً لدرجة أنه في كل دقيقة تتخلله كمية من الدم تساوي وزنه،"<sup>(٢)</sup> والتصور الذي يحسبه جوهرًا قائمًا بذاته في الإنسان (العقل الذاتي) أو في العالم (العقل الموضوعي) كما نقل أغلب فلاسفة العرب ومتكلميهم عن اليونان، تشير آيات كثيرة<sup>(٣)</sup> إلى أن "ما نسميه عقلاً لغة وتعريفًا للملكة المشتركة بين البشر ليس هو مسمى العقل في القرآن،"<sup>(٤)</sup> و"ليست هناك جارحة حسية مخصوصة يصدر عنها العقل كما يصدر القول عن جارحة اللسان،"<sup>(٥)</sup> وإنما العقل "فعلٌ من الأفعال وسلوك من السلوكات... يدخل في باقي الأفعال الإنسانية"<sup>(٦)</sup> لذلك تكثر صيغة: "لعلكم تعقلون" في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وصيغة: "أفلا تعقلون" في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، والقرآن الكريم يأخذ صفة الفعل لا صفة المصدر أو

(١) عمور، عبد الحى. النظرية الإسلامية للعقل، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ط ١، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص ٦٠.

(٢) فارب، بيتر. بنو الإنسان، ترجمة: زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة (٦٧)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٢٢.

(٣) وردت مادة: عقل في (٤٩) آية من القرآن، و(١٦) آية مادة: اللب، و(١٦) آية مادة الفؤاد...

(٤) ياسين، عبد السلام. محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، الدار البيضاء: مطبوعات الأفق، ط ١، ١٩٩٤م، ص ٧.

(٥) عبد الرحمن، طه. سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠١٢م، ص ٥٥.

(٦) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ٦٣.

الاسم؛ لأن الفعل هو الذي يشتمل على الذات الفاعلة وعلى الحدث في الآن نفسه.

تجمع دلالة كلمة "عقل" بين الدلالة على عملية التعقل ذاتها وعلى الذات المتعلقة -أي الإنسان العاقل- في الوقت نفسه؛ أي إن القرآن الكريم بوصفه كتاب هداية ودلالة وإرشاد للعمل، تتجه عنايته نحو فهم الإنسان وفعله وفاعليته، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، يرشد الإنسان ليكون مؤمناً عاقلاً وعاملاً للصالحات في هذا الكون، قائماً بمهمته الإعمارية الاستخلافية، مفضلاً عن غيره من المخلوقات، ليستحق جائزة الفلاح في الدارين.

ويميز أبو حامد الغزالي في حديثه عن العقل عند الجمهور بين ثلاثة مستويات من العقل،<sup>(١)</sup> كما يلي:

- العقل الذي "يراد به صحة الفطرة الأولى في الناس"،<sup>(٢)</sup> به يتميز الإنسان عن سائر الدواب، وبه يعرف الواجب والممكن والمستحيل، ويميز بين الحسن والقبیح. وهو التعريف نفسه الذي أورده الحارث المحاسبي للعقل إذ اعتبره: "غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس ولا ذوق ولا طعم، إنما عرفهم الله سبحانه وتعالى إياه بالعقل منهم، فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم، بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم،<sup>(٣)</sup> ويمكن أن نسمي هذا العقل بـ"العقل الفطري".

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. معيار العلم في المنطق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص٢٧٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المحاسبي، الحارث بن أسد. شرف العقل وماهيته، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١٧.

- العقل المكتسب، وهو ما يكتسبه الإنسان بتجربته وخبرته من الأحكام الكلية. "فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب، يقال أنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة، فيقال: إنه غبي غمر جاهل،"<sup>(١)</sup> ويمكن تسميته بـ"العقل الخبير".

- العقل الذي به يتحكم الإنسان في نفسه ويعقل شهواته، و"يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته،"<sup>(٢)</sup> وأقترح تسميته بـ"العقل الأخلاقي".

العقل الفطري أو الغريزي مشترك لا يتفاوت فيه الناس ولا يتكلفون في تحصيله، أما العقل الخبير والأخلاقي فمتوقف على التعاون مع الآخرين، وتبادل التأثير والتأثر معهم. والخبرة متاحة لمن طلبها وبذل الجهد في اكتسابها، ومن ثم فهي أيضاً مشترك إنساني. يقول عبد السلام ياسين: "أخذ العقل الآلة علومه عن الكون بواسطة الحواس، وبواسطة البدييات الفطرية، ثم بواسطة المنطق الناشئ، لديه من استقراء الثابتات والمترابطات والمستلزمات. ويأخذ العقل الكامل عن الوحي ما هو من عالم الغيب، وعن المدارك المشتركة ما هو من عالم الشهادة. يحدث للعقل المؤمن بالله المصدق للوحي عَور إذا أغمض عين المدارك المشتركة، وعجز عن التعلم من الكون، وترك آتته للإهمال والصدأ. فيفوته ركب الحياة الدنيا، ويقعد مع القاعدين العاجزين. وذلك نقص من حقه، وقصور عن فهم رسالة الوحي الذي أنبأ بأن الله سخر لنا الكون وأمرنا أن نسير في الأرض."<sup>(٣)</sup>

فِعْلُ التَّعْقُلِ كَفَعْلِ التَّجْرِبِ مُتَّاحٌ وَمُيسِرٌ لِلإنْسَانِيَّةِ؛ أَي إِنَّهُ مُشْتَرِكٌ إنْسَانِي لَّا يَعْقِلُ الْحَدِيثَ بِصَدَدِهِ عَنِ عَقْلِ شَرْقِيٍّ وَآخَرِ غَرْبِيٍّ، عَقْلٌ قَدِيمٌ وَعَقْلٌ حَدِيثٌ، بَلْ لَهُ دَلَالَةٌ وَاحِدَةٌ مُشْتَرَكَةٌ، نَابِعَةٌ مِنْ "وَاحِدَةِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ" أَوْ اشْتِرَاكِ النَّاسِ عَمُومًا فِي قَوَاعِدِ كَلِمَةٍ مَوْحِدَةٍ لِلتَّفَكِيرِ، وَالَّذِي "يُقِيدُ بِأَنَّ النَّاسَ يَمْتَلِكُونَ جَمِيعًا قُدْرَةَ ذَهْنِيَّةٍ

(١) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢) الغزالي، معيار العلم في المنطق، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٣) ياسين، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مرجع سابق، ص ٨.

واحدة محكومة بمسبقات فطرية هي قوانين عمل العقل، كما أنه يفترض فكرة البديهية؛ أي وجود حقائق بسيطة وبديهية يدركها الناس جميعاً، بصرف النظر حتى عن تحصيلهم العلمي أو قومياتهم،<sup>(١)</sup> حيث للفرد كما للجماعة البشرية القدرة على الملاحظة والتحليل والتركيب والتعليل والاستدلال (القياس والاستقراء) والمقارنة والنقد والمراجعة... وتلك هي أفعال التعقل والتفكير ووظائف العقل والتمييز، التي يتفاوت الناس في درجتها ودقتها، ولا يتفاوتون في امتلاكها واستعمالها.

وقدرات التعقل الهائلة الميسرة وإن كانت مشتركة بين جميع الناس، فإنها لا تحمي الباحث من الوقوع في الأخطاء والسقوط في الزلات، حيث لا يُختصر إدراك الكائن البشري في العقل فقط وهو يحيا في أبعاد متعددة وتُحركه بواعث مختلفة، وتتنازعه رغبات متباينة، وتشده مصالح متكاثرة. وقبل ذلك وهبه الله قوى إدراكية متفاعلة ومتكاملة لا يلغي بعضها بعضاً، ولا يُعوضه.

### ب- العقلانية العلمية والمعقولة العلمية:

من الإشكالات الإستمولوجية المعاصرة في علاقة العقل بالعلم والمعرفة والتجربة والأخلاق أثر إشكال ما يسمى بـ"العقلانية العلمية" والذي يمكننا صياغته كالاتي:

هل يمكن الحديث عن صفة العقلانية المجردة في العلم - حيث الشائع عنها- كونها "مذهب فلسفي يعتمد العقل وحده مصدراً للمعرفة"؟ إذا كان ممكناً فكيف تغطي العقلانية جميع العلوم بما فيها الطبيعية المادية والإنسانية الاجتماعية؟ وإذا كان مستحيلاً فما هي العوائق التي تمنع "العقلانية" من أن تستغرق العلم في مختلف تخصصاته ومجالاته؟

### - الفلسفة الوضعية ورفض الفكر العقلاني:

ترى المدرسة الوضعية أنه لا يصح استعمال مفهوم "العقلانية العلمية" في مجال العلوم التجريبية؛ إذ العقلانية مذهب فلسفي مثالي مجرد تعرضت لنقد كبير من طرف

(١) غليون، برهان. "العقلانية ونقد العقل"، مجلة الوحدة، بيروت، العدد (٥١)، (١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م)، ص ٩٣.

ما أصبح يعرف بـ"تيارات نقد العقلانية" مثل مدرسة التحليل النفسي، والمدرسة التفكيكية، والمدرسة النقدية، والمدرسة الفينومينولوجية، لكونها؛ أي العقلانية الفلسفية تفرد العقل وحده بإنشاء المعرفة، في حين تكون التجربة وما قدمته من إنجازات علمية عملية حققت حُلم الإنسان ووفرت له الرفاهية والنعيم والثروة، هي المصدر الوحيد للمعرفة العلمية. أي أنه لا علم للعقل إلا بالخضوع للمنهج التجريبي.

لكنَّ رفض استخدام مصطلح العقلانية العلمية لا يعني إبعاد العقل عن العلم أو اعتبار المعرفة العلمية معرفة غير عقلية، ذلك أن المعرفة التجريبية "يتم التوصل إليها باستخدام مناهج معقولة لأنها تقتضي استخدام العقل مطبقاً على مادة الملاحظة. غير أنها ليست عقلانية؛ إذ إن هذه الصفة لا تنطبق على المنهج العلمي، وإنما على المنهج الفلسفي؛"<sup>(١)</sup> أي استعمال العقل خلال القيام بالممارسة التجريبية لا منفصلاً عنها، وكأن العقل ليس إلا خادماً مطيعاً للسيدة التجربة. وهذا ما يسميه الفيزيائي الألماني هانز رايشنباخ (١٨٩١-١٩٥٣م) بـ"المعقولة العلمية". وبناء عليه يؤكد أن الانصراف إلى المعرفة العقلية بعيداً عن التجربة والملاحظة لا يؤسس أية معرفة علمية بقدر ما ينتج أبنية عقلانية تشبه "النزعة الصوفية" الحدسية التي ترى الحل في الانفصال عن الواقع، والعلم في الابتعاد عن الحس؛ أي "عندما يتخلى الفيلسوف عن الملاحظة التجريبية بوصفها مصدراً للحقيقة لا تعود بينه وبين النزعة الصوفية إلا خطوة قصيرة."<sup>(٢)</sup>

#### - فلسفة العلم والجمع بين العقل والتجربة:

في مقابل هذا التصور الوضعي لا يعترض أنصار التصور الإستمولوجي المعاصر مثل غاستون باشلار وروبير بلانشي وغيرهم على استعمال مفهوم "العقلانية" في العلم ما دامت قابلة للتحقق والإسهام في تقدم البحث العلمي، والتخلص في المقابل من عائق المعرفة العامية القائمة على الظنون والتخمينات والمصالح. يقول

---

(١) رايشنباخ، هانز. نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٧٩م، ص٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٤١.

باشلار: "في الواقع فالمعرفة العلمية هي معرفة تتم دوماً ضد معرفة سابقة، وذلك بتقويض المعارف غير المصاغة صياغة جيدة، وبتخطّي ما شكّل في النفس المفكرة، عائقاً أمام عملية التعقل المعرفي،"<sup>(١)</sup> ويتم ذلك متى استطاعت العلوم الفيزيائية أن تقيم جمعاً دقيقاً ووثيقاً بين عمل العقل وعمل التجربة؛ إذ يلزم العالم الفيزيائي بناء معرفة علمية بيقينين متكاملين:

اليقين الأول: هو وجود الواقع في قبضة العقل؛ أي عقلنة الواقع حتى يستحق تسمية "واقع علمي". ولا علم بالواقع من غير عقلنة تنظمه وتوفر له المعنى.

اليقين الثاني: في كون الحجج العقلية تنتمي إلى خصائص المنهج التجريبي، وعدم إمكان إنتاج العقل لأية معرفة علمية خارج إطار العمل التجريبي الذي يمدّه بالمادة والمضمون.

فغاستون باشلار (١٨٨٤-١٩٦٢م) ينفي إمكان قيام معرفة على أحد شرطي البحث الفيزيائي منفصلاً عن الآخر؛ العقل وحده أو التجربة وحدها، قائلاً: "لا توجد عقلانية فارغة كما لا توجد مادية عمياء؛ هذان هما الإلزامان الفلسفيان اللذان يؤسسان التركيب الدقيق والحديث لكل من النظرية والتجربة في الفيزياء المعاصرة."<sup>(٢)</sup> وبهذا التصور يتجاوز صاحب "العقلانية المُطبَّقة" ذلك الصراع التقليدي بين الفلسفتين المتناقضتين؛ العقلانية والتجريبية، ومؤسساً لتصور إبستمولوجي معاصر لا يقبل العقلانية إلا مُطبَّقة على الواقع المادي، ولا المادية إلا مُبنية بناء عقلياً. وعملية البناء لا تتم إلا عن طريق إخضاع العقل للتجربة، وإخضاع التجربة للعقل بشكل تداخلي لا يقبل الانفصال أو التناوب، و"ليس ثمة طريقة لعمل الحس دون عمل العقل، وليس ثمة وسيلة للعقل في أن يمارس عمله خارج إطار الواقع المحسوس، حتى إن القضايا

---

(1) Bachelard, Gaston. *La formation de l'esprit Scientifique; Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*, Paris: Librairie J Vrin, 2000, p. 13.

(٢) باشلار، غاستون. *العقلانية المطبقة*، باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٤٩م، ص ٣.

الذهنية المجردة يتصورها العقل البشري في سياق خبرته الحسية... تلك هي حقيقة التكامل المعرفي بين العقل والحس، بوصفها أداتين للمعرفة والتعامل المنهجي،<sup>(١)</sup> وإذا كان أنصار الاتجاه التجريبي يُعولون على التجربة فقط لتحقيق معرفة علمية فإن باشلار يضيف إلى شرط التحقق التجريبي شرط اليقين العقلي؛ إذ يجب على العالم الفيزيائي أن يجمع في نظريته العلمية بين التجربة والعقل في آن واحد.

حظي هذا التصور بالترحيب والقبول في الأوساط العلمية المعاصرة، خاصة وأن الزلزال الذي أحدثته التطورات العلمية المعاصرة<sup>(٢)</sup> أسهم في إعادة النظر في مجموعة من المفاهيم العلمية بما فيها مفهوم "الواقع" التجريبي نفسه الذي أضحى واقعاً افتراضياً، ومفهوم اليقين الذي تقلص إلى التصديق المؤقت والنسبي. ففي الرياضيات مثلاً لم يعد معيار الصدق متعلقاً بمقارنة نسق رياضي بآخر أو عرضه على التحقق التجريبي، وإنما أصبح معيار الصدق هو عدم الوقوع في التناقض بين الأوليات التي ينطلق منها الرياضي والنتائج التي يتوصل إليها، مما أعاد طرح إشكال التحقق من صدقية المعرفة العلمية من جديد.

### ت- العقل في القرآن فعل متسع للتعقل والتجريب:

تتقلص قيمة التصور المادي الوضعي والتصوير السببي الصارم أمام شمولية القرآن الكريم وهو يحدد الغاية من خلق الخلق، ومسيره الكادح إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ومصيره الراجع إلى الحق ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ رُجُعُونَ﴾<sup>(٣٨)</sup> [البقرة: ٢٨]، وينفي الصُدفة والعبثية ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾<sup>(٣٨)</sup> مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]. ويؤسس للتكامل والتداخل بين التعقل والتجريب في دراسة الإنسان والحياة والأحياء، فلا تعارض بين معطى الوحي وتعقله

(١) ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) نقصد: النزعة المنطقية والنزعة الحدسية والنزعة الأكسيومية، والميكانيكا الكوانتية، والمنطق متعدد القيم، ونظرية العوالم الممكنة... إلخ.



بالتدبر، وبين معطى الكون وتعقله بالتفكر، ومعطى النفس وتعقله بالتبصر، فهي تعقلات متكوثة متكاملة. أو قل هو تعقل اتساعي؛ يجمع بين التدبر والتفكر والتبصر، يربط بين ما أنزل من الوحي على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جميعاً، أو قُل: خَبر السماء، وبين ما بُث في الكون من جليل أو دقيق، أو قُل: خَبر الأرض، وبين ما دفن في النفس من أشواق وأهواء، أو قل: خَبر الإنسان، وما استنبطه أو اكتشفه أو اخترعه العقل إن تجريبياً أو برهانياً. وهذا الاتساع هو ما لا قبل للعقلانيات العلمية به.

إعمال "العقل المؤمن" في الوحي والكون والنفس إعمالاً متسعاً يتجاوز التضييق الذي أسقطته فيه الفلسفات الحديثة والمعاصرة، والتطبيقات التقنية المتسارعة، والنزعات الفوضوية المتسببة التي تستخدم العقل وفق مقاصد غير علمية. وإذا اتسع التعقل ليستمد المعنى والوجهة من الوحي نظر نظراً شمولياً وقاصداً في مآلات الأفعال وثمار السلوكات عاجلاً وآجلاً. آنذاك فقط يهتدي النشاط المعرفي للإنسان بالمنهجية التكاملية الجامعة التي تحقق غايات الوجود الإنساني على الأرض، وينعتق العلم من ضيق التوظيف الفلسفي الوضعي، وينطلق إلى أفق المعرفة الأرحب الجامعة بين علم الوحي وعلم الكون وعلم الإنسان، وما يرتبط بهذه العلوم من فروع تخصصية، "فهذه العوالم التي خلقها "رب العالمين" سواء كان العالم المادي من أكبر وأوسع آفاقه إلى أدق عناصره وجزئياته، أو عالم الاجتماع البشري بشعوبه وقبائله وثقافته، أو عالم الفرد البشري بنفسه وروحه، وعقله وقلبه، وآلامه وأماله، كلها مخلوقات بنظام محكم تخضع لقوانين مطردة، يمكن اكتشافها وتوظيفها."<sup>(١)</sup>

#### - القرآن وحماية العقل من الأوهام:

أرسل الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنزل الوحي عليهم ليبلغوا وصية الله للناس أجمعين، كي ينقلوهم من ظلمات الأهواء والأوهام والشكوك، التي تلبس بالعقول المعاشية والنفوس الغافلة والقلوب الفارغة، فتمنعها من المعرفة والاستبصار والاعتبار، أو

(١) ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٩٤.

تدعوها إلى الادعاء والاستكبار والإنكار. ويوصلهم إلى أنوار الهداية وقواعد المنهاج القويم والاستخلاف الرشيد. ولا يفرض القرآن على المسلم التسليم الأعمى أو التواكل أو البلادة، بل يوقظه للقيام بالتفكير والتدبر والتبصر، وتقليب النظر والمقارنة والتمحيص. وسُخر الكون ليكون بيتاً للمجتمع الإنساني يتقاسم فيه أفراده وجماعته السعي والحياة، العلم والعمل، التعايش والتعاون، التنافس والتدافع. ومُنح الإنسان العقل آية للتمييز والاعتبار، وآلة للحكم والاكتشاف، وعلى البقية الصالحة من العقلاء إدراك هذا التعادل والعمل على موآتاته في نظرٍ تكامليٍّ موجهٍ بالوحي الضامن للحقائق، ليضمن الرشد والسداد في الجمع المعرفي العلمي بين الوحي والواقع، وإلا وقع الاختلال والتنازع والفشل.

ليس العقل في القرآن ذاتاً ولا جوهرأ كما سبق، وإنما "العقل في القرآن فعلٌ حاسيةٌ باطنةٌ في الإنسان تسمى القلب. العقل تلقُّ لحقائق الوحي بواسطة القلب"،<sup>(١)</sup> ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الْأَصْدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وعملية العقل عن الوحي ليست متساوية بين الناس، وإنما هي متفاوتة بينهم بتفاوت استعداداتهم الفطرية والعلمية والنفسية؛ إذ "الناس كما فطرهم الله عز وجل متفاوتون في العقل والطبع والقدرات"،<sup>(٢)</sup> ولا يمكن أن يكون تعقلهم متساوياً، مثلما لا يتم هذا التعقل والتلقي إلا من خلال التلمذ والتصديق لآيات الفرقان الحكيم، لاستمداد المعنى والغاية والمقصد.<sup>(٣)</sup>

العقل وسيلة الإنسان لإبصار الآيات وتبيين معانيها وتتبعها بحسب سياقاتها، والحذر من الوقوع في الأوهام المحدقة به،<sup>(٤)</sup> واستكشاف الأجوبة عن الأسئلة الظاهرة

(١) ياسين، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مرجع سابق، ص ٧.

(٢) ياسين، عبد السلام. العدل؛ الإسلاميون والحكم، الدار البيضاء: دار الآفاق، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٥٥٠.

(٣) ياسين، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٤) يميز فرنسيس بيكون في كتابه "الأورغانون الجديد" بين أربعة أوهام محدقة بالعقل البشري هي: أوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المذهب. انظر:

والمضمرة في نص الكتاب وفي واقع الكون وفي عمق الطبيعة النفسية للفرد، ولا تعارض أو تنافر بين العقل والوحي كما ادعت بعض الفلاسفة، وإنما بينهما الانسجام والتوافق، وليس التوازي والتساوي، فهم الوحي يحتاج إلى عملية التعقل والتدبر والاستبصار، كما إعمال العقل يحتاج إلى التوجيه والترشيد والتسديد من الوحي الذي يحمل معرفة وأجوبة لا قبل للعقل بها. ذلك أن "الوحي بوصفه مصدراً لتلقي الهدى ﴿فَأَمَّا يَا تِيبَتُّكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] والعقل بوصفه أداة لفهم مقاصد الوحي ﴿وَخَلِّفِ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيحِ ءَأَبَتْ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الحاثية: ٥] يتكاملان في سعي الإنسان للوصول إلى الدلالة المقصودة بهذا الوحي." (١)

ومحدودية العقل من محدودية الإنسان، ولعل هذا ما أكده الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م) في كتبه النقدية للعقل، أو ما سمي بـ"العقلانية التركيبية"، حيث جعل للعقل حدوداً لا يتجاوزها وإلا سقط في السجال والجدال، فهو ينتج معرفة حقة إذا ما ارتبط بمجالي التجربة والأخلاق. أما إذا ادعى الإحاطة بمعرفة الكون أو معرفة الذات الإلهية أو طبيعة النفس ومدى خلودها، فهو يتجاوز طوره إلى طور الإيمان؛ إذ يقع في إصدار الأحكام الظنية والتخمينات.

تُكتشف المعرفة وتحتج وتتنجد وتتسع وتتعقد، والاستكشاف إعمالٌ لمختلف القدرات العقلية في الاستنباط والاستخراج والاستقراء مع القدرة على النظر المندمج المتوازن في موضوعين متكاملين منسجمين يشرح أحدهما الآخر؛ الكتاب المسطور والكتاب المنظور، وهما متوائمان متوافقان، من حيث يستحيل تناقضهما أو تعارض آياتهما. فكلاهما مبني بناءً ربانياً محكماً مقنناً لا عبث فيه ولا صدفة ولا فراغ. وكلاهما جعل للإنسان لعله يتذكر ويعتبر ويحشى؛ إذ التذكر والاعتبار والحشية علوم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

- الشاروني، حبيب. فلسفة فرنسيس بيكون، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨١م، ص ١٢٤.

(١) ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [فاطر: ٢٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَحْتَسِبُ﴾ ﴿٣٦﴾ [النازعات: ٢٦]،  
وَقَالَ: ﴿سَيَذَرُكَ مَن يَحْتَسِبُ ﴿١٠﴾ وَيَنْجِيهَا الْأَشْفَى ﴿١١﴾﴾ [الأعلى: ١٠-١١].

### - التطرف للعقل والتطرف عن العقل:

مما سبق لا تكون العقلانية علمية بحق حتى تعمل على الجمع بين التعقلين:

- تعقل تدبري في الوحي المنزل: وهو المقصود في كثير من الآيات منها: ﴿الرَّ  
بَلَّكَ آيَاتُ الْكُتُبِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَخْنُوعًا عَلَيْكَ أَحْسَنَ  
الْفَصْلِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١-٣]،  
وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

### - تعقل تفكري في الكون المسخر:

ويجمع بين التفكير في الإنسان والتبصر في خلقته وأخلاقه وعمله، والتفكير في  
البيئة المحيطة به، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ  
طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَن يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى  
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي  
خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٣-٥].

وبذلك تتخلص العقلانية من آفتين:

- آفة التجريد الذي لا يقبل حياً ولا تجريباً؛<sup>(١)</sup> أي قطع الصلة بين العلم والوحي  
من جهة، وبين العلم والحس من جهة ثانية، تلکم هي العقلانية المجردة التي  
تعدّ العقل المجرد وحده مصدر العلم.

(١) هناك علوم عقلية غير تجريبية كالمنطق الصوري والرياضيات، إلا أن هذه العلوم لا تنكر علمية العلوم  
التجريبية ولا تدعي حيازة صفة العلمية لوحدها. انظر:

- عبد الرحمن، طه. العمل الديني وتحديد العقل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ١٩٩٧م،  
ص ٤٨-٤٩.

- آفة التحييد الذي لا يقبل وحيًا؛ أي قطع الصلة مع الوحي والاقتصار على الانطباعات المادية الحسية وحدها؛ أي إنكار الغيب جملة وتحييده من الحسبان. ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. لا يعقلون عن الوحي.

وقد غالى بعض المفكرين في "العقل" حتى رفعوه فوق الوحي وألهوه، وغالى آخرون فيه حتى نبذوا المنهج التجريبي وأنكروا المعرفة الحسية. يقول أحد المتحيزين للعقلانية غير المسددة بالوحي: "مهمة التراث والتجديد التحرر من السلطة بكل أنواعها: سلطة الماضي، وسلطة الموروث؛ فلا سلطان إلا العقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه،"<sup>(١)</sup> وهذا يفيد التنكر لهداية الوحي وهيمنة الكتاب، وينفي حجية الوحي قائلاً: "الحجج النقلية كلها ظنية حتى ولو تضافرت وأجمعت على شيء أنه حق، لم يثبت أنه كذلك إلا بالعقل."<sup>(٢)</sup>

التطرف للعقل والتطرف عن العقل كلاهما داء عضال فشا في الأمة المسلمة كما فشا في أمم أخرى قروناً، حتى ظهر من يعبد العقل ويتخذها إلهاً يشرع به لنفسه ولغيره ما لم يأذن به الله، فلا حلال إلا ما أحله العقل ولا حرام إلا ما حرمه العقل، أما الحجج المنزلة فهي "باطلة". وفي المقابل ظهر من ينكر للعقل اجتهاداً أو قدرة على تحليل حكم من الأحكام أو حجة غير منقولة، حتى انحدر التفكير عند المسلمين، وانتكست المعرفة، وفتنت الأمة في دينها ودنياها.

مع العلم أن المعرفة البشرية بالرغم من كونها معرفة تدبرية وتفكرية وتبصيرية، فإنها تتميز بالنسيية والتغير، والقابلية للمراجعة والنقد والتصحيح والتجاوز، ما دامت عملاً بشرياً موسوماً بالنقص والتقصير والغفلة، و"الغفلة تضاد كمال العلم"<sup>(٣)</sup> كما يقول ابن

(١) حنفي، حسن. التراث والتجديد؛ موقفنا من التراث القديم، بيروت: دار التنوير للنشر، ١٩٨٠م، ص ٤٥.

(٢) حنفي، حسن. من العقيدة إلى الثورة، بيروت: دار التنوير للنشر، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٣٦٨.

(٣) ابن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٣٥.

تيمية، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإلا سقطت في الانغلاق والتوقف وادعاء الكمال، فهي لم تولد مع الإنسان فطرية وإنما اكتسبها من فهمه في الوحي أو من خلال فعله في الكون والحياة ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

### ٣- العلوم الإنسانية وإشكالات العلمية والموضوعية:

#### أ- مفهوم العلوم الإنسانية وموضوعها:

العلوم الإنسانية هي جميع العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوعاً لها وإن اختلفت مناهجها، وتعددت مدارسها وتنوعت نتائجها، وتعرف بكونها "مجموع الدراسات التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة مظاهر النشاط المختلفة التي تصدر عن الإنسان، فرداً أو جماعة أو مجتمعاً، وهي تضم مجموعة فروع علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وفروع علم النفس، والاقتصاد، وبعض فروع دراسة اللغة والتاريخ المقارن،"<sup>(١)</sup> وقد كانت قديماً مقترنة بالفلسفة -أم العلوم- إلا أنها انفصلت عنها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع ظهور الفلسفة الوضعية التي ترمي إلى التخلص من كل أشكال الخطاب التأملي الميتافيزيقي حول الإنسان، لصالح الدراسة "العلمية" و"الموضوعية" للظواهر الإنسانية المختلفة، وذلك اقتداء بما حققته العلوم الطبيعية من تقدم ونجاح، وما راكمته من معارف ومناهج، وما وفرته من إنتاج ورخاء.

#### - العلوم الإنسانية وإشكالات المنهج:

من بين الإشكالات الأساس التي طُرحت بسبب الخوض في موضوع العلوم الإنسانية نذكر الإشكالات التالي: هل تيسر مشروع الدراسة العلمية للظاهرة الإنسانية على غرار الدراسة العلمية للظاهرة الطبيعية؟ وهل طريق بلوغ العلمية في العلوم الاجتماعية هو فقط تقليد ونسخ لنموذج العلوم التجريبية؟ أبالإمكان إخضاع الظاهرة الإنسانية للدراسة نفسها التي تخضع لها الظاهرة الطبيعية فيكون الإنسان

(١) بدوي، أحمد زكي. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٢م.

ظاهرة كباقي الظواهر المشتركة؟ وهل تأخذ مناهج هذه البحوث الاجتماعية بالاعتبار الوحي والنبوة مصدراً للمعرفة؟

حاولت الفلسفة الوضعية أن تقلد العلوم الطبيعية في دراستها للظاهرة الإنسانية، مدعية أنه بالإمكان التوصل إلى حقائق وقوانين موضوعية كما هو الحال في حقائق وقوانين العلوم الطبيعية، وذلك عن طريق تطبيق المنهج التجريبي، إلا أنها اصطدمت بكون "علوم الإنسان" تنفرد بجملة من الخصائص أهمها الوعي والإرادة والتعقيد والحرية، خاصة وأن الإنسان يتحول فيها من مجرد ذاتٍ عارفة إلى ذاتٍ وموضوعٍ للمعرفة في الوقت نفسه. في حين تتصف الظاهرة الطبيعية بالعطالة والاطراد والوضوح والحتمية. بمعنى أن الأفعال الإنسانية أفعال واعية تصدر عن إرادة خفية يستحيل قياسها بدقة، وترمي إلى مقاصد قد لا تكون واضحة ولا تخضع بالضرورة للاطراد، وهي قابلة للتغير والتجاوز باستمرار، وبشكل غير قابل للقياس والضبط.

من هنا ينبع الإشكال الآتي: ما العمل قصد تحقيق شرط العلمية في العلوم الإنسانية؟ أبالاقتداء بالعلوم الطبيعية أم بالاستقلال عنها؟ إن كان بالاقتداء فكيف نتجاوز معضلة الفارق بين الموضوعين؟ وإن كان بالاستقلال فأأي نموذج ناجح تقدمه العلوم الإنسانية دليلاً على علميتها المستقلة؟

لن نجد غير إمكانين اثنين هما:

- إمكانية الاستيراد: وتعني نسخ المناهج من العلوم الطبيعية وتطبيقها في العلوم الإنسانية، أو بعبارة أخرى: نقل واستعارة "المناهج التي كشفت عن حجيتها في ميدان علوم الطبيعة"<sup>(1)</sup> وتطبيقها في ميدان الظواهر الاجتماعية، مع العلم بأن الأمر يتطلب "وضع الفاعلين بين قوسين، وذلك من خلال العمل على إبراز الأنساق التي يمكن دراستها عن طريق اعتماد المناهج التي برهنت عن

---

(1) Ladrière, Jean. *La dynamique de la recherche en sciences sociales*, Paris: Presses Universitaires De France, 1994, p. 5.

جدارتها في دراسة الأنساق المادية،" (١) ولعل أشهر المدافعين عن هذا الاتجاه أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م) إذ يقول: "إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير." (٢) ويعني الاشتراك في المنهج رغم اختلاف الموضوعات في الطبيعة.

- إمكانية الاستقلال: وذلك بالتخلي عن استيراد نماذج العلوم الطبيعية - مع الوعي بالفارق النوعي بين الظاهرتين - وإنشاء نموذج أصيل يوافق طبيعة الموضوع المدروس؛ الظاهرة الإنسانية، ويحقق صفة العلمية بطريقة مغايرة لعلمية الظواهر الفيزيائية.

الإمكانية الأولى من خلالها يمكن تناول الوقائع الاجتماعية كما تتناول الأشياء المادية أو كما يؤكد إيميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧م) بقوله: "إن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء، ويجب أن تُدرس كأشياء... لأن كل ما يعطى لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عداد الأشياء... وإذن يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية في ذاتها، في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يتمثلونها فكرياً، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة عنا... إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته وبدون استثناء." (٣)

لكن هذا التصور الوضعي الذي يُسَيِّئُ الظاهرة البشرية ويُسويها بالظاهرة الطبيعية يتناسى أن "الوجود ليس كله مادة محسوسة خاضعة لقوانين المعرفة الحسية:

---

(1) Ibid., p.6.

(2) Raymond. Aron, *Les étapes de la pensée sociologique*, Paris: Gallimard, 1981, pp. 86-87.

(3) Durkheim, Émile. *Les règles de la méthode sociologique*, Paris: Flammarion, 1988, pp.



هنالك ملكوت واسع من الظواهر المعنوية. فالقيم لا تحس، ولكنها موجودة بوجود أقوى وأغنى من وجود الأشياء. فهي فاعلة محرّكة بينما الأشياء والطبيعة جامدة محرّكة،<sup>(١)</sup> مثلما يطرح صعوبات منهجية كبيرة تتمثل -بالإضافة إلى غلو النزعة الوضعية في التنكر للأديان- في عدم قدرة الدراسات الإنسانية على فهم موضوعها بشكل دقيق وشمولي يحاكي الدراسات الفيزيائية مثلاً، فهي عاجزة عن الإحاطة بـ"كل ما يتصل بنظام الدلالات ونسق المقاصد والغايات والقيم"<sup>(٢)</sup> ما دام المنهج الوضعي لا يؤمن إلا بالحقائق الحسية، لذلك فهو "يختزل الكلية الإنسانية ومجموع العناصر المتفاعلة والفعالة في الحياة الإنسانية في عناصرها الحسية الملموسة."<sup>(٣)</sup>

وهذا يعني أن الإمكانية الأولى التي انبنى عليها المذهب الوضعي مع أوغست كونت الذي يعدّ أن "الاستكشاف العلمي في السوسولوجيا شأنها شأن البيولوجيا يستخدم ثلاثة أنماط أساسية هي: الملاحظة الخالصة، والتجريب الدقيق، وأخيراً المنهج المقارن،"<sup>(٤)</sup> قد فشلت فشلاً كبيراً أمام "ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب."<sup>(٥)</sup> أما الإمكانية الثانية والتي بموجبها تبعد علوم الإنسان أدواتها الخاصة ما دامت "الظاهرة الإنسانية لا تتكون من عناصر "طبيعية" على وجه القصد، بل تتدخل فيها عناصر أخرى تنتمي إلى نظام مختلف؛ أي النظام الأخلاقي الروحي، وتقررهما إلى درجة فائقة؛ وتلك العناصر لا تعد بالضرورة بمثابة نتائج لازمة لعناصر الطبيعة أو قابلة للاستنتاج من تلك العناصر، وهي لا تتسم بالتماثل العالمي في الجماعات

---

(١) الفاروقي، "نحن والغرب"، مرجع سابق، ص ٣٢.

(2) Ladrière, *La dynamique de la recherche en sciences sociales*, p. 9.

(٣) أمزيان، محمد محمد. "العلوم الإنسانية في المنظومة الغربية؛ دراسة نقدية في الأسس المنهجية"، مجلة المنعطف، العدد (٩)، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ٨٦.

(4) Comte, Auguste. *Cours de Philosophie positive*, Paris: Armand Colin, T. IV, Leçon, P. 48.

(٥) المسيري، عبد الوهاب. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط ٢، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ص ١٣.

الإنسانية، بل إنها تعتمد على التقاليد والثقافة والدين والأولويات الشخصية والجماعية... وليس من الممكن إخضاعها للأسلوب القياسي الوحيد الذي يعرفه العلم وهو الأسلوب الكمي"<sup>(١)</sup> لا تحمي نفسها من السقوط في شبك "الذاتية" حيث الإنسان هو الذات الدارسة المشبعة بالذاتية، وهو في نفس الوقت موضوع البحث والحكم العلمي والقيمي، وهذا يعني فشل الإمكانية الثانية في منهج الاستقلال عن العلوم الطبيعية استقلالاً تاماً.

فما العمل من أجل الخوض العلمي في موضوع الظاهرة الإنسانية؟

يرى كثير من الباحثين ومنهم الفيلسوف "جان لادريار"<sup>(٢)</sup> أن مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية بإمكانه أن ينفرد بصورته الخاصة للعلمية مغايرة لما هو عليه الأمر في مجال الظواهر الفيزيائية، لكن المغايرة لا تفيد الاستقلال التام عن الشكل المميز للعلوم الطبيعية، وبحثاً في إمكان تحقق الإمكانية الثانية يميز إدغار موران Edgar Morin<sup>(٣)</sup> بين نوعين من السوسولوجيا:<sup>(٤)</sup>

النوع الأول "السوسولوجيا الإنشائية": ويقصد بها تلك الإنتاجات السوسولوجية التي لم تتخلص بعد من قيود التأمل الفلسفي وتقليد المقال الأدبي وأدبيات الفكر

---

(١) الفاروقي، إسمايل. "صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية"، ضمن كتاب: الصحوة الإسلامية المعاصرة والعلوم الإنسانية، جمع وتقديم: علي سيف النصر، تونس: المطبعة العربية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٢.

(٢) فيلسوف ورياضي بلجيكي، (١٩٢١-٢٠٠٧م)، درس فلسفة العلوم والفلسفة الاجتماعية بالجامعة الكاثوليكية بلوفان، عرف بوصفه متخصصاً عالمياً في المجال الإيتيقي (الأخلاقي) للعلوم التقنية. اهتم بقيمة العلم الحديث وبأهمية الكشوفات والتطبيقات الرياضية في الفكر المعاصر. ومن أهم كتاباته: "رهانات العقلانية: تحدي العلم والتكنولوجيا بالنسبة إلى الثقافات" في سنة ١٩٧٧م، "العقيدة المسيحية ومصير العقل" في سنة ٢٠٠٤م.

(٣) إدغار موران فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي من مواليد ١٩٢١م، من مؤلفاته المهمة كتابه الموسوعي "المنهج" في ستة أجزاء، جمع فيه خبرته في علوم كثيرة مثل: البيولوجيا، والفيزياء، والفلسفة، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم اللغة، والتواصل.

(4) Edgar. Morin, *Sociologie*, Paris: Fayard, 1984, pp. 11-18.

الأخلاقي، دون أن يفيد ذلك عدم علميتها، ولا يلزم إبعاد الذات عن الموضوع بقدر ما ينبغي أن تحضر هذه الذات حضوراً بيولوجياً يجعل الإنسان في قلب عالمه، يحيل على ذاته كما يحيل إلى ما يقع خارجها حيث يمتلك قدرة خلاقة في فهم الظاهرة الإنسانية وتفسيرها.

الفرع الثاني "السوسولوجيا العلمية": وهي سوسولوجيا تستعير منهجها من الفيزياء وتتناول موضوعها بالطريقة نفسها التي تتناول بها العلوم الطبيعية موضوعاتها، وذلك بعزل الموضوع المدروس وتحليله من الذاتية وتأثير مختلف القوى المحيطة به.

غير أن النتائج المتوصل إليها بهذا الصدد لا تتجاوز "نظريات غير متقنة وتفسيرات مشوهة"،<sup>(١)</sup> وافتراضات مفتقرة للإتقان والعلمية، وشبيهة بالحلم والأمنية، مما أسقط أغلب الأبحاث في العلوم الاجتماعية في موقع سهام النقد من طرف النزعات الشكية والنسبية والذاتية.

### ب- الموضوعية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية:

طرحت إشكالية الموضوعية في العلوم الإنسانية مع إيانويل كانط، وعالجتها فلسفة فريدريك هيغل، وتوغلت فيها فلسفة فلهلم دلتي،<sup>(٢)</sup> مع حفظ الاختلاف بين هذه الفلسفات. والموضوعية هي "وصف لما هو موضوعي، وهي بوجه خاص مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه، فلا يشوهها بنظرة ضيقة، أو بتحيز خاص"،<sup>(٣)</sup> ويقصد بمبدأ "الموضوعية" خلو المعرفة من الوقوع في آفة الذاتية؛ أي عدم إخضاع المعرفة العلمية للاعتبارات الذاتية والخصوصية للفرد أو للجماعة علمية أو عرقية أو دينية أو سياسية أو إيديولوجية...، والتعامل معها بشكل مستقل محايد يجعل

(١) الفاروقي، "صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية"، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) عالم اجتماع ألماني (١٨٣٣-١٩١١م)، ينتقد التصور الوضعي ويرفض قياس الظاهرة الإنسانية على الظاهرة الطبيعية؛ لأننا لا نعرف العقل كما نعرف الأشياء.

(٣) صليبا، جميل. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧١م، ص ٤٥.

العلم علماً خالصاً، ومتخلصاً من كل تحيز أو توجيه. "وتفترض الموضوعية أن هناك واقعاً معيناً موجوداً في الخارج، وأن البشر يستطيعون إدراك هذا الواقع كما هو، ونقل صورته إلى الذهن كما هي، ثم التعبير عنه كما هو كذلك، وأن البشر يستطيعون أن يقدموا تلك الحقائق الواقعية العلمية كما هي دون التأثير بأهوائهم وميولهم ومصالحهم، فلا يصيبها شيء يمكن أن يؤدي إلى مغايرة الواقع العلمي نتيجة نظرة ضيقة أو تحيز إيديولوجي أو غيره. وتفترض الموضوعية كذلك أن منهجاً علمياً واحداً يمكن أن يوصل إلى الحقائق الموضوعية." (١)

لقد قطعت العلوم الطبيعية أشواطاً في محاولات تحقيق شرط الموضوعية الذي به يحتمل أن تكون المعرفة علمية وكونية في الوقت نفسه، حتى قيل: إنها تحققت مما يسمى بـ"علمية العلم"؛ إذ وقع الربط بشكل آلي بين صفتي "العلمية" و"الموضوعية"، فلا تكون معرفة ما علمية إلا إذا ثبتت موضوعيتها وحيادها. (٢)

لكن الإشكال المطروح علمياً هو:

إذا كانت الموضوعية كما يعرفها عبد الوهاب المسيري "العلم الخالي من القيمة والأحكام الأخلاقية" (٣) فهل يمكن تحقيق الموضوعية الخالصة في العلوم الطبيعية؟ وهل يمكن نقل تلك الصفة إلى خارج العلوم الطبيعية أم أنها مقتصرة عليها فقط؟

استطاع الإنسان أن يحقق إنجازات ملموسة وأن يصل إلى نتائج متقدمة في العلوم الطبيعية التجريبية، لكن مع ظهور الدراسات الإنسانية بوصفها اهتمامات تسعى إلى التشبه بالعلوم التي تدرس المادة، ونجحت في انفصالها عن الفلسفة، وفي تحقيق رفاهية الإنسان المادية، توجه البحث إلى الظاهرة الإنسانية قصد التحقق من توفير

(١) العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) التريكي، فتحي. والتريكي، رشيدة. فلسفة الحدائث، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٢م، ص ٦٩ وما بعدها.

(٣) المسيري، عبد الوهاب. إشكالية التحيز، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٤١٦.

شرط العلمية في البحث بصدها. غير أن العائق الأكبر يكمن في الفارق النوعي بين الحقلين المعرفيين؛ العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالأولى تتخذ من المادة موضوعها، والمادة محكومة بمبدأ "العطالة"، بينما تنصرف الأخرى إلى موضوع الإنسان ذاته، والإنسان كائن مُبدع "صاحب إرادة حرة على الرغم من الحدود الطبيعية والتاريخية التي تحده... وهو كائن قادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه... والنوع الوحيد الذي يتميز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها، فالأفراد ليسوا نسخاً متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعاً للقوالب التفسيرية نفسها." (١)

من هنا ينبع الإشكال الآتي:

إذا تخلصت العلوم الطبيعية إلى حدٍّ ما من النزعة الذاتية، ذاتية الشخص الباحث فهل يمكن تحقيق مبدأ الموضوعية داخل حقل العلوم الإنسانية؟ وإذا احتل الإنسان موقع موضوع المعرفة في هذه العلوم وموقع الدارس لها في الوقت نفسه، فهل يمكن أن يتناول موضوعه بموضوعية؟ أو بعبارة أخرى: هل يمكن أن ينظر إلى موضوعه بوصفه شيئاً مستقلاً عن ذاته التي لا تفارقها الانفعالات والانطباعات والميولات؟

لا شك في أن هناك فروقاً نوعية بين البحث في العلوم الطبيعية والبحث في العلوم الإنسانية، ففي الأولى تحتفظ الظاهرة قيد الدراسة بوحدتها وثباتها وانسجامها، ولا تصطدم بمصالح وقيم الناس، لكن الثانية تعاني من تعطيل مبدأ الموضوعية؛ إذ يعترض عمل الباحث والعالم مجموعة من العوائق الشخصية والفكرية والنفسية والإيديولوجية، مثل: الخلفية الإيديولوجية، والنزعة النفعانية، وغياب روح النسقية، والانحراف عن الرؤية الدقيقة، وغرور الباحث، وتأثير المزاج الانفعالي على عمل الباحث، وغياب النزاهة الفكرية. وعموماً فالعلوم النظرية المطبقة في

(١) المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، مرجع سابق، ص ١٢-١٣.

مجال الإنسانيات يشوبها كثير من التحيز والتجني، وفقدان الموضوعية والدقة والحياد، بسبب تداخل العوامل الإنسانية في التجربة<sup>(١)</sup> إذ يستعصي على الباحث -مهما بلغ من وعيٍ- التخلّص من المواقف والآراء والقناعات اللاشعورية التي لا تفارق تفكيره. وإن زعمت "الممارسة العقلانية العلمية تطهير وسائلها من كل أثر للمعاني والقيم الذاتية بحجة التزام طريق الموضوعية."<sup>(٢)</sup>

لهذا يرى بعض الباحثين في الموضوع، مثل "لوسيان غولدمان"<sup>(٣)</sup> أنه لا يمكن لتطبيق المنهج الديكارتي أن يحقق الفهم الموضوعي للظاهرة الإنسانية وذلك؛ "لأن الباحث يتصدى في الغالب للوقائع مزوداً بمفاهيم قبليّة ومقولات مضمرة ولا واعية تسد عليه طريق الفهم الموضوعي بشكل قبلي،"<sup>(٤)</sup> وبالتالي فإن العلوم الاجتماعية مهما بلغت من دقة وادعاء للحياد العلمي فإنها "تحوي تميّزات أصحابها الفلسفية،"<sup>(٥)</sup> على خلاف الظاهرة الطبيعية المجردة من الوعي والتحيز الذاتي والانفعال النفسي والعاطفي والثقافي. بل تقدم نفسها كما هي.

نستنتج، إذن، أن الباحث في العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتخلص من إملاءات اللاشعور الثابته في عمق بنيته النفسية والفكرية ومن تمثلاته وانفعالاته وعواطفه رغم ما يدعيه كانط من قدرة على التعالي الترنسندنتالي الذي يفصل بين الذات والموضوع؛ أي بين الذات العارفة والذات التي نريد معرفتها. ذلك أن الذات -كما يؤكد دلّتاي Diltthey Wilhelm- متغيرة باستمرار كما الموضوع أيضاً متغير. و"ليس ثمة إدراك

---

(١) العدوي، مصطفى محمد. "العلم بين التاريخ والفلسفة والدين"، مجلة الكلمة، العدد (٣٠)، ٢٠٠١م، ص ١٠٧.

(٢) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٣) مفكر وناقد فرنسي من أصل روماني (١٩١٣-١٩٧٠م)، من أشهر كتبه: "العلوم الإنسانية والفلسفية" (١٩٥٢م)، و"البنيات الذهنية والإبداع الثقافي" (١٩٦٧م).

(4) Goldmann, Lucien. *Sciences humaines et philosophie*, (Bibliothèque Méditations, 46), Paris: Genthier, 1966, p. 23-24.

(٥) المسيري، إشكالية التحيز، مرجع سابق، ص ٤٨.

نظري لأية حقيقة دون إدراك طبيعتها وعلاقتها القيمية،<sup>(١)</sup> وبناء عليه لا يمكن تحقيق التصور الوضعي في النظر إلى الظاهرة الإنسانية بوصفها شيئاً مثل باقي الأشياء المتوتة في الكون الفاقدة للإرادة. ولعل هذا ما يؤكد "فلهلم دلتاي" و"ماكس شيلر"<sup>(٢)</sup> إذ يميزون بين العلوم التي تدرس "المادة" أو "العلوم المادية"، وبين العلوم التي تدرس "الروح" أو "العلوم الروحية"، ففي الأولى يمكن تطبيق المنهج التجريبي القائم على الملاحظة والتجريب، كما يمكن الوصول إلى قوانين علمية دقيقة وذلك؛ لأن المادة تخضع لحتمية طبيعية. بينما في الثانية يعجز المنهج التجريبي عن أداء مهمته، ويترك مكانه للفهم والتفسير في عالم موسوم بالحرية والغموض. ولعل هذا ما استنتجه طه عبد الرحمن بقوله: "والصواب أن تحصيل تمام الموضوعية غير ممكن."<sup>(٣)</sup>

تأكيداً للموقف نفسه يرى محمد عابد الجابري أنه من غير الممكن التحرر من الإيديولوجيات في الدراسات الإنسانية،<sup>(٤)</sup> وهو التصور الذي أثبتته عدد من الدراسات النفسية والاجتماعية لما أكدت إخفاق الفلسفة الوضعية في زعمها إمكان تحقيق شرط الموضوعية في العلوم الإنسانية معتبرة أن الفكر العلمي قد حقق آخر الفتوحات العلمية لما تخلّص من الميتافيزيقا والفلسفة المجردة بصفة نهائية، وطردها من آخر حصونها (الإنسان)، وكان تاريخ الفلسفة هو تاريخ تراجعاتها كما يقول "أوغست كونت"، فرأت الوضعية أنه بإمكان تحقيق الدراسة العلمية الموضوعية الدقيقة للإنسان كواقع اجتماعي ملموس بعيداً عن السقوط في الذاتية، وذلك بتجنب إقحام "الفرضيات غير المحققة والتعميمات الاعتبارية" في المعرفة. لكن السؤال الإشكالي

(١) الفاروقي، "صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية"، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(٢) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني (١٨٧٤-١٩٢٨م)، وهو من أبرز مؤسسي الأنثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة، أغلب كتاباته وأفكاره تأثرت بالأزمة الكبيرة للرأسمالية التي تبلورت بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

(٣) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) الجابري، محمد عابد. التراث والحدائث؛ دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٢٣.

الذي يطرح على الفلسفة الوضعية هو: هل تستطيع العلوم الإنسانية أن تحقق الاستقلالية والموضوعية كما الشأن في العلوم الطبيعية؟ أم أنها تحتفظ بموضوعية خاصة وناقصة ومزعومة؟

تجيب "رينيه بوفريس"<sup>(١)</sup> بأن المعرفة المتعلقة بموضوع الإنسان تظل مشبعة بالذاتية ولا تملك أن تكون محايدة أو موضوعية، بل تظل غارقة في الإيديولوجيا؛ إذ تؤكد أنه من المستحيل مبدئياً أن تتمكن العلوم الإنسانية من بلوغ موضوعية مطلقة أو على الأقل التخلي عن جزء من أهدافها، والاكتفاء بدراسة المظاهر الأولية من الحقيقة أو الواقعة الإنسانية. ولعل ذلك ما حدا بدلتاي إلى التمييز بين العلم التفسيري الخاص بدراسة الظواهر الفيزيائية، والعلم الوصفي الذي يدرس إلى جانب الظاهرة الحياة العقلية التي تنتج المعرفة، أو ما يسميه بـ"النسق البنائي للعقل".

ومع تطور الفكر العلمي المعاصر حوصرت الدعوات التي تدعي تحقيق الموضوعية العلمية في الدراسات الطبيعية والاجتماعية، وهي تخفي وراءها زعم التفوق والعلمية والكونية؛ ذلك أن "صفة العلمية وصفة الموضوعية، صفتان وُصف بهما العلم الغربي المعاصر، ليبرر عالميته وتفوقه سواء في العلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو الإنسانية."<sup>(٢)</sup>

## ثانياً: المعرفة القرآنية والقراءة الجامعة

### ١ - القرآن الكريم والتأسيس للقراءة الجامعة:

#### أ- مصادر المعرفة العلمية والقراءة الجامعة:

معلوم أن مفهوم العلم مرتبط بالنظرة العامة إلى العالم، والعالم هو كل ما سوى الخالق. ففي القرآن الكريم ينطلق العلم من التصديق بوحدة الخالق، ووحدة المخلوق، ووحدة الكون، ووحدة الدين، ووحدة السنن النازمة للوجود؛ أي أن هذه

(١) بوفريس، رينه. "علوم الإنسان والفلسفة"، ترجمة: محمد علي مقلد، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد (٦)، ١٩٨٩م، ص ٣٦-٤٦.

(٢) العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، مرجع سابق، ص ٢١٢-٢١٣.



الوحدة هي التي تؤسس للتصور العلمي والمعرفي في كلياته الجامعة، وتجعل مصادر المعرفة تجمع بين الرسالتين المصدرين، أو قل: الكتابين؛ الوحي والكون. "وكلا الكتابين مفتوح، معروض على الأسع والأنظار، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته، ويدل على تدبيره، كما يدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو." (١)

### - الوحي المنزل:

وهو رسالة الله تعالى المطلقة والخالدة إلى الإنسان؛ نوراً وهداية وحجة لمعرفة الحق والعمل بما يواتيه ويقتضيه، سعياً بالصلاح والإصلاح وإرادة الرحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقدم الوحي أصول المعارف والعلوم ووسائلها والغاية منها؛ معرفة الإنسان بنفسه وما يتفرع عنها من معارف، ومعرفته بربه وما يتفرع عنها من علوم، ومعرفته بغيره من المخلوقات وما يرتبط بها من علوم تخصصية وفوائد عملية، ومعرفته برسالته في الوجود وما يتعلق بها من معارف وسنن، ومعرفته بمصيره المزدوج في العاجل والآجل، وما يتطلبه ذلك من علم وعمل ورؤية شاملة، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وهذه العلوم مجتمعة ومتكاملة ميسرة لمن طلبها وبذل الجهد في اكتسابها وتطويرها وحسن استشارها، ويمكن تسميتها بـ"علوم التيسير" تدبيراً في قوله تعالى في سورة القمر وفي أربعة مواطن: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠]، وفي سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]، إلى غير ذلك من مواضع ورود مادة "التيسير" في القرآن الكريم.

لذلك كانت مفاهيم الوحي وكلياته هي الأصل والمرجع الأكمل في النظر والتحقق والبناء والمقارنة والتقويم، وليست اجتهادات الناس وترجيحاتهم واستعمالاتهم

(١) قنبيي، حامد صادق. الكون والإنسان في التصور الإسلامي، الكويت: مكتبة الفلاح، ط١، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١٧.

المظروفة بظروفهم والخادمة لمصالحهم والخاضعة لسنن التطور والتغير، مهما بلغت من درجة الصحة والمعقولية، وكل من جحد حقيقة الكتاب فقد ظلم نفسه وظلم غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ، يَمِينُكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩].

### - الكون المسخر:

وهو الفضاء الذي تستطيع أن تمتد إليه قوى الكائن البشري حالاً أو مستقبلاً، إن أنفساً أو آفاقاً؛ نفساً وبحراً وبراً وجواً. ما في السماوات وما في الأرض من كائنات حية وجمادة وأشياء، ما هو موجود وما هو في طور الإيجاد والإمداد. إنه مجال الفعل والحركة والفاعلية والإبداع، وفي هذا الكون ومن آياته وسننه وأشياءه تتعلم الإنسانية وتعتبر وتتفكر وتعرف لتتهدي، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل: ٧٨]، حيث يؤكد الله تعالى على دور القوى الإدراكية الحسية في اكتشاف المعرفة المحيطة بالإنسان، إلى جانب النظر العقلي والتدبر في آيات الكتاب المجيد، والتفكير في آيات الكون ومكوناته، والتبصر في النفس الإنسانية، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١١) [الذاريات: ٢١]، والمعنى: ألا تتفكرون في خلق أنفسكم؟<sup>(١)</sup> وعدم الركون إلى معرفة السابقين-على سبقتها وفضلها- وكأنها القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لأن التقليد الساذج يعطل العقل والحس معاً عن البحث والمعرفة والتحقق، ويجعل المعرفة عاجزة عن أن تنتج وتتقدم.<sup>(٢)</sup>

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢٦، ص ٣٥٣.

(٢) يقول الحجوي الثعالبي الفاسي هذا الصدد: "سدودٌ بين الأمة وبين نُصوص الشريعة، ضُخمت شيئاً فشيئاً إلى أن تُنوسيت السنة، ووقع البُعد من الكتاب... وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم لا أقوال النبي الذي أرسل إليهم." انظر:

## ب- القرآن الكريم وبناء المعرفة:

وحده القرآن الكريم يوفر للإنسان الرؤية الشاملة للوجود وامتداداته الزمانية والمكانية، ومنها المنهجية المعرفية القمينة بتحقيق الاستخلاف الإنساني المشترك؛ إذ إن الرؤية القرآنية للجنس البشري بوصفه مستخلفاً ومؤتمناً على جميع المسخّرات له، تمثل قطعة معرفية كاملة مع جميع النظريات التجزيئية والمادية للإنسان والكون والحياة. ولا يخفى أن التأسيس القرآني للمعرفي لوحدة العلوم وتكاملها وتداخلها قد شابه التحريف والنقص والتعطيل، حتى انحاز العلم إلى الخوض في قضايا جزئية مظروفة بظروفها، وسحبها على القضايا الكلية الكبرى التي ينتظم وفقها الخطاب القرآني في جملته لتلحقها بها أو تهمل النظر فيها. مما يقتضي اليقين بأن الربط بين الجزر والمفازات العلمية خطوة منهجية مهمة وضرورية للأمة الإسلامية وللأمة الإنسانية في الحاضر والمستقبل، وتجديد صلة العقل بالقرآن المجيد حتى يعطي أكله كل حين بإذن ربه، وحتى يحصل كل جيل على حظه من نور القرآن وعلمه وهدايته. قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْسِنَتِهِ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فشهدادة الله تعالى وفق علمه ظاهرة التوافق؛ إذ التخالف محال، وشهادة الملائكة على وفق ما علموا صحيحة؛ لأنهم محفوظون من المعاصي، وأهل العلم أيضاً كذلك من حيث حفظوا بالعلم. <sup>(١)</sup>

بيّن مما لا شك فيه أن الإنسانية في أمس الحاجة إلى بناء المنهجية المعرفية القرآنية وتأثير العقل بما يمكنه من درك ما فاته من نقص معرفي، ومعالجة ما يعانیه من خلل منهجي، تجزئاً للمعرفة أو تأثراً بالفلسفة المادية، وهي منهجية منفتحة على "الإفادة من الرصيد المعرفي العلمي للعلوم الاجتماعية المعاصرة في ما له علاقة بفهم سلوك

- الثعالبي، محمد بن الحسن الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، قسم ٣-٤، ج ٢، ص ٧.

(١) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٩.

الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات والمعالَم الثقافية البشرية،" (١) حتى يستوي قادراً على أداء مهمته الحضارية في أفق بناء عالمية تستشرفها الأزمان وتشرّب إليها أعناق الإنسان.

المعرفة مشترك إنساني يسهم فيه الجميع، وينتفع بخيره الجميع، ويصلي نارَ سوء تطبيقه الجميع. ولا مانع من الاطلاع على ما عند الغير من القدامى والمعاصرين، بل من الواجب اكتساب المعرفة من أيّ وعاءٍ خرجتْ واستيعابها أولاً، ثم معالجتها وفق رؤيةٍ منهاجية تجديدية جامعة، تتأسس على التكامل والانسجام بين الأبعاد الروحية والمادية، الفردية والجماعية، الدنيوية والدنيوية، فأبو حامد الغزالي مثلاً اطلع على الفلسفة اليونانية وجعل من مفاهيم المنطقِ الأرسطي المنهجَ والمعيارَ والمحك الذي تقاس به صحة العلوم وعلميتها، يقول عنها في المستصفى: "هي مقدمة العلوم كلها، ومن لم يحط بها فلا ثقة له بعلومه أصلاً"، (٢) معتبراً أن المنطق ملكة إنسانية مشتركة، تنسجم مع روح المنهاج القرآني. وإن تكلف الغزالي في بيان الموازين المنطقية من القرآن الكريم، (٣) وخاصة من خلال قصة الحوار بين سيدنا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ والمَلِكِ النمرود؛ إذ يقول: "واعلم أن الميزان الأكبر هو ميزان الخليل صلوات الله عليه الذي استعمله مع نمرود فمنه تعلمنا هذا الميزان، ولكن بواسطة القرآن." (٤) لذلك فالمشترك لا يفضي إلى زوال المختلف أو إيقاف التطور المعرفي أو الجمود على علمية مزعومة أو التسليم بقدرسية الحقائق العلمية، والتأسيس لها من القرآن حتى يثبت التوافق. فالقرآن كتاب التصديق والهيمنة بمعنى الإتمام والاستعاب والتصحيح.

(١) الداودي، محمد. "مصاعب الغرب في التأهل للحوار مع العالم الإسلامي"، مجلة الإحياء، العدد (٢٨)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص ١٧٨.

(٢) الغزالي، المستصفى من علم الأصول، مرجع سابق، ص ١٠.

(٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. القسطاس المستقيم، تعليق: محمود بيجو، دمشق: المطبعة العلمية، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص ١٣ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١.

## ت - نسبة المعرفة العلمية:

عظمة الكون وتسخيره للإنسان وأمر الشارع بالتفكير في آياته والاعتبار بسُننه في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، اعتبار وتبصر وسير في الأرض ونظر في العواقب، ذلك هو التعلم مما يقع من مآلات الأفكار والأفعال والأحوال. وبذلك يكتسب الباحث المتبصر القدرة على النظر الكلي والتعليل والتحقيق، والنقد والمقارنة، وإعادة البناء المعرفي وفق منهج معرفي شمولي، وامتلاك القدرة لدى العقل على الاجتهاد<sup>(١)</sup> والإبداع في مختلف التخصصات المعرفية انطلاقاً من المنهجية المعرفية الجامعة بين علوم النص وعلوم الكون وعلوم الإنسان. بيد أن هناك سؤالاً يطرح بقوة مفاده: إذا كان المنهج علمياً، وكانت المعرفة علمية، فهل يفيد ذلك أن الحقيقة العلمية صحيحة صحةً مطلقة أم أنها عبارة عن "سيرورة تركيبية"؟

لا تنفك المعرفة عن الذات العارفة لكونها ذاتاً فاعلة؛ تتأمل، تتدبر، تتفكر، تعتبر، تقارن، تستنتج، تقرر... لكنها أيضاً ذات تنفعل؛ تغفل أو تتغافل، تجهل، تستعجل، تُعمّم... مما يُنبهنا إلى ضرورة مراجعة "الحقائق العلمية" والنظر إليها في صورة حقائق نسبية ومؤقتة، تقبل تعميق التفكير فيها، ومراجعتها، ونقدها، وتجاوزها إن ثبت خطأها وبناء غيرها بشكل يستوعب ما سبقه ويتجاوزه. فليست "النظريات العلمية" نهائية الصحة بمجرد أنها تُنسب إلى العلم والمنهج العلمي ووضعتها علماء وخبراء؛ إذ "النظريات العلمية مثلها مثل جبال الجليد في البحار القطبية، فيها جزء ضخم منغمر، ليس علمياً، ولكنه ضروري للتطور العلمي، في هذه النقطة العمياء في العلم الذي يعتقد أن النظرية هي انعكاس للواقع. إن ما هو علمي خاصيته أنه لا يعكس الواقع، بل يترجمه إلى نظريات متغيرة قابلة للتكذيب... إن تاريخ المعرفة

(١) الفاروقي، إسماعيل. "الاجتهاد والإجماع كطرفي الديناميكية في الإسلام"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٤)، العدد (٩)، (محرم ١٣٩٧هـ/يناير ١٩٧٧م).

العلمية ليس فقط تاريخ تراكم وتوسع إنه أيضاً تاريخ التحولات والقطائع والانتقالات من نظرية إلى أخرى، فالنظريات العلمية فانية وهي فانية لأنها علمية... وهكذا فحققت العلم مفتوح على الدوام، لا تتصارع فيه النظريات وحدها، بل تتصارع فيه كذلك مبادئ التفسير.<sup>(١)</sup>

أرست فيزياء نيوتن دعائم العلوم الطبيعية الحديثة وإلى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنها تحولت إلى "فرضية كسولة" مع الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني جوتفريد ولهم ليبنتز<sup>(٢)</sup> لأنها "لا تبحث في العلة المعقولة والحكمة الإلهية التي تصدرها"، وانتهت إلى "تاريخ" بظهور نظرية النسبية مع أينشتاين في بداية القرن العشرين، والتي أثارت ما يدعى بأزمة الفيزياء الكلاسيكية وأحدثت انقلاباً فيزيائياً على المسلمات والمفاهيم والأفكار المتداولة، فأنكرت فكرة الأثير وفكرة التآني، كما استهجن الموقف السائد عن الزمان المطلق والمكان المطلق، "وقد ألفت النسبية، كما يدل اسمها، النسبة في مسائل لم يكن الإنسان يرى فيها سوى المطلق. لنوضح ذلك: فهي قد قلبت كثيراً من المفاهيم المطلقة التي كانت تحكم فيما سبق بتصوراتنا للعالم وجعلتها نسبية. وهذا أخرجت العلم من الممر الضيق الذي انحصر فيه ودلته على طرق التقدم الواسعة والآفاق الرحبة،<sup>(٣)</sup> التي تمر عبر المراجعة والنقد والفناء.

ومن النظريات التي حازت تسمية "العلمية" و"الموضوعية" ما ملأت الدنيا ادعاء للصحة والإطلاقية،<sup>(٤)</sup> وما هي في الحقيقة سوى تأويلات للعلم ومعرفة

(1) Morin, Edgar. *Science avec conscience*, Paris: Librairie Arthème Fayard, 1982, p29-38.

(2) فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات ألماني (١٦٤٦-١٧١٦م)، أسس علم النفاضل والتكامل الرياضي ولا زالت رموزه الرياضية وقوانينه (مثل: "قانون الاستمرارية" و"قانون التجانس الفائق") تُستخدم منذ أن تم نشرها إلى اليوم.

(3) كوديرك، بول. النسبية، ترجمة: مصطفى الرقي، باريس: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٠م، ص ١٥.

(4) نذكر من هذه النظريات التي أثرت بشكل كبير ثم تحولت إلى أسطورة؛ نظرية النشوء والتطور لصاحبها لامارك وبعده تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م) في كتابه "أصل الأنواع"، والذي زعم بأن أصل الإنسان قرد...

أُنْتِجَت على هامشه، تَمَّ تجاوزها وتحولت إلى مجرد أساطير لا تغني من العلم شيئاً، لذلك تكون "التأويلات الفلسفية لنتائج العلوم بغاية التدليل على بعض القيم الخارجة عن مجال العلم لا تعكس الحقيقة العلمية كما هي، بل تعكس منها أغراضاً إيديولوجية عملية." (١)

سُخر الوجود للإنسان بقدر فهمه وبذله، ونسبية النتائج في العلم مواتية لمستوى الإنسان في المعرفة، (٢) وهو هو الكائن الضعيف الذي ما يزال يكتشف جهله وقيلته ومعها يدرك حاجته للعلم والمعرفة والمنهاج. إن التقليد عدو العلم مبدئياً، ومن الناحية النظرية؛ لأن "الرأي تفكير سيء" (٣) كما يقول غاستون باشلار؛ إذ غالباً ما يعدّ الناس الأفكار المشهورة أو ما يسمى "بادئ الرأي" أفكاراً معقولة لا شك فيها. والحقيقة على خلاف ذلك إذ "المعاني المعقولة عند هؤلاء هي كلها خَطبية؛ إذ كانت كلها ببادئ الرأي،" (٤) سواء تعلقت بعلوم الكون أو علوم الكتاب، وهي على الحقيقة علوم متداخلة متماهية. ويصل الرأي إلى درجة إعاقة المعرفة العلمية ومنعها من التقدم، ويعد باشلار من أشهر من "بيّن أن العوائق الإبيستمولوجية ليست عوائق خارجية تتعلق مثلاً بتعدد الظواهر المدروسة، ولا هي تتعلق بضعف حواسنا ومحدودية عقلنا البشري، بقدر ما هي عوائق نفسية قبل كل شيء، لأن أهم ما يجمد تطور العلم هو التشبث بالأحكام المسبقة والآراء الشخصية، ورفض كل جديد

---

(١) فتح الدين، عبد اللطيف. "الهاجس الإبيستمولوجي في فكر الجابري"، ضمن كتاب: في العقل ونقد العقل، قراءات في أعمال المفكر محمد عابد الجابري، الدار البيضاء: مطبعة بيست أمبريمري، ط١، ٢٠١٠م، ص٩٩.

(٢) اعتبر كثير من علماء المسلمين (مثل: جابر بن حيان) أن التجربة أساس دراسة العلوم الطبيعية، دون أن تضمن اليقين المطلق في نتائجها.

(٣) في معجم أندري لالاند: "الرأي doxa حالة ذهنية تتمثل في الاعتقاد بصحة قول معين، مع القبول بإمكان الخطأ أثناء حكمنا هذا."

(٤) الفارابي، كتاب الحروف، مرجع سابق، ص١٣٤.

مخالف لما وقع التعود عليه." (١)

العلم الموحى به من الله إلى بعض خلقه، أو ما يسمى بالعلم اللدني لا تشترك فيه الإنسانية، فهو إلهام خالص لا يُطلب ولا يُدرك ببذل الجُهد وبلوغ الجُهد. بيد أن العلم الفطري الذي يولد مع المولود بدءاً مشترك بين الناس أجمعين. أما العلم المكتسب بالتجربة والعقل فهو متاح لمن طلبه، ومشارك بين الإنسانية كاشتراكهم في الحياة على كوكب الأرض بقوانينه وسننه. ومن ثمّ فالأساس العلمي للمشارك بين الإنسانية يجمع بين المعرفتين الطبيعية التجريبية التي موضوعها الأشياء، والإنسانية الاجتماعية التي موضوعها الإنسان.

إن النظريات العلمية لا ينبغي أن تعتد بالأفكار الظنية والآراء الشخصية والمصالح الفردية والقومية، بل يجب أن تكون قائمة على الأثرات العلمية الواضحة، ﴿أَوْ أَتْرَكْتُمْ مَنَ عَلِمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، والبراهين المقنعة والقابلة للقياس والمراجعة والتقويم. مع الحذر من اعتبار المعرفة المستمدة من القرآن وكأنها قرآن، وكأن صحتها من صحته، مما يسد باب الاجتهاد والتجديد والمراجعة والتجاوز، "فالباحث وإن اعتقد صدق ما بلغه من نتائج إلا أنه لا ينبغي له أن يعتقد في أحكامه المتحيزة هي الحكم النهائي المطلق؛ إذ إن أحكامه هي أولاً وأخيراً اجتهاد،" (٢) ما دامت المعرفة البشرية معرفة نسبية متجددة تقبل النقد والهدم والإلغاء والتكذيب، وإلا من يصدق الآن الكثير من الادعاءات "العلمية" القديمة التي زعمت لنفسها الإطلاق والكمال وقد خلفها التقدم العلمي وراءه من غير رجعة، وأضحى اليوم تنسب إلى الأساطير لا إلى العلوم؟ لذلك فـ"الاعتراف بنسبية المعرفة الإنسانية عموماً يجعلنا نفتح باستمرار على آفاق المعرفة المجهولة، ونتواضع أمام ما استطعنا الوصول إليه، دون أن ندعي المعرفة المطلقة والنهائية. فالحقيقة المطلقة - وإن كنا نؤمن

(١) جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

(٢) المسيري، إشكالية التحيز، مرجع سابق، ص ١٩.



بوجودها- إلا أننا لا نزعم بشكل من الأشكال أن فهمنا لها هو فهم مطلق ونهائي،" (١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [المؤمنون: ٧١].

## ٢- القراءة العلمية الجامعة والمشارك الإنساني:

### أ- تعريف القراءة الجامعة:

نقصد بالقراءة الجامعة العلم الذي يعتمد المنهاج القرآني المعرفي في اكتشاف المعرفة وإنتاجها في تكاملها وتداخلها وبنائها، ثم تقويمها وتطويرها وفق المقاصد الكلية النازمة للرؤية المعرفية القرآنية في شموليتها وغايتها. وباستيعاب ضوابط هذا العلم ومعالجه يمكن أن تُعدَّ "الأمة المسلمة جوابها الخاص عن أسئلة زمانها،" (٢) أي الأسئلة والإشكالات المنهجية والمعرفية والمشكلات العملية الواقعية التي تواجهها للخروج من الأزمة المركبة التي تعيشها منذ أمدٍ طويل. ولن يكون الأمر كذلك إلا أن يُتخذ القرآن مصدراً كونياً للعلوم في تأخٍ وانسجام مع مصدرِ الواقع كما هو، لا كما تقدمه الفلسفات المادية في مختلف تخصصاتها وفروعها.

### ب- خصائص القراءة الجامعة:

القرآن الكريم رسالة الله الخاتمة إلى العالمين، وهو يملك القدرة على بناء المنهاج العلمي، المنشئ للعلم الجامع القادر على إعادة إخراج الأمة الشاهدة إلى خيريتها وإرجاع الإنسانية إلى رشدها، وتخليصها من المأزق المنهجي والمعرفي الذي تتخبط فيه نتيجة ضلالات منهجية ومذهبية حادت بها عن جادة الصواب إلى متهاتات الادعاء والظن والشك والإنكار. وعلت أصوات تعبر عن هذا الوضع المتدني من قبيل: ما بعد الحداثة، وما بعد الرأسالية، وما بعد الإيديولوجيا، وما بعد الدهرانية، ونهاية

(١) الخافي، عامر. "الموضوعية في دراسة الأديان"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٦٠)، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ١٥٠.

(٢) عبد الرحمن، طه. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ١٥.

التاريخ... فما هي خصائص هذا القراءة الجامعة؟

### ت- القراءة الجامعة والنظرة المادية:

لعل أهم خصيصة للقراءة الجامعة هي تجاوز نقائص النظرة الوضعية المادية التي يلخصها موقف أوغست كونت في قوله: "إن الوضعية تطرح بشكل منهجي كل ما هو خارق وفوق طبيعي، وترفض قبول كل نظام خاص بالحياة الداخلية مجرد من تبريراته العقلية،"<sup>(١)</sup> إلى رؤية بنائية تكاملية، تتغيا تحقيق السعادة الإنسانية الممتدة من العاجل إلى الآجل، أفراداً وأمة وإنسانية. أمة اتباع وأمة استماع. ورؤية تجمع بين علوم الوحي وعلوم الكون وعلوم الإنسان جمعاً دقيقاً ووثيقاً، في علم كلي هو العلم الجامع، وتستأنف مسيرة العلم الذي يتخلص من أخطائه عبر تاريخه الطويل، لذلك تحتاج العلوم الطبيعية كما العلوم الإنسانية إلى عملية تحرير منهجي بطريقة تلخصها من سجن الرؤية الفلسفية المادية المؤطرة لها، التي تحتزل الإنسان في بعده المادي، وتقلص الزمن في بعده الدنيوي، وتنكر الوحي والغيب، مما يؤدي عملياً إلى سقوطها في التوظيف الإيديولوجي المغرض لنتائج هذه العلوم من أجل الوفاء لإيديولوجية سابقة عن العلم وموجهة له، وإشباع شهوات الإنسان "النهم" الذي يمتلك الأشياء ويستهلك الطيبات غير عابئ بما يلحقه من ضرر بذاته أولاً، وبغيره من بني الإنسان ثانياً، وبجميع المخلوقات الأخرى في الكون، فيُفسد في الأرض؛ ذواتاً وبيئة وعمراً. وهذا الصدد يعترف البروفيسور جود رئيس قسم الفلسفة في جامعة لندن بسوء استخدام العلوم الطبيعية بقوله: "إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالعظماء، لكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش... إن هذا التفاوت بين فتوحاتنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية المخجلة نواجهه في كل منعطف في حياتنا."<sup>(٢)</sup>

(1) Ducasse, Pierre. *Méthode et intuition chez Auguste comte*, Paris: librairie Félix Alcan, 1939, P. 38.

(٢) الرفاعي، "الوسطية مرتكز حوار الثقافات لتحقيق المشترك الإنساني"، مرجع سابق، ص ٩٤.

إلا أن نقد الفلسفة المادية وتجاوز تحيزها لا يفيد الاستغناء عن "علم المادة" ولا إنكار الثروة العلمية التي وفرها للإنسانية، وإنما ينبه إلى ضرورة تحرير المعرفة عموماً والمعرفة العلمية خصوصاً من سجن المادية وحصار الإيديولوجيا ونفق الإلحاد، وبنائها في أفق أرحب وأوسع وأنفع هو أفق العلم الجامع، في إطار منهجية قرآنية تنتصر لمقاصدية القرآن الكريم. وهذا يتطلب -بموازاة مع إعادة بناء الإنسان المؤمن الصالح الراشد بالتركيز الشاملة- إعادة الصياغة للمعرفة المادية عبر الخطوتين الآتيتين:

### الأولى: خطوة التوطين:

ونقصد بها إتقان هذه العلوم والتمكن منها عملياً والأخذ بزمامها والوقوف على حقائقها ومناهجها ونظرياتها من قبل طائفة نابغة متخصصة ومتشعبة بضوابط العلم الجامع، وليس "تزيين إسلامي للبناء العلمي المنقول عن الغرب".<sup>(١)</sup> طبعاً لا يصح أن نبدأ من الصفر، بل الواجب أن ننطلق مما انتهت إليه العلوم والمعارف، وذلك بـ"الاطلاع لدى ما يجري لدى غيرنا من مناهج وآليات لأجل استيعابها أولاً، ثم لأجل إدراك طبيعتها وحدود تطبيقاتها"،<sup>(٢)</sup> برؤية منهجية نقدية مستوعبة أولاً ومتجاوزة ثانياً، لكن بـ"تحصيل القدرة على فك مفاصل البناء النظري المنقول وإعادة تركيبها بفضل عمليات تحويلية متعددة تدخل على المفاهيم والأحكام"،<sup>(٣)</sup> أي مراجعتها وإعادة إقامتها على الهدى المنهجي التكاملي. أو بتعبير محمد عابد الجابري: "اكتساب الأسس والذوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والثقافة، دخول الذوات الفاعلة المستقلة وليس دخول الموضوعات المنفعلة المسيرة. نحن في حاجة إلى التحديث؛ أي الانخراط في عصر العلم والثقافة كفاعلين مساهمين... ذلك لأنه من الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان... في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى

(١) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٢) الصغير، عبد المجيد. "حوار مع عبد المجيد الصغير"، مجلة الإحياء، العدد (٢٦)، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ٤٢.

(٣) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٩١.

عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد.<sup>(١)</sup>

ولا يكفي تتبع النقائص والمتناقضات في النظريات العلمية السائدة؛ لأن ذلك تفعله الوضعية ذاتها، وإنما ينبغي تجاوز هذه الخطوة إلى مستوى إنتاج نظريات علمية جديدة وفي تخصصات مختلفة، أو بعبارة أخرى: إنجاز أبحاث نظرية وميدانية، ودراسات علمية، وتطبيقات عملية، "مختلفة في منطلقاتها وفي صياغاتها العلمية وفي غاياتها."<sup>(٢)</sup>

### الثانية: خطوة التحرير:

بمعنى تخليص العلوم والتقنيات من شروط تداولها الفلسفية المتحيزة وتبعيتها الإيديولوجية، وغرسها في مجال تداولي علمي وعالمي؛ أي "تحرير تلك المنجزات التي نشأت ضمن مفاهيم فلسفية لادينية، ومادية إلهادية، وذلك بإعادة تفسيرها، وربطها بإطار قيمي إسلامي موصول ومتصل بالهدي الإلهي،"<sup>(٣)</sup> وفق نظر منهاجي كلي ينطلق من النظر إليها على أنها معارف إنسانية يتوقف التوفيق في إدراكها وحسن توظيفها على إعمال مناهج البحث في آيات الله الكونية مساندة لآيات الله المتلوة. وهنا تحضر ضرورة النقد الجذري للمنطلقات غير العلمية المتحكمة في مسار المعرفة العلمية والتقنية؛ رؤية وإنتاجاً، وتأويلاً وتسخييراً. ولعل ذلك التحكم غير العلمي ما قصده مارتن هايدجر بقوله: "أساس علم الطبيعة الحديث قائم في سيادة التقنية وليس العكس... الإنسان يوجد تحت قوة تتحداه ولم يبق حراً إزاءها، وأن أمراً ما يعلن في ذلك عن ذاته، هذا الأمر هو علاقة الكون بالإنسان."<sup>(٤)</sup>

- 
- (١) الجابري، محمد عابد. "العولمة والهوية الثقافية"، مجلة فكر ونقد، العدد (٦)، (فبراير ١٩٩٨م)، ص ١٦-١٧.
- (٢) ابن نصر، محمد. "تأصيل العلوم الإنسانية والاجتماعية"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٢-٤٣)، (٢٠٠٥-٢٠٠٦م)، ص ١١٨.
- (٣) عرفان، عبد الحميد فتاح. "إسلامية المعرفة ومنهجية التناقص الحضاري مع الغرب"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥)، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص ٩.
- (٤) هايدجر، مارتن. "حوار مع مارتن هايدجر"، أجزاه: ريتشارد فيسر، ترجمه عن الألمانية: إساعيل المصدق، مجلة فكر ونقد، العدد (٢٣)، (١٩٩٩م)، ص ١٢٦-١٢٩.

وبتحرير المعرفة نستطيع توظيف نتائجها في خدمة الإنسان وصيانة بيئته الحيوية، وإنهاضه للقيام بواجبه الرسالي، عوض خدمته هو لها، وذلك بعد إعادة بناء علاقة الإنسان بالكون وتحويلها من علاقة صراع وسيطرة وغزو شبَّ عليها الإنسان الغربي بعد عصر النهضة الأوروبية عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، إلى علاقة تسخير وتوافق وانسجام، كما حددها القرآن الكريم في أكثر من موطن، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ فِيهِ فَاثْمَرُوا وَلْيَنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجنانية: ١٢-١٣].

برؤية منهاجية تكاملية بنائية تُستوعب مجالات الخوض المعرفي من عقليات وطبيعيات وتجريبيات وغيرها، ويبنى المشترك العلمي الإنساني الذي يحتضن الإنسان بكل اهتماماته وحاجاته وقدراته وينير له الطريق النزيه لمعرفة الحق ومراده من الخلق، وتجديد النظر في المآلات والاختيارات حتى يتحقق التعايش والتعارف، وتسخر المعارف للإنسانية قاطبة بغض النظر عما يضاف لها من نسبة المكان أو الملكية أو الجاه أو المذهب.<sup>(١)</sup>

ولتحرير المعرفة من الظنون والآراء وخدمة الأهواء والإيديولوجيات، وجب التحذير من القول بغير علم، أو ادعاء العلم من غير بيئة، أو حيازة العلم من غير عمل به ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣]، أو استعمال العلم لأغراض غير علمية، أو أن يقف الباحث ما ليس له به علم، أو أن يدافع عن دعوى من غير استدلال عليها، أو أن يتساهل في طلب الدليل على دعوى غيره حتى يتحقق التصديق بها، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

(١) لعل ذلك ما استوعبه علماء كبار في تاريخ المسلمين أمثال: ابن سينا في "القانون" في الطب، والرازي في "الحاوي" (في الطب)، والزهراوي في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وابن رشد في "الكليات"، والخوارزمي في "مفتاح العلوم"، وابن الهيثم في قواعد البصريات، وابن البيطار في علم النبات، وابن خلدون في علم الاجتماع... وغيرهم كثير.

### ث - تكاملية المعرفة العلمية:

الشأن في المرجعية القرآنية ألا تكون المعارف فيها إلا متكاملة سواء ما حصل منها بتصديق الوحي أو بإدراك العقل أو الحس أو هما معاً؛ لأن مصدر العلوم مزدوج؛ الوحي والوجود، ووسيلتا العلوم مزدوجة؛ العقل والحس، سواء في المعرفة النظرية أو الطبيعية أو الاجتماعية، وبين العلوم نظام توحيدي متصل بمنهج التوحيد وفلسفته، ينظر للمعرفة في تكاملها وتداخلها وتعاضدها، أو ما يسميه بـ"العلم الأعلى" وهو الفلسفة الأولى التي يعدّ موضوعها الأسس المشتركة بين العلوم،<sup>(١)</sup> اعتباراً لمعنى الوحدانية الذي تقوم عليه الحياة الإنسانية بأكملها، والذي لا يتجلّى إلا من خلال القراءة الجامعة؛ وهي "قراءة تستصحب الوحي في قراءة الكون وفهمه واكتشاف سننه، وقراءة تستصحب سنن الكون في فهم آيات الوحي، وغاية قراءة الوحي التنزل من الكلي إلى الجزئي، والربط بين المطلق والنسبي، بقدر ما تتيحه قدرات البشر العقلية النسبية في فهم تنزلات الكلي وربطه بالواقع المتغير الجزئي. وقراءة الكون تمثل عروفاً من الجزئي النسبي باتجاه الكلي المطلق وفق القدرات البشرية النسبية الجزئية أيضاً على فهم الظواهر. وبذلك ينعدم الفصام المزعوم بين الوحي والمعرفة الموضوعية للكون والوجود."<sup>(٢)</sup>

العلومُ علومٌ وحيٌّ وعلومٌ كونٌ وعلومٌ إنسانٌ، أو قُلْ: علومٌ تيسيرٌ يسرها اللهُ في كتابه لجميع خلقه ممن طلبوها من أبوابها ولا تُحابي أحداً لعرقه أو حسبه وادعائه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [الفجر: ١٧]. وعلومٌ تسخيرٌ سخرها اللهُ لعباده أجمعين ابتلاءً وتمحيصاً بعد تكريمهم بالإنسانية والرسالية: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وعلومٌ استخلافٌ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٠] ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [١١] [الذاريات: ٢٠-٢١]، وتدرُّك علوم الكون بالتفكير في آياته "الحسبانية"، قال الله تعالى:

(١) كونزمان، وبوركاراد، وفيدمان، أطلس الفلسفة، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٢) العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، مرجع سابق، ص ٢٧٥-٢٧٦.

﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن: ٥]، وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، كما تدرك علوم الوحي بالتدبر المفضي إلى فتح الأقفال، ونزع الأغلال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وبين هذه المصادر الثلاثة تعاضد وتكامل وانسجام، آيات الوحي وآيات الكون وآيات النفس، كما هو التكامل بين الجسد والروح والحياة، وليس بينها أي تنافر أو تضاد. ويسري هذا التكامل نفسه ويتبلور في نظريات ودراسات وبحوث تستوعب المنهجية القرآنية المعرفية وتعمل بها. ولا تقف مع قصر العلم على المحسوس والمشاهد متأثراً بالتصور الوضعي الذي يلغي مصدر الوحي ويمحو مبدأ الغائية. عملاً بالفصل الذي كرّسه الإكليروس بين مملكة الله ومملكة قيصر، والذي تُرجم إلى الفصل بين الدين والحياة العلمية والاقتصادية والسياسية، وتحول إلى لائكية تهمش الدين وتحديث القطيعة بين عالم السماء وعالم الأرض.

لما كان الإنسان الكائن المستخلف من ربه في هذا الكون الذي ترعاه المشيئة الإلهية، المختار في إرادته، المسؤول عن أفعاله، وكان فعله يغطي حركة هذا الكون طاعة لخالقه وتفكيراً في آلائه وقضاء لمآربه، انسجاماً مع وظيفته، فيبني أن معرفته ينبغي أن تستغرق مجال الكون وما فيه، ولا تقتصر على جزء منه أو تفرض نسبية النظر فيه على مطلق ما يحتويه. ومنه يجب أن تكون المنهجية المعرفية شاملة لمحيط الكون، وسعي الإنسان فيه في صيرورته الوجودية، ولا تقتصر على جزء منه كما فعلت الفلسفات التجريبية المادية التي تُلخص المعرفة العلمية في المحسوسات دون المعقولات، وتلغي منها علم الغايات، ناهيك عن علوم الوحي ويقين الحياة بعد الممات.

بدأ العلم من الله تعالى وهو العليم الحكيم، ومن عنده تعلم الإنسان ما لم يعلم، وبمشيئته كان العلم وكان التعلم والتعليم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴿٣١﴾ [البقرة: ٣٠-٣١]، وباسمه كانت القراءة في آيات الكتاب وفي خبايا النفس وفي آفاق الكون ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمَائِكَ الَّتِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]. هذا التعليم الرباني للأسماء هو أول عطاء تزود به الإنسان على وجه الأرض بعد خلقته مستويًا مفطوراً في أحسن تقويم، فصار قادراً على معرفة ربه ومعرفة نفسه، ومعرفة العالم من حوله بقوانينه وأشياءه. قادراً على التفكير والتدبر والتبصر، بالفهم الجامع بين النظر "الإنصاتي" لآي القرآن والنظر "الاعتباري" لآي الموجودات من حيث دلالتها على الله، والنظر "الاستبصاري" في أي الأنفس، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، ولا يتدبر من لا يتفكر مثلما لا يتفكر من لا يتبصر، فهي عمليات متكاملة متداخلة تؤسس لمنهج فريد فات الفلسفات المعاصرة أن تهتدي إليه. وقد بين الله للناس "في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات، ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن." (١)

بناء على ما سبق "العلم الطبيعي والعلم الشرعي (قلت: وكلاهما شرعي) فرعان من علم الدين ينبغي أن يتناصرا وأن يتحدا، ليوحد العلم كله، ويوجه إلى الله تعالى، ويسخر لعبادته فوق الأرض. ولا يمكن أن نجتهد إلا إذا تعلمنا علوم الطبيعة كما نتعلم علوم الشريعة،" (٢) إضافة إلى علوم الإنسان.

غاية القراءة الجامعة، إذن، إسعاد الإنسان والأخذ بيده للخروج من فتنه الابتلاء وتذكيره بوظيفته في الحياة، والوصول به عبر سبل السلام إلى نيل الأوطار في العاجل وبلوغ المرام في الآجل. ولما كان الأمر كذلك فإن الإنسانية اليوم في أمس الحاجة إلى العلم الجامع الذي ينقذها من جحيم الغفلة والنسيان والطغيان، وما يستتبعه من صنوف الاختلال والانحراف في النزعات والمذاهب والفلسفات القائمة على الظنون والشكوك والتخمينات.

(١) ابن تيمية الحرائي، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٣٦.

(٢) الترابي، حسن. قضايا التجديد؛ نحو منهج أصولي، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٧.



## ج- منهج التكامل بين المعارف:

يتأسس التكامل بين العلوم ابتداء على التكامل بين هداية الوحي وسنن الفطرة وسلامة الفهم، وعلى التكامل بين الموضوعات والأشياء المعلومة التي تتعلق بها هذه العلوم. فلا تضاد بين المصادر كما لا وجود لأية قطيعة أو انفصال تام بين الموضوعات، مما يفيد بالضرورة عدم وجود القطيعة والانفصال بين العلوم التي تهتم بها.<sup>(١)</sup> وما يظهر من تمايز تخصصي بين المعارف فهو لا يلغي الاتصال والتكامل، بل يشبته ويؤكد، أو قل هو: اتصال وتنوع في إطار التكامل؛ لأن "الاتصال هو جوهر الأشياء والانفصال هو حيويتها وروحها"،<sup>(٢)</sup> الاتصال يؤطرها والتمايز ينوعها، فهو انتظام وتناغم شبيه بانتظام وتناغم عناصر الكون بأكمله، من عالم الذرة إلى عالم المجرة. وتُستمد روح التكامل المعرفي من القرآن الكريم الذي يتحدث عن الكون بوصفه وحدة وجودية منتظمة، غير متنافرة ولا منفصلة.

تتجلى أهم الاختلالات المنهجية التي أصابت المعرفة والعلوم في الفترة المعاصرة في الانفصال التدريجي عن الاستمداد من الوحي وهو المنشئ للمعرفة والمنهج والقيم، ﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، مما أوقعها في أدواء لم تبرأ منها بعد، منها "التفرقة بين العقل والشرع" و"التفرقة بين العقل والقلب" و"التفرقة بين العقل والحس"،<sup>(٣)</sup> ووقع الاقتصار على ما يسمى بـ"العلوم الشرعية" في مقابل تهميش "العلوم الكونية" و"العلوم الإنسانية"، بل التقليل من أهميتها وكأنها معادية للشرع. فانفصلت التخصصات والشُّعب عن بعضها

(١) ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥-٣٢.

(٢) مفتاح، محمد. الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي، سلسلة ندوات ومناظرات (٦١)، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ١، ١٩٩٧ م.

(٣) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥٧، وانظر أيضاً:

- عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص ٨٨-١١٠.

بعضاً، وأصبحت الشعبة الواحدة في هذا التخصص لا تعرف ما يجري في التخصصات الأخرى، بل انفردت كل شعبة بثقافتها، وضيّع الناظم المنهجي الجامع تحت ضغط استتباع ثقافي أو تعليمات سياسية أو مبررات كلامية وطائفية ومذهبية.

إضافة إلى ما سبق وأثناء النقل المعرفي من ثقافات أخرى وقع التساهل في مقومات المجال التداولي المنقول إليه، وتم الإخلال بشروط التقريب التداولي،<sup>(١)</sup> ذلك أن "كل نقل أو تعميم لنظرية أو لمنظومة تقنية يفترض إمكانية فصل النسيج المنقول عن أصله وسياقه ووضعه في سياق آخر... فكما أن هناك أنواعاً من النباتات لا يستطيع الإنسان، مهما حاول أن ينقلها إلى بيئة جديدة دون أن يعيد تغيير شروط هذه البيئة بما يجعلها ماثلة أو قريبة من البيئة الأولى، هناك أيضاً نباتات يمكن أن تعيش في كل البيئات، ونباتات تحتاج كي تستوطن في البيئات الجديدة إلى بعض العناية، وتحتاج أيضاً إلى التعديل في خواصها أو تطعيمها على نباتات أخرى موجودة ومتشابهة في التكوين. بيد أن المفاهيم والقيم والنظريات والفلسفات أعقد بكثير من النبات."<sup>(٢)</sup>

غابت منهجية التكامل العلمي في رصد الظواهر المدروسة وتحليلها وتركيبها، وفات المعرفة أن تربط بين العلم والمنهج والقيم العليا لتحقيق "الاستقامة العلمية"، وتقلص العلم الجامع عما تأسس في مدرسة الوحي ونشط الصراع الكلامي والمذهبي والفلسفي، "وكان السبب في هذا الصراع كله، ما كان يعانيه العالم الإسلامي من انفصال بين سلطانه الزمني وفكرته القرآنية،"<sup>(٣)</sup> وتجلي تطبيقاً عملياً في مرحلة النبوة والخلافة الراشدة وفي ومضات متناثرة في تاريخنا.

الإنسان والكون مخلوقات محكومة بسنة الله التي لا تتحول ولا تتبدل، والعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية متكاملة متداخلة ما دام الإنسان جزءاً من الكون،"<sup>(٤)</sup> لا

(١) عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق.

(٢) غليون، "العقلانية ونقد العقل"، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٣) ابن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م، ص ١١٠.

(٤) حاج حمد، محمد أبو القاسم. منهجية القرآن المعرفية؛ أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، بيروت: دار =

تقبل الانفصال الصارم ولا التطابق التام، و"الإنسان يحيا في ملكوتِ يحكمه الله في كل من الناحيتين الغيبية والقيمية... ويجب أن تعنى تلك العلوم بخلافة الله على الأرض؛ أي خلافة الإنسان"،<sup>(١)</sup> وليس الإنسان إلهاً يعيش لذاته وبذاته، أو كائناً بهيمة كما ترى بعض الفلاسفة. وإنما هو ذات تجتمع فيها المادة والروح بشكل لطيف ودقيق.

بين الأنفس والآفاق تتأسس علوم وتبنى وتتطور، لا فارق بينها من حيث الأهمية وإن اختلفت التخصصات باختلاف الموضوع، وسواء أكان الموضوع نصاً أو شيئاً، فعلم النص وعلوم الكون كلاهما علمٌ، ما حصل الفهم الجامع بين الدليل السمعي والدليل العقلي، يقول ابن تيمية: "الأدلة العقلية والسمعية متلازمة، كل منهما مستلزم صحة الآخر، فالأدلة العقلية تستلزم صدق الرسل فيما أخبروا به، والأدلة السمعية فيها بيان الأداة العقلية التي بها يُعرف الله، وتوحيده، وصفاته، وصدق أنبيائه. ولكن من الناس مَنْ ظن أن السمعيات ليس فيها عقلي، والعقليات لا تتضمن السمعي، ثم افترقوا: فمنهم من رجع السمعيات وطعن في العقليات، ومنهم من عكس. وكلا الطائفتين مقصر في المعرفة بحقائق الأدلة السمعية والعقلية."<sup>(٢)</sup>

نتيجة الإخلال بالمنهجية القرآنية الكلية ظهرت تخصصات فرعية متحيزة تدعي الكلية والاستغراق في فهم القرآن وتأويله وبيان مقاصده، فتكاثرت التفسيرات وتضاربت، وتعددت التأويلات وتناقضت، وتواجهت المذاهب واختلفت، وعم الكلام في ما لا طائل منه وانتشر. فحاد الناس عن مرجعية القرآن وحاكميته إلى شتات من العلوم وتحيزات من المعارف لا ناظم لها، حتى صارت مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلة يُستغنى بها عن الرجوع إلى القرآن الكريم والاستمداد منه.

---

= الهادي، ط ١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، الفصلان الأول والثاني.

(١) الفاروقي، "صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية"، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض:

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ٢، (١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج ٨، ص ٢٤.

## ح- النظر المزدوج في التراث:

في طريق التأسيس للرؤية القرآنية المعرفية لا مندوحة عن التوجه المزدوج إلى التراث العلمي قصد استيعابه وتمحيصه وغربلته من جهة، وإلى العلوم المعاصرة قصد استيعابها وتقويمها، ثم تجاوزها من جهة ثانية. هو نقد مزدوج في ضوء المنهاج المعرفي القرآني التكاملي، يقطع مع الدراسة العفوية والإيديولوجية للتراث، وما يتعلق بها من إسقاطات نابعة من الموروثات الدينية والثقافية البابلية واليهودية. في أفق بناء معرفة تكاملية تجديدية تستوعب آخر ما أنجزه العقل البشري من معرفة، وتستشرف عالمية الرحمة والهدى ودين الحق، التي تستقبلها الإنسانية. وبتلك "يكون لكل جيل الحق في أن يهتدي بما ورثه من آثار أسلافه، من غير أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة."<sup>(١)</sup>

ولا يكون هذا النقد البناء إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم؛ كتاب الهداية والعالمية والهيمنة على جميع العقائد والأفكار، لبناء المنهاج القادر على إعادة بناء الإنسانية من خلال المنهج والمعرفة، والإسهام في إحداث التغيير على مستوى العالم كله، واحتواء سائر تناقضات الإنتاج الثقافي التراثي والقضاء على سلبياتها، وتحويلها إلى عوامل تفاعل وبناء وتداخل وتجاوز لثنائيات الصراع والتقابل، إلى وحدة في تنوع وتعاون في اختلاف. وكل مقارنة لا تنحو هذا المنحى التكاملي تبقى محصورة في رؤية تجزئية قاصرة، وإن ادعت العلمية والموضوعية والكونية. ف"الرسالة التي نزلت على النبي ﷺ وهو بغار حراء من ربه بواسطة أمين الوحي جبريل، بعثت به إلى مكة ليعمل وليغير البشر والتاريخ. ولم تدعه تلك الرسالة متعلقاً بالحالة التي بدأ تلقيها لها وهو عليها، ولا هي علمته أن يتمنى تكرارها، ويسعى إلى تكرارها هي بذاتها، ولا أن يدعو أصحابه إلى الرغبة فيها لأنفسهم. على العكس من كل هذا، أمرته تلك الرسالة بوضوح بالغ، بأن يسعى إلى إعادة تشكيل عالم الزمان والمكان الواقعي على نحو يجعله محاكياً للنموذج الإلهي."<sup>(٢)</sup>

(١) إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٢) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ٧٩-٨٠.

في تراثنا الفلسفي والكلامي مفاهيم وإشكالات ومعارك لا جدوى من إحيائها ولا طائل من الاشتغال بها اليوم ولا تحتاجها الأمة في المستقبل؛ مثل مفاهيم: الجوهر والعرض والهيولى والعقول المترتبة والفيض... وقضايا خلق القرآن ومرتكب الكبيرة وتعدد الملل والنحل والكلام في الذات والصفات والعدل الإلهي... تأثراً مبكراً بالفلسفة اليونانية دون استحضار الفارق بين المجالين التداولين المنقول منه والمنقول إليه،<sup>(١)</sup> مع استثناء بعض علماء المسلمين الذين "كان عليهم أن يتجرأوا، فيناقضوا آراء المعلم الأول. ولقد حتمت عليهم كسر نير المشائية قوتان: قوة العلم التجريبي، وقوة علم الكلام اللاهوتي، فالأول أجبرهم على التسليم بوجوب التنازل عن العقل إذا هم أرادوا اتباع حس أرسطو، والثاني أكد لهم ثقتهم في قول أرسطو تناقض إيمانهم بكلام الله."<sup>(٢)</sup> هذا واقع بالفعل ولا تزال اليوم مساحات واسعة لم يطلها البحث تحتاج إلى نهضة علمية بنائية جديدة قادرة على استيعابها في إطار رؤية شاملة ونسقية تتجاوز نقائص الرؤى السابقة.

ومن مآسي التراث أن تحتزل "العلوم الشرعية" أو "العلوم النافعة" في "علوم النص" فقط، وتُطرد علوم النفس وعلوم الكون من بستان العلوم، وقد رُوِّج لهذه الفتوى بشكل منقطع النظير إلى درجة أنها لا تزال تملأ التآليف المدرسية إلى يومنا هذا، فيقع التمييز بين "علم نقلي" و"علم عقلي" وكأن النقل لا عقل فيه، وبين "علم شرعي" و"علم كوني" وكأن الشرع لا كون معه؛ الأول نافع، والثاني ضار، ومتى كان العلم يخلق الله ضاراً بالإنسان؟ أو كما يتساءل طه عبد الرحمن: "هل يُعقل أن يصير العلم الذي أثنى عليه الله تعالى في كتابه العزيز والذي أوصى به رسوله الكريم ضاراً للإنسانية؟"<sup>(٣)</sup>

(١) عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق.

(٢) دوهيم، بيار. مصادر الفلسفة العربية، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٨.

(٣) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص١٩٠.

وموازاة مع هذا التفريط تلقف الغرب العلم التجريبية والعقلية، وطورها وأفلح في كسبها وتوظيفها وفق خصوصياته الفلسفية والثقافية والحضارية، لقضاء مآربه وتحقيق مقاصده وبناء ذاته. وبقي المسلمون يتلفعون بتخلفهم وادعائهم، وهم ينوون بخطاب استضعافي لا ينفعهم، بل يضرهم. واليوم عاد المسلمون بذات منشطرة إلى ما أثلّه الغرب قديماً وحديثاً متوجسين خيفة لا يدرون ما يفعلون. أيتبعونه أم يعادونه؟

ففيما يخص التعامل مع إنتاجات المعرفة العلمية المعاصرة، يلاحظ شبه غياب للقدرة على التمييز بين الإنجاز العلمي الحضاري المشترك بين البشرية، وهو كثير ومتجدد باستمرار، والإملاءات الشعورية واللاشعورية والإحالات الفلسفية المادية التاوية خلفه، من أجل إعادة توظيفه ضمن نواظم منهجية ومعرفية تراعي خصوصيات المجال التداولي الأصلي، مع الحذر من الانخداع بالقول: بأن المعرفة لا دين فيها، أو أنها كسب بشري بريء.

من جهة الغرب تعثرت الموضوعية في التاريخ العلمي الغربي لما تجاهل أغلب مؤرخي العلوم أثر الإسهامات العلمية والفكرية للحضارة الإسلامية العربية في مختلف المجالات العلمية كالرياضيات والطب والكيمياء والفلك،<sup>(١)</sup> وثم القفز إلى التراث اليوناني والروماني مباشرة دون الاعتراف بإسهامات المسلمين، وكأنها لا توجد حضارة مغايرة للنمط والجغرافية الغربيين، وإذا ما اضطروا لذكر بعض الأعلام من العلماء والفلاسفة والمفكرين ذكروهم منفردين بوصفهم أمناء على إرث الأجداد الإغريق أو لأنهم أفراد عباقره بلا حضارة صنعتهم أو ساهموا في صنعها وتطويرها!

لا يخلو تراث المسلمين العلمي من شموسٍ مضيئة أسهمت بتفوقٍ ونجاح في بناء المعرفة العلمية ونقدها دون أن تتكبد المنهاج القرآني، فمن ينكر أن المسلمين هم من

---

(١) منتصر، عبد الحليم. كتاب تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة: دار المعارف، ط١، ١٩٧٣م، ص١٤١.

وضعوا أسس المنهج التجريبي في علوم كثيرة، منها الطب والفلك والكيمياء، ونُقل ذلك إلى غيرهم، فتطور واستعمل ضمن نظام معرفي مخالف،<sup>(١)</sup> وآن الأوان اليوم وغداً ليعاد النظر في أولوية المدخل المنهجي والمعرفي في إصلاح الفكر، وإصلاح الوضع في الأمة المسلمة ومنها في الإنسانية. وليكن الضابط والميزان الذي توزن به كل القضايا المعرفية هو ميزان العقل بالقراءة الجامعة، وليس الهوى والظن والتقليد. كما ساد قروناً من الزمن.<sup>(٢)</sup>

لما اشتد ساعد العقل الجديد في أوروبا، وانتشرت مبادئ البحث الحر، ازدادت ضراوة الكنيسة وسلطت محاكم التفتيش على الناس تحرق وتقتل، "خوفاً من أن يظهر العلم على الخرافة وتفقد الكنيسة سلطتها. لهذا بادرت الكنيسة فأعلنت في الناس وأفشت فيهم أن من أخذ بالعلم فقد خرج من الدين، ومن دخل الدين فلا بد أن يترك العلم، فترك الناس الدين من أجل العلم، بل كرهوا الأول أشد الكراهة، ونبذوه بعيداً عن مجالات البحث، بل عملوا على إلغائه وتعطيله وإرجاع كل شيء في الوجود إلى العلم والطبيعة. فصعدت الكنيسة من فرض تعاليمها على عقول الناس وأفكارهم فرضاً، ومنعتهم من مناقشتها، واعتبرت المناقش أو الشاك في أمرها كافراً وجبت عليه اللعنة الأبدية، وخرج من رضوان البابوية، وخرج - من ثم - من رضوان الله."<sup>(٣)</sup> وكان حكم الإعدام "بدون إراقة الدم" يعني التحريق.

---

(١) اعترف بذلك جورج سارتون في كتابه: "تاريخ العلم" وجوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" ودارير في كتابه "النزاع بين العلم والدين" وبريفولت في كتابه "الإنسانية". وغيرهم كثير، كلهم اعترفوا بأن المنهج التجريبي أخذ من المسلمين ونُقل إلى أوروبا، وهناك تم احتضانه وتطويره.

(٢) كانت الكنيسة تقاوم العلوم النظرية والتطبيقية التي كانت تأتي من البلاد الإسلامية، من صقلية والأندلس. فكان الطب العلمي يجارب لترتع الشعوذة، وبذلك عاشت أوروبا قروناً طويلة تحت كابوس الأوثنة والطاعون. كانت تعاويز القس تدر عليه أرباحاً، فلم يترك الطبيب ينافسه. وبث الرهبان في كتبهم أفكاراً خاطئة في مجالات متعددة من مجالات المعرفة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفلك ...

(٣) ديورانن، قصة الحضارة، مرجع سابق، ج ١٤، ص ٤٤٢٨.

وقد تعرض للاضطهاد كبار العلماء، أمثال عالم الطبيعة والفلك نيكولا كوبرنيك (١٤٧٣-١٥٤٣م) ويوهانس كبلر (١٥٧١-١٦٣٠م). واضطر غاليليو غاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢م) الذي أسهم بقوة في قطع الصلة مع الفكر القديم، أن "يقتنع" مؤقتاً أمام المحكمة بأن الأرض لا تدور، اتقاء ذلك البطش الفاتك باسم الدين. يقول محمد عابد الجابري في ذلك: "فلقد أكد بقوة مادية الأجرام السماوية التي كان العلم القديم يعتبرها كائنات لا مادية، عقولاً أو نفوساً ونظر إلى حركتها بوصفها لا تختلف في شيء عن الحركة التي تعترى الأجسام في الأرض، ففضى بذلك على التصور القديم الذي كان يقسم الكون إلى قسمين: الأول هو العالم العلوي السماوي، عالم الخلود والوجود الدائم والكمال، والثاني هو عالم الأرض عالم الكون والفساد."<sup>(١)</sup>

كان العداء سافراً للعلم والعلماء، وكان التعذيب الأسود للعلماء الذين يخالفون أهواء الحكام، أهم الأسباب التي فجرت في الطبقات المتعلمة كراهية الكنيسة وكراهية فهمها للدين. فظهرت حركات "إصلاحية نقدية"، اشتهرت بأسماء قياديينها أمثال: جون ويكليف ومارتن لوثر وجون هس وأراسيموس وأوليخ زونغلي وغيرهم،<sup>(٢)</sup> تدعو إلى نبذ الانحراف ورفض طغيان الكنيسة واستغلال النصوص الدينية لدعم السلطة الزمنية (الدولة)، وذلك ما أدى آخر الأمر إلى الحل المحتوم، وهو التصادم والانفصام بين العقل العلمي والخرافة الكنيسية، بين البحث الحر والتقليد السخيف لتأويلات ما في النصوص، بين الحياة العلمية الحرة والخضوع لنير الاستعباد والاستعلاء والاستكبار.

---

(١) الجابري، محمد عابد. مدخل إلى فلسفة العلوم (ج٢) المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط١، ١٩٧٦م، ص٢٦.

(٢) سودرن، ريتشارد. صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة وتقديم: رضوان السيد، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٦م، الفصل الثالث.





## الفصل الرابع:

### المشترك العمراني بين المسلمين والغرب

لا يمكن للإنسانية أن تشيد عافيتها وتعالج أدواءها الحضارية، كما لا يمكن للعلاقة بين المسلمين وغيرهم أن تكون راشدة، إلا ببناء عمران إنساني جديد، أو بعبارة أوضح تجديد مقومات العمران، ولا تجديد للعمران إلا بتجاوز سلبات السجال الحضاري الراهن، مثلما يقتضي تجاوز الانغلاق على الذات واتهام الآخر. كما يقتضي إصلاح تلك الرؤية الميكانيكية للكون. وكلما كان مستوى الوعي العمراني متقدماً لدى الإنسانية كان مستوى العطاء المعرفي والأخلاقي والسلوكي عالياً. ولعل فقه العمران هو الفقه الذي تحتاجه الإنسانية اليوم - وقد فرطت فيه منذ قرون من الزمن - لتشييد مشروع عمارة الأرض، وتأسيس نهضة عمرانية شاملة، يتعارف فيها الجميع ويتعايشون إخوة في الإنسانية. فما معنى العمران؟ وما الحاجة الداعية إلى إقامته؟ وما هي خصائصه المشتركة؟ وما مقاصده الكلية في القرآن الكريم؟

#### أولاً: العمران الإنساني: من دلالات العمران إلى علم العمران

وُجد الإنسان في الكون وجوداً غائباً وليس وجوداً عبثياً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وُجد من أجل غاية، هي أن يحمل رسالة. فهو مخلوق مُكَلَّفٌ مُبْتَلَىٌ بمنهج العمل "كَيْفَ تَعْمَلُونَ"، وراجع إلى ربه ليُجزى الجزاء الأوفى، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]، وُضعت بين يديه الإمكانيات، وسُخرت له الأسباب، وُبعثت من أجله الرُّسل تكريماً له وتكليفاً، ومُنح قدرات هائلة على التمييز والاعتبار والعمل، لقصدٍ كبير وهدفٍ عظيم، وهو إعمار الكون بالصالح بعد تحقيق التوحيد الذي يحرر الذوات من الأنانيات، والشهوانيات، والعبوديات للأشياء وللناس. من أجل ذلك توجه كل نبي إلى قومه، قصد إصلاح مجموع أوضاعهم حتى يتحقق العمران في الأرض وما يتعلق به من قيم الخير والحق والعدل والرحمة. وذلك هو معنى العمران في القرآن، وهو لا ينفصل عن معاني

الاستخلاف والائتمان والتسخير.

## ١ - العمران: من الدلالات اللغوية إلى الدلالة القرآنية:

### أ- الدلالة المعجمية:

تورد المعاجم العربية تعريفات مختلفة ومتعددة للعمران، نذكر منها ما ورد بخصوص مادة "عمر" في معجم "لسان العرب" لابن منظور، ففيه: "عَمَرَتِ الحَرَابَ أَعْمَرَهُ عِمَارَةً، فهو عَامِرٌ أَي مَعْمُورٌ... وَعَمَرَ الرجلُ مَالَهُ وَبَيْتَهُ يَعْمُرُهُ عِمَارَةً وَعُمُورًا وَعُمْرَانًا: لَزِمَهُ... ويقال: عَمَرَ فلانٌ يَعْمُرُ إِذَا كَبَرَ. ويقال لساكن الدار: عَامِرٌ، والجمع عُمَارٌ... والمَعْمُورُ: المَخْدُومُ... والعِمَارَةُ والعِمَارَةُ: التَّحِيَّةُ، وقيل في قول الأَعشى "ورفعنا العمارا"؛ أَي رفعنا له أَصواتنا بالدعاء وقلنا: عَمَّرَكَ اللهُ، وقيل: العَمَارُ ههنا الریحان یزین به مجلس الشراب، وتسمیه الفُرْسُ میوران، فإذا دخل علیهم داخل رفعوا شیئاً منه بأيديهم وحيوه به... والذي يرويه "ووضعنا العمارا" هو العِمَامَةُ... وقيل: العَمَارُ هنا أَكَالِيلُ الرَّيْحَانِ يجعلونها على رؤوسهم كما تفعل العجم... ورجل عَمَّارٌ: مُوقِفٌ مستور مأخوذ من العَمَر، وهو المنديل أو غيره، تَغَطَّى به الحرَّة رأسها... عَمَرَ رَبَّهُ عَبْدَهُ، وإِنَّه لَعَامِرٌ لِرَبِّهِ؛ أَي عابِدٌ... يقال: رجل عَمَّارٌ إِذَا كان كثير الصلاة كثير الصيام. ورجل عَمَّار، وهو الرجل القوي الإیمان الثابت في أمره التَّخِينُ الوَرَعُ: مأخوذ من العَمِير، وهو الثوب الصفيق النسج القوي الغزلِ الصبور على العمل،... وعَمَّارٌ المجتمعُ الأمرُ اللازمُ للجماعة الحَدْبُ على السلطان، مأخوذ من العِمَارَةِ، وهي العِمَامَةُ، وعَمَّارٌ مأخوذ من العَمَر، وهو البقاء، فيكون باقياً في إيمانه وطاعته وقائماً بالأمر والنهي إلى أن يموت. قال: وعَمَّارٌ الرجل يجمع أهل بيته وأصحابه على أدبِ رسول الله ﷺ، والقيام بسُنَّتِهِ، مأخوذ من العَمَرَات، وهي اللحمت التي تكون تحت اللَّحْي، وهي التَّغَانِغُ واللَّغَادِيدُ... العِمَارَةُ والعِمَارَةُ: أصغر من القبيلة، وقيل: هو الحَيُّ العَظِيم الذي يقوم بنفسه، ينفرد بِطَعْنِهَا وإقامتها وَنُجْعَتِهَا، وهي من الإنسان الصدر، سُمِّي الحَيُّ العَظِيم عِمَارَةً بعِمَارَةِ الصدر، وجمعها عِمَارٌ... والعِمَارَةُ القبيلة والعشيرة... دارٌ مَعْمُورَةٌ يسكنها الجن، وعَمَّارٌ البيوت:

سُكَّأُهَا من الجن... والعَمَرَانِ طرفا الكُمَّين،"<sup>(١)</sup> ويحمل الفعل عَمَرَ معنى: "بنى وسكن"،<sup>(٢)</sup> ودلالات أخرى تكاد لا تنتهي...

نلاحظ في الدلالات المعجمية اختلاطها وتعقدها وكثرتها، فللعمران في معجم لسان العرب وحده عشرات الدلالات تشمل معاني الحياة والتعمير والعمارة واللزوم والخدمة والتحية والدعاء والريحان والستر والعبادة وقوة الإيمان والنسج القوي ولزوم الجماعة والعمامة والبقاء وجمع الناس على الطاعة والقبيلة والعشيرة... مما يستدعي بالضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم، قصد تقويم هذه الدلالات اللغوية والاصطلاحية والتاريخية، وضبطها وتحريرها مما علق بها من دلالات طارئة أو مستوردة، يقول ابن منظور: "وقيل: العَمَارُ ههنا الريحان يزين به مجلس الشراب، وتسميه القُرْسُ مِئُورَان، فإذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بأيديهم وحيَّوه به،"<sup>(٣)</sup> فما وجه علاقة العمران بمجلس الشراب وتحية الناس؟

هذا المثال يدعوننا إلى الانتباه أثناء استعمال دلالات الألفاظ القرآنية، والحذر من تقليصها في الدلالة الاصطلاحية التاريخية، "فليس القرآن خاضعاً لتقنين المعرفة به، وقواعد فهمه من خارجه، ولو كان هذا الخارج هو الوسيط اللغوي الشائع الدلالات، بل يجب إخضاع ما هو خارج القرآن لما هو داخله... فاللغة القرآنية أكبر من قواعد اللغة، والمنهج القرآني أكبر من ضوابط المناهج الفلسفية الإنسانية"<sup>(٤)</sup> وليس العكس.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة: (ع م ر).

(٢) خالد، إسماعيل علي. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، بيروت: دار المتقين للثقافة والعلوم والطباعة والنشر، ط ١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص ٣٦٧.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة: (ع م ر).

(٤) حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، مرجع سابق، ص ٢١١.

## ب- دلالة "العمران" في القرآن:

وردت مادة "عَمَرَ" في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة، موزعة على ثلاث دلالات كبرى نذكرها كالآتي:

### - عمارة الأرض:

في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [الروم: ٩]. ويمكن تسمية هذا الركن من العمران بالعمران المكاني. إذ الأرض ببرها وبحرها وجوها هي الكوكب الذي سخره الله تعالى لإنجاز فعل العمران.

### - عمارة المسجد:

وهي عمارة تتعلق بالمسجد وبخدمته والعناية به والتخلق بأخلاق السجود لله؛ أخلاق الإيثار والإحسان، في قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ [التوبة: ١٧-١٩]، ومن العمران المسجدي اعتمار البيت الحرام وأداء نُسك العمرة الممتد خلال العام ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومن الاعتمار قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ [الطور: ١-٤]، المعمور بمعنى العامر. وهذا الركن من العمران يمكن تسميته بالعمران الروحي.

### - تعمير الحياة:

من معاني العمران ما يدل على الزمن وصورته؛ إذ كل عمران هو داخل الحيز الزمني، قال الراغب الأصفهاني: "العمارة نقيض الخراب... وأعمرتُهُ

الأرض واستعمرتُه: إذا فوضت إليه العمارة... والعمُرُ والعمُرُ: اسمٌ لمُدَّةِ عمارة  
البدن بالحياة، فهو دون البقاء... والتعميرُ: إعطاء العمُرُ بالفعل، أو بالقول على  
سبيل الدعاء... والمعمرُ المسكن ما دام عامراً بسكانه،<sup>(١)</sup> و"إعمار الأرض مرتبط  
ارتباطاً مباشراً بالحياة في هذه الأرض براً وبحراً وجواً، وحفظ حياة الأحياء في  
أوساط الحياة المختلفة، وتجنب إنهاء الحياة بالقتل وإفساد أسباب الحياة  
ووسائلها،"<sup>(٢)</sup> نجد هذا المعنى في كلمة العمُرُ الواردة في قَسَمَ اللهُ تعالى بحياة نبيه  
ﷺ: ﴿لَعَمْرِكُ إِنِّي لَمِنَ سَكْرَتِهِمْ يَمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا  
وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِن عَمْرِكُ سِينِ﴾ [الشعراء: ١٨]، لأن "الفرد الإنساني تبدأ حياته في  
بطن أمه، ثم يخرج إلى الحياة الدنيا، ثم ينتهي عمره فيأتي عليه الموت وتنتهي حياته  
الدنيا، فيكون في بطن الأرض، حتى تقوم القيامة فيقوم إلى الحياة الأبدية  
الأخرى،"<sup>(٣)</sup> وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ تُرَّ يُنْفَخُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ  
بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ  
حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾  
[يس: ٦٨]، فكلمة عُمُرُ تعني: مدة الحياة، وطول عُمُر الإنسان ليس دليلاً  
على رذالته بالضرورة، وبعض الأنبياء عمروا طويلاً مثل سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وسيدنا  
نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ناهيك عن كون الزمن ليس محط الذم في القرآن؛ إذ أقسم الله تعالى به  
في مواطن كثيرة مثل: والفجر، والليل، والعصر، والصبح، والضحى. أما اسم  
العَلَمُ "عمران"، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى  
الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، لعله يشير إلى التسمية التي تفيد بالتيمن: عُمراً  
طويلاً. ولا يحمل أية دلالة خاصة.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، كتاب: العين، ٥٨٦-٥٨٧.

(٢) ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥٩)،  
(١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ١٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

نستنتج مما سبق أن مصطلح "العمران" في القرآن الكريم مركبٌ جامعٌ بين ثلاث دلالات مترابطة وهي:

- دلالات العمران المادي المكاني: تعمير الأرض.

- ودلالات العمران الروحي والنفسي والقلبي: عمارة المسجد، والعمرة، والبيت المعمور.

- ودلالات العمران الزمني التاريخي: العُمَر.

وتفيد باختصار: العمران في الزمان والمكان والإنسان.

ومحور هذه الدلالات العمرانية في القرآن الكريم هو فاعلية الإنسان في الأرض، الإنسان في المسجد، الإنسان في الزمن: الأرض والمسجد والزمن، أو قل: التراب والروح والزمن. وهذه هي مقومات العمران الإنساني، وهي تراعي البعد الروحي الإيماني، والبعد المادي الأرضي، والبعد الزمني التاريخي، وهو ما أكده مالك بن نبي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "شروط النهضة"<sup>(١)</sup> إذ صور الحضارة على شكل معادلة تجمع بين ثلاثة عناصر: إنسان + تراب + وقت = حضارة. وإن كان الإنسان الذي يُقصد لبناء حضارة راشدة، إنما هو الإنسان الصالح المُصلح، القائم لله الشاهد بالقسط.

العمران - إذن - مرتبط باستخلاف الإنسان في الأرض وسعيه في منابها بـ "الإينشاء والبناء"<sup>(٢)</sup>، ولما كان الإنسان ذاته هو المقصود بهذا التكليف، وكانت الأرض التي يتحقق فيها العمران واحدة، فإن العمران الإنساني عمران كوني عالمي. وكونه مرتبطاً بالمسجد يجعله متصفاً بخاصية الغائية؛ أي قاصداً نحو غاية مسجدية روحية، وليس وجوداً عبثياً طارئاً، فهو عمران استخلافي عالمي غائي، يروم تعمير الأرض بما ينفع الإنسان، ويحقق مصالحه في العاجل والآجل.

(١) ابن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٦٩م، ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) خالد، إساعيل علي. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

## ٢- أركان المشترك العمراني في القرآن الكريم:

### أ- أركان العمران في القرآن:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، يتبين أن فعل العمران قائم بثلاثة أركان: المنشيء، والمستعمر، والمحل. فالله تعالى هو الذي أنشأ الإنسان "هُوَ أَنْشَأَكُمْ"، ولا دخل للإنسان في فعل الإنشاء، بل الله هو الذي خلقه، وهو سَوَّى الأرض قبل أن يسخرها لمآربه، ثم إن فعل النشأة الإنسانية وقع "مِنَ الْأَرْضِ" بأمر الله سبحانه، ولا إمكان للعمران إلا في الأرض، فهي مسرح الفعل ومكان الابتلاء. وبعد النشأة تم أمر الله باستعمار الإنسان في الأرض.

### - فعل الله المطلق:

العمران فعل الله تعالى في الكون، فهو صاحب الإرادة المطلقة في أن يستعمر الناس ويستخلفهم في الأرض، وجميع الناس خاضعون لربوبيته طوعاً وكرهاً. هو الفاعل لما يشاء كما يشاء، ولا مُعقِب لمشيئته وحُكمه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، و﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فُرْشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، و﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]، و﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، خلق وسخر وجعل؛ أي أن الخلق والتسخير والجعل أفعال إلهية سابقة على وقوع فعل العمران الإنساني ومُعِدَّة له ومستمرة معه. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ليس فقط جميع الناس في جميع الأزمان والأماكن، بل جميع الخلق أسلموا لله بخضوعهم للسنن الإلهية النازمة للوجود. وقال أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْفُجْدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وهذا سجود مشترك بين الخلق، حتى الذين أشركوا لا يجدون جواباً عن سؤال الخلق سوى قولهم: الله. قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ



مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ [العنكبوت: ٦١]. لكن تجاوز مجرد الاستماع والتصديق إلى مستوى الاتباع والعمل هو الذي يجعل "العمران حياة وفق هداية الله".<sup>(١)</sup>

### - فعل الإنسان المقيد:

الإنسان هو المستخلف من الله تعالى بإذن الله وليس باختياره هو، وهو المكلف بتحقيق فعل العمران حياة متجددة مشتركة بين الناس، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، قال الطبري في معنى العمارة في الآية: "وجعلكم عمَّاراً فيها"،<sup>(٢)</sup> حيث الإنسان إنشاءً طارئاً في الوجود بإرادة ربانية سابقة وبعناية إلهية مرافقة، وسعيه خاضع للسنن والقوانين الناظمة لمجريات الكون طوعاً وكرهاً. لتكون خلافته هي "قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض"،<sup>(٣)</sup> ولا يسع أحداً من الناس أن يتجاوز أقدار الله الكونية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَيَّنْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، واستخلافه هو إمداده بالقدرات الفكرية والعملية للعمل وفق تلك السنن والقوانين الكونية الكلية، وجعله مسؤولاً عن إقامة حياة عمرانية تنسجم مع قصد الله الكوني وقصد الله الشرعي؛ أي توافق النواميس الموضوعية من جهة، وتوافق الحقيقة القرآنية المنزلة وحيّاً من جهة ثانية.

لكن الاستخلاف الإلهي للإنسان ليس على درجة واحدة، وإنما هو درجتان، أو قل بتعبير أدق: دائرتان، تتضمن إحداهما الأخرى.

(١) ملكاوي، "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ج ١٥، ص ٣٦٨.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٩.

## الدائرة العامة:

ويمكن نعتها بالدائرة الكبرى، والتي ينتمي لها جميع الناس؛ وهي أمة الاستماع، وتعنى باستخلاف جميع البشر لهذه الأرض ﴿وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]، وهم يتمتعون بخيراتها مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم على حد السواء، حيث استخلف الله الإنسان منذ الخلق الأول وعرض عليه الأمانة التي عجزت عنها وأشفتت منها الخلائق الضخمة: السماوات والأرض، وهي مطيعة، فقبلها هو وحملها، وبذلك كان مستخلفاً ومستأماً ومسؤولاً.

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [فاطر: ٣٩] يتبين أن "التكليف العام للإنسان من حيث كونه إنساناً هو المضمون الذي يتضمنه معنى الخلافة حينها يطلق عاماً على جميع أفراد الإنسان، وسواء أكان الإنسان مطيعاً لله فيما أمر ونهى أو لم يكن... فهو خليفة باعتبار التكليف وما أعد به من قوى تنهض بذلك التكليف"<sup>(١)</sup> وقد "خاطب الله البشر جميعاً على لسان نبيه محمد ﷺ، ودعاهم إلى أخذ طريق الهداية النهائية"<sup>(٢)</sup> ليصلحوا أنفسهم، ويصلحوا أوضاعهم، ويتنفعوا بالكون المسخر لهم انتفاعاً عابراً معهم من الدنيا إلى الآخرة، جامعاً بين إسعاد الفرد وإسعاد الجماعة. قال الإمام الغزالي: "فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم"<sup>(٣)</sup>.

## دائرة خاصة:

وتُعنى باستخلاف خاص؛ لأمة الاتِّباع، وهو الذي أشار إليه الراغب الأصفهاني ووصفه بتشريف المستخلف، وهو تمكين مرتبط بحيثية الإيمان والعمل الصالح؛ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(١) النجار، عبد المجيد. مراجعات في الفكر الإسلامي، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٢٩٠.

(٢) نخبة من العلماء والباحثين، قاموس القرآن الكريم، الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط ١، (١٤١٦هـ/١٩٩٢م)، ص ٨٣.

(٣) الغزالي، المستصفى من علم الأصول، مرجع سابق، ص ٤٨٣.

وَلَيْمَكُنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ لَعَلَّ هُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾، وهي قضية استخلاف إيماني وإصلاحي وتمكيني وأخلاقي ورباني.

لائحُ أن من الناس من تحقق بشرط الاستخلاف الخاص وحمل الرسالة وبلغ الأمانة، ومنهم من نقص على عقبيه وخان الأمانة ونسي العهد واتبع السبل فتفرق به عن سبيله، فليس الناس على أتقى قلب رجل واحد، حيث منهم الصالح السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه والظالم لغيره؛ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ أَفَتَجْعَلُ الْمُتْسَلِّمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]. لذلك لا يقع الاستخلاف بمعناه الخاص إلا في حق أمة مخصوصة بأفضال تميزها عن غيرها، وهذا نفهمه من قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ حَتِيفًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧]، وقوله: ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، إنه استخلاف الأمة القطب التي تكون رحمة في العالمين ورحمة للعالمين، الأولى رحمة ذاتية تميزها عن غيرها، والثانية رحمة سارية في العالمين؛ وإن شئت قل: أمة الاتباع رحمة في أمة الاستماع ورحمة أُخرجت لها، قال الله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأمة الاتباع هي الأمة الوسط الشاهدة بخيريتها على العالمين، والمتسعة بمرجعيتها للناس أجمعين، لذلك حرص الرسول ﷺ على تربية هذه الأمة تربية القدوة للأمم ف"سنّ نظام المؤاخاة: فأخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الأنصار، وكانت المؤاخاة على الحق والمساواة،"<sup>(١)</sup> وكرّه للناس نظام العصبية والقبلية وأخلاق الجاهلية، ونقلهم منها إلى نظام الأمة والملة والأخوة المتسعة، وعدّ

(١) الجابري، فهم القرآن الحكيم؛ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، مرجع سابق، ق ٣، ص ٧.

العصبية جاهلية لما عيّر أحد الصحابة صحابياً آخر بسواد وجه أمّه قائلاً: "يا ابن السوداء" غضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورد عليه: "إنك امرؤ فيك جاهلية." (١)

تجعل الخلافة الإنسان في موقع النيابة عن الله عز وجل، لكن لا ينوب أحد بعينه عن الله عَزَّجَلَّ. فالله عَزَّجَلَّ وضع هذا الإنسان في موقع أعطاه فيه الحرية والاختيار وزوَّده باللوازم الضرورية للقيام بالمهمة، وجعله في الأرض، وسخر له كل ما سواه،<sup>(٢)</sup> ليبذل جهده في الاكتساب والتمكين. وهو مسؤول عن أداء هذا الواجب "أمانة الاستخلاف" تجاه نفسه وتجاه باقي المخلوقات المسخرة له ومن حوله من أنعام ونبات وجمادات. دون أن تكون الخلافة مقصودة لماديتها وأشائها مقطوعة عن غاية الغايات منها وروحها: حب الله ورضاه. فهما مطلبان متصلان لا يفترقان.

#### - استقبال الأرض لفعل العمران:

الأرض هي المحل الذي جعله الله قابلاً لفعل الاستعمار والاستخلاف. والتمكين فيها كائنٌ بقصد عمارتها واستغلال الكنوز والثروات المَجعولة فيها، وهذا مشترك بين جميع الناس الذين يعيشون على ظهرها. وعمران الأرض يتم بالمشي في مناكبها، والمكث المؤقت على ظهرها، والأكل من طيبات الرزق المسخرة فيها، واجتناب الخبائث المتلبسة بها، وتحمل المسؤوليات الفردية والجماعية على جميع الاختيارات المتعلقة بالكدح فيها، من خلال استثمار واستغلال المعاش التي جعل الله فيها، كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. ففيها من المعادن، والمكرمات، والثمرات ما يسعف الناس لإقامة الحياة الطيبة التي يعم خيرها العالمين، ويستمر مع الأجيال القادمة إلى يوم الدين.

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ج ١، ص ٢٠، رقم (٣٠).

(٢) البوشخي، الشاهد، مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم، سلسلة دراسات مصطلحية (٥)، فاس: مطبعة أنفو-برانت، ٢٠٠٩م، ص ٢٥.

الأرض مهد وفراش، ومناكب ومعايش، مُسخرة لاستقبال أمر الله بعمران الإنسان لها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ﴿٥٣﴾ [طه: ٥٣]، وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [الزخرف: ١٠]. وهذا التسخير الإلهي للكون يجعل الأرض ببرها وبحرها وسماؤها وشمسها وقمرها وما بث الله فيها من أشياء مهيأة لغاية عمرانية كبرى، يكون فيها الإنسان صانعاً للعمران، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٦٥﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، و﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٣]، ﴿وَالَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْتَلَفَ الْأَلْوَانُ فِيهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِبُ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]. فيترتب على تسخير الكون للإنسان، وهو في تمام الانسجام بين عناصره الأرضية والسماوية، وفي عظيم الانتظام في آيات الخلق والإحياء والإنزال والبث والتصرف، منفعة مشتركة بين الناس أجمعين، منفعة ممتدة مع الزمن المُكثي في الأرض. إلا أن هذه الآيات وما تحمله من دلالات، وعبر، وعلوم، وقواعد، وقيم لا يدركها إلا العقلاء الذين يجمعون بين التدبر والتفكر والتبصر.

نخلص مما سبق، أن فعل العمران في القرآن الكريم مركبٌ جامعٌ يستوعب أمر الله في كونه، وفعل الإنسان في سعيه على الأرض، وهو يتحمل مسؤوليته زمن وجوده فيها، سواء أكان فرداً أو جماعة، لذلك يحدثنا القرآن الكريم أحياناً عن

الإنسان: بالأفراد والأقوام والأحزاب والأمم، وهو صانع العمران، وأحياناً يحدثنا عن القرى، وهي مكان العمران، وأحياناً عن القرون وهي زمان العمران. ويقدم منهاجاً مشتركاً لجميع البشر في شتى أحوالهم وأزمانهم وحيثياتهم، فهو موجه للإنسان حيث كان هذا الإنسان، يشده إلى الأعلى، ليكون عارفاً بالله، صالحاً في الأرض، فاعلاً للخير، نافعاً للغير. يرفعه إلى القيم التوحيدية العالمية المستوعبة، ليتجاوز المشاريع المعرفية المادية والوضعية المتحيزة والعقلانية الضيقة، والعبثية اللاهية، ويثبت قدمه في الأرض عاملاً مبدعاً مسؤولاً عن عمله واختياره، ومُجازاً عن إنجازهِ في عاجله وآجله.

### ب- الحاجة إلى علم العمران الإنساني:

بناء على ما سبق، ظهرت الحاجة إلى دراسات تعنى بطبيعة الاجتماع الإنساني وغاياته، وطبائع علاقاته، ومقومات استمراره، ومعوقات صلاحه، وكيفيات علاج أزماته. ولعل من أبرز من تصدى للخوض في هذا الموضوع وتقعيده عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) في كتابه "المقدمة".<sup>(١)</sup>

### - علم العمران عند ابن خلدون:

صرح ابن خلدون في مقدمة كتابه باستقلال "علم العمران" عن غيره من العلوم وحاجة باقي العلوم إليه، وإن كان بينها بعض التداخل والتكامل، بقوله: "وكأن هذا علمٌ مستقل بنفسه. فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته وحادته بعد أخرى"<sup>(٢)</sup> مستحضراً سبقه إلى تحديد موضوع هذا العلم وجِدته وتميزه وغفلة الناس عنه قائلاً: "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة،

(١) وهو: مقدمة كتابه الموسوم بـ"العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر".

(٢) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦.

أعثرَ عليه البحث وأدّى إليه الغوص... وكأنه علم مستنبط النشأة. ولعمري لم أفق على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟" (١) "منهاً إلى أهميته وقيمته وتفردته بموضوعه الخاص "وهو بذلك يكون قد غرس بذرة جديدة في حقل الدراسات الذي ظل إلى غاية عهده يربط التمدن بمجالات الاشتغال في الخطابة أو السياسة." (٢)

لذلك كان ابن خلدون على وعي بسبقه في وضع اللبنة الأولى لعلم العمران الإنساني، وهو علم قائم بذاته موضوعاً ومنهجاً؛ إذ قام بتمييزه عن غيره من الاهتمامات أو الفروع العلمية والمعرفية "خصوصاً بالنسبة لعصر كان الناس فيه يعتقدون أن العلوم قد اكتملت، وأن القدماء لم يتركوا للمتأخرين ما يضيفونه إلى ميدان العلم والمعرفة. ولكن ابن خلدون الواثق من نفسه، المطلع على مختلف علوم عصره، لم يتردد لحظة في الإعلان عن اكتشافه علماً جديداً، ألهمه الله إياه إلهاماً، وأن هذا الاكتشاف جدير بكل اعتبار، فهو لم يقلد فيه لا "المعلم الأول" ولا "حكيم الفرس"، ولا "أياً من علماء الإسلام"، (٣) هذا قبل ظهور التخصصات العلمية وقبل استقلال العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية عن الفلسفة؛ إذ يقول: "ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً؛ وأعثرنا على علم جعلنا سنَّ بكره وجُهينةَ خبره"، (٤) ولعل هذا ما أكدّه أرنولد توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥م) بقوله: "قد تصور وأنشأ في عمله في كتاب المقدمة فلسفة للتاريخ هي دون شك أعظم عمل من نوعه، تمكن أي عقل إنجازه في أي زمان وأي مكان." (٥)

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) بنمخوف، علي. "التمدن والحضارة"، ضمن كتاب: صراع الحضارات أم حوارها، إشراف: سليمان بشير ديان، البيضاء: مطابع النجاح الجديدة، ٢٠١٠م، ص ١٨.

(٣) الجابري، محمد عابد. العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط ٤، ١٩٨٤م، ص ١٤٩.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٩-٦٢.

(5) Toynbee, Arnold. *A Study of History: The Growths of Civilizations*, New York: Oxford University Press, 1962, Vol.3, p. 328.

أما موضوع هذا العلم فهو الدراسة العلمية لطبائع الاجتماع البشري، يقول ابن خلدون: "ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية، يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتُدفع بها الأوهام وتُرفع الشكوك،"<sup>(١)</sup> ولم يتوقف ابن خلدون عند التنبيه إلى ضرورة علم العمران أو فقط عند وضع معالم الاشتغال به، بل وضع الأسس الكبرى - في نظره - ودعا من يأتي بعده لإتمام المسير العلمي في هذا التخصص "فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضوع العلم،" ثم انصرف إلى دراسة المجتمع، وركز بشكل خاص على مجتمع البدو بوصفه يتميز بمظاهر: عدم الاستقرار، والعصبية، والنمط الزراعي، والتناسك الاجتماعي بين أفرادها، أكثر من هذا حاول أن "يحلل الضرورة الاجتماعية ويكشف عن الدعائم التي تقوم عليها."<sup>(٢)</sup>

وموضوع العمران متداخل من حيث الاصطلاح مع موضوع الحضارة،<sup>(٣)</sup> هذه الأخيرة عُرِّفت تعريفات كثيرة، نأخذ منها تعريفاً جامعاً ومختصراً لفيلسوف الحضارة ألبرت شفييتسر<sup>(٤)</sup> يقول فيه: "الحضارة بصفة عامة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجمهير على السواء؛"<sup>(٥)</sup> أي أنها فعالية بشرية تجمع في التقدم بين الجانبين الروحي والمادي للأفراد والجماعات، في اتجاه تحسين حياة الإنسان بصورة متوازنة لا يغلب فيها جانب على جانب، بل يؤدي الدلالة الجامعة لمعنى الوجود الإنساني في الأرض واستخلافه فيها، ف"العمران والحضارة مشروع إلهي ما خلقتنا إلا من أجله، وأنه يمثل العبادة الإنسانية بأجل معانيها، فالعمران هو مقصود العبادة

(١) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٢.

(٢) الحسن، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٣.

(٣) عويس، عبد الحلیم. "الحضارة قبل أن تولد"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٨)، العدد (٣٢)، (شوال- ذو القعدة - ذو الحجة - ١٤٠٢ هـ)، ص ٥-٢٣.

(٤) فيلسوف ألماني (١٨٧٥-١٩٦٥ م)، وهو طبيب، وموسيقي، مُنح جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٥٢ م.

(٥) أشفييتسر، ألبرت. فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الأندلس، ط ٣، ١٩٨٠ م، ص ٣٤.



الحقيقية؛"<sup>(١)</sup> أي إن "العمران هو نصيب الكون المسخر و غاية الاستخلاف، والمقصد الأسنى منه ومن التسخير، وبه يسير الكون والإنسان والحياة -كلها- والأحياء -أجمعون- في قافلة تسييح موحدة للواحد الأحد: ﴿نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّعَى وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِجُّ بِحِجْرِهِ وَلَكِنْ لَّا نَفْقَهُونَ نَسِيجَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]."<sup>(٢)</sup>

والمشترك الديني بين الإنسانية -كما أوضحنا سابقاً- يؤكد على حتمية الاجتماع البشري وعلى قيمة الجماعة الإنسانية، والروابط الروحية والعاطفية والاجتماعية والاقتصادية التي تؤلف بين الأفراد، وتربط بين الجماعات على جميع المستويات وفي مختلف النطاقات.

يقيم فعل العمران بين الإنسان والأرض علاقة خاصة لا توجد إلا بين هذين المخلوقين، فالأرض أمُّ البشر منها خرج، وفيها درأ، وفي مناكبها يمشي، وفيها يموت، ومن طبيباتها يقات، والإنسان هو المخلوق المكلف بإحسان السعي فيها، والتعاون لإصلاحها ما استطاع، "وقد أعطى الله الإنسان من الطاقات والاستعدادات والإمكانات ما يتناسب مع ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات؛ فهناك تناسق بين القوانين الإلهية التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله، والقوانين التي تحكم الإنسان، وما حباه الله به من قوى وطاقات، حتى لا يقع التصادم بين هذه القوانين وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون،"<sup>(٣)</sup> وحيث لا سعي للإنسان إلا في عالم الأشياء "وإلا لم يكمل وجودهم، وما أَرَادَهُ اللهُ مِنْ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ،"<sup>(٤)</sup> فإن فعل العمران يقع على مكونين اثنين هما: تزكية الإنسان، وتعمير الأرض.

(١) العلواني، طه جابر. أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، القاهرة: دار السلام، ط ١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ١٢٨.

(٢) العلواني، طه جابر. ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٤٤.

(٣) زقزوق، محمود حمدي. "الحضارة فريضة إسلامية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٦٣)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ٣٧.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٨-٦٩.

## - تزكية الإنسان مقدمة على إعمار الأوطان:

لا شك أن الإنسان هو ذرة الوجود ومحور الابتلاء ومادة الإصلاح وموضوعه، وما عداه مُسخر لخدمته وفق سُنن ثابتة. وفعل العمران مشترك بين جميع الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم وأعراقهم وألوانهم وثقافتهم. فالإنسان بإنسانيته مستخلف ومسؤول عن فعله وتركه، فرداً وجماعة وأمة، وإن خلقت الأرض قبل تكليفه فما فيها مخلوق مُسخر له ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٩]. لذلك توجه إليه الخطاب القرآني، ليعي وظيفته، ولينجز فعل عمرانه واقعاً متحققاً على الأرض، لكن هل يتصور إنجاز العمران الصالح دون إعداد الإنسان الصالح؟ أو بعبارة أخرى: هل يتحقق العمران بالصدفة والعبثية والإفساد؟ أم بالإعداد الناجح والعمل الصالح؟

يحيينا القرآن الكريم ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠]، مما يطبع العمران بطبيعة السعي عند الإنسان، إن كان سعيه خيراً فالعمران راشد، وإن كان سعيه شراً فالعمران فاسد، أو قل خراب. وشتان بين عمران الرشاد وخراب الفساد. والقرآن الكريم يخاطب الإنسان ويحرضه، ليكون صالحاً حتى يكون العمران راشداً.

إذا أكد ابن خلدون ضرورة "الاجتماع الإنساني الذي هو عُمران العالم" (١) وكان "خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وابتلاؤه بالتكليف، وترتيب الثواب والعقاب عليه - وخصوصاً الثواب للمؤمنين الصالحين - هو الغاية من خلق العالم كله: علويه وسفليه، أو بتعبير القرآن: سماواته وأرضه،" (٢) فإن عمران الإنسان ذاته أو قل: العمران الذي ينصب على إعداد الفرد إعداداً ذاتياً نفسياً وعقلياً وقلبياً وعاطفياً؛ أي

(١) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) القرضاوي، يوسف. قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، القاهرة والمنصورة: دار الصحوة ودار الوفاء، ٢ ط، (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م)، ص ١٧.

العمران الكيفي،<sup>(١)</sup> هو الشطر الأعظم في هذا العمران؛ لأنه يقوم على تحريك إرادة الناس وتصحيح بواعثهم وتوجيه سلوكهم وتنوير عقولهم، من أجل العمل والإنجاز والإنتاج نحو غايات سامية ووفق ضوابط محددة. وتحريك الإرادات يسبقه تحريرها وبنائها بناءً ذاتياً تتغير معه الأنفس، وتتطهر الأرواح، لتقبل على الفعل الإنجازي الأنفسي والآفاقي إقبالاً توطئياً قاصداً وفعالاً، يستحضر مهمة الاستخلاف وأمانة التكليف، ومقصد التوحيد؛ يبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، عملاً بسنة الله الكبرى وقانونه الخالد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وبهذا الصدد يقول علال الفاسي: "القصود العام من نزول القرآن هداية الخلق وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض،"<sup>(٢)</sup> فيكون القصد هو هذا المجموع من الهداية والإصلاح والعمارة.

تغيير الأنفس شرطاً في تغيير الأوضاع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية وغيرها، لذلك توجهت النبوات إلى ترسيخ الآيات في الأنفس، كي تتحقق تزكيتها قبل ترسيخها في الواقع الخارجي تواشجاً مع الآيات المنتظمة في الكون، فإذا بالعمران ينقذ من داخل الإنسان، نوراً على نور، لبني واقعاً يليق بكرامة الخلق المكلف وتكريمه واستخلافه الرباني. يقول مالك بن نبي وهو يتحدث عن مفهوم الاقتصاد: "الاقتصاد ليس قضية إنشاء بنك وتشديد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان، وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات."<sup>(٣)</sup>

جوهر العمران الكيفي "وهو الجانب المعنوي من الحضارة البشرية،"<sup>(٤)</sup> إذن هو الإعداد الذاتي للفرد قبل المجتمع، وانخراط الإنسان في موكب الساجدين لله المسبحين له من كائنات طائفة ساجدة حامدة مما نعلم ومما لا نعلم، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ

(١) ابن نبي، مالك. المسلم في عالم الاقتصاد، بيروت: دار الشروق، (د. ت.)، ص ٧٠.

(٢) الفاسي، علال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦١م)، ص ٨٤.

(٣) ابن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٤) ملكاوي، "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، مرجع سابق، ص ١٢.

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَيَطَّلِنَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ [الرعد: ١٥]، و﴿ وَيَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾ [النحل: ٤٩]، و﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿١٨﴾ [الحج: ١٨]، ذلك أن "أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء الإنسان الصالح الجدير بأن يكون خليفة الله في الأرض، والذي كرمه الله أفضل تكريم، وخلقته في أحسن تقويم، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، فهو إنسان اكتملت فيه خصائص الإنسانية، وارتفع عن حضيض الحيوانية البهيمية أو السبعية، وهذا الإنسان الصالح هو أساس الأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة"<sup>(١)</sup> والإنسانية الصالحة.

لقد تكرم الله الكريم على الإنسان بتكريبات كثيرة، بدءاً من التكريم الخَلْقِي حيث جعل نسله من بني آدم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكثير من الخلائق لم تظفر بهذا التكريم، وخلقته في أحسن تقويم وسخر له ما في السماء وما في الأرض وما بينهما من أرزاق وطيبات، وميزه بالعقل ليدرك وجوده ويستشعر واجبه ويحمل الأمانة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]. فبنو آدم هم المستخلفون في الأرض بين جميع الكائنات الأخرى، وبهذا التكريم فاجأ الله ملائكته فتعجبوا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]. والخلافة في الأرض؛ لتعميرها، مقرونة بالعبادة لعمرائها، والعمران يكون بتزكية الإنسان تزكية متوازنة وعميقة، وتأهيله تأهيلاً علمياً وعملياً. ليقيم العدل والخير والحق.

نظراً لمركزية العامل الذاتي في معادلة العمران، عُدد بمنزلة الشرط للمشروط، من حيث لا يصح المشروط إلا بشرطه، لذلك ركزت جميع الرسائل الإلهية على "مقصد هداية الخلق إلى الله خالقهم وهدايتهم إلى عبادته والارتباط به، باعتبار ذلك حقاً لله

(١) القرضاوي، مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٩.

على عباده، وهو أيضاً مصدر لرفعتهم وسعادتهم وطمأنينتهم واستقامتهم. لذلك وجدنا جميع الأنبياء والمرسلين مأمورين بهذه الوظيفة، منادين بها وداعين إليها أول ما يدعون،<sup>(١)</sup> ومن ثمّ فالعمران "الكيفي" مُقدم على العمران "الكمي" وشرط له، وإن كان بينهما علاقة تكامل وتداخل؛ إذ إن صلاح الإنسان وتزكيته سابق ومُرافق لإصلاح الأشياء وتنميتها وحسن تسخيرها، وإلا لا صلاح ولا إصلاح يرجى دون هداية للذوات وتزكية للنفوس وتطهير للقلوب، لذلك كانت وصية سيدنا موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ هَدُرْتُ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] هي الإصلاح والحذر من اتباع خطط المفسدين وحيل المدهنين.

صلاح الإنسان، إذن، مرتبط بصلاح فهمه وتفكيره ومعرفته وسلوكه، فإذا صلح فكره ورشد وعيه تحسن سلوكه وتصوره للعالم وتحسنت علاقاته بغيره من الناس، بل تتحسن علاقاته بالأشياء المبتوتة في الكون المسخر له. فيتحقق بالتبع لصلاحه صلاح العمران، وسيادة القيم الإنسانية النبيلة، وتتقلص قيم الخسران والضلال. وإصلاح فكر الإنسان يجعله مالكاً للقدرة والجرأة على اقتحام العقبات النفسية والاجتماعية والبيئية، لإنشاء عمران الإنسان في الأرض وإسعاد الإنسانية بما يرضي الله تعالى، ويوافق إرادته التكوينية. كما أن فساد الفكر وانتكاس الوعي وتقلص الإرادة سببٌ لعمى البصيرة وشرط حتمي لوقوع الفتن والظلم والسقوط في "خراب العمران" حسب تعبير ابن خلدون.

وإذا وقع أن غفل الناس عن عمران أنفسهم وعقولهم فكانت خراباً بالأنانية والجهل والشح والكراهية والحقد والعصبية والاستبداد والأشر والبطر والهوى والجاه والنصرة الجاهلية وغيرها من الأمراض، فإنهم يتحولون من غير وعي إلى قطاع طرق، يمنعون

(١) الريسوني، أحمد. الفكر المقاصدي؛ قواعده وفوائده، الرباط: منشورات جريدة الزمن، رقم (٩) سلسلة كتاب الجيب، ١٩٩٩م، ص ١٧-١٨.

الخير عن أنفسهم وعن الإنسانية المتعطشة إليه، ويعطلون الإصلاح للأشياء المحتاجة إليه، فيظلمون أنفسهم ويعتدون على غيرهم. فهم يفسدون من حيث يزعمون الإصلاح. لذلك يُعول في بناء المشترك العمراني في هذا المستوى على العامل الذاتي؛ أي على الإرادة الطيبة الصادقة، يقول إيمانويل كانت بهذا الصدد: "ليس ثمة ما يمكن اعتباره خيراً دون تحفظ، إن لم يكن الإراد الخيرة. فالذكاء وهبة إدراك التشابه بين الأشياء، وملكة تمييز الخاص للحكم عليه، ومواهب الذهن الأخرى، أيّاً كان الاسم الذي ندل به عليها، أو أيضاً الشجاعة والحسم، والثبات على المقاصد، ككيفيات للمزاج، هي دون شك، من وجهات نظر عديدة، أشياء خيرة مرغوبة. ولكن هبات الطبيعة هذه قد تغدو أيضاً فاسدة سيئة للغاية، إذا كانت الإرادة التي تلزم أن نستخدمها، والتي نطلق على استعداداتها الخُلُق، إذا كانت هذه الإرادة غير خيرة بالمرة." (١)

إن أعتى موانع تحقيق عمران الإنسان في العالم تلك الأزمة التي يعاني منها الفكر الإنساني، والمتمثلة في الغفلة عن الله وعن سننه الكونية وعن أمره ونهيه في كتابه المجيد المكنون، أو قل باختصار: الغفلة عن المنهاج القرآني النبوي الذي يضع الإنسان أمام واجبه العمراني، فيفهم المكلف وظيفته ويدرك واقعه، ويسعى بالجهد الشامل والاجتهاد الجماعي لإصلاح وضعه وإعمار أرضه وتحقيق الحياة الطيبة. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]؛ إذ الإنسان المستخلف ليس "راهباً في دير، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة، يعطيها كما يأخذ منها، ويعد عمارتها هدفاً من أهداف خلق الإنسان واستخلافه في الأرض،" (٢) على خلاف الإنسان "الذي دسّ نفسه، وأهمل نفسه فهو لغيرها أكثر إهمالاً، ومثله لا يؤتمن على نفسه، فأنى له أن يؤتمن على الكون، أو يؤتمن على الأرض، أو يحقق العمران فيها؟! (٣)

(١) كانط، إيمانويل. أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٦٥م، ص ٢٢.

(٢) القرضاوي، مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٣) العلواني، أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، مرجع سابق، ص ١٢٧.

إن إصلاح النفس البشرية بتزكيتها متوازنة شاملة حتى يصير الأفراد ربانيين ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ﴾ [آل عمران: 79]، فالتزكية هي "الركن الأهم في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع الاستخلاف، بما تمثله من منهج إسلامي فريد في ترقية الإنسان في علاقته بربه وبنفسه، وبأخيه الإنسان، وبالعالم الأشياء من حوله"،<sup>(١)</sup> فهي منطلق الإصلاح في الأرض وأساس تجديد العمران القرآني الراشد، "وإذا تبدلت الأحوال جملةً فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد، ونشأةً مستأنفةً وعالمٌ مُحدَث".<sup>(٢)</sup>

بالتزكية تكون القراءة باسم الله مفتاح الفكر والفعل، ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، نموذجاً وشعاراً وحالاً لكل فعلٍ في الحياة، نستقبل جميع الأفعال باسم الله، فنصلي باسم الله، ونتعلم باسم الله، ونأكل باسم الله، ونشرب باسم الله، ونمشي في الأرض باسم الله، ونعمل باسم الله، ونستيقظ بالله، ونجتمع على الله، وتوكل عليه، ونتحاب فيه، ونجاهد في سبيله، ونطلب العلم ابتغاء وجهه، وندخل إلى المسجد باسم الله، وكذلك البيت والسوق والمصنع ومعاهد البحث والعلم والاقتصاد والعالم...

نقرأ آيات القرآن الكريم تدبراً باسم الله الرحمن الرحيم، ونقرأ آيات الكون تفكيراً باسم الله العليم الحكيم، حتى يتحقق الاعتبار والفهم عن الله واستيعاب مراده للإنسان، الفهم الذي يتجسد سلوكاً رشيداً مسدداً مؤيداً؛ إذ هناك رابط متين بين الفهم الراشد والسلوك القويم، ولا ينفع الفهم المنقطع عن الله الخالي من الاعتبار وإن أجدى أثراً مادياً مُردياً ﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]. فثمة علاقة سببية بين الإرادة النفسية والإمكان الحضاري؛ إذ الإرادة هي التي تحمل الذات على النهوض بواجب العمران. "الحضارة هي هذه الإرادة وهذا الإمكان"<sup>(٣)</sup> أي إن

(١) الخطيب، محمد. قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة، سلسلة كتاب الأمة رقم (١٣٩)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٤.

(٣) ابن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٨٢.

صلاح العمران لا يتم إلا بالجمع الدقيق والوثيق بين المكوّنين، وعدم الاقتصار على أحدهما دون الآخر. لأن الاقتصار على أحدهما يجعل الإنسان إما عاجزاً ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ [النحل: ٧٦]. والإنسان العاجز يستهلك ولا يُنتج، يأخذ ولا يُعطي، يتبع ولا يُتبع، يُقلد ولا يُبدع، ينفعل ولا يفعل. وإما مُفسداً عابثاً، مغروراً بقدرته ومفتوناً بالإنجازات التي حققها، والتي فاقت ما كانت تتخيله الأجيال السابقة مستحيلاً. يعبد الآلة ويهتبل بالتقنية؛ ميتافيزيقا العصر بتعبير مارتن هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦م). فيفسد في الأرض من حيث يظن أنه قادر عليها. لهذا نجد العمران الكمي وفق التصور المادي يقوم على وظيفة التعمير والترفيه والتزيين والاستهلاك، "فالإنسان الاستهلاكي اليوم رضيع لا يكف عن الصياح في طلب زجاجة الرضاعة، نزوع للاستهلاك"،<sup>(١)</sup> ويختزل رسالة العمران في البعد المادي الفردي فقط والقيم التي ترتبط به، عملاً بشعار: "اقتنص أكثر مُتعة في أقل مُدة"، حيث الدنيا متاع في متاع، بلا ضوابط ولا مقاصد ولا غايات.

وقد نقل لنا القرآن الكريم الدعوى الظنية لهؤلاء "الدهريين" -بتعبير جمال الدين الأفغاني- في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَمْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣]. إن الله عَزَّجَلَّ أعلم بما خلق، وإنه سبحانه أشار إلى أصل البلاء ومبائة الداء وعُش الآفة: ألا وهي النفس وسلطانها المانع العبد عن الهدى، الصارف له عن الهداية ودين الحق، التائه به في الشهوات والشبهات والأنانيات، ومن استيلاء سلطان النفس يتولد الأشر والبطر، وينشأ التكاثر والتناجس وهي الزيادة في الدنيا، ويكون التحاسد والتباغض والبغي.

(١) فروم، بين الجوهر والمظهر، مرجع سابق، ص ٤٧.



## - عمارة المسجد نواة العمران:

ليس المسجد بناية في ذاتها، وإنما هو روح تسري في الإنسان، وإلا ماذا يغني المبنى إذا كان المعنى ضراراً؟ المسجد أرض فسيحة طاهرة بطهارة الإنسان حساً ومعنى، كما ليست الصلاة حركات وهمهمات موقوتة، وإنما روحها اتصالٌ بالله وتطهير للذات وانتهاء عن الفحشاء والمنكر. القصد من بناية المسجد هداية الناس، وإصلاح أحوالهم، وتربية الأفراد على القيم الأخلاقية، فالصلاح لا يتحقق بالصلاة وحدها، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ففاعل الخير ممتد من الركوع والسجود لله وحده إلى كل أنواع الخير في جميع مجالات السعي عند الإنسان، لذلك يحتاج العمران إلى تأسيس روحي، حتى تسري الروح المسجدية في العالم، قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْمَطْهَرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وإذا تعطلت الطهارة القلبية فلا جدوى من المسجد بناية وزخرفة ولا من صلاة قياماً وقعوداً، والأولى أن ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

بنايات المساجد ووظائفها ليست لذاتها، وإنما جعلت مرتكزات حضارية وظيفية تنهياً فيها الأنفس للإصلاح وتشكل حولها ملامح العمران، فهي مجامع لتعميم الخير وبناء الإنسان الصالح، يقول ابن تيمية: "مجامع الأمة هي المساجد،"<sup>(١)</sup> والمساجد هي جميع الأماكن التي يتحقق فيها السجود، فهي كل أرض، وكل مؤسسة تعمرها روح المسجد وروحانية التوحيد. بدءاً من الأسرة التي هي مسجد صغير، إلى العالم مسجد العالمين. والغاية من العمران الإنساني في الأرض، هي بث روح المسجد في الواقع، ما دام الواقع مسخراً للإنسان، وصلاح الإنسان يبدأ من صلاح ذاته، وصلاح ذاته

(١) ابن تيمية الحرائي، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٣٥، ص ٩٥.

ينطلق من المسجد؛ لأن روح المسجد تؤهل الإنسان، ليكون عبداً لله وحده، صالحاً في ذاته وفي علاقته بغيره، ومُصلحاً في عمله بحسب مستطاعه: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ومتحرراً من عبادة الأهلواء والأشياء، وذلك لأن عمارة المسجد تصنع الإنسان الصالح، والإنسان الصالح هو الذي يُشيد العمران الراشد.

وظيفة المساجد هي تأهيل الإنسان تأهيلاً شاملاً لحمل أمانة العمران، والقيام بالقسط والشهادة لله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي آيات كثيرة قرنت الصلاة بالقسط وبالشورى وبالجهاد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. حتى لا يُختزل الدين في منهج الدروشة والانزواء والزهادة الفردية.

السجود فعلٌ مشترك بين الشرائع الدينية، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَنِ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِأُمُورٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]، وهذه كلها مشتركات تجتمع عليها جميع الملل.

أما الذين يتملصون من فعل السجود فهم يعبرون عن تشبعهم بقيم الإنكار والتعنت والإعراض، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، فلا طائل من تجمع بشري تحركه إرادة الاستكبار والطغيان، والسيطرة والترف والفسوق. ولا أضرَّ على العمران من خُلوه من البواعث الطيبة والضوابط المقتنة والحكم العقلية؛ إذ يقع في آفات التسيب والجشع والعبثية، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وفي مقابل ذلك، فإن السعي في خراب المساجد ومنع عمارتها، وتجفيف روحها جريمة في حق الإنسانية من حيث ما تسببه من حرمان لها من قيام العمران الصالح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَادَتِ صَوَائِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. والهدم هنا هو تقليص أو تعطيل أو تحريف لوظيفتها القرآنية النبوية الرسالية.

### - عمارة الأرض شطر العمران:

يقول ابن فارس عن العمران: "من الباب عمارة الأرض، يقال عمَرَ الناس الأرضَ عمارةً، وهم يَعْمُرُونَهَا، وهي عامرة معمورة. وقولهم: عامرة، محمولٌ على عمَرتِ الأرض، والمعمورة من عُمرت. والاسم والمصدر العُمْران: واستَعمر الله تعالى الناسَ في الأرض ليعمروها. والباب كلُّهُ يؤول إلى هذا،"<sup>(١)</sup> فالأرض بيت الإنسان؛ أي إن العمران الكمي أو العمران المادي، هو الشطر الثاني لفعل العمران، وهو مجموع الوسائل الضرورية والممكنة لقيام الإنسان المستخلف بمهمة العمران؛ أي مجموع العناصر التي تكون مادة العمران من أرضٍ وثروات وتقنيات وآليات وأجهزة ونُظم خبيرة وتدبير وتنظيم وتسيير للأشياء، أما روحه فإنسانية الإنسان التي تتربى وتنمو بروحانية مسجدية، وأما غايته فسعادة الإنسان.

يعرف فتحي ملكاوي العمران المادي بقوله: "هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تراكم الخبرة والتجربة، مع مرور الوقت وتطور معرفة الإنسان واكتشافه السنن والقوانين التي تحكم الأشياء والظواهر، وملاحظة اضطرابها، واستشراف وقوع الأحداث والظواهر وتوقعها، ومن ثم استغلال ما تتيحه من فرص، وتجنب ما تُمثله من تحديات، وبذلك تزدهر العلوم وتتطور تطبيقاتها، ويتحقق للإنسان بذلك التمكين في الأرض وتسخيرها،"<sup>(٢)</sup> فلا يستغني

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، مادة: (ع م ر).

(٢) ملكاوي، منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، مرجع سابق، ص ١٣٩.

الإنسان عن الأرض كما لا تستغني الروح عن المادة؛ إذ "ما يهيم الإنسان في الماضي البعيد وقبل نشوء المجتمعات الثابتة هو ما يتعلق بحاجته اليومية؛ الماء والغذاء والمأوى، وما يرتبط بهذه الحاجات، فخلال حقبة زمنية ربما استمرت آلاف السنين اكتشف الإنسان بالتجربة، وفي أحيان كثيرة بالتجربة المهلكة، بعض القوانين الطبيعية وتعرف على عدد من الظواهر، وتعلم كيف يتعايش مع الطبيعة." (١)

الهدف من عمران الكم هو تحقيق الرخاء للإنسانية وضمان حاجاتها، حتى تتقاسم خيرات الأرض بالعدل والإنصاف، وتكون لقمة العيش حقاً لكل فرد من الناس في شمال الأرض وجنوبها، في شرقها وغربها. للجيل الحالي والأجيال القادمة، عدالة عابرة للأجيال. وليست ملكاً لفئة أو جيل أو ثقافةٍ مهما ادعت لنفسها التفوق والاستحقاق، فـ"إذا كان العدل الاجتماعي مقصد الشريعة الأسمى، وطلبة كل المستضعفين، فإنه لا يتم إلا بالقسمة الرشيدة للثروات بين العباد." (٢)

في القرآن الكريم يحضر الإنسان دوماً مع الأرض، وقصته من قصتها، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، فهو نظر "ملكوتي" وليس مجرد نظر "ملكي"، فالأول هو "النظر في الأشياء بوصفها آيات"؛ أي أنه نظر تدبري موصول بالقيم، والثاني هو "النظر في الأشياء بوصفها ظواهر"؛ أي أنه نظر تدبري مفصول عن القيم. (٣) وإن كانت بعض الثقافات تعتبر أن الأرض ملعونة منذ أن ذاق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة! حيث "لُعنت الأرض في العهد القديم، بسبب خطيئة آدم في الأكل من الشجرة المحرمة. وهو ما ورد في قصة الخليفة من الله "قال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة

(١) جمال، محمد عاكف. تطور نظرة الإنسان إلى الطبيعة، العين: مطبعة الرافدين، ط١، ١٩٨٧م، ص ١١.

(٢) رفيع، محماد. النظر المقاصدي؛ رؤية تنزيلية، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ٨٥.

(٣) عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، مرجع سابق، ص ١٨-١٩.

التي أوصيتك قائلاً: "لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعروق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود." (١)

مسؤولية الإنسان العمرانية تقتضي استخدامه لكل ما وهبه الله من قوى وإمكانات مادية ومالية وروحية في بناء عمرانه واستصلاح أوضاعه، على الوجه الذي لا يوقع فساداً لا في الذوات ولا في الأرض. وحيث لا ينفصل مفهوم العمران عن مفهوم الإصلاح، فإن الإنسانية مطالبة بإصلاح عمرانها إصلاحاً مستمراً ينتقل من وضع إلى آخر أحسن منه، وذلك بمواكبة التغيرات التي تحدث في الكون سواء التي وقعت تحت مسؤولية الإنسان، إن خيراً كما هي الاستعمالات الإيجابية للتقنية التي وفرت للإنسانية خيراً كثيراً لا ينكره عاقل، أو شراً كإفساد الإنسان في البر والبحر بالفحشاء والمنكر والبغي، ولو باستعمال نتائج التطور التقني أو إخضاع العلم للتحكم السياسي والاقتصادي. (٢) أو تلك التي جاءت قدراً مقدوراً لا دخل للبشرية فيها، ولا علم لها بحكمتها الربانية، وإنما هي مجعولة بإذن الله وحكمته. قال تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

الأرض فراشٌ حتميٌّ مشتركٌ للإنسانية، وليست "ذاتاً ملعونة" كما ذكر في العهد القديم بسبب خطيئة آدم وحواء. فهي مستقر ومتاع، وموطن الانتشار الآدمي من حيث يستحيل في غيرها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، مستقر معلل بالمتاع، ولا يوجد في علم الناس كوكب يوفر من الاستقرار والمتاع كما هو كوكب الأرض. وإذا نظرنا للأرض بوصفها مستقراً

(١) الزبيدي، كاصد ياسر. الطبيعة في القرآن الكريم، بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ط١، ١٩٨٠م، ص١١٧.

(٢) الباهي، حسان. "العلم بين الأخلاق والسياسة"، مجلة الإحياء، العدد (٢٦)، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م)، ص١٧٣-١٧٤.

ومحلاً للمتاع المشترك بين جميع الناس الحاضر منهم والقادم في المستقبل فإننا سنراجع رؤيتنا لها ونغير سعيها فيها. بل سيتوجه اهتمام العالمين إلى حفظ مستقرهم وموطن متاعهم حفظاً جماعياً.

في مستقر الأرض جلال وجمال؛ عظمة وزينة، دقة وامتعة، وهذا المعطى ينسجم مع عظمة القرآن العظيم وزينة الإنسان المسجدي ﴿يَبْتَئِيْ اٰدَمَ حُدُوْا زَيْنَتَكُمْۙ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، الذي يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله، ويكدهج إلى ربه كدحاً فيلاقيه. يقول الطاهر بن عاشور: "إن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطأ به جُهدُه، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية." (١)

مما سبق يمكننا أن نستنتج أن مسألة العمران من صلب التكليف الإلهي للإنسان، بل يمكن أن نقول بأن البناء العمراني من صميم التكليف الإيماني، والمقصود هو: العمران الشامل؛ العمران الروحي المعنوي للإنسان، والعمران المادي المتمثل في مظاهر الحضارة المادية زراعة وصناعة وتجارة وغير ذلك. حتى يتحقق التقدم الروحي والمادي معاً؛ إذ "التقدم الذي يطلبه الإسلام للحياة: تقدم متكامل، روحي ومادي، أخلاقي وعمراني، دنيوي وأخروي، علمي وإيماني، ولا يجد أي تعارض بين هذه المتقابلات، بل هو يجمع بينها في توازن واتساق. إنه تقدم في الأهداف والغايات وتقدم في الوسائل والأساليب معاً." (٢) ولعل هذا ما تؤكده الكثير من النصوص القرآنية والحديثية التي ذكرنا بعضها فيما سبق.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٤٩.

(٢) القرضاوي، مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

## ثانياً: خصائص العمران الإنساني ومقاصده

### ١ - خصائص العمران الإنساني في القرآن:

يتصف فعل العمران في القرآن الكريم بجملة من الخصائص أهمها الخصائص الآتية: المُلْكِيَّة والإِنْسَانِيَّة والعَالَمِيَّة.

#### أ- خاصية المُلْكِيَّة:

كونُ العمران من صلب التكليف البشري لا يفيد امتلاك الإنسان القدرة على حفظ الكون وضمان استمراره وضبط قوانينه، وإنما هو تكليف يواتي قدرته على الاختيار ومسؤوليته على الفعل في حدود مقومات خلقته والإمكانات المسخَّرة له. وفعل الإنسان في الكون ليس مطلقاً من كل قيد، ولا متحرراً من أي ضابط، وإنما هو خاضعٌ لمنطق عام وناظم للحياة والأحياء. هذا المنطق والانتظام بيد الله وحده، ﴿مَلِكٌ أَلْمَلِكُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولا يشرك معه أحد في تديره، ففي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِدَاوُدَ وَلَدًا وَوَلَّىٰ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبُرَ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِدَاوُدَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ إِذَا لَأْيُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَجِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي يَدْرِءُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

أما الإنسان فيؤتى قسطاً من المُلْك ولا يؤتى الملك بإطلاق، فملكه محدود ومؤقت. فالنبي يوسف عليه السَّلَام قال في دعائه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، فيؤتى الإنسان شيئاً من المُلْك، عطاءً وابتلاءً، وبعده يُنزع منه لا محالة وفق حكمة إلهية وسنن ربانية لا تتخلف. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ

دَشَاءٌ وَيُسْرُؤُ مَن دَشَاءَهُ وَتُسْذِلُ مَن دَشَاءَهُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٨﴾ [آل عمران: ٢٦].

تحيط كلمات الله تعالى بكل شيء علمياً ومعرفة، ولا تستوفيها محاولات الإنسان مهما ادعى لنفسه الإحاطة العلمية والكمال المعرفي والنبوغ والتفوق، قال تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبَّغَهُ وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨]، ويقدم القرآن الكريم الدلالات المتجددة واللامتناهية على الوقائع المتناهية المحدودة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يُمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ [لقمان: ٢٧]، حيث "لا يزال الحق في تجلٍّ؛ إذ لا سبيل إلى استيفاء ما لا يتناهي؛ لأن الحق في نفسه لا يتناهي،" (١) فكيف يحيط المتناهي باللامتناهي؟

الكون خلق الله والقرآن كلام الله، ومن ثم فكلاهما رباني المصدر والغاية، وفق إرادة سابقة وقدر مقدور، والإنسان مخلوق "محكوم أولاً، بطبيعته: طبيعة أنه مخلوق حادث. ليس كلياً ولا مطلقاً. ليس أزلياً ولا أبدياً. ومن ثم فإن إدراكه لا بد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته. ثم هو محدود بوظيفته، وظيفه الخلافة في الأرض،" (٢) ومكلف بالسير بهداية القرآن وفق مشيئة الله، وليس منفصلاً عنها معانداً لها؛ إذ الوجود كائن في حماية الله وتدبيره ورعايته، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، سواء أوقى الإنسان بعهد الاستخلاف، أو أخلفه، سواء أأصلح في الأرض أو أفسد فيها.

وعلم التدبير الإلهي غيبٌ لا يعلمه لا الإنسان ولا غيره، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]، إلا أن يكون

(١) التهانوي، محمد بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: دار صادر، (د. ت.)، ص ١١٦٣.

(٢) قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، مرجع سابق، ص ٤٧.



العلم بإذن الله لبعض خلقه ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَةً وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٣٨﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، وهذا التصور مشترك بين رسالات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جميعاً، ويؤكد وحدة الدين ووحدة الوصايا الإلهية، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠) [الأنعام: ٥٠].

ملكية العمران في نسبة الإنشاء الكوني والرعاية الوجودية إلى الله إيجاباً وإمداداً؛ خلق الأشياء والقوانين ورعايتها في انتظامها واستمرارها، وخلق الإنسان بجميع قواه الإدراكية، ثم إمامته وبعثه.

#### ب- خاصية التكليف الإنساني:

يتحدد الإنسان في فقه العمران القرآني "بوصفه إنساناً مجرداً عن كل وصفٍ لاحقٍ لإنسانيته، مدعواً للاشتراك مع كل إنسان في تأليف مجتمع تترابط عناصره برباط العقد الاجتماعي المفتوح، لتعاقد الناس كلهم تعاقدًا بريئاً من العنصريات والطبقات والإقليميات، ليجعلوا السبيل إلى الاتفاق بينهم فيما افترقت فيه الأمم، الشعور أولاً: بأن الإنسان كفاء للإنسان،" (١) قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ذلك أن القرآن الكريم يريد للناس أن ينظروا لأنفسهم على أنهم أسرة واحدة على هذه الأرض، مهما اختلفوا في اللون واللسان. ومهما تباعدوا في الأوطان، مع كل ما بينهم من فوارق واختلافات إلا أنهم ينبغي أن يتعاملوا فيما بينهم بمنطق الأسرة الواحدة" (٢) المترابطة رحماً وتراحماً ومرحمة، تعاوناً وتعارفاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا

(١) ابن عاشور، روح الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٩-٢٠.

(٢) الميلاد، زكي. المسألة الحضارية؛ كيف نبكر مستقبلنا في عالم متغير؟، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٧٤.

خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، ف"القرآن الكريم ربط بين وحدة الأصل الإنساني، والتنوع الإنساني في هذه الآية، الربط الذي يفهم منه أن وحدة الأصل الإنساني لا تعني إلغاء التنوع بين الناس في أن يعيشوا شعوباً وقبائل." (١)

من رحمة الله أنه كرم الآدميين جميعاً، وجعل "الإنسان يولد ذاتاً سامية عالية مكرمة خيرةً موحدة، وكل ذلك بمقتضى الفطرة، وكل ذلك في كلمة واحدة هي الذات الإنسانية، ومعنى ذلك أن كل فرد من بني آدم يولد إنساناً... فمكانة الإنسان الوجودية - بمقتضى الفطرة - مكانة تعلق على مكانة كثير من خلق الله تعالى،" (٢) وكرمهم بأن بعث فيهم نبياً بشراً منهم، وجعله رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وجعله منةً وهدية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلٍ لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: "مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ، وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَّقَحْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلِكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَفَحْمُونَ فِيهَا." (٣)

من أجل هذا البعد الإنساني في العمران خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأنعم عليه بنعم لا تحصى تسخيراً له، ليستعملها في عمارة الأرض، وابتلاء له ليشكر أو

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) الدسوقي، فاروق أحمد. استخلاف الإنسان في الأرض، بيروت: المكتب الإسلامي، ط ٢، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ٤٧.

(٣) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: الفضائل، باب: شفقتي ﷺ على أمتي وتحذيرهم مما يضرهم، ج ٤، ص ١٧٨٩، حديث رقم: (٢٢٨٤).

يكفر، منها القوى الإدراكية التي بها يحس ويفكر، ويتذكر، ويتدبر، ويقارن، ويعتبر، ويبرهن، ويعرف. ومنها المعطيات المنتظمة في الكون من أجسام وأشكال وألوان وعلاقات وقوانين وتفاعلات. ومنها الوحي قرآناً ونبوة، ليستهدي به في الظلمات ويرجع إليه في التنازع والتشابه. وحتى تتحقق "إنسانية صادقة تلتمس الخير من الجميع لفائدة الكل، ولا تتخوف من الاتصال بمختلف الأوساط وشتى البيئات والبحث معها عما يساعد على التقدم وال عمران، وتحسين حالة المجتمع البشري والارتفاع به للمستوى العالي الذي خلق من أجله، وكل مجهود نبذله... يعد في الفكر الإسلامي جزءاً من المجهود العام الذي تبذله الإنسانية جمعاء لتحقيق عالم أفضل،"<sup>(١)</sup> لذلك وجب التعاون لجلب المصلحة ودرء المفسدة، وحفظ السفينة المشتركة، ومن انتهك حرمةً من حرمان الله فقد أحدث الخرق في سفينة العمران.

ومن موانع تحقق شرط الأخوة الإنسانية في العمران اتباع الأهواء وتقليد الآباء من غير هدى، وارتكاب أفعال الجاهلية الحمية، الظن، الحكم، التبرج، وقد نبه القرآن إلى ذلك في مواطن كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أُن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

إذا غاب التراحم عن حضارة هوت إلى دركات الجهالة والعصيان والظلم والطغيان، وإن ازدهرت العمارة المادية وعلا البنیان، والعبرة بمن سبق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٢١-٢٢]، أخذهم الله بذنوبهم التي تعيق تعایشهم وتعارفهم وإن كانوا أكثر قوة وأشد أثراً، وأفرح الناس بما عندهم من

(١) الفاسي، النقد الذاتي، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

العلم، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

لا تغني الوفرة من الأشياء والمعارف عن الإيمان والأخوة الإنسانية المتراحة، و"سيطرة الإنسان على قوة الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك أيضاً سيطرة الإنسان على نوازعه الداخلية وأهوائه وشهواته حتى تكون منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله." (١) ومثلما أن الرحمة تعم الجميع فكذلك النعمة تعم إذا كثرت الحَبث، فقد يُرحم الإنسان غير الصالح بوجوده مع الصالحين، كما في الحديث: "إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تاداوا: هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال: فيومّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أي قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقون بهم جلسهم." (٢) فالرحمة تنزل على

(١) زقزوق، الحضارة فريضة إسلامية، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله، ج ٥، ص ٢٣٥٣، حديث رقم: (٦٠٤٥).

الجميع وكذلك المصيبة والنقمة، ﴿ وَأَنْفُوا وَتَنَّهُ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]. والرحمة للعالمين تتجاوز مجرد رحمة الإنسان إلى أفق رحمة جميع الخلائق على الأرض، رحمة منتشرة متبادلة بين العالمين وليست فقط "رحمة في العالمين".

بالعلو في الأرض والاستكبار على الخلق والإعراض عن الحق تجري على الناس سنة فناء الحضارات وتراجعها وتداول الأيام، وهذا نتيجة إثارة الأرض وتعميرها دون تحقيق مقصد المعرفة بالله وتوحيده والسعي وفق منهاجه القويم في إقامة عمران الإنسان. لذلك تاقَت الإنسانية اليوم إلى الانعتاق من سجن الليبرالية المتوحشة، ولا زالت تتطلع إلى تجاوز مخاطر النظم الاقتصادية والسياسية والفكرية إلى رحمة علمية وتكافل اجتماعي وأخوة باذلة يأتي بها المقتحمون للعقبات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على منهاج القرآن والنبوة. فما هي عوارض إقامة العمران الإنساني إن لم تكن هي العقائد المادية، والخمول الفكري، والجهل بالمنهاج، والظلم للعباد، والطغيان في البلاد، والتقليد لمن سبق لمجرد أنه سبق؟

ويقصد بأخوة العمران البشري احتضانه الأخوة الموصوفة في القرآن بين بني آدم، المستخلفين المكلفين بفعل الإعمار. أخوة تجمع الإنسانية على قيم المحبة والخير والحق والعدل والكرامة، وتحملها على المساهمة في تحقيق التكافل الذي يصبغ العمران الأخوي بصبغة الإيثار والتقارب والتعاون. ونبذ أخلاق الكراهية والحقد والعنصرية والشهوانية والاعتداء.

الأساس العمراني أساس شمولي بوجهيه المادي والروحي معاً، والمواطنة الإنسانية مواطنة روحية ومادية في الوقت نفسه. والظفر بمنهاج تحقيق العمران المشترك ظفرٌ بمفتاح أفعال الطبيعة البشرية، وظفرٌ بالعلاج الناجع لداء الأمم. العلاج من داء التمرد على الله وعلى الإنسان وعلى الكون، نتيجة الركون إلى الفلسفات المادية التي تستغفل عقول الناس، وتطمس فطرتهم وتسويهم بالأنعام، وتجهل أن "السمو

الإنساني سمو روحي" (١) بالأساس. دون إغفال لقيمة السمو المادي الذي يوفر للإنسانية إمكانات العيش المشترك على كوكب الأرض، لكن "تقليص الإنسان إلى مجرد وظيفة إنتاجية استهلاكية - حتى ولو كان له مكان في عمليات الإنتاج والاستهلاك - ليس علامة على الإنسانية، وإنما هو سلب للإنسانية". (٢)

المقصود من الوجود هو الإنسان، وواجب الإنسان هو إقامة العمران. ورسالة القرآن هي الاستماع للوحي المنزل واتباع الرسول المبلّغ؛ استماع واتباع. فللإنسان سخر الله جميع ما في الكون ما عَلم منه وما لم يَعلم، في حدود قدرته ومسؤوليته، بعدما سخر له العقل والحس والوجدان وباقي القوى الإدراكية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، وذلك من أجل تشييد العمران، الذي تعلق فيه القيم على الأشياء، وتعلق فيه قيمة الإنسان على ما سواه ممن خلق في الأرض.

والمهمة المشتركة من الوجود هي السعادة الإنسانية في الحياة العاجلة والآجلة، وحيثما كان الإنسان طلب السعادة، ولم تأت الرسائل السماوية إلا لإسعاده، لهذا كان المكلف هو الإنسان ليصنع سعادته بيده مستمداً نورها من كتاب الله المسطور من جهة، ومن كتاب الله المنظور من جهة ثانية، مكلف بالعمل الصالح، وهو الإصلاح في الأرض، ولا إصلاح إلا بإنشاء العمران وحفظه، قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتوبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٦١﴾﴾ [هود: ٦١]. يقول العرب: إن الألف والسين والتاء إذا دخلت على فعلٍ أفاد الطلب، ف﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ بمعنى أنه من الواجب عليكم أن تعمروها، أن تكونوا

(١) بيغوفتش، علي عزت. الإسلام بين الشرق والغرب، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، ط١، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨.

معمرين لها، أن تنشئوا عمراناً يليق بمن خُلق في "أحسن تقويم"، ثم تردى إلى "أسفل سافلين" بغفلته واستكباره ونسيانه وجحوده. فوقع التمرد على الحق مما قلص صفة الإنسانية في الإنسان، وجعله يجب الدنيا ويموت حرصاً عليها ويقاوم من أجلها، ولا يرى فيها سوى موطن للنزوات والمتع والشهوات، ولا يهيمه عمران ولا يضره عدوان على إنسان.

### ت - خاصية العالمية:

يتصف العمران البشري بصفة العالمية؛ لأنه فعلٌ جماعي يقع في العالم، وأحداث العالم وأرزاق الناس ومصالحهم متداخلة ومتكاملة، وهي في المستقبل تزداد تداخلاً وتعقداً. ولما كان العمران استخلاقاً من الله، وتعارفاً بين الناس، وإصلاحاً في الأرض، فلا يسعه إلا أن يكون عمراناً عالمياً؛ إذ لا تتحقق تلك المقاصد إلا في العالم، وبين العالمين وفي أرض الله الواسعة، وخاصة في زمن تداخلت فيه القضايا وتشابكت فيه الأزمات. كلٌّ يبذل جهده من موقعه ومرتبته وإمكانه من حيث لا يؤتى من ثغره وتفريطه في مسؤوليته، "وتكون مسؤولية الإنسان بكرم الله هي على قدر ما يدرك عقله ويقدر جهده من تسخير الأسباب لإبداع شؤون حياته وإعمار حاجات وجوده على أساس الخير والحق والعدل."<sup>(١)</sup>

يعترف القرآن بتعدد الحضارات من خلال الاعتراف باختلاف الشعوب والقبائل، ولو لم يكن هناك اختلاف لما وقعت الحاجة إلى التعارف والتعايش في العالم. ومن ثمّ لَمَّا حصلت ضرورة التعاون والتبادل والتواصل، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: ٢]، والتعاون فعل جماعي مشروط بالخيرية الجماعية الإيجابية التي قوامها البر بالخلق ودفع الضرر عنهم، والتعامل معهم إخوة في الإنسانية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) الفاروقي، إسلامية المعرفة؛ قضايا إسلامية معاصرة، مرجع سابق، ص ٩٤.

لقد هياً الله تعالى الأرض بأجوائها وفضاءها ومناكبها قبل أن يخلق الناس، ويطلب إليهم إنشاء العمران بينهم بما يضمن لهم الحياة الطيبة والفوز المبين. ووفر لهم قدرات هائلة على الفعل والإنجاز والتعلم والإبداع، بل أمرهم أن يصلحوا نياتهم وأن يتقنوا أعمالهم، ويحفظوا أماناتهم، وأن يجتهدوا في شتى السعي وكدح العيش. لذلك أوجب الدين على الناس حفظ ما به تستمر حياتهم.

إن العمران الذي يحتاجه العالم اليوم هو الذي يسع الحضارات والثقافات المختلفة ويواتي حقيقة الوجود البشري التعارفي التكاملي، ومعناه أنه يشيد المباني ويشيد المعاني في الآن نفسه، وتحقيق ما يسميه إسماعيل راجي الفاروقي بـ"التسيح المشترك الجامع" الذي تشترك فيه جميع المخلوقات، فلا يستوطن الأرض ويفسد فيها ويخرج أهلها منها أو يستعبدهم كما فعل الاحتلال الغربي في بلاد المسلمين، لما استولى على الأرض وخرَّب الإنسان وأسقط عنه صفة التكريم. لهذا كان التحدي على هذا المستوى هو إنشاء حضارة العمران الشامل المتوازن المتكامل، الحضارة التي تحقق "الماهية الآدمية"<sup>(١)</sup>، لا تظلم أحداً ولا تبخسه حقه، ولا يستعلي أحد من الناس على أحد، ولا يقدر زيدا عمراً، بل "لا ينبغي تقديس أي كائن في هذا العالم الطبيعي؛ وذلك لأن الكائنات الطبيعية كلها مخلوقة لله تعالى."<sup>(٢)</sup>

يحقق العمران حياة الإنسان فرداً وأسرة ومجتمعاً وأمة، مطالبه المشروعة في حياته المادية والروحية، العامة والخاصة، من غذاء وأمن وعبادة وعمل وغيرها، فأول ما يطلبه الإنسان هو الرزق المادي الذي يحفظ به صحة بدنه، ويطلب سكينه العيش والأمن من الخوف ليستمر في الحياة، لذلك تعاطى الناس الزراعة لتحصيل أقواتهم، وأقوات الأنعام والطيور وغيرها مما خلق الله، ولا يمكن أن يتحقق للإنسانية أمنها وكفايتها الغذائية من

(١) عبد الرحمن، طه. روح الحدائث؛ المدخل إلى تأسيس حدائث إسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٢٧.

(٢) تركي، إبراهيم جمال. علاقة الإنسان بالطبيعة عند المعتزلة، طنطا: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٦١.



غير غرس وزرع واستصلاح للأرض، ففي الحديث: "ما من مؤمن يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"،<sup>(١)</sup> يأكل منه "إنسان"؛ أي أنه غرس للإنسانية وباقي الكائنات المسخرة لها. وفي الحديث أيضاً: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"،<sup>(٢)</sup> تقوم القيامة ولا ينتفع بها عاجلاً، لكنه مُطالبٌ بالغرس من أجل غيره من المخلوقات. وما ذلك إلا ليتحقق عمران الكون في شقه المادي الذي لا تتحقق الحياة إلا به، زراعة وفلاحة وصناعة وتجارة وكل الأنشطة البشرية التي تحقق للناس كسبهم بإثارة الأرض ﴿وَأَنْزَلْنَا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وتحصيل الأرزاق المادية وتنميتها، واستثمار خيرات البر والبحر في بناء العمران. لذلك يبقى التحدي المستقبلي متمثلاً في السلوك الجماعي البنائي في تشييد حياة مشتركة بين الناس أجمعين وفق ما جعلهم خالقهم ورازقهم سبحانه مستخلفين فيه ومسؤولين عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَنْقَبِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٢٨]. فقابيل تُقبَّلُ منه القربان؛ لأنه كان تقياً صادقاً، وهابيل لم يُتقبل منه؛ لأن معرفته كانت خالية من القيم الأخلاقية، فالأول كان ممن اتصف بصفات التقوى وتحسدت فيه قيم الخير والعدل والسلم، والثاني تجرد من قيم الخير والحق وأعلن فعل الشر بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.<sup>(٣)</sup>

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ج ٢، ص ٨١٧، حديث رقم: (٢١٩٥)، وانظر أيضاً:

- القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، ج ٣، ص ١١٨٨، حديث رقم: (١٥٥٢).

(٢) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤١٢هـ، كتاب: البيوع، باب: الكسب والتجارة ومحبتها والحث على طلب الرزق، ج ٤، ص ٧٥، حديث (٦٢٣٦).

(٣) سعيد، جودت. مذهب ابن آدم الأول، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط ٥، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)،

هذا النموذج بسط سلطان مثاله على الحياة كلها، فجعل الناس صنفان صنف يربط المعرفة بالقيم وصنف يفصل بينهما، فأما الأول فهو حامل مشعل الهداية ورسالة الحق في العالمين، يبذل طاقاته وإمكاناته واجتهاداته في سبيل نُصح الإنسان والتي هي أحسن، ليربط المعرفة والسلوك والحياة بالقيم البانية الجامعة الدائمة. وأما الثاني فهو يعتد بمعرفته ولا يريد إلا مصلحته الآنية اللحظية غافلاً عما يترتب على سلوكه واتباعه لأهوائه من ضررٍ على نفسه وعلى غيره من الناس والأشياء.

لقد ابتدأت الرسالة الخاتمة في النزول بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، لتكون المعرفة لصيقة، بل ومندغمة بالقيم، حيث لا تكون القراءة قراءة تليق بكرامة الفرد وبخيرية الجماعة إلا إذا كانت قراءة باسم الله، باسم ربك الذي يربيك ويربي فيك خصال الخير والحق والعدل. ومن ثم لا تكون المعرفة صالحة ولا العلم نافعاً ولا التعامل خيراً ولا الحياة سعادة إلا في حوزة القيم، غير ذلك لا نجد سوى الذهنيات القارونية والعقليات الفرعونية المنفصلة عن القيم، التي وصلت إلى القول بـ ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

إن عاقبة انفصال المجتمع الإنساني عن القيم لا تكون إلا هلاكاً وفسوقاً ودماراً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، فالتدمير عاقبة المترفين، رغم ما قد يتحقق من مظاهر الاستعلاء والاستكبار. وما أخبار الأمم السالفة وما وقع لها إلا نذيراً للإنسانية من خطر الابتعاد عن القيم، وما نعيشه في عصرنا من مظالم تقع على الشعوب والأفراد إلا نتيجة من نتائج الانسلاخ عن القيم أو ضعفها أو التحايل عليها وطمسها. قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

ص ٣٣٠ وما بعدها.

## ٢- مقاصد العمران المشترك:

بتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته تستجلي للناظر مقاصد العمران الإنساني المشترك، ويتأكد التفسير الأسلم والأحسن والأتم للكون والحياة والإنسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [٣٣] ﴿[الفرقان: ٣٣]؛ إذ بتفسير الوحي تدرك السنن النفسية والطبيعية والاجتماعية والعمرانية التي تنظم ظواهر الحياة وتربط بين عناصر الكون، وتدرك الغاية من هذا الوجود؛ وجود الأحياء ووجود الحياة. وبذلك يستطيع العاقل أداء واجب الشهود في العالمين، ﴿سَرُّهُمْ أَيْنَمَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

بتدبر آيات القرآن الكريم بوصفه "أصل الأصول ومصدر المصادر، وأساس النقول والعقول، وقاعدة أي بناء حضاري يهدف إلى الإعمار والتنمية والازدهار والتقدم والصلاح، وغير ذلك من الغايات والمقاصد التي ترنو جميع الشعوب والأمم إلى تحقيقها وتحصيلها. وجميع المقاصد الشرعية المعتمدة والمعلومة والمقررة في الدراسات الشرعية، إنها هي راجعة في جملتها أو تفصيلها، تصريحاً أو تضميناً إلى هدي القرآن وتعاليمه وأسراره وتوجيهاته،"<sup>(١)</sup> وباستيعاب المنهاج النبوي بوصفه الميزان والنموذج في فهم مقاصد الوحي وأولوياته، واستيعاب ضوابط التنزيل، وكيفياته، وشارح لأحكام القرآن وأسراره. وبالنظر في تاريخ البشرية وواقعها اليوم، فإننا نجد المشترك العمراني الإسعادي للبشرية مقصداً قرآنياً كلياً به تتهياً البيئة السليمة للتوحيد والتعارف والإصلاح. ويدراً الناس عن حياتهم كل أشكال الظلم والكرهية والفساد.

وباستقراء الآيات القرآنية التي تتحدث عن العمران وما يتعلق به، يمكن تقسيم مقاصد العمران في القرآن الكريم إلى ثلاثة كالاتي:<sup>(٢)</sup>

(١) الخادمي، نور الدين. الاجتهاد المقاصدي؛ حجتيه وضوابطه ومجالاته [ج ١]، سلسلة كتاب الأمة رقم:

(٦٥)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص ٦٩.

(٢) وهو تقسيم يوافق ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" من أن مقاصد الله تعالى من الخلق ثلاثة: العبادة، والخلافة، والعمارة.

## أ- المقصد التعبُّدي:

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، يتبين المقصد الأكبر من الخلق منذ وجوده الأول هو عبادة الله وحده من غير شريك معه من الأشياء المجردة أو المجسدة؛ إذ وجود الشريك في العبادة نقض لميثاق العبودية لله وحده، وإخلال بإفراجه بالتوحيد، كما أن أشرف معرفة يدركها الإنسان ويسعد بها هي "معرفة الله بأسماؤه وصفاته، ومعرفة ما ينبغي لجلاله وما يتعالى ويتقدس عنه، ومعرفة أمر دينه والتميز بين مواقع رضاه وسخطه، واستفراغ الوسع في التقرب إليه، وامتلاء القلب بمحبته بحيث يكون سلطان حبه قاهراً لكل محبة،"<sup>(١)</sup> حتى تستولي محبة الله على كل محبة، وتقدم طاعة الله على كل طاعة، ويسبق تعظيم الله على كل تعظيم. وكل حالٍ تغيب فيه معية الله وطاعته فهو حال غفلة ونسيان، إن لم يكن حال معصية وطغيان.

ومن معاني العبادة؛ المعرفة؛ إذ ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليعرفون.<sup>(٢)</sup> ومن مداخل معرفة الله "معرفة من حيث هو" خالق كل شيء؛ أي معرفة تعالى من خلال البُعد الكوني،"<sup>(٣)</sup> ويمكن أن نصوغ هذا المقصد كالآتي: وُجد الإنسان ليعرف ربه. وإذا وجد الإنسان ليعرف ربه خالقاً مدبراً عليماً، فلا عمران من غير توحيد، ولا معرفة تقصد لذاتها إلا معرفة الله، ولا تشرف معرفة إلا بانسجامها مع هذه المعرفة واستمدادها منها. "إن نفس معرفة الله ومحبته وطاعته والتقرب إليه وابتغاء الوسيلة إليه أمرٌ مقصود لذاته، وأن الله سبحانه يستحقه لذاته، وهو سبحانه المحبوب لذاته الذي لا تصلح العبادة والمحبة والذل والخضوع إلا له. فهو يستحق ذلك؛ لأنه أهل لأن يعبد ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ولو لم يضع ثواباً ولا عقاباً،"<sup>(٤)</sup> لذلك ورد التذكير بـ"التكليف العمراني" للإنسان في القرآن داخل سياق دعوة نبوية

(١) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٣٩.

(٣) الأنصاري، مفاتيح النور في مفاهيم رسائل النور، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٤) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق، ص ١٢٤.

إلى توحيد الله ومعرفته. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، فنبى الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يحمل وظيفة تذكيرية بالميثاق الأول الذي عقده الله تعالى مع الإنسان قصد التوحيد والعبادة: أن يعبدوه ولا يشرك به شيئاً. فتوجه إلى قومه الذين غفلوا عن المقصد الأكبر من العمران الإنساني ووقعوا في الشرك والكفر وما ينجم عنهما من إفساد وتظالم، مذكراً إياهم بواجب الرجوع إلى التوحيد والعبادة بالاستغفار والتوبة، و"الرجوع: العود إلى ما كان منه البدء،" (١) وفي البدء كان ميثاق الفطرة المشترك بين الناس أجمعين. واستحضار الوظيفة المنوطة بالخلق على الأرض؛ العبادة، لذلك فسر القرطبي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]، بقوله: "أي ارجعوا إلى عبادته،" (٢) وما سُخِرَتْ أَشْيَاءُ الْأَرْضِ وَطِبَابَتُهَا لِلْإِنْسَانِ إِلَّا لِيَعْتَبَرَ وَيَعْبُدَ رَبَّهُ وَيَحْمَدَهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ وَإِلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧]. فهو تسخيرٌ قاصد، وليس خلقاً عبثياً.

لقد دعا جميع الأنبياء أقوامهم لعبادة الله وتوحيده ونسبة الخلق والأمر إليه، مثال ذلك قول سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بَيِّعِينَ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: ٨٤]، وبالتالي "فالغاية إذن من خلق العالم الرحب الضخم -الذي يسكن الإنسان في جزء منه صغير صغير هو كوكب الأرض من مجموعته الشمسية التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا الكبيرة التي يسمونها سكة التبانة والتي هي أيضاً جزء صغير صغير بالنسبة لمجموع العالم الذي يحتوي على ملايين المجرات الأخرى- هي معرفة المكلفين المخاطبين بالقرآن رب هذا العالم وخالقه، معرفته بأسماؤه الحسنَى وصفاته العليا التي دل على خلقه لهذا الكون، وتدبيره له." (٣)

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، كتاب: الرء، ص ٣٤٢.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، (١٣١٤هـ/١٩٩٣م)، ج ٩، ص ٤٦.

(٣) القرضاوي، قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧.

هذا المقصد التعبدى الأكبر يقتضى العلم بحقيقة الخلق وبحكمة التدبير وباحتمية الرجوع إلى الله تعالى.

### - العلم بحقيقة الخلق:

مشتركٌ بين الناس واجبُ العلم بأن الله تعالى هو الخالق المبدع لنظام المخلوقات ما دامت عاجزة عن خلق نفسها بنفسها؛ إذ لا تصدر عن إرادة ذاتية. فهو سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾ [الأعلن: ٢-٣]، خلق الخلق وسوَّاه وفق مشيئته المنزهة المطلقة، وهو الذي يحفظ هذا الخلق ويقدر معاشه، ويضمن بقاءه إلى حين زواله الذي قدره في سابق علمه. فالله تعالى هو الخالق للخلق وحده، والخلق هو كل ما سوى الله وتحت أمره ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝﴾ [الزمر: ٦٢] و﴿مَدْيَكَ أَتُكِّبُ ۝ آل عمران: ٢٦﴾، و﴿فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ ۝﴾ [البروج: ١٦]، و﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٣].

العلم بحقيقة الخلق الإلهي للكون من عدم، يدرکه الإنسان بفطرته وبعقله، لكن سلطة العادات والتنشئة قد تُنسى الإنسان هذا المبدأ الأزلي، فينسى ربه، لذلك توجه الخطاب القرآني للإنسان يأمره بالعلم بالله في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۝﴾ [حمد: ١٩]، وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ۝﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝﴾ [هود: ١٤]، وآيات كثيرة أخرى في الاستدلال بأدلة "الخلق والعناية والربوبية والإبداع" على وحدانية الله في الذات والصفات والأفعال، جميعها تثبت أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: ١١].

بمعرفة الله وتوحيده وتحرير العبودية له وحده، وعدم الإشراك به أي شيء في الأرض ولا في السماء، وبذلك تتحقق سيادة الإنسان على الأشياء المسخرة له وتحرر إرادته، ف"الحرية هي أن تتعبد للخالق باختيارك، وأن لا يستعبدك الخلق في ظاهرك وباطنك... وتعبد الإنسان للخالق يقتضى أن يتذكر الإنسان أن الله خالقه ورازقه

ومالكة، مجتهداً في طاعة أمره ونهيه؛" (١) إذ "التوحيد ليس تحديداً لعلاقة الإنسان مع الله عز وجل فقط، وإنما هو في الوقت نفسه تحديد لعلاقة الإنسان مع ذاته ولعلاقته مع إخوانه من بني البشر، ومع غيره من مخلوقات الأرض أيضاً." (٢) وعملية المعرفة بالله ذاتية قلبية عقلية وجدانية تتم داخل ذات الإنسان، وعبر حركة متغيرة ترفع الإنسان في مقامات العبودية لله إلى أعلى عليين، وتمنعه من التسفل والهبوط في مدارك أسفل سافلين. سُخِّرَتِ الْآيَاتِ النَّصِيَةِ وَالْآيَاتِ النَّفْسِيَةِ وَالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ مَنْسَجَمَاتٍ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وجعلها دليلاً عليه سبحانه، حيث عظمة المخلوق ودقة الخلق دليل على وحدانية الخالق سبحانه بلا نظير ولا مثل ولا شريك. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

#### - العلم بحكمة التدبير:

لا يتحقق تعبد الإنسان لربه إلا بيقين علمه بأن الله تعالى هو المدبّر لنظام الكون ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَهُودِيَّةٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، حيث جاء الأمر بالتعبد بعد الإيمان بحقيقة الخلق وحكمة التدبير. ولا تعارض بين تدبير الله للكون وتسخيره للإنسان ما دام "تدبير الإله وتدبير الإنسان يأتلفان في حياة الإنسان اتئلافاً حقيقياً، حتى إذا دبّر الإله، كان الإنسان مدبّراً؛ وإذا دبّر الإنسان، كان الإله مدبّراً." (٣)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، حيث إن العلم بأشياء الطبيعة وقوانين الكون، أو

(١) عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٢) الدسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٣) عبد الرحمن، رُوح الدِّين؛ من ضيق العُلَّمانية إلى سعة الاتئمانية، مرجع سابق، ص ١٥.

قل: العلم بسنة الله الكونية، لاجئ مباشرة عن العلم بالله الخالق الحكيم ومنسجم معه، دون أي تعارض. فالله تعالى هو الذي خلق الخلق كله في ستة أيام، لكن تديره لملكوته دائم بدوامه، رعايةً وعنايةً من غير انقطاع ولا توقف، تتبع إلهي لتفاصيل الخلق وسيورته ومآلاته، وهو وحده يحكم لا مبدل لحكمه، ﴿فَسَبَّحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) [يس: ٨٣].

الله تعالى هو الذي يختار ويخلق ويجعل ويسخر ويمسك وينزل ويخرج ويهدي ويقدر ويأذن، وهذه الأفعال الإلهية محيطة بالإنسان ولا استطاعة له عليها، وهو خاضع لها اضطراراً. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا سَخَّرَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَرْضَ وَالْفُلْكَ لِيَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦) [الحج: ٦٥]، و﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) [البقرة: ٢٢]، و﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِيَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢) [سخر لكم الشمس والقمر ذابين وسخر لكم الليل والنهار] ﴿٣٣﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مَعْلُومٍ﴾ (١١) [الحجر: ٢١]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) [القمر: ٤٩]، فهذه أفعال الله في العمران. وهي جارية على الخلق أجمعين مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم؛ "أي أن الله منفذ أحكامه في خلقه بمشيئته التي جعلت لكل شيء مقداراً ووقتاً، مما يجعل الأمور مرهونة بأوقاتها، مقدره بمقاديرها." (١)

القول بحكمة التدبير والقدر الكوني لا يفيد نفي المسؤولية والإرادة عن الإنسان احتجاجاً بالقضاء والقدر. فالإنسان مجازي على كسبه من خلال اختياره لأفعاله التي لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تخرج عن الأسباب التي جعلها الله ناظمة للكون والحياة، قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٥) [آل عمران: ٢٥]،

(١) خطاب، عبد الحميد. مفهوم الحرية بين الدين والفلسفة والعلم، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٩م، ص ٢١.



وقال أيضاً: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم: ٥١]،  
 و﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾  
 [الروم: ٤١]، و﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:  
 ٣٠]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، فلا يلو من مسيء إلا نفسه. ولا تنهض أمة  
 إلا بكسبها.

من حقيقة التدبير تبرز حقيقة مرتبطة بها وهي حقيقة الإذن الإلهي، فكل شيء يقع  
 في الوجود بإذنه سبحانه، فهو الخالق وهو الأمر وهو الآذن. له الخلق كله وله الأمر كله،  
 ولا يقع الأمر في الأرض ولا في السماوات إلا بإذنه، تدبر قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ  
 بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٩٧﴾، و﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿النساء: ٦٤﴾،  
 و﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ  
 الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١]، فالكون كونُ الله، والإنسان مهما ادعى لنفسه من ملكية علمية  
 أو قوة تقنية أو مهارة تكنولوجية، فهو محاطٌ بإذن الله المطلق وقدره الكوني النافذ. ولا  
 يحيط هو بشيء من علم الله إلا بما شاء الله. حتى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهم لا يهدون إلا بأمر  
 الله وعلمه، وليس بأمرهم من أنفسهم، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ  
 أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، ولا يشفعون إلا بإذنه لا باختيارهم، قال الله تعالى:  
 ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ  
 إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٣]، و﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا  
 خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

يتبين من خلال هذه الآيات الكريهات أن التدبير الإلهي المفوض لخليفته في  
 الأرض لا يتجاوز إرادة الله تعالى، بل "يشمل بعنايته التي لا حدود لها كل الأعراق  
 وكل الأقوام. ليس لديه مختارون. رحمته كما هي عدالته واسعة. كل البشر متساوون  
 لديه دون النظر إلى اختلاف العرق أو لون البشرة،"<sup>(١)</sup> وإنما هو واقع تحت حكمته

(١) مارسيل، روي. تاريخ التفكير بالإله، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ط١، ٢٠١٠م، ص ١٥٢.

وإذنه. فالله تعالى من أسائه "القيوم" يفعل ما يريد، ويأذن بما يريد، لكن رحمته وعدله سبحانه يقتضيان إرادة الخير للإنسان المستخلف، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

### - العلم بحتمية الرجعي:

يقف القارئ للقرآن مع مسألة من أهم المسائل المتعلقة بالوجود البشري، والتي شغلت جميع الأنساق الفكرية والفلسفية قديماً وحديثاً، وهي مسألة الموت والانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وتصور الإسلام عن الآخرة وُلد كاملاً في القرآن الكريم، حيث تبدو الحياة في القرآن كلية عامة ممتدة من بدء الخلق إلى الآخرة، وزمن الآخرة هو زمن الخلد اللانهائي؛ ﴿خَلْدَيْنِ فِيهَا﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهو ميقات لقاء الله تعالى، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُؤْتُونَ﴾ [الرعد: ٢]، ومن ثم فالعلم بالله الباري والعلم بتدبيره الحكيم لا ينفصلان عن العلم بحتمية انتهاء الزمن الدنيوي، زمن الفناء، والانتقال إلى الزمن الأخروي، زمن البقاء، بالرجوع إلى الله، غاية الغايات.

الرجوع حقيقة قرآنية مطلقة، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مِّمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، فيسأل الجميع عن سعيهم لا عن وجودهم، والسؤال في الآخرة مشترك بين الجميع، الصادقين ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، وغيرهم ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]. هذه الحقيقة القرآنية تعارض مع بعض التصورات الفلسفية التي تعد الإيمان بالله والآخرة مجرد حكايات يستحيل إثباتها علمياً أو الاستدلال عليها منطقياً، فهي "مدونة في نصوص يحيط بها هي نفسها الشك... تعجب بالتناقضات والتعديلات والتدليسات. ولا يمكن الوثوق إليها،"<sup>(١)</sup> أو تزعم أنه "لا

(١) فرويد، سيجموند. مستقبل وهم، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، ط ٥، ٢٠١٠م، ص ٣٩.

يمكن تحديد أية شروط تجريبية بين شروط صدق؛ أي عبارة تتعلق بوجود الله وبإسناد صفات معينة إليه. <sup>(١)</sup> وإلا من يستطيع أن يرد قدر الموت وإنهاء الحياة الدنيا في لحظةٍ حددت في غيابهِ وقُدرت عليه تقديراً من غير إذنه؟

من خلال ما سبق، يتبين أنه لما كان "الخلق هو فعل أحدي لإله واحد"، <sup>(٢)</sup> وكان الإنسان هو الكائن المؤمن في الأرض، فعليه يقع واجب معرفة الله الذي خلقه ورزقه واستخلفه، وهو الذي سيقف بين يديه في الآخرة، وفق قانون الرجعى الذي تؤكدُه آيات كثيرة منها: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصص: ٧٠]، ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فيكون العبور من الدنيا إلى الآخرة عبوراً مشتركاً يعود بموجبه الإنسان إلى وطنه الأصلي. وهذا هو سر "الاستخلاف الوجودي" أو "التفضيل الوجودي الأصلي" للإنسان على باقي المخلوقات الأرضية، وهو ليس استعلاءً وجودياً كما يرى بعض الباحثين، نظراً لأن مصطلح الاستعلاء يحمل من معاني التعالي ما نراه يقدر في معاني الاستخلاف والائتمان. <sup>(٣)</sup>

## ب- المقصد التعارفي:

لا تتوقف مقاصد العمران القرآني عند معرفة المخلوق للخالق والانعزال عن الخلق، بل تترجم هذه المعرفة تعارفاً بين الناس، يجسد وحدة الجنس البشري رغم إثبات الاختلاف الإثني والملي، حيث تلتقي المعرفة بالله بالتعارف بين الناس، لتثمر عُمراناً تعبدياً تعارفاً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

(١) ضاهر، عادل. الفلسفة والمسألة الدينية، بيروت: دار نلسن، ١٦، ٢٠٠٨م، ص ٤٧، وينظر أيضاً: ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٢) خليل، خليل أحمد. جدلية القرآن، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط ١، ١٩٩٤م، ص ١٠٢.

(٣) النجار، عبد المجيد. "الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٧٧)، ١٩٩٥م، ص ٢٠ وما بعدها.

وَمَيَّالٍ لِّتَعَارُفٍ إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وعلماء اللغة يسمون اللام في "لتعارفوا" بـ"لام العاقبة"؛ أي إن ما يعقب الخلق المزدوج من الذكر والأنثى، وتعدد الشعوب والقبائل هو تحقيق التعارف وليس التناكر. "إنه اللقاء بين الناس على قواسم مشتركة أو قيم مشتركة تعارفوا على الأخذ بها، وتناهوا عن اتباع مُضاداتها المنكرات،"<sup>(١)</sup> فيكون العمران في اتجاهين: عمران بين العباد وربهم "ليعرفون"، وعمران بين العباد والعباد "لتعارفوا". وباختصار: خُلق الإنسان ليعرف ربه وليتعارف مع غيره.

وفي طبيعة العلاقة بين الثقافات أو بين الحضارات ظهرت مجموعة من النظريات والكتابات وعُقدت العديد من المؤتمرات والندوات والأنشطة التي جعلت موضوعها هو العلاقة بين الأمم، ورفعت شعارات مثل "صراع الحضارات"، و"صراع الأديان"، و"حوار الحضارات" و"التحالف بين الحضارات" و"التدافع الحضاري" و"التلامس الحضاري"، وكتابات "نحن والآخر"، "نحن والغرب"، "الإسلام والغرب"، "الإسلام والمسيحية" "الإسلام واليهودية"... إلخ، لكن هذه الاهتمامات على قيمتها المعرفية لا تتخذ في مجملها من مقاصد القرآن الكريم الكلية نبراساً لاستجلاء طبيعة العلاقة التعارفية بين الناس كما يوردها الخطاب القرآني والنبوي في إلحاحه على المقصد القرآني الكبير والخالد: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.

التعارف من أجل بناء عمران إنساني قائم على قيم عالمية إنسانية تشاركية. فليس القرآن كتاب عقائد وعبادات وأخلاق يؤديها الفرد أو تؤديها "الفرقة الناجية" و"الشعب المختار" في دائرة منغلقة عن الآخرين، متعالية عليهم، بل هو كتاب الإنسان في أبعاده المتعددة، يحمل منهاجاً شاملاً ومتكاملاً للحياة الإنسانية الفردية والجماعية، في تشعب علاقاتها وفي تطورها وتعقدتها وتفاعلها مع الكون، وفي مآلاتها المستقبلية أيضاً.

(١) السيد، رضوان. "شواهد التغيير ومشاهده في القرآن الكريم"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، ص ٣٦.

فكما يطلب القرآن الكريم من الفعل المعرفي الإنساني أن يتجه نحو الله تعالى توحيداً وعبادة، فإنه يطلبه ليتجه نحو العالم تعارفاً وتعاملاً، والتعارف يستتبع مجموعة من القيم المصاحبة، مثل السلام والعدل والحوار والتعاون والأخوة الآدمية، دون إغفال قيم التفاضل والتنافس التي لا تلتقي بالضرورة مع الخطاب الصدامي والصراعي في بعض الكتابات حول العلاقة بين الحضارات وانعكاساتها على مستقبل الإنسانية، مثل ما كتبه المفكر السياسي الأمريكي صامويل هنتغتون في نظريته المسماة بـ"صدام الحضارات".

يتأسس مقصد التعارف بين الناس على وحدة الإنسانية في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ إذ خلق الناس من أصل واحد، من أب واحد وأم واحدة، وكان منه الذكر والأنثى، فحصل التناسل والتكاثر، وجعلت منه الشعوب والقبايل، من أجل تحقيق التعارف، بدءاً بالتعارف بين الذكر والأنثى إلى التعارف بين الشعوب. من حيث لا يتفوق أحد على أحد، أو قبيلة على قبيلة، أو قوم على قوم، أو شعب على شعب إلا بالتقوى لا بالدعوى. ومن التقوى العمل، ومن العمل معرفة بالله الخالق وعلاقة تعارفية مع الخلق. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

بمقصد التعارف أو سميّه: "التعارف العمراني" تتخلص الإنسانية من الإيديولوجيات الصراعية والصدامية، وتتجاوز ذهنيات الإلغاء والإقصاء، وتفصح رغبات التدويب والمحو. فالتعارف يقتضي أن تطلع كل أمة على إنجازات وخصائص الأمم الأخرى، بنية التعارف والتنافس والتبادل والتعاون، لا بنية الهيمنة والتسلط والإقصاء. ويستحضر أن الناس متفاوتون في قابلياتهم وإيمانهم ورغباتهم، لذلك خاطبهم الله بحسب قدراتهم الإدراكية، وضرب لهم الأمثال الحسية والمعنوية تقريباً لمعاني الوحي الخالد إلى أذهانهم وأفهامهم وعقولهم،<sup>(١)</sup> وأثار انتباههم إلى إعجاز الخلق

(١) النجار، عبد المجيد. "العمران والإيمان"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٨)، (٢٧/١٤٢٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٤٠.

للاعتبار والتفكير قصد معرفة الحق والرجوع إلى الوحي لمعرفة الله والاستقامة على أمره، فيزداد الإيمان والعلم بالاعتبار والتفكير والتدبر؛ إذ "الإيمان بالله يجعل نظر العقل ينبسط على مدى عالين اثنين: عالم مشهود هو عالم الموجودات الكونية، وعالم غيبي هو وجود ما وراء المادة، وإذا انبسط نظر العقل على هذا المدى الفسيح، فإنه حينئذ سيتجاوز ما هو محسوس إلى ما هو غير محسوس، ليتخذ منه مجالاً في تقدير الحقيقة." (١)

بين بني الإنسان رحم جامعة باعتبارهم إخوة لا ينقطع التفاعل والتبادل والتواصل بينهم، وهي أفعال تعارفية تقع بين الناس جميعاً، بدءاً بالأسرة إلى القبيلة والقبائل والمدائن والشعوب ومختلف المكونات العمرانية في العالم. ووصل الرحم بالرحمة والتراحم والرحمة موصول بالمقصد التعبدي، والرحمة تشمل كل خير وصلاح، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكل جلب للمنافع ودفع للمضار هو رحمة تسع الخلق أجمعين.

إذا كان القرآن المجيد خطاباً عالمياً موجهاً إلى البشرية جميعها في سائر عصورها، وفي نطاقها الجغرافي الذي هو الأرض كلها، فإن العمران هو ثمرة الإنتاج الجماعي المشترك في مختلف المجالات الفكرية والتقنية والعلمية والثقافية والأدبية والفنية وغيرها، الذي شاركت فيها جميع الأمم والشعوب عبر تاريخها. وبهذا الفهم "يكون الأصل الاجتماعي - في القرآن الكريم - التعارف وليس التنافر بين البشر هو أساس العلائق، حتى ولو طرأ على هذا الأصل ما يعوق عطاءه عن المضي في إمداد الحياة بالإيجابية الصالحة." (٢)

### ت- المقصد الإصلاحي:

ثالث المقاصد العمرانية في الخطاب القرآني، هو مقصد الإصلاح، وهو ضد الإفساد، يقول الزبيدي: "الصلاح ضد الفساد،" (٣) كما أن العمران ضد الخراب،

(١) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢) الماقوري، سالم أحمد. المثل الأعلى للمجتمع الإنساني كما تحدث عنه القرآن الكريم، طرابلس: دار اقرأ، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٣٥٩.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢٥.

والمصلح ضد المفسد، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]،  
﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]،  
والإصلاح بمعناه القرآني لا يتم إلا بمواتاة المقصدين السابقين؛  
التعبدى والتعارفي أثناء السعي في الأرض، لذلك قرُن الإصلاح في آيات كثيرة بالتوبة  
والإنابة والتقوى والتوحيد، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

### - نطاقات الإصلاح العمراني في القرآن:

#### إصلاح معرفي عقدي:

ويتمثل في إصلاح فكر الإنسان ليصلح حاله، وإلا لا يستقيم الظل والعود  
أعوج، كذلك لا ينصلح وضع الناس من غير إصلاح لتفكيرهم واعتقادهم ورؤيتهم  
للوجود. فالتصورات التي يحملها كل فرد في ذهنه عن الله وعن الناس الآخرين وعن  
الطبيعة هي التي تحدد طبيعة تصرفه وسلوكه، ومن هنا وجب إصلاح الأنفس  
والعقول قبل إصلاح الأشياء والمؤسسات، "ومما يغيب عن الأذهان أن العمران  
مرتبط بتزكية النفس ومُستند إليه، فلا تشيد ما يصلح الحياة هم قاعدة وهموم سادرة  
لا تدري عواقب الأمور. ولا يمكن للعمران أن يقوم دون الصبر على الإعداد له وعلى  
بنائه لبنة لبنة جيلاً بعد جيل... وإذا لم تتخلص همة العمران من الجشع، انقلبت خطط  
العمران تسلطاً على الضعفاء من القوم، تُغني فريقياً منهم وتُفقّر فريقياً آخر، أو تعمر  
بلداً على حساب بلادٍ أخرى تستخرّبها بسلب ثرواتها واستضعاف أهلها... وكنّز  
الأمراء الثروات وقعدت بهم دنيا الترف والملذات، وضربوا المكوس لتغطية نفقات  
القصور والأوابد، ظهر الخراب في البلاد وانفرط عقد السياسة والاجتماع،"<sup>(١)</sup> أما إذا  
أصلح الناس ذواتهم وهم جزء بحكم وظائفهم من حركة كونية قائمة، فإن الله يحفظ  
لهم أوضاعهم وبياراتها لهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [١٧]

(١) هاشم، مازن موفق. مقاصد الشريعة الإسلامية مدخل عمراني، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

ط١، (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، ص٣١٦.

[هود: ١١٧]. فالمعرفة قبل السلوك وملازمة له، والعلم قبل القول والعمل وملازم له، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٧﴾ [الأعراف: ٩٦].

### إصلاح عملي سلوكي:

ويتم هذا الإصلاح بحفظ صلاح السلوك وصلاح الأرض من أن يطاها الفساد الذي يلحقها من سوء استخدام الإنسان لخيراتهما، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، قال الطاهر ابن عاشور في معنى الآية: "والبعديّة في قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعديّة حقيقية، فالإصلاح هنا... أريد به إصلاح حاصل ثابت في الأرض، لا إصلاح هو بصدد الحصول... والتصريح بالبعديّة هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنه إفساد لما هو حسن ونافع،"<sup>(١)</sup> وتتوقف عملية إصلاح الأرض على إحياء مواتها واستغلال خيراتها وإحسان تسخيرها فيما يفيد الإنسان ويحافظ على بيئته سليمة معطاءة عبر الأجيال. وقد قرّن الإيثار بالعمل الصالح في عشرات الآيات بصيغة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وكأن العمل الصالح هو معيار الإيثار الصادق، حتى قيل "لا إيمان سالم بلا عمل صالح"، ونزعة القومة والإصلاح هي المرتكز الإيماني النفسي لعالمية المنهاج القرآني النبوي.

والفعل معيار صدق القول، والعمل محك نفع العلم؛ "إذ ما بهم في التفكير ليس فقط التمكن من الفكرة، ولكن أيضاً، اقتفاؤها واتباعها في العمل والسلوك،"<sup>(٢)</sup> فتكون الفكرة نافعة إذا أثمرت عملاً صالحاً، وصلة النفع بالفكر والصلاح بالعمل، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: ٢-٣]، فالإصلاح عملٌ وإنجاز وليس كلاماً وجدلاً. قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّي اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَارِدُونَ﴾ إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) النقاري، منطق الكلام؛ من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، مرجع سابق، ص ٩.



﴿١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥]. لهذا حرص النبي الخاتم ﷺ على تربية المسلمين تربية سلوكية عملية جامعة، روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك."<sup>(١)</sup>

### - خصائص الإصلاح العمراني في القرآن:

#### خاصية الإنسانية:

الإصلاح مطلب إلهي كوني موجه لجميع الناس في جميع الأزمان والأماكن، قصد إقامة العمران، ومن ثمّ فإنسانية الإصلاح مستمدة من إنسانية العمران، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰئِرِينَ وَالصَّٰبِغِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، و﴿أَنْ تَبْرَأُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وجميع الناس يتحملون مسؤوليتهم في أفعالهم إن كانت صالحة أو فاسدة، ما دامت لهم إرادة وقدرة على الاختيار، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الصالح متعدّد والفساد كذلك، "فالفرد عند صلاحه وتقواه يصبح لبنة يكون مع غيره البناء الإسلامي الذي يساهم في رد الظلم ونصرة الحق"،<sup>(٢)</sup> وحديث السفينة في هذا المعنى - وغيره كثير - شاهد على الوظيفة الإصلاحية، وعلى دوام التفاعل بين السنن القرآنية والسنن الكونية والسنن النفسية، من حيث لا يصح الفصل بين هذه

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: علامة حب الأنصار، ج ١، ص ١٥، حديث رقم: (١٨).

(٢) المنصور، خالد منصور. العلاقات الإنسانية في الإسلام، السعودية: مكتبة التوبة، ط ٢، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٩٥.

السنن إلا من حيث انتظامها وتعلق بعضها ببعض، وإلا وقع الخلل وحصل العبث. ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ أَجَابَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ. <sup>(١)</sup> ولا يكثر الخبث إلا إذا كثر فاعلوه، الذين ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، مع التنبيه إلى أن الإصلاح الإنساني في استطاعة الإنسان إقامته؛ لأن الله يستحيل في حقه تكليف عباده ما لا يطيقون، أو أمرهم بما قيامه محال.

### خاصية الاستمرارية:

ليس الإصلاح فعلاً مؤقتاً، وإنما هو فعالية مستمرة، ترافق الفرد طيلة حياته، وترافق الإنسانية في سعيها الدائم، ولا يتوقف الإصلاح إلا بانتهاء الحياة الدنيا في حق الفرد فيما يخصه وحده، وفي حق الناس أجمعين بانتهاء الوجود الإنساني من على وجه الأرض، مما يجعل الإصلاح حركة مستمرة عبر الأجيال ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]، وهذا هو مقصد الاستخلاف: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. والقرآن نفسه يتحدث كثيراً عن استمرار الإصلاح: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّبَائِبِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، و"اعملوا صالحاً" فعل أمر مستمر مع استمرار الإنسان فرداً كان أو نوعاً. فالفرد المصلح والجماعة المصلحة يذبلون جهدهم باستمرار وتدرج ورفق في إصلاح الناس، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فالإصلاح يتشترط الصبر والاصطبار. ولا يلام المصلح إلا على ما يطيق، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

### خاصية الشمولية:

يتصف مفهوم الإصلاح في القرآن بخاصية الشمولية، فهو يجمع بين معاني الإصلاح المادي والإصلاح المعنوي، المعرفي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والبيئي وغيره، ويملاً علاقاته بربه وبذاته وبغيره من الناس ومن الأشياء.

(١) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ج ٤، ص ٢٢٠٧، حديث رقم: (٢٨٨٠).

ف"التعمير المادي يسير مع التعمير المعنوي في آن واحد، لا ينقطع أحدهما عن الآخر،"<sup>(١)</sup> حراثة الأرض مثلاً، والإصلاح عندما يضاف إلى الأرض إنما يقصد به حسن الإدارة وحسن العمارة وحسن تدبير الموارد المادية، و"عمارة ما تحتاجون إليه من بناء المساكن، وغرس أشجار،"<sup>(٢)</sup> وإصلاح النفس وإصلاح ذات البين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

لذلك يقصد العمران إلى تحقيق الإصلاحين بشكل متوازن لا يغلب فيه جانب على جانب، ولا يتعطل أحدهما بقيام الآخر. ويشمل نطاق فكر الفرد ونطاق فعله، كما يشمل نطاق تفكير وعمل الجماعة. إصلاح فردي في مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، وإصلاح جماعي في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، وفي إصلاح الأسرة اللبنة الأساس في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

### خاصية الغائية:

الإصلاح في القرآن الكريم مُعلل بغاية عمرانية هي الحياة الطيبة اجتماعياً وإنسانياً وأخلاقياً في دار الاستخلاف، والجزاء الحسن بالمغفرة والنعيم في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال أيضاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، فالجزاء من جنس العمل، المصلحون جزاؤهم الأمن وعدم الحزن، أما المفسدون فجزاؤهم أن يمسههم

(١) الدغامين، زياد خليل. "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥٤)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص ٢٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج ٩، ص ٥٦.

العذاب بفسادهم. وإن ادَّعوا أنهم مصلحون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

غايات الإصلاح، إذن، حفظ الصلاح الفطري في النفوس والصلاح الأصلي في الكون، ودرء كل فساد يعطل هذين الصّلاحيين، فعلى المستوى الأول يتوجه فعل الإصلاح إلى ترسيخ المقصد المعرفي التعبدية ورد الفساد الفكري والعقدي المتلبس به ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وعلى المستوى الثاني يتوجه فعل الإصلاح إلى إتقان التسخير الكوني، والنهي عن كل أشكال الفساد والظلم في الأرض: اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وأمنياً... قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَأَتَّعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود: ١١٦]، لذلك أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لجلب المصالح ودرء المفاسد على جميع المستويات وفي مختلف المجالات، قال تعالى في خصال الصالحين أنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٤]، ولا يُجدي العمران المادي مع الخراب المعنوي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٩].



## الفصل الخامس:

### المشترك البيئي الطبيعي مدخلاً للمشترك الإنساني

من مسلمات القول بالمشترك الإنساني ليس فقط بين المسلمين والغرب، وإنما بين الإنسانية كلها، اليقين بأن الإنسان عنصر من عناصر هذا الكون، منه نشأ وفيه يسعى وعلى بساطه يستخلف وعن الفعل فيه يُسأل. كلاهما (الإنسان والكون) خلق من خلق الله، ينطبق عليهما الناموس الناظم لحركة الخلق في الظهور وفي الحياة وفي المصير. ففي الآيات الآتية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَظِيمٍ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَنْعَامِ مَا نَشَاءُ لِّإِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُوَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٥-٦]، يتبين أن الإنسان يشترك مع الأرض في الأصل الخلقى، ويشترك معها في مبدأ التطور والتغير والحركة، فكما تحوّل هو من ترابٍ، إلى نطفةٍ، إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ، إلى طفلٍ، إلى بالغٍ أشدّه، كذلك تتحول الأرض من تربةٍ هامدةٍ إلى مهترجةٍ إلى مربيةٍ إلى مُنبِةٍ. لكن الإنسان غير الأرض، ودراسته غير دراستها.

### أولاً: البيئة بين قصور التصور المادي وشمولية التنزيل القرآني

من التوافق الوجودي الذي تكشفه آيات القرآن الكريم بين الإنسان والكون، يتبين أن المشترك الإنساني لا ينفصل عن المشترك الطبيعي البيئي، حيث إن هذا الأخير هو الوعاء والحاضن للمشترك بين الناس، نظراً لاستحالة الحياة البشرية إلا في البيئة الطبيعية. وهو ما تؤكده حكمة الاستخلاف والتسخير، حيث يكون الإنسان مستخلفاً مؤتمناً على البيئة التي يعيش فيها، ويُنمي فيها معاشه الاقتصادية والعلمية والتقنية والسياسية. وتكون الطبيعية مُسخرة له حاملة لمشروعه في الوجود "يؤثر فيها ويتأثر بها، وهو جزء لا يتجزأ منها، لا يمكنه أن يجيا بدون هوائها ومائها، أو يابسها،

مثل كل الكائنات الحية." (١)

لذلك تطرح اليوم المشاكل البيئية أو المشاكل المرتبطة بالبيئة الطبيعية على مستوى عالمي، نظراً لارتباطها بالإنسان من جهة بوصفه الفاعل المستأمن، وبالأرض من جهة ثانية بوصفها محل هذا الاستئمان ومجاله، والتي لا سعي للإنسان إلا عليها. فالهم البيئي لم يعد أمراً داخلياً يخص دولة بعينها، لكنه أصبح أمراً له بعد عالمي، فالبيئة لا تعرف حدوداً سياسية، ولقد أصبح لازماً على المجتمع الدولي أن يتعامل مع هذه القضية خارج إطار حدود الدول والأطر السياسية،" (٢) مثلما لا يتوقع لاقتراحات الحلول أن تكون ناجعة إلا إذا استحضرت الأبعاد العالمية والشمولية.

## ١ - البيئة الطبيعية في الفلسفة المادية:

### أ- تعريفات معجمية:

أورد المعجم الإنجليزي أوكسفورد Oxford بأن البيئة هي: "المحيط أو الوسط الذي يعيش فيه الإنسان أو الحيوان أو النبات، ومنه تحيا،" (٣) وفي المعجم الفرنسي لاروس Larousse، يطلق لفظ "البيئة" على "مجموع العناصر الحيوية وغير الحيوية، المحيطة بالإنسان أو الكائنات الحية، التي تساهم في تأمين حاجياته." (٤) وفي معجم "مفاتيح اصطلاحية جديدة": (٥) "ظهرت البيئة مرتبطة بالطبيعة، لتعني المحيط

(١) رزق، خليل. الإسلام والبيئة، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ١٦.

(٢) الخولي، أسامة. "البيئة وقضايا التنمية والتصنيع"، مجلة عالم المعرفة، العدد (٢٨٥)، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص ٢٢.

(3) Simpson, J. A. & Weiner, E. S. *The Oxford English dictionary*. Oxford: Clarendon press, 1989, vol. 5. p. 315.

(4) *Grand Larousse de la langue française*, Paris: Librairie Larousse, 1976.

(٥) بينيت، طوني. وغروسبيرغ، ولورانس. وموريس، ميغان. مفاتيح اصطلاحية جديدة، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠١٠م.

الطبيعي؛ أي غير الإنساني وغير الثقافي، واندماج بها علم البيئة بوصفه جهداً علمياً لربط الكائنات العضوية كالإنسان ببيئتها... ظهر علم البيئة كعلم في أواخر القرن التاسع عشر لدراسة التفاعلات بين المكونات غير الحيوية كالهواء والماء والتربة، والمكونات الحيوية كالنباتات والحيوانات." (١)

هناك جدل واختلاف في تحديد مفهوم البيئة؛ هل هي الوسط الطبيعي أم الوسط الطبيعي والاجتماعي أم هي الوسط الحضاري؟ وكثرت التعريفات خاصة مع تطور الاهتمام بالبيئة في جميع الحضارات بشكل متوازٍ مع تطور العلوم والتقنيات. (٢) ولعل أشهر تحديد هو الذي ساقه "أرنست هايكل" Ernest Haeckel سنة ١٨٦٦م لما عرفها بأنها "العلم الذي يدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش فيه، ويهتم هذا العلم بالكائنات الحية وتغذيتها، وطرق معيشتها وتواجدها في مجتمعات أو تجمعات سكنية أو شعوب، كما يتضمن أيضاً دراسة العوامل غير الحية مثل: خصائص المناخ: الحرارة، الرطوبة، والإشعاعات، وغازات المياه والهواء، والخصائص الفيزيائية والكيميائية للأرض والماء والهواء،" (٣) وميز بين نظامين من البيئة:

- نظام طبيعي: مجموع العناصر الطبيعية التي يعيش وسطها الإنسان: التراب، والهواء، والماء، والنبات والحيوان... أي البيئة الطبيعية التي هي من خلق الله تعالى إيجاباً وإمداداً.

- نظام ثقافي: مجموع عناصر البعد الاجتماعي للإنسان من صناعات ولغات ومؤسسات وعلاقات... أي البيئة الثقافية الاجتماعية التي أنشأها الإنسان حوله.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٥٠-١٥١.

(٢) الصعدي، عبد الحكيم عبد اللطيف. البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط ٢، ١٩٩٤م، ص ١٧.

(3) McTaggart, W. Donald. "la Géographie Moderne et LA Pensée Écologique", *Cahiers de*

*Géographie du Québec*, Vol. 32, No. 87, décembre 1988, P. 321-326.



إلا أن تحديد هايكل حينما يفصل بين النظامين، فإنه يغفل تداخلهما وتكاملهما من حيث يستحيل الفصل بينهما، وما يهمننا في هذا الفصل هو الحديث عن البيئة الطبيعية، وما تضمنه من كائنات وجمادات في البر والبحر والفضاء، أو قل: ما يملأ الأرض من أشياء، بوصفها مشتركاً إنسانياً، فالبيئة الطبيعية "هي الوسط الخارجي الجغرافي والبيولوجي المحيط بالإنسان"،<sup>(١)</sup> انطلاقاً من وسط البيت البيئة الصغيرة إلى محيط الأرض البيئة الكبيرة. ولعله المقصود مما جاء في تعريف مفهوم البيئة في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي انعقد في استوكهولم سنة ١٩٧٢م؛<sup>(٢)</sup> في كونها "رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما، ومكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته"،<sup>(٣)</sup> وتنقسم البيئة حسب توصيات المؤتمر إلى ثلاثة عناصر هي:<sup>(٤)</sup>

- البيئة الطبيعية: وتتكون من الغلاف الجوي (اليابسة)، الغلاف المائي، المحيط الجوي.
- والبيئة البيولوجية: هي جزء من البيئة الطبيعية، وتشمل جميع الكائنات الحية التي تحكمها القوانين البيولوجية، سواء منها الإنسان أو غيره من باقي الكائنات العضوية.
- والبيئة الاجتماعية: هي العلاقات النازمة لحياة جماعة بشرية ما في منطقة جغرافية محددة.

وبناء عليه تكون العلوم الطبيعية هي العلوم التي تدرس الظواهر الفيزيائية الطبيعية غير البشرية الموجودة في الكون المحيط بنا، ومحاولة وصف وتفسير كيفية انتظام هذه الظواهر وتطورها، وكيفيات تعلق بعضها ببعض، وتأثير بعضها على

---

(١) الحسن، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٢) مؤتمر استوكهولم: مؤتمر الأمم المتحدة للتنمية عام ١٩٧٢م بالعاصمة السويدية استوكهولم، أعلنته ٢٤ دولة، تحت شعار: "لا نملك إلا الكرة أرضية واحدة".

(٣) المرجع نفسه.

(٤) رزق، الإسلام والبيئة، مرجع سابق، ص ٣٢.

بعض، واكتشاف القوانين السببية الفاعلة والكافية، لفهم أو تفسير حدوث واستمرار أو اختفاء الظواهر الطبيعية، ف"العلم لا يعدو كونه بحثاً عن مثل تلك السببية المتكررة في الطبيعة؛ لأن علاقات السببية المشكلة لخيوط سببية ما، تتكرر في خيوط السببية الأخرى المناظرة له، والبرهنة على وجود مثل تلك العلاقة مناظر لاكتشاف قوانين الطبيعة، وهو الشرط المسبق لإخضاع قوى السببية في الطبيعة للضبط والهندسة. وهو بالتبعية الشرط الضروري لانفعال الإنسان بها."<sup>(١)</sup>

وعلى هذا الأساس يتم بناء نظريات علمية تنقل الواقع الطبيعي في صيغ رياضية مُكمّمة تحمل القوانين والقواعد التي تنظم سيرورة الظواهر المدروسة، مع الحذر من الوقوع في محاذير التفسيرات الخرافية والأسطورية والإيديولوجية. ومن بين فروع العلوم الطبيعية انبثق ما يسمى بـ"علم البيئة" أو "الإيكولوجيا" خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالضبط سنة ١٨٦٦م، حيث استعمله لأول مرة العالم الألماني "أرنست هايكل" عبر دمج بين مصطلحين يونانيين هما "Oikes" ومعناها سكن، و"Logos" ومعناها علم أو نظر، وبعد ذلك انتشر المصطلح وكثرت الدراسات واتسعت الأبحاث وتضاعفت الكتابات في الموضوع وما تزال.

### ب- المرجعية المادية في الفلسفة الطبيعية:

اهتم الفكر الفلسفي قديماً وحديثاً بالبيئة الطبيعية، بشكل يعكس انشغال الإنسان بمحيطه الطبيعي منذ أن طرأ على الوجود، ومحاولاته لإيجاد أجوبة مُقنّعة لجملة من الأسئلة التي تثيرها مظاهر الكون الطبيعي وظواهره، في انتظامها وانسجامها من جهة، وتأثيرها على الحياة البشرية الفردية والجماعية من جهة أخرى، وعند اليونان نحتت الفيزياء اليونانية جملة من المفاهيم الطبيعية مثل: الطبيعة، والمادة، والصورة، والجوهر، والعرض، والكون، والوجود، والعلة، الهبولى... واستمرت هذه المفاهيم مع العصور اللاحقة، وأضيفت إليها مفاهيم وتخصصات وحقول معرفية متصلة بالموضوع.

(١) الفاروقي، التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، مرجع سابق، ص ١٠٦.

ولا غرابة أن يسمى الفلاسفة الأوائل بالفلاسفة الطبيعيين أمثال طاليس وأنكسمانس وأنكسماندر؛ لأنهم تساءلوا عن أصل الكون والقوانين الناظمة له، وطبيعة المادة وعلاقتها بالفكر، فعَدَّ طاليس أن "العالم صادر عن الماء وراجع إلى الماء. وبتعبير أقرب إلى كلامه: إن العالم يخرج من المحيط ويرجع إلى المحيط"،<sup>(١)</sup> وأجاب أنكسماندر عن سؤال حول أصل الكائنات الحية بقوله: "إنها نشأت من الرطوبة بعد أن تبخرت الشمس، وكان الإنسان كغيره من أنواع الحيوان، فكان في البدء سمكة"،<sup>(٢)</sup> وعدَّ أنكسمانس أن أصلها من الهواء الذي هو "مادة لا نهائية معينة متحركة علة الحياة في العوالم... منه تكونت الأشياء بالتكاثف والتخلخل"،<sup>(٣)</sup> وآخر قال أن أصلها من نار، ورايع قال من تراب، فيما يسمى بـ"الأسطقسات الأربع"؛ أي العناصر التي تؤلف الكون، التي لولاها لما وجدت الحياة. وظن غيرهم ظنوناً أخرى كالعدد والعقل واللامتعين والذرات...

كما كتب أرسطو طاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في الطبيعة وما بعد الطبيعة، وتحدث عن عادات الحيوانات وبيئتها، وألف كتاب "الحيوان"، وقاس ظواهر الطبيعة على سلوك الإنسان والحيوان، ففسر حركات الأجرام السماوية وكأنها حركات كائنات حية، ورتب الموجودات ترتيباً تصاعدياً بدءاً بالعناصر البسيطة (الماء)، والتراب، والنار، والهواء، وبعدها المعادن، ثم النباتات والحيوان، وبعد ذلك يأتي الإنسان، وأخيراً ترتقي الأجرام السماوية في أعلى الرتب وأشرف المقامات.<sup>(٤)</sup> ونشر أبوقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق.م) كتاباً بعنوان "عبر الأجواء والمياه والأماكن"، يذكر فيه تأثير هذه العوامل الثلاثة على الكائنات الحية ومنها الإنسان، وتوالت الاهتمامات الفلسفية بالطبيعة إلى أن استقلت العلوم الطبيعية في القرن السادس عشر عن الفلسفة،

(١) بلدي، نجيب. دروس في تاريخ الفلسفة، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٦، ٢٠٠٤م، ص ١٤.

(٢) الأهواني، أحمد فؤاد. فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية، ١٩٥٤م، ص ٦٢.

(٣) الخطيب، الفكر الإغريقي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٤) الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم (ج ٢) المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، مرجع سابق، ص ٣٨.

وتعددت تخصصاتها بتعدد مناهجها وموضوعات اهتمامها التفصيلية.

غير أن الفلسفة التي استأثرت بموضوع الطبيعة هي الفلسفة المادية،<sup>(١)</sup> التي يعرفها عبد الوهاب المسيري بقوله: "الفلسفة المادية هي المذهب الفلسفي الذي لا يقبل سوى المادة بوصفها الشرط الوحيد للحياة الطبيعية والبشرية، ومن ثم فهي ترفض الإله كشرط من شروط الحياة... ترد كل شيء في العالم الإنسان والطبيعة إلى مبدأ مادي واحد هو القوة الدافعة للمادة والسارية في الأجسام والكامنة فيها والتي تتخلل في أثنائها وتضبط وجودها. قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد، وهي النظام الضروري والكلي للأشياء؛ نظام ليس فوق الطبيعة وحسب، ولكنه فوق الإنسان أيضاً،"<sup>(٢)</sup> وداخل الفلسفة المادية عموماً يمكننا التمييز بين تصورين مختلفين - على الأقل - بصدد علاقة الإنسان بالطبيعة، وهما:

#### - تأليه الطبيعة واستغفال الإنسان:

يصر التصور المادي التأليهي للطبيعة على النظر إلى الوجود في شقه الحسي، بل في جانبه الشئني فقط، وتأليه الطبيعة يفيد تهميش الإنسان وتقليص وجوده الأخلاقي في - مجرد- أداة وظيفية، وكأن الكون خلق نفسه ودبر أمره. ويتجاهل الارتباط القائم بين الخلق والخالق أولاً، وبين الإنسان والكون ثانياً، ومنه استئمان الإنسان على الكون ثالثاً. مع الغفلة عن كون الطبيعة لا تستقل بماهية خاصة تميزها عن غيرها من الكائنات، وإنما هي خاضعة لنظام حتمي من خارجها لا تتخلف عن الانسجام معه. وترجع جذور هذا التصور إلى الإنسان البدائي الذي كان يعتقد أن أشياء الطبيعة كائنات حية تعي وتريد، تتصرف برغباتها كالإنسان، فتحب وتكره، وتعطي وتأخذ، وتتسامح وتنتقم، ولما كانت قوتها تفوق قوته، فإنه يسترضيها بالقرابين ويستعطفها بالتوسلات.

(١) المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، مرجع سابق، ص ١٥ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

وقعت الفلسفة المادية في التمرکز حول الطبيعة والقول بتأليه أشیائها، ونفي مبدأ الخلق والغاية من وجودها، ورد نظامها وسيورتها إلى حركة ذاتية. فأرسطو طاليس يُعرف الطبيعة بكونها "مبدأ في الشيء به يتحرك ويسكن أولاً وبالذات،"<sup>(١)</sup> ولم يكلف نفسه الجواب عن سؤال: من خلق الحركة والسكون؟ ومن نظم تلك الحركة؟ ومن أبداع الشيء المتحرك؟ ومن يضمن استمرار الحركة إلى حين؟ وخاصة مع إقرار الإنسان بعجزه! وهو الموقف الذي تبعه فيه ابن رشد ووافق عليه بقوله: "من المعلوم بنفسه أننا نرى الأمور الطبيعية تتغير من ذاتها، لا من أمر خارج."<sup>(٢)</sup> هذا التصور أدنى بالقائلين به إلى إنزال الشيء منزلة المُشيء، والمصنوع منزلة الصانع، والمفعول به منزلة الفاعل.

الإنسان في هذا التصور الذي يحصر المعرفة في الجانب الحسي فقط، شيء من أشياء الطبيعة تجري عليه قوانينها بشكل حتمي لا هوادة فيه، هي مرجعيتها، ومرجعيتها ذاتها، ومرجعيتها جميع الكائنات.<sup>(٣)</sup> أو بتعبير عبد الوهاب المسيري هي: "موضع الحلول والكمون ومركز الكون اللوجوس... قوانينها تتجاوز كل شيء ولا يتجاوزها شيء، وهي قوانين لا هدف لها ولا غاية، ولا تمنح الإنسان أية أهمية خاصة، فالإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة/المادة يعيش داخلها وحسب قوانينها. وهي مادة لا قداسة لها ولا خصوصية ولا أسرار فيها،"<sup>(٤)</sup> أما "الإله" فهو في نظر أرسطو: المحرك الذي لا يتحرك، لأن "كل شيء يتحرك فله محرك، وأن المحرك الأول يجب ألا يتحرك،"<sup>(٥)</sup> أو هو الذات التي لا تحيط بالجزئيات، أو هو مجرد فكرة انتهت مع ظهور المرحلة

---

(١) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد. المقدمات في الفلسفة «المسائل في المنطق والعلم الطبيعي والطب»، تحقيق: أسعد جمعة، تونس: كلية الآداب بالقيروان، ٢٠٠٨م، مج ٤، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية؛ أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٨٨.

(٤) المسيري، عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م، مج ١، ص ٢٦٧.

(٥) ابن رشد، المقدمات في الفلسفة، مرجع سابق، ص ١٩-١٨؛ إذ يقول في شرحه لكلام أرسطو: "كل متحرك في المكان عن محرك من خارج ينتهي الأمر في ذلك إلى متحرك من تلقائه."

الوضعية كما تزعم الفلسفة الوضعية، أو أنه وهمٌ اخترعه الفقراء لتكبييل الأغنياء كما يدعي فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠م).

الجامع في هذه المواقف الفلسفية هو اعتبار أن "الطبيعة تحوي داخلها كل القوانين التي تتحكم فيها وكل ما نحتاج إليه لتفسيرها؛ فهي علة ذاتها، توجد في ذاتها، مكتفية بذاتها، وتدرك بذاتها، وهي واجبة الوجود،" (١) مما يفيد إنكارها لوجود الله الخالق والرازق والمدير. ولعل ذلك الاعتقاد هو ما بينه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْدِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

هذا التصور أسقط النزعة المادية في "نظرة ميكانيكية أحادية" دافع عنها العديد من الفلاسفة التجريبيين أمثال جون لوك، ودافيد هيوم، وبير دوهم وغيرهم ممن اعتبروا أن "الإنسان كموضوع للمعرفة، هو جزء من العالم الطبيعي،" (٢) وبناء على ذلك "كل ما في الكون من أجسام مادية متحركة وينتج عن حركتها تغيرات في صفاتها، فمعرفتها بالأجسام تكون معرفة بالصفات الثانوية التي تقدمها الحواس." (٣) تعمق هذا التصور بتغير علاقة التقنية مع العلم، لصالح تغوّل التقنية وسيطرتها نتيجة التكاثر المهول في الاختراعات الدقيقة والثقيلة، مما تسبب في "ظهور تصور جديد للعلم. فقد أصبح هذا الأخير معرفة بأسباب وعلل الظواهر المحسوسة، معرفة تتجه دوماً نحو صياغة القوانين العامة التي تحكم الظواهر التي أصبحت أحياناً بمثابة بنيات جوهرية للعالم. وهذه القوانين تتعلق بكيفية ترابط وكيفية إنتاج الأحداث والوقائع المادية. فمن يعرفُ علة الظاهرة هو مبدئياً سيد هذه الظاهرة وقد تحولت إلى مفعول؛ لأن باستطاعته أن يُفعل العلة المنتجة لمفعول الظاهرة أو لا، كلما أراد ذلك. وذلك هو معنى قول فرنسيس

(١) المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) حمد، إنصاف. المعرفة والتجربة؛ دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م، ص ٤٠٩.

(٣) إمام، عبد الفتاح إمام. هوبز فيلسوف العقلانية، بيروت: دار التنوير، ط ١، ١٩٨٥م.

يكون: إن المعرفة قوة وقدرة." (١)

ويَسوقُ هذا التصور المُلغِي للخالق والمؤلِّه للطبيعة والمُلحِق للإنسان بالظواهر الطبيعية القابلة للتكميم، إلى القول بالفراغ وراء المحسوسات الطبيعية، وخلق الفعل الإنساني من القيم الأخلاقية، فإسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) مثلاً يعدّ الفضاء فراغاً مطلقاً وأن الكون "مكون من مجرات عديدة تسبح في الأثير الذي يملأه. أما ما وراء ذلك فهو خلق من أي شيء،" (٢) فالأمر عنده أجسام في فضاء وانتهت قصة الوجود، وأن علاقة الله بالعالم شبيهة بعلاقة صانع الساعات بالساعة، حيث يتدخل لإصلاحها بين الفينة والأخرى، (٣) وفات نيوتن البرهان على وجود الخلاء، في كونه خلاء وموجود في الوقت نفسه! ومن أوجده؟ ولأية غاية؟ إذ قرر القول بذلك من غير دليل، فلم يحدد طبيعة الفضاء الفارغ ولا القوانين الناظمة له قبل أن يتحول إلى ملاء عامر؛ أي إلى وجودٍ حسي؟ وهل سبق الفراغ كونٌ سابق أم أنه فراغٌ وجودي أصلي؟ وهل الفراغ وجود أم عدم؟

وفي المنزلق نفسه وقع ألبرت آينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م) الذي يرى الكون "كرة من الفضاء تسبح فيها المجرات، تسير في اتجاه مستقيم من البعد الزمني،" (٤) ويصدق هذا التقصير على الفلسفة الطبيعية التجريبية في جميع تخصصاتها التي ترى أن ثمة قانوناً مادياً واحداً يسري على الظواهر الطبيعية والإنسانية؛ أي ما يسميه عبد الوهاب المسيري بـ"واحدية العلوم". فزعيم الفلسفة الوضعية أوغست كونت المتأثر بمناهج العلوم الطبيعية وخاصة بفيزياء إسحاق نيوتن، (٥) يدعي أنه بالإمكان دراسة

(1) Hottois, Gilbert. *De la renaissance a la post-modernité*, Paris: Bruxelles, 1997, pp. 428-430.

(٢) بدر، عبد الرحيم. الكون الأحذب؛ قصة النظرية النسبية، بغداد: مكتبة النهضة، ط٣، ١٩٨٠م، ص٢٥٨.

(٣) مخوخ، عبد النبي. فلسفة نيوتن الطبيعية (١) الزمان والمكان، الرباط: مؤسسة مفاتيح العلوم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤) بدر، الكون الأحذب؛ قصة النظرية النسبية، مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٥) الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم (ج٢) المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، مرجع سابق.

العلوم الاجتماعية بنفس مناهج دراسة العلوم الطبيعية. وتبعه في ذلك إيميل دوركهايم الذي يعد أن المنهج السوسيولوجي العلمي ينظر إلى الظواهر الإنسانية كأشياء طبيعية، يقول بهذا الصدد: "إن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء، ويجب أن تدرس كأشياء.. لأن كل ما يعطى لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عداد الأشياء".<sup>(١)</sup>

أما عند تشارلز داروين في كتابه "أصل الأنواع، أو المحافظة على السلالات المفضلة في الصراع من أجل الحياة"،<sup>(٢)</sup> فلقد كانت نظريته في النشوء والتطور والارتقاء إنكاراً لوجود الخالق ولفعله في الكون، ونفياً لأية غاية يتجه نحوها الوجود، وكذلك الفلسفة الماركسية التي حاولت أن تُمنطق "نظرة جدلية في رؤيتنا لطبيعة الدوافع الكامنة وراء مفاهيم التغيير في العالم، فالأشياء تتغير وفق دوافع كامنة في نفسها، ولهذا كان تطوره حتمياً"،<sup>(٣)</sup> إلى أن انمحت صورة الإنسان في الفلسفة المعاصرة، وبهذا فـ"الإنسان اختراع تظهر أركيولوجيا فكرنا بسهولة حداثة عهده، وربما نهايته القريبة".<sup>(٤)</sup>

نتيجة ذلك كله تم تحويل الظاهرة الإنسانية من ظاهرة مركبة إلى ظاهرة حسية بسيطة، خالية من القيم الأخلاقية، وفارغة من كل المعاني الغيبية وغير الملموسة، وغافلة عن سؤال الغاية من الخلق. يقول محمد عابد الجابري بهذا الصدد: "الحالة الوضعية تقوم أساساً على اعتبار الظواهر خاضعة للقوانين، وأن مهمة البحث العلمي هي العمل على الكشف عن هذه القوانين؛ أي: بيان شروط وجود الظواهر، لا أسبابها

---

(1) Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique*, p. 103.

(2) On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life.

(٣) محفوظ، محمد. الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨م، ص٧٩.  
(٤) فوكو، ميشال. الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠م، ص٣١٣.



الأولى والأخيرة. إن المهم والأساسي - في نظر أوغست كونت - هو بيان كيف يحدث الشيء، لا البحث في "لماذا يحدث"،<sup>(١)</sup> وهنا تنفض علميتها المزعومة ويظهر تقلصها، وإن أخرجت التفسير العلي من العلم ذاته.

### - تأليه الإنسان والسيطرة على الطبيعة:

على خلاف التصور السابق وموازة معه يبرز التصور الفلسفي الحلولي والنزعة الهيومانية Humanism في تأليه الإنسان وجعله مركز الكون ومدبره، والعقل البشري مقياس الأشياء كلها، فهو مرجع ذاته ومعيار المعرفة والحقيقة، يقول برتراند راسل: "فبينما كانت الاهتمامات اللاهوتية تسود الجو العام في العصور الوسطى، أصبح مفكرو عصر النهضة أكثر اهتماماً بالإنسان، ومن هذه الحقيقة استمدت الحركة الثقافية الجديدة اسمها وهو النزعة الإنسانية"<sup>(٢)</sup> التي تتمركز حول الإنسان وتهتمش كل ما سواه. تقدس الرغبة وتستهدف موضوعات تحققها، وتتغافل عن المعنى والقيمة والغاية.

لا يرى هذا التصور في البيئة الطبيعية سوى عدو يجب قهره وإخضاعه للسيطرة. وإرادة القهر والإخضاع تترجم صراعاً وحرباً وكرهية، وترجع فلسفة السيطرة على الطبيعة إلى العقلانية الديكارتية التي جعلت الغرض من المعرفة هو "أن نجعل أنفسنا بذلك سادة الطبيعة ومالكها."<sup>(٣)</sup> كيف نكون سادة على الكون ومتحكمين فيه؟ الجواب يأتي من الفلسفة التطبيقية التي تصرف جهد الإنسان إلى "غزو" البيئة وإجبارها على المثول لرغبات الإنسان وتحقيق مُتعه من غير التفاتٍ إلى مآلات فلسفة التحكم والتملك والغزو. ذلك ما يوضحه ميشيل سير Michel Serres بقوله: "التحكم والتملك، هو شعار ديكارت الذي رفعه في فجر العصر العلمي والتقني الحديث، عندما انطلق العقل الغربي فاتحاً ومستكشفاً للكون "نسيطر عليه ونتملكه"،

---

(١) الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم (ج ٢) المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، مرجع سابق، ص ٥٩.  
(٢) رسل، برتراند. حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة (٧٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ١٨.  
(٣) ديكارت، رينيه. مقالة الطريقة، ترجمة: جميل صليبا، بيروت: المكتبة الشرقية، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ١٩٦.

هذه هي الفلسفة المشتركة بين المشروع الصناعي والعلم الذي وُصف بأنه محايد وموضوعي. إن التحكم الديكارتي يؤسس العنف الموضوعي للعلم بوصفها استراتيجية مُهدّدة. إن علاقتنا الأساسية بموضوعات العالم أوضحت تتلخص في الحرب والملكية... إن الخسائر التي كبتها الإنسان للعالم، تساوي الخسائر التي يمكن لحرب عالمية أن تتركها وراءها... لقد أصبحنا بحكم تحكمنا المفرط في الطبيعة ضعفاء أمامها، حتى إنها تهددنا بدورها لتسيطر علينا. فمن خلالها ومعها وداخلها نفتسم القدر نفسه. وأكثر من كوننا نملكها، ستملكنا هي بدورها، كما في القديم، عندما كنا نخضع للضرورات الطبيعية، لكن مع فارق نوعي. في الماضي، كان الخضوع محلياً، أما اليوم فسيكون عالمياً.<sup>(١)</sup> يذعن له الجميع طوعاً وكرهاً.

لقد رسخت الفلسفة الحديثة صورة نمطية لعلاقة الإنسان بالطبيعة، تتجلى في علاقة مُسيطرٍ بمسيطرٍ عليه، أو "علاقة فاتحٍ براصخ". حتى قيل مع فرنسيس بيكون إن "الغاية من الفلسفة هي المعرفة، والغاية من المعرفة هي السيادة على الطبيعة."<sup>(٢)</sup> وتحول الإنسان من عاشقٍ للطبيعة ومُحِبٍّ لجمالها ومتأملٍ في آلائها، إلى طاغية معتد بقدرته ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، مدعياً ربوبيته على كل شيء ولسان أفعاله يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فانسلخ بجحوده عن الآيات وهبط من مكانه الاستثنائي، وانحاز عن مقاصد استخلافه وحكمة تسخير البيئة له، وحوّل جمال البيئة إلى هيكل من العظام المُقَعَّعة، باردة ومخيفة... خاب أمل رجل العلم في أن يكون عاشقاً للطبيعة، فقد انقلب عليها طاغية جباراً، وجعل الرجل العملي يقول: ماذا يهم من أن العالم الخارجي موجود فعلاً، أو أنه مجرد حلم، ما دُمْتُ أنا أحمله على السلوك الذي أشاء؟ وهكذا أحل العلم شيئاً فشيئاً معرفة السيطرة محل معرفة الحب."<sup>(٣)</sup> وتوج ذلك ببروز نظم اقتصادية وسياسية تحكومية.

(١) ميشيل، سير. العقد الطبيعي، باريس: فلاماريون، ١٩٩٠م، ص ٥٨.

(٢) الشاروني، فلسفة فرنسيس بيكون، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٣) رسل، برتراند. النظرة العلمية، تعريب: عثمان نوية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.

بلغ التصلب المادي ذروته مع فريدريك نيتشه بقوله: "هذا العالم، عالم من القوة جبار، دون بداية ولا نهاية، عِظْمٌ صلب من القوة... هذا العالم هو إرادة القوة ولا شيء عدا ذلك،"<sup>(١)</sup> بل أعلن "موت الإله" ومعه موت المطلق والمقدس والمتعالى، و"نسف جميع القيم والمثل العليا... وتداعي جميع الهويات،"<sup>(٢)</sup> فماذا بقي مطلقاً في الكون؟ إنه الإنسان!

واضح من خلال ما سبق كيف "غلا الغرب في استغلاله للطبيعة، فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على أنواعها كافة، وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأليه الرغبات... أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة؛ أي إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي، دون معيار يعلو على الطبيعة والرغبات معاً ويخضعها لقيمه وأوزانه، فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب مما أدى بدوره إلى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول،"<sup>(٣)</sup> فأنتج هذا التصور ذهنية الاستكبار في الأرض والطغيان على الخلق وطمس المسحة الجمالية، وجعل الهدف من أفعال الإنسان هو معرفة قوانين الطبيعة من أجل السيطرة عليها لتحقيق المتعة الاستهلاكية العبثية، مما قد يحول الحياة الإنسانية ذاتها إلى حياة عبثية لا غاية منها سوى التخلص منها، يقول إدغار موران بهذا الصدد: "إن الهيمنة الجاحمة للتقنية على الطبيعة تقود الإنسانية نحو الانتحار."<sup>(٤)</sup>

الملاحظ عموماً على الاهتمامات الفلسفية بالطبيعة هو طغيان المرجعية المادية في النظر إلى الوجود؛ إذ تقلص دور الإنسان لصالح الطبيعة التي تتحرك من تلقاء ذاتها وفق صيرورة حرة داخلية؛ إذ توكل الطبيعة إلى ذاتها، ويتم تذويب الإنسان في حتمية

---

ص ٢٥١-٢٥٤.

(١) كونزمان، وبوركارد، وفيدمان، أطلس الفلسفة، مرجع سابق، ص ١٧٩.

(٢) الدواي، عبد الرزاق. موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، بيروت: دار الطليعة، ط ١، ١٩٩٢م، ص ٣٥.

(٣) الفاروقي، "نحن والغرب"، مرجع سابق، ص ٢٩-٣٠.

(٤) موران، إدغار. تربية المستقبل؛ المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة: عزيز لزرق ومنير

الحجوجي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٦٥.

مادية ليصير شيئاً من الأشياء وموضوعاً من الموضوعات، تسري عليه قوانين المادة، وكأنه غير مستخلف فيها ولا متميز عن أشياءها، فضلاً عن مسؤوليته فيها. وبهذا المعنى تتحول المرجعية الكونية المادية إلى هجوم مكرر وعنيف على الإنسان وعلى الطبيعة البشرية ذاتها بوصفها مقولة مستقلة عن الطبيعة الشئية، حتى توجهت الدراسات إلى التعامل مع الإنسان بوصفه ظاهرة مادية وشيئاً، و"القوانين الوحيدة للمادة هي تلك التي يجب أن تخلقها عقولنا، والقوانين الوحيدة للعقل هي التي خلقتها له المادة."<sup>(١)</sup>

إلا أن طغيان هذا التصور لم يمنع من ظهور فلسفات نقدية تراجع تطرف النظرة المعرفية الحديثة، وتشكل مثلاً للمنحى الإنساني في الفلسفات المعاصرة؛ إذ حاولت أن تكشف بعض العيوب في الفلسفة المادية، وتناهض تصوراتها المرتبطة بالإنسان والطبيعة والحياة، مثلما حاول ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦م) "البرهنة على التناغم والانسجام القائم بين عالم الطبيعة الذي تحكمه مبادئ الميكانيكا وعالم العناية الإلهية الذي يحكمه مبدأ الغائية."<sup>(٢)</sup>

## ٢- فلسفة البيئة الطبيعية في القرآن:

### أ- المفهوم والحقل الدلالي:

من الفعل "بوأ" اشتقت كلمة بيئة، ومنها المباءة بمعنى المنزل، وفي مقاييس اللغة: "وبات فلان بيئة سوء؛ أي مكان سوء،"<sup>(٣)</sup> مما يفيد أن الدلالة اللغوية ترتبط بالمكان أو الحيز الذي يستقر فيه الإنسان؛ أي في جزء من الأرض، وعليها اعتمد

---

(١) جونسون، جورج. بحث في نظام الكون، ترجمة: أحمد رمو، دمشق: وزارة الثقافة/ الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠م، ص ١٧.

(2) Wahl, Jean. *Traité de métaphysique*, Paris: Payot, 1968.

نقلاً عن:

- سبيلا، محمد. وبنعبد العالي، عبد السلام. الطبيعة والثقافة، الدار البيضاء: دار توفيق للنشر، ط ٢، ١٩٩٦م، ص ٨.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، مادة: (ب و أ).

القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الْأَرْضَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]:  
"التبوء: التمكّن والاستقرار،"<sup>(١)</sup> أي الذين سكنوا واستقروا في الدار.

وهذا المعنى يتوافق مع معنى كلمة "إيكولوجي" في اللغة الإنجليزية Ecology، وهي بدورها مشتقة من الكلمة اليونانية Oikas وتعني المنزل أو البيت أو البيئة أو الوسط، وكلمة Logos وتعني علم؛ أي أن علم التبيؤ هو: العلم الذي يهتم بدراسة الكائن الحي في منزله،"<sup>(٢)</sup> ثم تحول مع مطلع القرن العشرين إلى علم دراسة الطبيعة المحيطة بالإنسان، "بدءاً من الأرض التي تقله، وصعوداً إلى السماء التي تظله، وما بينهما من العوامل والمؤثرات المختلفة، وقد تفرع عن علم التبيؤ العام، علم التبيؤ النباتي، وعلم التبيؤ الحيواني، وعلم التبيؤ البشري... إلخ."<sup>(٣)</sup>

أما في القرآن الكريم فالحقل الدلالي لمصطلح البيئة يتسع لمجموع العناصر المكونة للمجال الكوني المحيط بالإنسان والمشارك بين الإنسانية جمعاء، من تراب ونبات وفضاء ومعدن ورياح ومياه وغيرها من عناصر البيئة التي تجمعها الآية الآتية بدقة وشمولية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]. لذلك فالبيئة هي: الأرض بما فيها وما فوقها؛ أي: "المحضن الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، والذي عليه أن ينجز فيه مهمة الخلافة في الأرض، متمثلاً في كل ما له علاقة بالحياة الإنسانية من أرض وما عليها من حيوان ونبات وجماد، وما يحيط بها من غلاف جوي، ومن سماء وما فيها من كواكب وأجرام يتبين أن لها علاقة بالحياة وتأثيراً فيها."<sup>(٤)</sup>

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ص ١٧-١٨.

(٢) رزق، الإسلام والبيئة، مرجع سابق، ص ٢٤-٢٥.

(٣) يمكن أن نميز بين بيئة عامة هي الأرض وما عليها من أحياء وأشياء، وبيئة خاصة وهي التي نفهم من سياق الحديث عنها، كأن نقول: بيئة جغرافية أو بيئة ثقافية أو بيئة بيولوجية ...

(٤) النجار، عبد المجيد. مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ٢٠٠٨م،

ومن الحقل الدلالي لمفهوم البيئة نذكر مادة "طبع"، و"الطبع والطبيعة التي هي السجية... وطبيعة النار وطبيعة الدواء: ما سخر الله له من مزاجه،" (١) و"الطبع والطبيعة هما الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان،" ومنها طبيعة الإنسان وطبيعة الكون وطبيعة الحياة وطبيعة الأحياء، ويورد الخوارزمي تعريفاً دقيقاً للعالم الطبيعي بقوله "العالم الطبيعي: ما تحت القمر إلى مركز الأرض،" (٢) فلا يستثني الإنسان في التعريف مما يفيد استحضاره لعلاقة الإنسان بالطبيعة. ومن بين التعريفات المعاصرة نجد أن البيئة هي: "الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر،" (٣) وإن كان القرآن لا يسمي البيئة بمفهومها المعاصر، فإنه يتحدث عن مضمونها من خلال حقل دلالي واسع، يتضمن عناصر الطبيعة الأرضية والسموية: الماء والأرض والهواء والحيوان والنبات والرياح...

الأرض مكان فسيح مهياً ومسخر، جعله الله تعالى مُؤْتَتَاً وَمُزِيناً للإنسان ولغيره من الكائنات الحية، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٠) فِيهَا فَكَّهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ [الرحمن: ١٠ - ١٢]، لتتحقق مقاصد العمران، ومن غير حفظٍ لمقاصد البيئة يحصل الفساد وتستردل الحضارة. لذلك وجبت العناية بمقاصد حفظ البيئة كأحد فروع المقاصد القرآنية الكلية، ومنه فالبيئة مهياً للإنسان لتُسعفه على أداء الأمانة الاستخلافية التي حملها وكُلف بأدائها، وليست مسرحاً للخطيئة كما يتصورها علم نشأة الكون المسيحي.

ص ٢٠٧.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، كتاب: الطاء، ص ٥١٥.

(٢) الخوارزمي، محمد بن أحمد. مفاتيح العلوم، القاهرة: دار النهضة العربية، (د.ت)، ص ١٢١.

(٣) وزيري، محمد يحيى. العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة (٣٠٤)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤م، ص ٧.

## ب- الاشتراك في المخلوقية بين الإنسان والكون:

انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، يتبين أن العالم هو كل ما سوى الله، فـ"هو الَّذِي خَلَقَ" أي أن الله هو الخالق المسخر، و"لكم"؛ أي للإنسان المستخلف المستأمن، "ما في الأرض جميعاً" هي البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان، ما علم عناصرها وما لم يعلم. لنحصل في النهاية على التركيب التالي: الله الخالق، والإنسان المستخلف، والطبيعة المسخرة، لذلك كان "الهدف الرئيسي للقرآن هو أن يوقظ في نفس الإنسان شعوراً أسمى بما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة." (١)

خلق الكون والإنسان بإرادة إلهية، وليس بإرادة ذاتية، قال تعالى: ﴿تَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، و﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. "فما دامت المخلوقية وصفاً لا ينفك عن الإنسان مطلقاً، فليس له بدٌّ من أن يأتي بالآداب والحقوق التي يوجبها هذا الوصف في كل عملٍ ينجزه، وإلا نفى عن نفسه المخلوقية، وأثبت لها وصف الخالقية." (٢)

خلق الإنسان من طين الأرض، ولا يستغني في حياته عن الأرض، بل إن وفاته عودة إليها من جديد ومكث فيها إلى أجل مُسمى، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، إنه ارتباط دائم ومصيري. هو من الأرض والأرض له، بمثابة والدته التي تحشع وتمتز بنزول الغيث لتنتب له من كل زوج بهيج، وخشوعها شبيهه بخشوع المؤمن لما يتلقى نزول الوحي؛ إذ الأرض مؤمنة بربها تسبح بحمده وتأتيه طائعة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لتؤدي وظيفتها السننية في الوجود.

(١) إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص ٢٣.

إذا كان "الإنسان والكون كلاهما عنصر من عناصر العالم، فهما متساويان في المخلوقية لله تعالى، محكومان بالقانون الإلهي نفسه في السيطرة والتدبير وتحديد المصير،" (١) حيث خُلق الإنسان من تراب ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ أَلْبَعَثْ فَلِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، فإن العلاقة الرابطة بينهما لا تتحمل تأليها لأحدهما على الآخر، ولا ادعاءً للملكية طرفٍ لطرف. وإنما هما مخلوقان بإرادة من خارجهما، ومكلفان تكليفاً إلهياً يوافق طبيعتهما ويحقق الانسجام بينهما؛ الإنسان مستخلف والكون مسخر، وكلاهما يُسبح تسييحاً مشتركاً بحمد الله تعالى ويخضع لسننه الحاكمة ﴿سُبْحٰنَ لَهٗ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهٖ وَلٰكِن لَّا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ اِنَّهٗ كَانَ حَلِيْمًا غَفُوْرًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

لقد ارتبط الإنسان بالطبيعة ارتباط الضرورة والحتمية، وإن كان هو المستخلف وهي المسخرة، فكلاهما خاضع لحكم الله وأمره وجارية عليه سننه في خلقه، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ أَلْبَعَثْ فَلِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَاِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتُونَ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: ٥-٩]، وكلاهما يعبد الله، (٢) قال الله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ لَهٗ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهٖ وَلٰكِن لَّا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ اِنَّهٗ كَانَ حَلِيْمًا غَفُوْرًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) النجار، الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) القرضاوي، يوسف. رعاية البيئة في شريعة الإسلام، القاهرة: دار الشروق، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)،



وعلى خلاف التصورات التأليهية للطبيعة والبشر، ف"إن القرآن لم يغير فقط كيفية معتقدات العرب عن الله، بل غير كل نظم التفكير، فالتصور الإسلامي لله كان له تأثير عميق في كل البناء الفكري عن الكون... فكل القيم كانت تنقل إلى المجال الذي نظمت فيه من جديد. وجميع عناصر الكون بلا استثناء كانت تؤخذ من أماكنها القديمة وتحل في هذا المكان الجديد،"<sup>(١)</sup> وعلى عكس النزعة الشكية التي ترى في "الطبيعة علة ومبدأ أول للحركة والسكون،"<sup>(٢)</sup> فإن أشياء الطبيعة كلها أجسام يحكمها مبدأ العطالة ولا تتحرك بإرادتها، وإنما بإرادة من خارجها. هذا فضلاً عن أن تكون آلهة كما كان يعتقد فلاسفة اليونان في الأجرام السماوية والكواكب. وتبعاً لذلك لا يعقل تقديس الأشياء المخلوقة ولا عبادتها.<sup>(٣)</sup>

### ت - البيئة الطبيعية وفقه التسخير:

#### - مفهوم التسخير:

أورد معجم تاج العروس أن "التسخير: التذليل... وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد، فقد سُخِّرَ لك. وسخره تسخيراً: ذلَّله وكلفه عملاً بلا أجره،"<sup>(٤)</sup> وبهذا المعنى فالكون بوصفه بناء معمارياً منتظماً بسنن ثابتة، قد يدركها الإنسان وقد لا يدركها، وقد يعرف بعضها ويعجز عن بعض، مُسخر للناس أجمعين وإن اختلفت مذاهبهم وأعرافهم وأزمانهم وأجناسهم وطبائع تدينهم. ذلَّله الله وهياًه بفضله وبسطه للإنسان، ليبتليه أيعمل صالحاً فيما استأمن عليه أم يتجبر ويطنغي.

ونظام الطبيعة إبداع إلهي وجعل رباني، خلقه الله ودبر أمره ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(١) أوزدمير، إبراهيم. البيئة في الإسلام، القاهرة: دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص ١٥.  
(٢) البزري، نادر. وآخرون، الطبيعة، سلسلة مفاهيم عالمية، إشراف: نادية التازي، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٢٠.  
(٣) تركي، علاقة الإنسان بالطبيعة عند المعتزلة، مرجع سابق، ص ٦١.  
(٤) الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج٦، ص ٥٠٦.

وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفق سُنين ثابتة لا تتعطل ولا تتخلف، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣١﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٩ - ٤٠]، وكوكب الأرض مكان مشترك وجوباً بين بني الإنسان قاطبة من حيث لا محيد لهم عنه، منذ ظهورهم إلى انتهاء الحياة على البسيطة بانتهاء أجل التسخير، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]. وذلك اختيار الله وتقديره الغيبي على خلقه، وتلك حكمته في إيجاد الموجودات.

### - التسخير والابتلاء:

إذا كان "الكون مجال استخلاف الإنسان وعمرانه، حيث عليه السياحة الدؤوبة للاستكشاف والتعرف على الآيات التي تساعده على بناء وتطوير حضارته وعلومه ومعارفه وكذلك ثقافته"،<sup>(١)</sup> فإن ما سُخر للإنسان هو ابتلاء له واختبار لمدى اتباعه للهدى ودين الحق أو غفلته وإعرضه، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٢ - ٣]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقال: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]، فيلاحظ أن ذكر الابتلاء في هذه الآيات يتبع بذكر العمل، ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِينَ وَالشَّهَادَةُ قَبِيحٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [التوبة: ١٥٥].

نفهم مما سبق أن الإنسان مُطالبٌ بالعمل "ومتى صح أن هوية العبد هوية عملية، صح معه أن الإنسان لا يكون عبداً للخالق وحده، حتى يأتي بعمله على المقتضى الذي

(١) شبار، سعيد. "من مظاهر التحيز في العلوم الإسلامية وتأثيرها على ثقافة الأمة وعطائها الكوني"، ندوة العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل، الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ٢٠١٠م، ص ٣٦٣.

شرعه الخالق، متحققاً أن هويته العملية تلازم مخلوقيته أو خلقيته؛ فلا ينسى أبداً في أي عمل من أعماله أنه مخلوق،<sup>(١)</sup> بل مُطالبٌ بأحسن العمل؛ أي الإحسان والإتقان والتجويد، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الفصص: ٧٧]، وحق لحضارة مُحسن عملها أن تكون قائدة، وحق لحضارة تغش في عملها أن تكون مقودة.

أما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَرَئَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحِشًا بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨]، فالابتلاء بالشريعة والمنهاج في فهم الكتاب والعمل به. من اهتدى به وسابق به فلا شك سيفوز ويُفْلح، ومن نكص على عقبيه وقعد عن القيام بتكليفه فقد فرط في ما لا يمكنه أن يعوضه بغيره. ابتلاء بالمعرفة وبذل الجهد ومكابدة الوجود واقتحام العقبات، من أجل الصلاح والإصلاح. تعاوناً على المعروف وتناهيًا عن المنكر.

قدَّر الله تعالى للإنسان أن يسكن الأرض في مسيرته من لحظة نفخ الروح إلى لحظة قيام الساعة، وأن يعمرها بوجوده وسعيه وحاجته وعلاقات أفرادها، مع ما يرافق ذلك من استعمال واستثمار للقدرات البدنية والذهنية والروحية والطبيعية، في قضاء المآرب وجلب المصالح ودرء المفاسد. لكنه لا يوجد وجوداً عبثياً، ولا يتصرف تصرفاً مطلقاً، وإنما يحيا مكلفاً مستأثماً مسؤولاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥].

الأرض أمٌّ للإنسان، منها خرج، وفي مناكبها يمشي، وعلى ظهرها يدب، ومن خيراتها يقتات. وقد ساقتها يد القدر عبر عمليات: الخلق (خلق الأرض) والوضع

(١) عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

(تسخيرها للإنسان) والإنزال (إنزال الماء من السماء)، والإحياء (إحياء موات الأرض)، والإخراج (إخراج الطيبات من الثمار والنبات...) كل ذلك ليتحقق الاستخلاف ويتم العمران، والإنسان هو المسؤول المبتلى بالتكليف. وفي الحديث قال ﷺ: "الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون."<sup>(١)</sup>

وبين الإنسان والطبيعة علاقة لا تنتهي إلا بالموت، لذلك نجد القسَم أحياناً يرد بعناصر الطبيعة مقروناً بالنفس الإنسانية ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَا ۝٢﴾ والتَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ [الشمس: ١-٧]، وأحياناً يجمع القسم بين أشياء الطبيعة وأشياء الغيب وأفعال الإنسان: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُلْ أَصْحَابُ الْأَرْضِودِ ۝٤﴾ [البروج: ١-٤]، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤﴾ [الليل: ١-٤]، ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ١-٤]، فالإنسان والطبيعة مخلوقان حاملان للآيات، أحدهما مستخلف مسؤول، والآخر مسخر مُدلل، وكلاهما يُسبح بحمد خالقه ويخضع للسنن الوجودية الحتمية. وإذا كان من معاني الأرض "الجنة"، كما تشير إليه الآية: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٧٤ - ٧٥]، فإنه يفيد أن لا استقرار للإنسان إلا في الأرض، سواء أكانت أرض الابتلاء والاعتبار أو أرض المحشر والمنشر.

الأرض في القرآن الكريم محل وراثه الإنسان المستخلف وراثه مؤقتة، ثم تنتقل الوراثة المطلقة إلى خالقها سبحانه بعد حين، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي

(١) القشيري، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، ج ٤، ص ٢٠٩٨، حديث رقم: (٢٧٤٢).

إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٧٧﴾  
 [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠]. فالله سبحانه وتعالى هو  
 الذي سيرث السماوات بكاملها وما فيها، ويرث هذه الأرض ومن عليها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ  
 الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]. الوارث إذن هو الله.

### - التسخير والاعتبار:

تكررت كلمة "أرض" مئات المرات في القرآن الكريم، وذكرت عناصر الكون في  
 سياقات مختلفة، وفي موضوعات كثيرة، وعلى لسان جميع الأنبياء، وفي كل القصص،  
 ولأهميتها أقسم الله بها في مواطن عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾  
 [الطارق: ١٢]، ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾﴾ [الشمس: ٦]، ﴿وَالْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا  
 وَمَرَءَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا ﴿٣٢﴾ مَنَعَا لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّجْمِ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٣]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ  
 النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٥  
 - ٧٨]، وآيات كثيرة في سياقتها.

فآيات: الصدع، طحائها، دحائها، أخرج منها، ماءها، مرعاها، الجبال أرساها،  
 مواقع النجوم، واختلاف الليل والنهار... كلها آيات للنظر والتفكير والاعتبار  
 والعلم، ومعرفتها تكليف من التكليف. يقول محمد إقبال بهذا الصدد: "الحق أن  
 حركات الكون واهتزازاته الخفية، وهذا الزمان السابح في صمتٍ يبدو لأنظارنا  
 البشرية في صورة تقلب الليل والنهار، يعده القرآن إحدى آيات الله الكبرى." (١)

والسعي في الأرض بلا تفكير ولا اعتبار صَمَمَ وَعَمِيَ وَجْهَلُ، قال الله تعالى:  
 ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ  
 وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
 يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]، وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ  
 شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ

(١) إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩.

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُسْتَهْبِئًا وَعَبْرَ مُتَشَبِّهٍ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١]. فلا يحيا الإنسان في الطبيعة ببعد واحد لا يتجاوزه؛ بُعد الاستهلاك. غافلاً عن باقي الأبعاد التي تُتمم خصائصه، وتُكَمِّلُ نقصه، وتُجَمِّلُ قبحه، وتُعَلِّمُ جهله، وتزيدُ إيمانه، وتُطْمئن قلبه.

ما بَثَّ الله في الأرض آياتٌ وآلاتٌ متناسقة منسجمة متكاملة، تتطلب من الإنسان النظر إليها باعتبارٍ وتدبيرٍ، فقدرة الله تعالى في خلقه مطلقة، ولا نهائية وعلى الإنسان أن يجتهد ليبصر آياتها في الأنفس والآفاق، وأن ينهض فرداً ونوعاً لفهم تسخيرها واستيعاب نظامها، "والقرآن؛ إذ يلفت النظر إلى السماوات والأرض وتكوينهما، إنما يوجه الحس إلى أضخم ما يترأى في هذا الكون العريض. فهو يلفت النظر إلى السموات بنجومها وكواكبها وأفلاكها، وإلى هذا التناسق العجيب الذي يربطها جميعاً، ويلفها جميعاً، وإلى هذا الفضاء الهائل الذي تسبح فيه تلك العناصر الضخمة من غير أن يصيبها اختلال، أو يعتورها انحلال"،<sup>(١)</sup> لذلك نرى أن أغلب الآيات التي تتحدث عن التسخير تنتهي بالتعقل والتفكير والتعلم، مما يشير إلى وجوب ربط آيات الكتاب بآيات الكون، والاعتبار بذلك في معرفة النفس ومعرفة الحياة ومعرفة المصير ومعرفة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِئْسَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاكِ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

تعاسة الإنسان بعدم التفكير والاعتبار لا تضاهيها تعاسة، وتقصيره في أداء واجب العلم بالكون وبالإنسان (العلوم الكونية والعلوم الإنسانية والاجتماعية) لا يشفع فيه الانصراف إلى علوم النص وحدها. بل إن النص ذاته يدعو إلى التدبر والتفكير، فتدبر قوله تعالى في الآيات الآتية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) قتيبي، الكون والإنسان في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٦.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣١﴾ ﴿آل عمران: ١٩١﴾، و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٣١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٩ - ٢٠]، و﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، و﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُدْرِكُوا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَأَنْعَامٌ لَكُمْ لَعِبْرَةٌ لِيُذَكَّرَ اللَّهُ لَكُمْ أَلَمْ تَكُونُوا أَرْسِلْنَا فِي الْأَرْضِ مَدَائِدَ بَنَاتٍ خَالِصَاتٍ لِلشَّرِيبِ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَتَمْرٍ مِمَّا يَنْجِدُونَ مِنْهُ سَکَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَبُوءًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٦٦-٦٩]، و﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ ﴿آل عمران: ١٣٧﴾، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعٌ وَمُسْتَوِدٌّ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٣٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٨ - ٩٩]، فنجد هذه الآيات تحتم بـ: النظر والتفكير والتعقل والتبصر والتفقه والإيمان؛ أي دعوة الإنسان إلى استعمال هذه القوى الإدراكية، الذي هو فرض من الفرائض المكتوبة في القرآن والواجبة على الإنسان؛ إذ "دعا الله الإنسان إلى الكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعه من سلطان العقل، ليعرف جلال الله في عظمة ملكه، وعظيم قدرته في إبداع خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره." (١)

## ثانياً: المشترك البيئي: عالمية الأزمة البيئية وعالمية الحل القرآني

لا شك في أن سبب الاهتمام العالمي المعاصر بقضايا البيئة، وما تبعه من انبثاق وتكاثر للتيارات الفكرية المهمة بقضايا البيئة وبالفلسفة البيئية، هو كونها تشكل ملتقى مصالح البشر جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، ولا شك أيضاً أن الأزمات

(١) المرجع السابق، ص ٨٦.

والكوارث البيئية في العالم انتشرت حالياً وأضحت نذير شؤم في مستقبل الإنسانية، حتى عُدت تهديدات البيئة من أخطر ما يقض مضجع البشرية وينهضها إلى التفكير في حلّ جماعي وجذري، يفلح في تشخيص الأزمة البيئية ويضع إصبعه على مكنن الداء، ثم ينتقل إلى إيجاد الحلول الناجعة للخروج من الأزمة.

## ١ - عالمية الأزمة البيئية:

لما كان المشترك البيئي الطبيعي هو مجموع العناصر الطبيعية المشتركة التي يتنفع بها جميع الناس، ولما أصبح العالم اليوم متقارباً جغرافياً بسبب التزايد السكاني وتقدم المواصلات وتطور التقنيات، فإن ما على الأرض وما حولها من فضاء أضحى مشتركاً بين الإنسانية أكثر من أي وقت مضى؛ الماء والهواء والنبات والمعادن... وإذا ما وقع ضرر بالبيئة في مكانٍ ما فإنه يؤثر على باقي الأمكنة وباقي الناس، ولا شك في أن الأزمة البيئية المعاصرة ألفت بتائجها على العالم بأكمله مما لا يدع مجالاً للشك عند أحد. فهل يقود الوعي بعالمية الأزمة إلى الوعي بعالمية الحل؟

### أ- الوعي بالأزمة البيئية:

رغم ما يشعر به الناس جميعاً من أهمية للحفاظ على البيئة في حياة الإنسان، مثلما يعلمون أن إفسادها يلحق الضرر والهلاك بجميع الأحياء على وجه الأرض، ويعيق أداء الإنسان لمهمته الاستخلافية. يُتهم الإنسان في جميع الأبحاث والدراسات والمليقيات والتقارير ذات الاختصاص في الشأن البيئي بكونه الفاعل الرئيس في جريمة الإخلال بالبيئة، بل التآمر على تدميرها،<sup>(١)</sup> ونتيجة لذلك الشعور ارتفعت أصوات أفراد ومؤسسات حكومية وتطوعية، لتنبية الإنسان المعاصر إلى ما اقترفه في حق الطبيعة، وحثه على إحسان التعامل معها. إلا أن الناس قد يغفلون عن الأسباب التي توقع الفساد في البيئة، بل قد يشاركون في عملية الإفساد عن غير وعي منهم أو

---

(١) صباريني، محمد سعيد. والحمد، رشيد. البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة (٢٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩م، ص ١٠٧.



تقليلاً من تأثيرهم، أو اهتماماً للغير وتبرئة للذات وعدم تحمل المسؤولية، أو بعدم القدرة على التخلي عن عوائدهم الاستهلاكية الإهلاكية التي لا تلقي بالألأ نتيجة اللامبالاة والأناية.

البيئة مشترك إنساني إذا فسدت تضرر الناس أجمعين، وإذا صلحت انتفع الناس أجمعين، وباعتبار الطابع العالمي لمشكلات البيئة ظهرت مؤلفات وهيئات تندد بالسياسات التنموية والعسكرية التي تدمر البيئة وتلوث الطبيعة، وتدعو إلى الحفاظ على البيئة بمواردها الطبيعية، والتصدي للتحديات التي تواجهها من خلال إثارة القيم الأخلاقية العالمية<sup>(١)</sup> في نفوس الناس حسب ما يؤمنون به من عقائد دينية وما يصدقونه من مرجعيات ومذاهب،<sup>(٢)</sup> وما يتصرفون وفقه من نماذج ثقافية.

إلا أن الوعي بأهمية البيئة في الحياة يحتاج إلى وعي أعلى وهو الوعي بعمق الأزمة البيئية التي تواجه الإنسانية جمعاء، وبمظاهرها وخطورتها ومآلات التهاون بصدد إيجاد حلول لمشاكلها المستعصية. وإدراك الأسباب والعلل الكامنة وراء التدهور الخطير للمجال البيئي، والعلاقة غير السوية بين البيئة والإنسان، وعدم الاكتفاء بوصف الواقع وإنشاء خطابات وعظية تتحدث عن الطموح والآمال، بلغة متأسفة وعاجزة. بل تجاوز ذلك إلى بذل الجهد الجماعي لتحقيق الوعي المشترك بالأزمة أولاً، ثم إشراك الجميع؛ أفراداً وهيئات، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، في إعداد الحل المشترك وتنفيذه.

---

(١) مثل: هانس كينغ في كتابه الشهير "مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي".

(٢) من بين هذه الجهود هيئة "تحالف الأديان والمحافظة على البيئة"، وهي: مؤسسة بريطانية نشأت عام ١٩٩٥م، تحفز أتباع الأديان على تطوير قدراتهم في إدارة وتنفيذ البرامج البيئية على أساس تعليمات دينهم، وانضمت للشراكة مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة من خلال برنامج يهدف إلى معالجة قضايا البيئة وخاصة مشكلة تغير المناخ. ويعتمد هذا البرنامج على وضع خطة زمنية لمدة سبع سنوات تنبع من المبادئ والقيم التي يدعو إليها الدين، بغرض مساعدة المجتمعات المحلية على اتخاذ القيم الإيجابية حافظاً للمواطنين على تغيير سلوكياتهم، واستجابات العديد من الطوائف للفكرة سواء من أتباع الديانات السماوية أو غيرها، وقدم المسلمون خططهم كذلك تجاه البيئة والمساهمة في الحفاظ عليها.

لعل ذلك هو ما يقصده زكي الميلاد بقوله: "لا شك أن البشرية بحاجة إلى تكوين وعي عالمي له خاصية الاتصال والتواصل بالعالم برمته، على الأصعدة والمستويات كافة، وينهض بالمسؤوليات المشتركة في مواجهة المخاطر والتحديات التي يتأثر منها العالم كله،"<sup>(١)</sup> من قبيل مشكلات الفقر والمجاعة والأمراض الفتاكة ونقص الغذاء وندرة الطاقة وتلوث الفضاء والاحتباس الحراري...

ولقد ازداد الوعي بمشكل البيئة في الغرب نتيجة الصيحات المتتالية لمراكز الدراسات والأبحاث، ومع ظهور جماعات الخضر الذين يشنون حملة واسعة ضد الإساءة للبيئة من خلال الضغط على حكوماتهم لسن تشريعات قانونية بغيّة الحد من تلوث البيئة ومنع الاستغلال المفرط للطبيعة، مما ساعد على تحسيس الرأي العام العالمي بخطورة الأزمة البيئية الراهنة، وعلى شحذ الوعي بتداعياتها وإسقاطاتها المرجحة على الحياة في كوكب الأرض، ومن ثمة على وجود الجنس البشري برمته وعوالمه الثقافية والحضارية. وربما كان ذلك ما أهل الأزمة المذكورة لتصبح موضوعاً لنقاش عالمي لا يفتأ يتسع ويتعمق.<sup>(٢)</sup> إلا أن الواقع البيئي لم يعرف تحسناً رغم تلك الجهود؛ إذ لا تزال الكوارث البيئية تهدد الإنسان وباقي الأحياء على الأرض. مما يجعل أزمة البيئة اليوم تشكل تحدياً عالمياً يفوق قدرات البشر على حماية مكان سعيهم وابتلائهم، نظراً لما ألحقت بها من أضرار عجز العلم المعاصر بكل إنجازاته عن إيقافها.

### ب- مظاهر الأزمة البيئية:

يكفي دليلاً على استفحال الأزمة البيئية واتساع نطاقها اليوم أن نسمع ونطالع باستمرار الحديث عن "أزمة التغذية" و"أزمة الطاقة" و"أزمة السكان" و"أزمة السكن" و"أزمة التلوث" و"أزمة الماء" وغيرها، بل ظهرت مؤلفات ودراسات وأبحاث في

(١) الميلاد، المسألة الحضارية؛ كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟، مرجع سابق، ص ٣٧-٣٨.

(٢) الدواوي، عبد الرزاق. "مجتمع المعرفة؛ معالم رؤية تكنولوجية جديدة للعالم"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٤٠)، يناير-مارس ٢٠١٢م، ص ١١٣.

موضوعات بيئية تنبئ عن خطر الأزمة البيئية من خلال عناوين مزعجة مثل: "الانفجار السكاني"، "القنبلة السكانية"، "كوكب يموت"، "كوكب ينتحر"، "عالم مزدحم"، "المدن الدخناء"، "الربيع الصامت"، "الصيف الطويل"... وليس باطلاً أن يتحدث العقلاء بإلحاح عن تطور الأزمة البيئية وعن مآلات اللامبالاة بها. حتى قيل: "من الممكن تشبيه الضرر البيئي الذي يسببه البشر بفعل السرطان في الجسم البشري؛ أي سرطان قاتل، والذي إذا لم يكبح جماحه سيترك الجسم الذي يغزوه جثة لا حياة فيها."<sup>(١)</sup>

فمشكلة الاحتباس الحراري مثلاً تنذر بكارثة طبيعية، حيث يُتوقع ارتفاع متوسط الحرارة نصف درجة قبل عام ٢٠٣٠م، ودرجة ونصف عام ٢٠٦٠م، وتؤكد العديد من الدراسات البيئية المتخصصة على أن التبدل المناخي في كوكب الأرض سيؤدي إلى رفع متوسط حرارة الأرض درجة تُخرج نتائجه عن السيطرة، ف"الجليد الذي يطفو على سطح القطب الشمالي كله عدا ٤٠٪ منه قد انصهر فعلاً،"<sup>(٢)</sup> وسيوسع ثقب الأوزون، وستنهار اقتصادات العالم لأنها قائمة على استغلال الثروات الطبيعية. مما سينعكس سلباً على المناطق الزراعية الكبيرة التي ستتحول إلى صحاري قاحلة، مثلما ستغرق مدن بكاملها، وتنمحي الكثير من الجزر والسواحل، وستتغير جغرافية العالم وتستنزف الهجرات الجماعية قدرات المدن والدول، وتستفحل مشكلة اكتظاظ السكان - وخاصة الفقراء - وترتفع نسبة النمو الديمغرافي، ثم تختل الموازين وتنشب الصراعات والحروب المدمرة حول الضرورات الحياتية، وتتقلص القيم، آنذاك يكون الخاسر الأكبر هو الإنسان الذي سيفقد حنان أمه؛ الأرض.

ومشكلة أخرى تتمثل في كون الصناعات الغذائية والتقنية والعسكرية وما رافقها من تقدم تقني وتطور تكنولوجي واستعمال للمواد الكيماوية، لا تراعي القدرة

---

(١) نيوتن، ليزا ه. نحو شركات خضراء، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة (٣٢٩)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ص ١٢٨.

(٢) لفلوك، جيمس. وجه غايا المتلاشي؛ تحذير أخير، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة (٣٨٨)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م، ص ١٤.

الاستيعابية ولا الجمالية للبيئة، بقدر ما تسرع من أجل الربح والوفرة والتفوق، فإنشاء أكثر من سبعة ملايين مركب كيميائي مثلاً يلوث الهواء بشكل خطير، ويتجاوز الطاقة الاستيعابية للمجال البيئي، كما لا يخفى أن "التأثيرات الضارة للتكنولوجيا الحديثة على الإنسان جسماً ونفسياً جعلته يعاني أمراضاً أطلق عليها أمراض العصر كأمراض السرطان والإيدز والقلب وداء السكري والأمراض الجنسية العديدة وغيرها، كما أن انتشار الملوثات المختلفة أفسد على الإنسان بيئته فجعله يعاني العلل والأمراض نتيجة فساد الغذاء وتلوث الماء والهواء وانتشار السموم، فضلاً عن أمراض عصرية أخرى كالإكتئاب وضعف الذاكرة وتزايد العنف والإبحار في دائرة تعاطي المسكرات والمخدرات"،<sup>(١)</sup> ومجمل القول: التلوث البيئي يحدث إفساداً في الأرض. "فحسب دراسة للبنك الدولي أجريت عام ١٩٩٥م، تسبب مياه الشرب الملوثة نحو ٨٠٪ من الأمراض في الدول النامية، وتقتل نحو ١٠ ملايين إنسان سنوياً. ويعني هذا ٢٧ ألف وفاة في اليوم، أكثر من نصفهم من الأطفال دون سن الخامسة."<sup>(٢)</sup>

فالماء الذي قال فيه الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، يتعرض للتلوث والتسمم المفضي إلى القتل، سواء منه ماء البر أو ماء البحر. إن كل كائن حي على وجه الأرض - من إنسان ونبات وحيوان - إلا وتتوقف حياته على الماء، فمنه تحيا الأرض وتخرج حبها وفاكهتها وزرعها، ومنه تُفجر عيونها وتجري أنهارها، وبه تُجعل الجنات من النخيل والأعناب ومن كل الثمرات. وإذا فسد الماء أو غار فسدت جميع الطيبات المتعلقة به؛ أي فسدت الحياة، ليست فقط حياة الإنسان وإنما حياة جميع الكائنات الحية؛ الأنعام والزرع والفواكه.

لا يقل عنه خطراً مشكل "ذوبان الجليد الأبيض، وتحول الغابات والمروج الخضراء إلى كثبان صحراوية وفقدان المحيطات لونها الأزرق المخضر وتحولها إلى اللون الأزرق

(١) الشراح، يعقوب أحمد. "التربية البيئية ومأزق الجنس البشري"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٣٢)، يناير-مارس ٢٠٠٤م، ص ٢٠.

(٢) نيوتن، نحو شركات خضراء، مرجع سابق، ص ١٣٢.

الأنقى الشبيه بلون مياه حمامات السباحة مع تحولها هي الأخرى إلى صحارى،<sup>(١)</sup> كما أن كثافة الأنشطة الصناعية ووسائل النقل ودخان السجائر، تلوث الفضاء والغذاء والهواء، وتسهم في تفشي الأمراض الخطيرة، وخاصة في صفوف الأطفال. ناهيك عن خطورة السباق المحموم نحو التسلح وتهديد الكون بالدمار والتلاشي.

ومشكل بيئي آخر يتجلى في إنهاك التربة وفقدان إنتاجية الأرض باستعمال المواد الكيماوية، ومبيدات الأعشاب، ومركبات الكلور الناتجة عن مخلفات التصنيع، وقطع أشجار الغابات وتحويل الأراضي الزراعية إلى مباني إسمنتية تغطي التربة وتقتل النبات، والإفراط في استهلاك المراعي بالرعي المكثف، ومطامر النفايات النووية والكيماوية غير المرغوب فيها، و"تنتج الولايات المتحدة منها نحو ١٠ مليارات طن متري (١١ مليون طن أمريكي سنوياً)؛ أي نحو ٤٤ طناً للشخص، وعلى رغم وجود ٦, ٤ بالمائة فقط من سكان العالم على أراضيها،"<sup>(٢)</sup> واستخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات بمختلف أنواعها في التربة.

أما ظاهرة التصحر وتعني: "تدهور القدرة الإنتاجية للأرض فتصبح غير صالحة للزراعة، وهو مشكلة عالمية تلقي بظلالها على سكان العالم كافة على صورة نقص في الغذاء وتغيير في المناخ العالمي،"<sup>(٣)</sup> فتأتي على آلاف الهكتارات في كل قارة، فيفقد العالم أكثر من ١١ مليون هكتار كل سنة، "وتشير الإحصائيات إلى أن مساحة الأراضي الصحراوية والمناطق شبه القاحلة الآن ١٨ مليون ميل مربع من أصل مساحة اليابس للكرة الأرضية والتي تبلغ حوالي ٥٤ مليون ميل مربع؛ أي ما يعادل ٣٣٪ من مساحتها، وتقدر الخسائر الاقتصادية بنحو ٢٦ بليون سنوياً بسبب التصحر."<sup>(٤)</sup>

(١) لفلوك، وجه غايا المتلاشي، مرجع سابق، ص ٧.

(٢) نيوتن، نحو شركات خضراء، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٣) رزق، الإسلام والبيئة، مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٤) شلبي، أحمد إبراهيم. البيئة والمناهج الدراسية، الرياض: مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٤م، ص ٣٩.

أما مشكلة التلوث المائي، فتحمل خبراً غير سار للإنسانية، وإن كان الماء يملأ ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وكان أرخص أنواع المذيبات، ومنه المياه السطحية والجوفية والمطرية، إلا أن تلوث الماء يؤدي حتماً إلى قتل الإنسان والأرض معاً، فبركة مائية آسنة قد تتسبب في حدوث العديد من الأمراض القاتلة والسريعة التنقل، مثل الكوليرا والتيفوئيد وشلل الأطفال، ف"انخفاض توافر المصادر المائية، نتيجة تحويلها إلى أغراض الصناعة والزراعة المصنعة والعوامل المعقدة المرتبطة بإزالة الغابات والتصحر والجفاف؛ كل ذلك يشكل تهديداً شديداً لسلامة الأطفال وبقائهم. ومع تناقص إمكان الوصول إلى المياه، يتزايد تلوث مصادر المياه والأخطار الصحية المرتبطة به." (١) وليست مشكلة الماء دائماً هي فقدانه وظهور الجفاف، وإنما قد تكون ب"ثورته العنيفة" على الإنسان "الطاغية" بالفيضانات المدمرة.

هذا التلوث البيئي المركب والخطير، والذي يشمل "كل تغير كمي أو كيميائي في مكونات البيئة الحية وغير الحية لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون خلل"، (٢) أحدث اختلالاً كبيراً يهدد العالم الطبيعي مستقبلاً بالفناء والاحتراق. ف"بعد تسمم الهواء والمياه والأرض، المشكلة الآتية الأكثر خطورة هي انقراض الأنواع؛ أي الخسارة السريعة للتنوع الحيوي للعالم. وكما يزيح السرطان بهدوء ويحطم أجزاء الجسم التي يستحوذ عليها، كذلك يبدو أن الجنس البشري يزيح الكثير من الحيوانات والنباتات التي ظلت على الأرض أكثر مما بقينا بآلاف السنين." (٣) ومن ذا الذي ينكر تأثير الإنسان بهذه الملوثات البيئية الخائفة والسامة التي انعكست على حياته نفسياً وبدنياً، وعلى المجتمع عمرانياً واقتصاداً وجمالاً، مثلما انعكست على باقي الأحياء على وجه

---

(١) زيمرمان، مايكل (محرراً). الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة (٣٣٣)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ص ٦٤.

(٢) صباريني، والحمد، البيئة ومشكلاتها، مرجع سابق، ص ١٥٦-١٥٧.

(٣) نيوتن، نحو شركات خضراء، مرجع سابق، ص ١٣٣-١٣٤.

الأرض؟ ألم تؤكد العديد من الأبحاث العلمية المختصة على أن "هناك علاقة بين المواد الكيماوية وتلف طبقة الأوزون، وأن طبقة الأوزون بدأت تظهر عليها علامات النقص والتآكل... خاصة أن كل الدراسات أجمعت على أنه إذا نقصت طبقة الأوزون بمعدل ١٪ فإن هذا سيزيد الأشعة فوق البنفسجية بمعدل ٢٪، وهذه نسبة تؤدي إلى زيادة قدرها ٤٪ في معدل الإصابة بسرطان الجلد. وأضافت التقديرات أنه إذا ما استمر إنتاج هذه المواد الكيماوية بالمعدل نفسه، واستمر صعودها في الجو إلى ارتفاعات تتراوح ما بين ٣ و٤ كلم، فإنها لن تتحطم، بل ستبقى لعدة قرون وتتجمع -وبالتركيب الكيماوي نفسه- لتسبب تحطيم طبقة الأوزون."<sup>(١)</sup>

### ت- مسؤولية الإنسان المشتركة في تدمير البيئة:

السؤال المطروح بإلحاح هو: كيف يتجاوز الإنسان شرور ما صنعت يدها؟ هل باستطاعة الناس اليوم أن يتخلوا عن طبائعهم النفسية والمجتمعية والتواصلية، ويقلصوا من عاداتهم الغذائية والترفيهية الاستهلاكية، درءاً للآثار السلبية المرتبطة بالرخاء المادي والصناعي والتكنولوجي على البيئة، وبالتالي على أنفسهم؟

إسهاماً في الجواب بسطت كثير من التصورات الفلسفية العديد من الاقتراحات والتوصيات للإسهام في معالجة مشاكل البيئة مثل: الحفاظ على الثروة المائية، وحماية الغابات الخضراء، وغرس الأشجار بكثافة للحفاظ على الأوكسجين، ومنع استخدام المواد المحتوية على مركبات الكلور والكربون والفلور، وتوسيع العمل بالطاقة الشمسية، وتشجيع استخدام وقود خالي من الرصاص، ومراقبة المصانع والمزارع لمنع استعمال أو إنتاج المواد الضارة بالبيئة، معالجة تدفق المهجرة الداخلية والخارجية...

لكن ما هي النتيجة العملية؟

النتيجة هي أن عمق المشاكل البيئية واتساعها أعتى من أن تغيره مجرد توصيات غير ملزمة أو مواعظ أخلاقية دورية، ما دام الإفساد تحميه الشركات العملاقة العابرة

(١) الخولي، البيئة وقضايا التنمية والتصنيع، مرجع سابق، ص ٢٥-٢٦.

للأوطان، فـ"كل تلك المؤتمرات والنذر لم تستطع تحقيق الكثير من الإجراءات والوسائل التي يمكن أن تساعد على حماية البيئة. فالقناعات التي أوجدتها نظريات التنمية المتنوعة جعلت ميدان التنافس واسعاً جداً بحيث علا صوت المنافسة في الصناعات المختلفة بل صار يعلو على أي صوت آخر." (١)

أضحت البيئة مُهدّدة ومهدّدة في نفس الوقت، جراء الإساءة البشرية للطبيعة وغفلة الإنسان عن المقاصد العمرانية الكبرى، واتباعه لنمط استهلاكي يقوم على نهب الثروات وقنص الملذات دون مراعاة القواعد الأخلاقية، حيث "تتأتى أزمة الإيكولوجيا الأخلاقية اليوم، من واقع أن الإيديولوجيات والممارسات تشير إلى أن النقص في معرفة النفس يفترس قلب المجتمع." (٢) افتراس المجتمع بتلويثه البيئي والصحي والنفسي والمجتمعي راجع إلى تلويث الصورة الذهنية التي يحملها الأفراد عن الطبيعة؛ أي طريقة فهمهم ومضمون تلقيهم، وطرائق استهلاكهم.

وإذا كان الأصل في الكون هو الصلاح، وكان ما طرأ عليه من فساد مما كسبت أيدي الناس، كما في القرآن الكريم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، فإن الفساد يأتي لاحقاً وطارئاً، وبالتالي فهو مكسوب من طرف الإنسان الذي قد ينسى ويطغى أو يعتدي ويطلم، أو بعبارة جامعة قد يُفسد. وهو واضح أولاً في الآية الآتية: ﴿وَإِذَا قَوْلَى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فـ"قد تكرر في القرآن النهي عن الإفساد في الأرض بعد أن خلقها الله صالحة مهياً لمنفعة المستخلفين فيها، وأعلن أن الله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين، ويشمل هذا إفساد البيئة، وتلويثها، والعدوان عليها والانحراف بها عما خلقه الله لها، فهذا ضرب من الكفران بالنعمة،

(١) العلواني، أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٢) نوافك، مايكل. "المجتمع المدني العالمي والأخلاق"، مجلة التسامح، العدد (٨)، (خريف

١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص ١٥.



الذي يجلب النقم، وينذر مقترفيه بعذاب شديد، يوشك أن ينزل بهم كما نزل بعاد وشمود، والذين من بعدهم" (١)

وهو نفس الأمر الذي تؤكدته التقارير المتلاحقة حول الوضع البيئي المشترك.

ولا تخلو الأرض من نماذج إفسادية تخسيرية، فردية وجماعية؛ إذ من الناس من يجعل من سعيه برنامجاً إفسادياً في الأرض وهلاكاً للناس وإشاعة للفاحشة، سواء أكان واعياً بذلك قاصداً له، أم فاقداً للشعور والقصد، وقد يكون الفرد الواحد مُفسداً وقد تكون الجماعة أو الدولة مفسدة، والتاريخ زاخر بالأمثلة الدالة على هذا سواء أكان ذلك على صعيد الشخصيات أو الطبقات أو المؤسسات أو الدول. ومثاله دائماً الإفساد الاستهلاكي للحرث والنسل، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَاثِبَةٌ فِي الْمَدِينَةِ بِسَعَةِ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ [النمل: ٤٨ - ٥١]، وعاقبة الفساد الجماعي - وإن أنكر فاعلوه وادعوا الصلاح - هو الدمار وخراب الديار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَرْئِنَاهَا نَدْمِيرًا﴾ ﴿١١﴾ [الإسراء: ١٦]. وتلك سنة الله في القوم الفاسقين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

إن مسؤولية الإصلاح "لا تنحصر بمجتمع بعينه، ولا بشركات بعينها، ولا بأفراد بذاتهم، بل هي مسؤولية جماعية أممية، لا بد للأطراف قاطبة أن تساهم في معالجتها،" (٢) قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، فلا يُلام

(١) زوزو، فريدة. "مقصد حفظ البيئة وأثره في عملية الاستخلاف"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٨)، (ربيع ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص ٨٦.

(٢) معرفي، مصطفى. "تمهيد: الإنسان والبيئة"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٣٢)، يناير-مارس ٢٠٠٤م، ص ١٣.

المفسدون وحدهم، وإنما يُلام الجميع وفي إمامتهم الصالحون، قصدَ درءَ المفسد، بمنع المُفسد من إفساده، وصيانة الطبيعة من التآكل والتعرض للفساد،<sup>(١)</sup> وبناء عليه فـ"مهمة الاستخلاف وإن كانت مسؤولية كل فرد إنساني، فهي في ذات الوقت مهمة جماعية اجتماعية تتعلق بالجنس والمجتمع، وتمتد عبر الأفراد إلى المجتمعات، وإلى الأجيال،"<sup>(٢)</sup> أو قل هي: مشترك إنساني.

تتجلى خطورة الفساد في كونه محوً للصالح وتعطيل له، وإساءة للكون والناس، وعود عن أداء الأمانة الاستخلافية، وربما يدعي المفسدون أنهم مصلحون. ففي الحديث "دخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض،"<sup>(٣)</sup> دخلت النار لأنها خانت أمانة الاستخلاف باعتمادها على مخلوق مسخر للإنسان، "فهي بانتهائها إلى النوع البشري المستخلف في هذه الأرض مسؤولة عن جميع المسخرات، ومنها الأرض وما فيها، ومنها هذه المخلوقات الضعيفة، فلها أن تستثمر هذه المسخرات، وتستفيد بها، وتحسن توظيفها وتضمها إلى قافلة التسييح؛ القافلة الكبرى التي تسبح بحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبدل أن تفعل المرأة المشار إليها ذلك خانت أمانتها فحبست هذا الحيوان المسكين، الذي كان عليها أن ترعاه، وتحافظ عليه، فلم تفعل، لكنها حبستها وحرمتها الطعام والشراب حتى ماتت."<sup>(٤)</sup>

الذي يتحمل المسؤولية في الأزمة البيئية إذن هو الإنسان المستخلف الذي التزم بحمل أمانة الاستخلاف، لذلك فهو "مسؤول طبيعياً من قبل أن يجعل نفسه مسؤولاً،

---

(١) حول مفهوم الصيانة، انظر:

- نيوتن، نحو شركات خضراء، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢) أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: بدء الخلق، كتاب: باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، ج ٣، ص ١٢٠٥، حديث رقم: (٣١٤٠).

(٤) العلواني، أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، مرجع سابق، ص ١٢٥-١٢٦.

ومن قبل أن يعتبر مسؤولاً أخلاقياً؛<sup>(١)</sup> الفرد في حدود طاقته وإمكانه، والجماعة في حدود طاقتها وإمكاناتها، وكذلك الدول والشعوب والأمم، حيث يُسأل الجميع -كل من موقعه- عن أمانة الوجود واختيار الأفعال والتصرفات. والذي يُجَلِّب بمسؤوليته يُسيء إلى نفسه وإلى غيره، ويقعد عن العمل بالسرعة والمنهاج الاستخلافي،<sup>(٢)</sup> وإن لم يمارس الإفساد عيناً، لأن التكليف الإلهي للإنسان يجمع بين العلم والعمل، وليس فرجةً أو قعوداً أو استقالةً أو تشفياً. أو قُلِّ باختصار: حفظ البيئة يقتضي بالضرورة مشاركة موكب الصالحين من كل الأمم في عملية الإصلاح المركبة والعويصة.

إن قاعدة "قُلِّ اَعْمَلُوا" لا تستثني أحداً من الناس، ولا شرف لأحد بلا عمل، كما لا شرف له بلا أخلاق، "الأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلاً عن أفق الحيوان."<sup>(٣)</sup> والجميع يتحملون مسؤولية الدمار الذي يلحق الكون،<sup>(٤)</sup> وعليهم جميعاً واجب النهوض للإصلاح، لأن التلوث يأتي نتيجة الاستفساد في الأرض. ولا يخفى أن الفساد يُعدي ونتائجه تعم، حتى يهلك الصالح بجريرة الفاسد متى كثر الخبث. وتقتضي سنة التدافع أن يقوم الصالحون في الأرض بوظيفتهم الإصلاحية، وأن يجتهدوا في نطاقاتهم لمنع الفساد ومحاصرته، حيث "الإصلاح هو رفع الضرر الذي وقع على مخلوقات الله،"<sup>(٥)</sup> وفي مقابل ذلك ف"الفساد هو النتيجة المتأتية من عمل الإنسان

(١) دراز، محمد عبد الله. دستور الأخلاق في القرآن الكريم، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، الكويت: دار البحوث العلمية، ط٦، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٣٩.

(٢) النجار، عبد المجيد. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، هرندين: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص٦٥-٦٦.

(٣) عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص٨٢.

(4) Stroup, Richard L. & Baden, John A. *Natural Resources, Bureaucratic Muths and Enviromental Management*, California, USA: Pacific Institute for Public Policy Research. 1983.

(٥) عمر، إبراهيم أحمد. فلسفة التنمية؛ رؤية إسلامية، هرندين: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٤٥.

الفاستق في مخلوقات الله،<sup>(١)</sup> وتدمير الطبيعة إفساد لها وتغير شائن لطبيعتها وما سُخرت من أجله، وتبديل لنعم الله المخرجة فيها، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣١) [البقرة: ٢١١].

حتى في حالة الحرب القتالية العنيفة التي تقع بين الدول، فلا يجوز خلالها تدمير البيئة، من قبيل استعمال المواد السامة، ودس السموم، وقطع الأشجار، وإحراق المزارع، وردم الآبار، وقتل الأنعام، وتلويث المياه... هذا فضلاً عن قتل الأطفال والأسرى والنساء والشيوخ والمثلة بالجنث والغدر والخيانة. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، وأوصى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميراً له على الجيش الذاهب إلى الشام وهو يودعه، فقال له: "إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا، فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ، فَاصْرَبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرَمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُحَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تُحَرِّقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُعْرِقَنَّه، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجِينُ."<sup>(٢)</sup> وهذا يمثل ملخصاً مبيناً لواجب الإنسان اتجاه الطبيعة بأشجارها وثمارها وأنعامها...

غير أن السؤال الذي لا يكلفنا طرحة أي جهد هو: من يضمن تطبيق هذه القيم الأخلاقية التي تتفق عليها الشرائع الدينية، وتشارك فيها جميع الاتجاهات البيئية، وعقدت من أجلها العديد من المؤتمرات، وصدرت بصدها جملة من التشريعات؟ من تُؤكل إليه مهمة حفظ السلام الذي تحدث عنه إيمانويل كانط في كتابه "مشروع للسلام الدائم"<sup>(٣)</sup>؟ إن المشكل دائماً في الإنسان. وكذلك الحل. فلنكي نصون طبيعتنا "يجب أن

(١) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٢) الأصبحي، أبو عبد الله مالك بن أنس. الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، ج ٢، ص ٤٤٧، حديث رقم: (٩٦٥).

(٣) كانط، إيمانويل. مشروع للسلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢ م.

نكون راغبين بتعديل أنماط حياتنا المسرفة للمحافظة على الموارد الثمينة النادرة،"<sup>(١)</sup> ومع ذلك هل يكفي أن نرغب في تعديل أنماط الحياة أم أن الأمر يتجاوز مجرد الرغبة إلى معالجة المشكل من جذوره؟

لقد تأسس الإفساد البيئي على رؤية فلسفية مادية محضة للعالم والأشياء، تحكمها قيم المتعة اللحظية بلا ضوابط أخلاقية، فلا ترى في الطبيعة إلا مجالاً ينبغي غزوه والسيطرة عليه، وهذا واضح من استعمال عبارات من قبيل "غزو الفضاء" و"التحكم في الطبيعة"، كما لا يخفى ولع الحضارة الغربية بالإنتاج الكثير والاستهلاك الفاحش والاستغلال البشع للثروات والمُسَخَّرَات المادية في الإنسان والكون بما يتنافى مع استخلاف الإنسان ومسؤوليته البيئية، ولقد نبّه على ذلك العديد من الباحثين والعلماء والفلاسفة،<sup>(٢)</sup> بيد أنهم لم يوفقوا كثيراً في إدراك البعد الشمولي لجدلية المخلوقية والمسؤولية والاستخلاف.

يقول الأمير تشارلز: "ما أدعو إليه هو فهم أوسع وأعمق ومتأن أكثر لعالمنا، إنني أدعو إلى إيجاد بُعد غيبي، بالإضافة إلى البعد المادي لحياتنا، بغية استعادة التوازن الذي تخلينا عنه، والذي أعتقد أن غيابه سيثبت أنه مدمر في الأمد الطويل،"<sup>(٣)</sup> ذلك أن الأمراض الفتاكة والأوبئة القاتلة وتفسخ العلاقات الاجتماعية ناتج عن اتباع نمط معين من الحياة؛ إنها الحياة المادية التي يقدها الغرب، والتي تحلو كما قلنا سابقاً من نظرة توحيدية شاملة إلى الحياة والإنسان والكون.<sup>(٤)</sup>

(١) نيوتن، نحو شركات خضراء، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢) الجبوسي، عودة. "البيئة والتحول نحو التنمية المستدامة"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٧٢)، (ربيع ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص ٥١.

(٣) آرثر، تشارلس فليب (الأمير). "الإسلام والغرب"، محاضرة أُلقيت في: مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ١٩٩٣م، ص ٢٠.

(٤) إمام، زكريا بشير. في مواجهة العولمة، الخرطوم: منشورات مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٧٥.

لم يُسخر الكون للإنسان ليفعل فيه ما يشاء كيفما شاء، وإنما ليستغله الاستغلال النافع بالعلم النافع ووفق السنن الناطمة، ليستمر في الحياة ويتحقق العمران؛ إذ التسخير ابتلاء سيجازي عنه بمثقال الذرة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧-٨]، وكل ما سخره الله له جعله ممكناً فيه. وعليه فهو مسؤول عن استخلافه وتمكينه، ولا يصح أن يكون الاستخلاف من أجل الاستخلاف، ولا التمكين من أجل التمكين؛ إذ لا شيء منها مطلوب لذاته. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٣) [الأعراف: ١٢٩]، وقال: ﴿وَلَسْكَنْتُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ﴾ (١٤) [ابراهيم: ١٤].

إذا كان الإنسان هو أكثر الأحياء تأثيراً في البيئة، فإن طغيانه يشكل أكبر خطر على هذه البيئة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ (٦) [العلق: ٦]؛ إذ يتجاوز الحق إلى الباطل، والعدل إلى الظلم، والخير إلى الشر، ويصل طغيانه إلى قتل النفس؛ نفسه أو نفس غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (١٣) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) [النساء: ٢٩-٣٠]. والتسبب في تلوث البيئة هو قتل للنفس وعدوان وظلم. يقول الفيلسوف النمساوي إيفان إيليش (١٩٢٦-٢٠٠٢م): "إن الأزمة الكوكبية المعاصرة تجد جذورها في إخفاق المشروع الحديث؛ أي تتجذر في إحلال الآلة محل الإنسان، فقد استحال المشروع الضخم إلى عملية قاسية لاستبعاد المنتج وتسميم المستهلك." (١)

## ٢- عالمية الحل القرآني للأزمة البيئية:

رغم الإقرار العالمي بوقوع واستمرار الأزمة البيئية وتأثيراتها المتلاحقة، ورغم أهمية الجهود التي بُدلت في الحد من تداعيات المشاكل البيئية، حيث عقدت عدة مؤتمرات، (٢) وصدرت العديد من التوصيات، وأنجزت الكثير من الدراسات،

(1) Ivan, Illich. *De la convivialité*, Paris: éd. Points, 1973, p. 26.

(٢) مثل: مؤتمر استوكهولم ١٩٧٢م، مؤتمر بلغراد ١٩٧٥م، مؤتمر تيبلسي ١٩٧٧م، مؤتمر موسكو ١٩٨٧م، مؤتمر ريودي جانيرو ١٩٩٢م، مؤتمر قمة الأرض ٢٠٠٢م بجوهانسبرغ في جنوب إفريقيا.

وطرحت عدة اقتراحات لمعالجة تلك الأزمة البيئية، غير أن هذه الجهود لم تصل بعدُ إلى إدراك الحل العالمي للمشكل البيئي الطبيعي. مما يستدعي إعادة النظر في الفلسفة المؤطرة لمعالجة المشكلات الإنسانية عموماً والمشكل البيئي على وجه الخصوص. والعمل بمقتضى الأخلاق المشتركة، وإعداد التشريعات والقوانين الدولية الخاصة بمعالجة المشاكل البيئية؛ أي إن الحل العالمي ينبغي أن يُنجز على ثلاثة مستويات:

#### أ- على المستوى الفكري الفلسفي:

من أجل مستقبل يتعايش فيه جميع الناس بآدميتهم وباختلاف مذاهبهم وأعراقهم، ويتفاسمون أرزاق العالم بشكل عادل، ويقطعون فيه مع الفكر الإقصائي والاستحوادي والاستهلاكي، راجعين إلى حقيقة وجودهم الاستخلافي، مُعتبرين (من الاعتبار) بما جنته الإنسانية في تاريخها من ويلات الصراعات والحروب والمكائد، نتيجة تفشي روح الفلسفات الصراعية والبراغماتية، وظلمت فيها ملايين من البشرية، ودُمرت فيها البيئة الطبيعية يابسةً وبحراً وفضاء، واصطلت بناها أجيال لاحقة ظلماً لها وعدواناً عليها. من أجل ذلك وجب تحصيل الوعي الفكري والثقافي بأهمية الحياة الإنسانية والطبيعية، وبضرورة الانتقال من التفكير بشروط الهيمنة الاستكبارية والتنميط العولمي والاستهلاك الجشع إلى التفكير بشروط التعارف والحوار وحسن الجوار.

لكن السؤال الذي يطرح اليوم هو: كيف يبنى هذا التصور؟ من يصنع هذا الوعي البيئي؟ ومن له الإرادة والاستعداد لاكتشاف هذه الرؤية ثم ترجمتها واقعاً عملياً يعيشه الناس ويسعدون به؟ كيف تتغير فلسفة الصراع والسيطرة إلى فلسفة التعارف والتآخي؟ كيف تعود العلاقة بين الإنسان والأرض من العداء إلى التوافق؟

#### ب- الفلسفة البيئية وتجديد الوعي البيئي:

ترى الدراسات البيئية المعاصرة والمشتغلة أكثر بفلسفة البيئة أن المشكل البيئي مشكل مشترك بين جميع أمم الأرض، ذلك أن "وطننا ليس المنزل أو الشارع أو البلد الذي نعيش فيه، بل هو الأرض نفسها،" (١) فكما أضحى العالم سوقاً من البضائع التجارية

(١) لفلوك، وجه غايا المتلاشي، مرجع سابق، ص ٨.

يقتنيها الناس من أقطار الأرض، فكذلك العالم بيئة يقطنها الناس من جميع الأجناس. لذلك وجب الوعي بمسؤولية الإنسان عن تدهور ظروف الوجود البشرية، وإيقاظ العالم لإنقاذه، هذا ما تحاول إيصاله الفلسفة البيئية إلى قيادات العالم اقتصادياً وسياسياً. وإقناع العالم بأن الأرض هي الكوكب الحي الوحيد في النظام الشمسي، وأنها قد ترفضنا في يوم من الأيام نتيجة تهورنا ولا مبالتنا، "فالأرض لمصلحتها وليس لمصلحتنا قد تجبر على الدخول في مرحلة حارة، حيث يمكنها البقاء، ولكن بحالة أدنى وأكثر صعوبة للعيش فيها، وإذا حدث هذا كما هو محتمل، فسنكون نحن السبب في ذلك."<sup>(١)</sup>

تركز أدبيات الفلسفة البيئية على المدخل التربوي والفكري والأخلاقي، معتقدة أن الإنسانية لن تجد سعادتها إلا بإصلاح ذاتها معرفياً وأخلاقياً، فإذا نتجت الأزمة العالمية للبيئة عن فعل الإنسان، وكان فعل الإنسان مجسداً لمستواه التربوي وكيفية تفكيره، فإنه لا ينصلح الفعل إلا بإصلاح ذات الإنسان أولاً؛ أي بتغيير الإنسان، وصناعة النموذج المعرفي الذي يؤطر رؤيته لنفسه وللكون من حوله وللحياة، حتى تتغير تبعاً لذلك رؤيته لذاته وللعالم المحيط به. بعدها سيسعى للحفاظ على الحياة الإنسانية الآمنة الكريمة الممتدة من حيث هو جزء لا يتجزأ منها. لكن إصلاح فكره كما تريده الفلسفة البيئية يحتاج إلى نظام معرفي عالمي بديل قادر على إعادة تركيب ما تفكك، وبناء ما تهدم وتقويم ما اعوج، وتصحيح ما تحرف، وتتميم ما نقص. أي أن الفلسفة البيئية نفسها تحتاج إلى وعي عميق يخلصها من حصار الرؤية المادية والبديل اللاذيني.

ويترشح النموذج المعرفي القرآني لهذه المهمة بعد فشل النماذج البشرية المعرفية إلى اليوم وانسداد آفاقها. وهو نموذج يستوعب حسنات المناهج الأخرى، ويتجاوزها إلى ما لا يقبل لها به، نموذج علمي عالمي يحمل رؤية مغايرة للإنسان وللكون وللعلاقة بينها. ولن تظفر الإنسانية بفلاحها إلا إذا أنصت لصوت ساوي هادئ يقرع سمعها ويذكرها بأصلها ومصيرها ووظيفتها، وتهيات لسماع صوت حملته الرسالة الإلهية

(١) المرجع السابق، ص ٩.



الخاتمة، ويَبينه جميع الأنبياء والمرسلين، وعملوا به في إصلاح أحوال الناس وزرع أواصر المحبة والتآلف بينهم، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وتذكيراً بالتكليف الإلهي ولوازمه. من أجل إقامة هذا النموذج البديل الذي يمكننا من إدراك الواقع من خلال رؤية متكاملة نحتاج إلى قراءة القرآن وتلاوته وتدبره، وقراءة الكون والتفكير في آياته وآلائه، حتى نملك القدرة على استنباط المعايير والسنن والقواعد الإرشادية الهادية، ونحن نطلع على جميع الإنجازات التي قدمتها المراكز البحثية والدراسية المختصة، لذلك تتأكد الضرورة في أن يُقرأ القرآن الكريم قراءة جديدة تُبرز آياته المحكمة التي اشتملت على رؤية كلية للكون بكل ما فيه ومن فيه، حتى يشعر الإنسان أن "مكاننا جزء منا"،<sup>(١)</sup> وأنه إذا خرب فإنها يخرب بيته وحقل استخلافه، ويهدد حياته بتجاهله لما يحدث للبيئة من استفساد، ويصير مستكبراً بعلمه وحضارته عن سماع صوت الكون وهو يستصرخ الإنسان طالباً النجدة والإنقاذ. ويشعر بأن ما بثه الله من نعيم على الأرض؛ على ظهرها وفي بطنها وفي فضائها هو أمانة لتمكين الإنسان وتنويع معاشه لعله يشكر ويعمل صالحاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].<sup>(٢)</sup>

لما كان الإنسان هو المؤمن في أرض الله جيلاً بعد جيل، يخلف بعضه بعضاً، سلسلة استخلافية عابرة للزمن، فإن الغاية من العمران هي تحقيق الإخاء بين الإنسانية المُكرمة، أو قل: "المواطنة الإنسانية" أو "الأخوة الإنسانية"، وحث الأفراد والجماعات على استمرار الخيرية والعدالة من السلف إلى الخلف، في جلب المصالح ودفع المضار، في غير تنافٍ مع التآخي والتراحم والتعارف والتعايش وجميع القيم البانية لمجتمع العمران الإنساني. وفي حالة وقوع انفصام بين السلف والخلف

(١) زيمرمان، الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٢) ونجد في سفر التكوين، الإصحاح: ١١ "وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغةً واحدة" وفي سفر التكوين، الإصحاح: ١٣ "لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد."

وُضِيْعَت أمانة الاستخلاف والائتمان من طرف الجيل اللاحق، فإنه يتحول بلغة القرآن من الخَلْفِ إلى الخَلْفِ، ومنه إلى التخلف طبعاً. قال الله تعالى: ﴿خَلْفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩]. اتبعوا الشهوات بمعنى اتبعوا نمطاً استهلاكياً يهلك الحرث والنسل، ويفسد في البر والبحر، ويستكبر عن عبادة الله، ويريدها عِوَجاً.

يتأسس المشترك الإنساني في هذا المستوى على فلسفة "حفظ الحياة على الأرض"، وليس المقصود بهذه الفلسفة المذاهب المادية بفروعها، وإنما هي فلسفة مشتركة جامعة، يشترك فيها المسلمون وغيرهم، فليست كل الاهتمامات البيئية تنطلق من رؤية مادية، إنما هناك مذاهب فلسفية "تضع القيم والغايات الخلقية فوق المادية... وتعنى بحالة الثقافة والتعليم والقانون والمحبة والخلقية بأكثر مما يعنى بالإنتاج السنوي"،<sup>(١)</sup> أي أن هناك مدارس فلسفية بيئية ترفض التحليل المادي الصرف لقضايا البيئة وعلاقتها بالنشاط الإنساني، وتتحاشى "اختزال السعي البشري إلى مجرد الإنتاج والاستهلاك"،<sup>(٢)</sup> معتبرة أن الوازع الأخلاقي يجد من الشراهة والغرق في نمط الاستهلاك المادي ويحفز "ضوابط للصرامة وإنكاراً للذات"،<sup>(٣)</sup> ف"فليس ثمة صلة بين درجة الرفاهية التي يستمتع بها وتحقيق الحضارة. بل على العكس، إن الاستغراق في راحة البال هو أكثر العلامات الدالة على الاضمحلال الحالي أو الوشيك".<sup>(٤)</sup>

#### - الإنسان وفقه الاستئمان على البيئة:

الذي يُمكن ويودع الأرض للإنسان هو الله الخالق المالك المدبّر، والذي يُستأمن على الوديعة استئماناً مؤقتاً أو "الوديعة" هو الإنسان المخلوق المستأمن، وموضوع الائتمان أو

(١) زيرمان، الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

الوديعة هو الكون.<sup>(١)</sup> وبينهما علاقة استخلاف واستئمان، يكون الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه وأسجد له ملائكته هو المستخلف بإنسانيته وبرسالته<sup>(٢)</sup> وتكون "عمارة الأرض أمانة يحملها الإنسان"،<sup>(٣)</sup> وبذلك تكون الخلافة هي المهمة الكبيرة التي أنيطت بالإنسان.<sup>(٤)</sup> والمقصود بالإنسان ليس شخصاً بحذقه أو علمه -ولا قوماً ولا فئة- مهما ادعى لنفسه من عصمة أو قوة أو تميز. وإنما هو الإنسانية المعمرة للأرض.

معلوم أن "استخلاف الإنسان في الأرض، هو من إرادة الله وحده، وأن خلافة الإنسان من الله، قدره لا يجيد عنه"،<sup>(٥)</sup> وأن الأرض هي مجموع أشياء حية وجامدة مخلوقة ومُسخرة لهذا الإنسان ليمشي في مناكبها ويقنت من خيراتها ويبدع في أشياءها ويتفكر في الآيات المتوتة بحسبان فيها،<sup>(٦)</sup> ويحسن إلى الخلق؛ أناماً وأنعاماً. ويعبد الله وحده من غير شريك معه، فإن مع التسخير اختبار وامتحان للإنسان، فيما إذا كان سيعمر هذه الأرض بالصلاح أم بالفساد؟ بالخير أم بالشر؟ بالحق أم بالباطل؟ بالعدل أم بالظلم؟ بذكر آلاء الله أم بالغفلة والنسيان؟ والله سميع بصير ينظر في عباده كيف يعملون، ويبلوهم بالنعم وديعة عندهم، فناظر أيشكرون أم يكفرون، ﴿يَبْلُوَنَآ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

الإنسان مؤتمن ومسؤول عن استخلافه، مثاب عن إحسانه إن أحسن، ومعاقب عن إفساده إن أفسد، قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ

(١) عبد الرحمن، رُوح الدِّين؛ من ضيق العِلْمَانِيَةِ إِلَى سَعَةِ الْاِثْتِنَانِيَةِ، مرجع سابق، ص ٤٧٣ وما بعدها.

(٢) عمارة، محمد. "الاستخلاف"، مجلة الإسلام اليوم، العدد (١٣)، ١٩٩٥م، ص ٥٧.

(٣) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٤) البوشيخي، مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٥.

(٥) القديدي، أحمد. الإسلام وصراع الحضارات، سلسلة كتاب الأمة (٤٤)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص ١١٦.

(٦) العباري، علي محمد حسن. "من حديث القرآن عن الإنسان"، مجلة دعوة الحق، العدد (٨٧)، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ٧٨ وما بعدها.

تَنخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَنَجْحُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادَّكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]، فالبيئة مجعولة لسعي الإنسان ودیعة عنده، تسعفه في قيامه بفعل الاستخلاف. والإيداع علاقة ثلاثية: المودِع والمودَع والودیعة. الله والإنسان والكون.

والإنسان مكلف بما يسميه طه عبد الرحمن بـ"إيداع الرعاية" ومقتضاه "أن يحفظ المودَع لديه ما أودع من حيث الحقوق التي يقتضيها، فيؤديها كما ينبغي، على أن هذه المحافظة على الحقوق لا تمنع التصرف في الودیعة بما يجلب للمودَع لديه المصلحة ويدفع عنه المضرة؛ بل لعل الأصل في الودیعة المرعية هو الإذن بالتصرف فيها، لأن حقوقها محفوظة" (١) وهو يختلف عما يسميه بـ"إيداع الصيانة"، لأن الأول إلهي ويتملك بموجبه العبد تكريباً له "ما أودعه المودِع الإلهي وأن يستكمل به تحقيق ذاته، متصرفاً فيه بحسب مصالحه، على أن يراعي حقوق المودِع الإلهي في كل ودائعها،" (٢) أما الثاني فهو بشري لا يتملك صاحبه ودیعته، لأن "حقه أن يحفظ المودِع لديه الشيء على حاله التي أودع عليها إلا أن يتعرض للضرر، فحينها، يعمل، بقدر الطاقة، على دفع هذا الضرر، حتى يسترده المودِع في أجل تُحدده الحاجة إليه أو يُحدده وجود الأمن؛ وبيّن أن دفع الضرر هذا لا يعد تصرفاً في الودیعة، وإنما صيانة لها،" (٣) ليستنتج بعد ذلك أن "الائتمان عبارة عن إيداع رعاية، بحيث يكون كل ما خلق الله جَلَّ جَلَّالُهُ، من أجل الإنسان هو عبارة عن ودائع أودعها الله إياه، يتملكها كيف يشاء، ويتحقق بها كيف يشاء، شريطة أن يصون حقوقها." (٤)

### ب- على المستوى الأخلاقي:

إسهاماً في الحل المشترك لأزمة البيئة حدث الانتباه إلى أهمية البعد الأخلاقي في تنمية الوعي البيئي على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المؤسسات الشريكة؛ المصانع

(١) عبد الرحمن، رُوح الدِّين؛ من ضيق العَلَمانية إلى سَعَةِ الائتمانية، مرجع سابق، ص ٤٧٤.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٣-٤٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٧٤.

والمعامل والشركات، وعلى مستوى الهيئات والدول والعالم، ومن خلال جميع المؤسسات التربوية والتعليمية والسياسية بدءاً بالأسرة إلى المدرسة فالإعلام فالجمعيات فالمساجد والكنائس وغيرها. وتبلورت أخلاقيات حماية البيئة في صورة مطالب حقوقية وإنسانية شكلت أسس الفكر الفلسفي البيئي، ودفعت في اتجاه تأسيس ما أصبح يعرف بـ"أخلاق عالمية".<sup>(١)</sup>

ويُقصد بالأخلاق البيئية؛ تلك الأخلاق المستفادة من "المجموع الموجز لكل تلك الحالات والأفكار والسرديات والمؤسسات والجمعيات ورموز النظم والآراء والممارسات السائدة، بالإضافة إلى دوافع وأسباب الإدانة والثناء، وهذا كله يعلمنا العادات الضرورية للازدهار الإنساني، كما يدرّبنا على ممارستها"،<sup>(٢)</sup> أي مجموع التأثيرات والقيم الأخلاقية التي نتلقاها من مؤسسات الوسط الاجتماعي العام ونتصرف وفقها ونحكم من خلالها على تصرفات الآخرين ومواقفهم. ويتفق الناس في مواقفهم بقدر اشتراكهم في معايير الحكم على الأشياء، و"لا يمكن لمجتمع من الناس أن يعمل، ناهيك أن يلتمس السعادة إلا بعد تحقيق درجة عالية من الإجماع حول ما هو صواب وما هو خطأ في مجال الشؤون الإنسانية، ولا يمكن أن يتحقق هذا القدر من هذا الإجماع سوى بموافقة المجتمع على التزام أخلاقي نابع من قانون أخلاقي دائم ومطلق؛ إذ يقبل المجتمع على أساس مثل هذا الاتفاق مجموعة من القواعد التي تشكل التزاماً أخلاقياً يلزم كافة أعضاء المجتمع، وتعكس هذه المجموعة من القواعد البعد الأفقي لدين المجتمع وتجسد وتحدد تفاصيل الكيفية التي يتعين بها التعبير عن الوصية الثانية، وتنبتق هذه المجموعة من القواعد بالضرورة من البعد الرأسي أو تتعلق به على الأقل. فتمنح هذه القيم المعيارية معنى للمجتمع".<sup>(٣)</sup>

---

(١) تبلورت في مؤتمرات وإعلانات مثل: "إعلان من أجل أخلاق عالمية" سنة ١٩٩٣م، و"مشروع الأخلاق العالمية لليونسكو"...

(٢) نوافك، "المجتمع المدني العالمي والأخلاق"، مرجع سابق، ص ١١.

(٣) عبد الرؤوف، فيصل. رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط ١، ٢٠٠٨م.

وانسجاماً مع المنهج الذي أزمنا به أنفسنا في الكتاب، نسترشد بالقرآن الكريم،<sup>(١)</sup> للاستهداء في إيجاد حلول عالمية عملية لأزمة البيئة تتجاوز نقائص التصورات السائدة.<sup>(٢)</sup>

### - أخلاق الإصلاح:

معلوم أن "الصالح ضد الفساد"،<sup>(٣)</sup> وأن الإصلاح يتعدى الصلاح الفردي إلى صلاح الوضع الاجتماعي والبيئي والسياسي والاقتصادي. فالإصلاح سيرورة ممتدة ومتسعة عبر دوائر متداخلة تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية جمعاء وفي الكون بكامله، وتجب العناية بالفرد أولاً، لأن إعداد الأفراد وتربيتهم مقدمة على تهيئة المجتمع السليم، حيث يتسع نطاقهم شيئاً فشيئاً في خلایا وأسر. تكبر بالتدريج، وتنمو إلى أن يتم الوصول إلى هذا المجتمع،<sup>(٤)</sup> ف"إذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته"،<sup>(٥)</sup> وإذا فسدت الإنسانية سقط الوجود في حياة بهيمية لا تصلح ولا تُستأمن ولا تتفكر ولا تتدبر ولا تعتبر.

لذلك كان أول خُلق ينبغي أن يتصف به الإنسان هو خُلق التربية والتزكية للنفس، بل لا يتم وصف الإنسانية إلا بالأخلاق، ولا يتم وصف الأخلاق إلا بالتربية التي تُصلح حال الفرد وتكسبه الاستقامة، حيث "أن الناس الذين لا يستطيعون ضبط

---

(١) وهو كتاب أخلاق في نظر الجابري، حيث قال: "والحق أن القرآن كتاب أخلاق، والسيرة النبوية هي هذه الأخلاق مطبقة"، وقال أيضاً: "القرآن الكريم هو كتاب أخلاق قبل كل شيء". انظر: - الجابري، محمد عابد. العقل الأخلاقي العربي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠١م، ص ١٦ و ٥٣.

(٢) يعاب على إعلانات "الأخلاق العالمية" أنها نظرية وأحادية وعلمانية، ينظر تفصيل ذلك في:

- عبد الرحمن، سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، مرجع سابق، ص ١١١-١٤٢.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢٥.

(٤) الجيراري، عباس. "مفهوم التعايش في الإسلام"، مجلة إسلام اليوم، العدد (١٤)، (١٧/١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص ٢٨.

(٥) ابن الأزرق، محمد بن علي الأندلسي. بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، بغداد: وزارة الإعلام، ط ١، ١٩٧٧م، ص ٢٩٣.

مشاعرهم وعواطفهم في حياتهم الخاصة، لن يكونوا قادرين على ضبط أنفسهم في المجال العام، ولا شك أن البشر قادرون على المراجعة والوصول للخيارات. بيد أنهم يحتاجون لرياضة أنفسهم مدى الحياة سعياً لتطوير عادات التوازن والاتزان والشجاعة والتواضع، والفضائل الأخرى... فالأمر كما تقول إحدى الأناشيد الأمريكية: اضبط نفسك ضبطاً ذاتياً فتصبح الحرية قانوناً.<sup>(١)</sup> وضرورة الأخلاق فوق ضرورة الحاجات المادية للإنسان.<sup>(٢)</sup>

إن إصلاح الفرد لذاته له مكان الأولوية والأساس في إصلاح منظومات المجتمع بيئياً وعرافياً وعمارياً وسياسياً، ومنه تنبعث إرادة الإصلاح لكل ما طاله الفساد، وفق مبدأ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فالأشخاص الذين لا يستطيعون ضبط جموحهم في حياتهم الخاصة، لا ينتظر منهم أن يستطيعوا ذلك في المجال العام. وفي زمننا الحاضر، هناك إدراك كبير لضرورات النظام السياسي الصالح، والنظام الاقتصادي الصالح. بيد أن الأزمة الأكثر عمقاً تكمن في تجاهل "البيئة الأخلاقية" التي تمثل ثقافة الحرية، وعلى المستوى الوطني والآخر العالمي.<sup>(٣)</sup>

وفي مستقبل الإنسانية تزداد الحاجة إلى الإصلاح، لأن المستقبل سيرث تراكم الإفساد التاريخي الموروث والإفساد الآني المركب، ومن أجل ذلك كان المقصد العام للقرآن هو "عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصالح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع،"<sup>(٤)</sup> أي المنافع المشتركة

(١) نوفاك، "المجتمع المدني العالمي والأخلاق"، مرجع سابق، ص ١٠.

(٢) عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، مرجع سابق، ص ٢٩٢.

(٣) نوفاك، "المجتمع المدني العالمي والأخلاق"، مرجع سابق، ص ١٤.

(٤) الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

بين بني آدم أجمعين. ﴿وَلَا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].  
 حيث يتحقق النفع الجماعي بالإصلاح مثلما يقع الضرر الجماعي بالإفساد، قال العز بن  
 عبد السلام: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن  
 اكتساب المفاسد وأسبابها،" (١) ومن وصايا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا أيها الناس  
 قفوا أوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا  
 تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا  
 تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة." (٢)

الأصل في الكون أنه قائم على الإصلاح، وإنما يقع الفساد من جهة الإنسان،  
 حيث يطغى ويستكبر وينسى، لذلك كان التكليف بالعمل الصالح موجه للإنسان،  
 و"العمل الصالح هو العمل السنني المتقن الذي يقصد منه التسخير والتيسير  
 والإصلاح والإعمار،" (٣) والمستمع عبر الأجيال ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].  
 ولا يتم الإصلاح إلا بالاستماع لنداء الله واتباع كتابه مرشداً أثناء  
 السعي في الأرض، قال الله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]،  
 وهذا هو سر "التفضيل الوجودي" للإنسان على باقي المخلوقات  
 الأرضية، وليس "الاستعلاء الوجودي"، (٤) لأن مصطلح الاستعلاء يحمل معه نفحة  
 الاستكبار والعلو في الأرض وهما خُلقتان مذمومتان في كثير من أي القرآن الكريم،  
 مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٩]، و﴿وَفَضَيْنَا إِلَىٰ

(١) السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة: طبعة  
 الكليات الأزهرية، (د. ت. ج. ١، ص ٨.

(٢) عاشور، أحمد محمد. والكوفي، جمال عبد المنعم (جامعين). حُطِّبَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَرَسَائِلُهُ وَوَصَايَاهُ  
 وَمُسْنَدُهُ وَفَتَاوَاهُ، القاهرة: الدار الذهبية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص ٥٨.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد. "الخطاب الإسلامي المعاصر وتشوهات الخلط والتسطيح"، في: الخطاب  
 الإسلامي المعاصر دعوة للتقويم وإعادة النظر، تأليف نخبة من الباحثين، الدوحة: وزارة الأوقاف  
 والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م)، ص ١٢٨.

(٤) النجار، الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٠ وما بعدها.



بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ [الإسراء: ٤]، و﴿سُبْحٰنَهُ  
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٣٢﴾ [الإسراء: ٤٣]، و﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾  
[النمل: ١٤]، و﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُوهُنَّ مَسْلَمِينَ ﴿٣١﴾ [النمل: ٣١]، و﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا  
يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَعْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، تتوالى التكريبات على  
الإنسان: تكريم وتسخير ورزق وتفضيل. ليوجد ويستمر في الوجود وينشئ العمران  
ويحفظ وجوده، ويعرف سنن الكون والحياة، والخلق والأمر، لا ليستعلي ويتكبر  
ويتجبر ويفسد في الأرض. وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ  
الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ [التين: ١-٦].

إن حافظ الإنسان على هذا الكويكب المسخر بهائه ويابسته وسهائه وعمل وفق  
ما ينظمه من قوانين وما ينسجه من سنن ناظمة، واجتهد في ترشيد استعمال الموارد  
الطبيعية فيه، وامتنع في المقابل عن التسبب في كل ما قد يلحق به الأذى والضرر  
والفساد، فإنه قد ضمن لنفسه التعقل للآيات المبتوتة في الكون، واستوعب حق  
الأرض على الخلق. وإذا ما فاته ذلك ونسي واجبه فإنه يفقد تفردة بالعقل كصفة مانعة  
من الوقوع في الشر، فيضيع الأمانة ويُتلف الرسالة ويُخون العهد ويكسب الإثم.

التحدي الذي يطرح على هذا المستوى هو: إذا كان كويكب الأرض بيت الجميع  
لا فضل لأحد على أحد، ولا تفوق لثقافة على ثقافة، ولا حضارة على حضارة، إلا بما  
قدمته من إنجازات تخدم الإنسان وتيسر له سبل الحياة الطيبة، فكيف يتحول هذا  
المبدأ إلى واقع عيني يعيشه الأفراد وتعيشه الشعوب والأمم؟ كيف نتعارف ونتكامل  
ونتكارب (نتقاسم الكرب) ونتعاهد على ألا نلحق الضرر ببعضنا ولا بأرضنا -أمنا  
الحنواء- حفاظاً على حياتنا المشتركة تكاملاً وتعارفاً؟ وما ذكرت كلمة أرض في القرآن

حوالي ٢٤٥ إلا لمحورية قيمتها، وإلا فأى صلاح يرجى بإفساد الأرض والفساد فيها؟ وبالمقابل أي ضرر يخشى بالحفاظ على صلاح الأرض والتعاون على الإصلاح فيها؟ وهل يرجى الصلاح للأرض من غير صلاح للإنسان؛ مادة الإصلاح وموضوعه؟ وبالتالي كيف له أن يحوز المؤهلات التي يكون بها قادراً على الوفاء بالعهد الإلهي، والتحقق بمسؤولية الاستخلاف والائتمان، واجتياز عقبات الابتلاء في بناء مشروع عمراني إيماني في الأرض التي هو مستخلف فيها، ومسخرة له خيراتها؟

يكون هذا بتربية الإنسان "التربية البيئية" التي تؤهله لتغيير سلوكه تجاه البيئة، واتجاه الكون بكامله، وإعادة بناء علاقته بالكون، وذلك بتحويلها من علاقة صراع واستهلاك شبت عليها الثقافة المادية عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، إلى علاقة تسخير واستئمان كما حددها القرآن الكريم في أكثر من موطن، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَكْرِى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٣-١٦]، وقوله عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المالك: ١٥]، فالسماوات والأرض والشمس والقمر والبحر وغيرها من المخلوقات مُسخرة من الله بإذنه وفضله للإنسان وليس استحقاقاً له، لينال فيها ومنها مطالبه ويحقق مقاصده. وهو مؤتمن مسؤول عن حفظه للأمانة.

#### - أخلاق العدل:

في معجم كتاب العين "العدل: المرضي من الناسِ قوله وحكمه... والعدولة والعدل: الحكم بالحق... والعاذل: المشرك الذي يَعْدِلُ بربه... ورجل عدلٌ، وامرأة

عَدْلٌ سواء... والعدل نقيض الجور. يقال عدل على الرعية... والعدل الطريق،<sup>(١)</sup> وهو "ضد الجور، وما قام في النفوس أنه مستقيم،"<sup>(٢)</sup> وأهم ما ينبغي الحرص عليه في الأخلاق البيئية هو حماية الكون من الظلم. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وبهذا الصدد يقول ابن قيم الجوزية: "فإن الله أرسل رُسله وأنزل كُتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض. فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره."<sup>(٣)</sup> مما يعني أن العدل أساس العمران، ولا يستقيم للعمران الإنساني معناه إلا مع تحقق مطلب العدل.

أما في الوضع البشري القائم على التلبس بأسباب الفساد والظلم والطغيان والجهل، وعلى سيطرة ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ١١-١٢]، فلا يثمر مجرد الحديث عن التعارف ولا التمكين ولا الأخوة والمواطنة. كما أن "فكرة المساواة اليوم، وانسجاماً مع المشكلة البيئية المعولة، لا يسعها أن تقتصر على المساواة في الحقوق أو على تكافؤ الفرص أو على تقليص الفوارق الاجتماعية والمجتمعية والتوزيع المجحف للموارد المادية والرمزية، بل عليها أن تتخطى ذلك لتقوم على وعي جديد بالانتقاء المشترك إلى مجال بشري واحد، وإلى مناخ وفضاء واحد، لا يعتبر ملكاً لأحد لا للفقراء ولا للأغنياء، لا للحديثين ولا للقدماء."<sup>(٤)</sup>

الإنسانية اليوم ومستقبلاً في حاجة إلى أخلاق العدل العالمية، التي تطوي الأحقاد والضغائن وتُحاصر الظلم والفساد، وتُعامل الناس بإنسانيتهم الاستخلافية المشتركة لا بانتفاءاتهم ومرجعياتهم العقدية والفلسفية، لذلك كان الأمر وحيماً: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾

(١) الفراهيدي، كتاب العين، مرجع سابق، باب: العين والبدال واللام معها، مادة: (عدل).

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، مادة: (ع د ل).

(٣) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

(٤) معلوف، حبيب. على الحافة: مدخل إلى الفلسفة البيئية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٦٠.

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحجرات: ٩]، كي يتحقق عمران الأرض بالعدل والقسط. ف"إذا كان الاستخلاف يعني القدرة على التصرف والتسخير الإنساني للكون الدنيوي المادي، وما يستتبعه من مسؤولية حمل أمانة التصرف، فإن قصد العدل -الذي هو نقيض الظلم والجور في جميع وجوه التصرف الإنساني في الحياة- هو لبُّ المحتوى والتفاعل الإنساني السوي؛ معنوياً، ومادياً، واجتماعياً واقتصادياً، وسياسياً... ولذلك كان العدل أول ما يؤمر به الإنسان؛ لأنه لبُّ معنى الحياة وقاعدة ترشيد الفطرة." (١)

الناس بفطرتهم يكرهون كل أنواع الظلم، إلا أنهم مهددون في حالة غياب الوازع التربوي والأخلاقي الداخلي بالوقوع في الاستضعاف أمام الضغوط والإغراءات، وأمام الميول العرقية والأهواء القومية وشهوات الجسد والجاه، وأمام الانحيازات العقدية والعداوات الشخصية. لذلك يحتاج العدل إلى تربية تؤهل الفرد والجماعة والأمة والإنسانية لامثاله، وإلى وعي معرفي يقنع الجميع بفضائل العدل وعواقب الظلم، مثلما يحتاج إلى سلطةٍ تردع المارقين عنه الظالمين لأنفسهم ولغيرهم: تربية ومعرفة وقوة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢]، و﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]، لأن قيام الناس بالقسط "سبب وشرط لما وُعدت به الأمة من التمتع المادي والمعنوي وما في معناهما من حفظ النعم ودفع النقم. وهذا مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤْبَأُ إِلَيْهِ بِمِيعَتِكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ نَوَلُوا فإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣] الذي يعتبر بياناً لسنة من سنن الاجتماع، وهو أن الإصلاح والإصلاح سبب لارتقاء الأمم والأقوام، كما أنه سبب لارتقاء الأفراد." (٢)

(١) أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٢) رضا، محمد رشيد. تفسير المنار، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م، ج ١٢، ص ٢٤٠.

لكن استفحال الأزمة البيئية يجعل حلها "يتطلب انعطافة جذرية، فليس بمقدورنا أن نمنح أنفسنا أدوات مناسبة، إلا حينما نُثقل البنية العميقة التي تحكم علاقة الإنسان بالأداة"،<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. كونوا قوامين: أمرٌ إلهيٌّ بالقيام لله والشهادة في الناس وإقامة العدل، وعدم تعطيله بسبب القرابة أو الخوف أو الطمع أو التحيز أو الهوى، قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. فإما الحكم بالعدل وإما الضلال عن سبيل الحق.

ومن معاني العدل: القصد في الشيء وعدم الإسراف فيه، اعتقاداً وسلوكاً، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، و﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ [٦٦] إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، وفي الحديث: "مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟"، فقال: "أو في الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار."<sup>(٢)</sup> ونحن اليوم نرى كيف تستحوذ أقلية من أغنياء العالم بثرواته وسلطاته وتسرف على نفسها بلا حساب، في الوقت الذي يموت فيه ملايين الأطفال جوعاً ومرضاً وألماً في العالم.

أخلاق العدل هي التي تربي في الفرد والجماعة الإحساس والاعتناع بشراكة الجميع في ثروة الأرض، وتكره إليه التبذير والإسراف والظلم والاعتداء والبخل، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وتحرضه على مساعدة الآخرين والدفاع عن المستضعفين، والحفاظ على حقوق الناس وهم سواسية، وعلى حقوق الأرض وهي ملاذ الطبيعي. وهذه الأخلاق لا تخص صلاح

(1) Ivan, *De la convivialité*, p. 28.

(٢) الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مرجع سابق، ج ١١، ص ٦٣٦، حديث رقم: (٧٠٦٥).

الفرد الواحد ولا صلاح الأمة الواحدة، وإنما تبتغي صلاح البشرية قاطبة، بل تبتغي صلاح جميع المخلوقات التي في عالم الإنسان." (١)

### - أخلاق التوافق:

من الأخلاق العالمية التي يشترك في المناداة بها عقلاء العالم اليوم، (٢) خُلِقَ التوافق والانسجام مع الطبيعة والارتفاق بها، أو ما يسميه مايكل زيمرمان بـ"التناغم بين البشر والأرض"، (٣) عوضاً عن خُلِقَ السيطرة عليها، وفلسفة التحكم فيها، ونزعة العداء لها. أوليس فيها يدب الإنسان وعلى ظهر أرضها يمشي، (٤) ومن خيراتها يقتات، (٥) وفي جمالها يسرح، (٦) وفي حسابها يتفكر، (٧) ومن آياتها يعتبر، (٨) بل منها أُخرج وإليها يعود ومنها يُبعث؟. (٩) فكيف لا تكون محبوبة عنده وقد مهدها الله له وجعلها مستقرًا ومتاعاً؟ وهياها له بشكل ينسجم معها، حيث جعل نواميس الوجود منسجمة مع تركيب الإنسان.

ومن آيات هذا التوافق تعاقب الليل والنهار، وانسجامه مع حاجة الإنسان إلى السعي نهاراً والسكون ليلاً، ومعرفة الحساب والزمن. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمُ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]، وسكون الليل وإبصار النهار يؤكدان

(١) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٢) كينغ، مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، مرجع سابق.

(٣) زيمرمان، الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٤) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْورُ﴾ [١٥] ﴿[الملك: ١٥].

(٥) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

(٦) قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

(٧) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ فَقَتَا عَدَابَ الْآقَارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

(٨) ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

(٩) قال تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

لوحدهما موافقة تدبير الكون لسعي الإنسان. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ  
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

في إطار هذا الانسجام يُنبه القرآن الكريم إلى النعم العظمى التي تنبتها الأرض  
للإنسان، ويذكر بواجب شكر المنعم سبحانه على هذه النعم والحفاظ عليها وديعة  
إلهية. ومما أكرم الله به الإنسان نعم الطيبات الكثيرة غير المقطوعة، وهي عطاء إلهي  
مشترك لكل بني الإنسان، يتصرف فيه بحسب رغبته وحاجته، وفي إطار ما يجلب له  
النفع عاجلاً وآجلاً، أو يدفع عنه الضرر عاجلاً وآجلاً،<sup>(١)</sup> إن في المطعم والمشرب، كما  
قال تعالى: ﴿أَيُّومَ أَحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، أو في المسكن والأمن والمتعة والجمال كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا  
ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، و﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ  
الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، و﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَبْنَاهَا ءَامِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩].  
ف"الحاجات الإنسانية جزء من بناء الخليقة، ومفردات الخليقة مصممة بقصد أن تخدم  
تلك الحاجات. كل مكونات الطبيعة ذات استعداد لقبول تأثير الإنسان فيها، ولتحمل  
التغيير طبقاً لتصرفه والتحول إلى أي شكل يرغب فيه."<sup>(٢)</sup>

هذا التوافق الوجودي بين الإنسان والطبيعة، في المصدر ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا  
مُقَدَّرًا﴾ [الفرقان: ٢]، والمصاحبة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]،  
[٥٥]، والمصير ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، يُبيّنه ويُذكر به القرآن في آيات كثيرة، فيها ناشئان من نفس  
التركيب ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، بإرادة فوق بشرية؛ إنها إرادة الله

(١) الرفاعي، عبد السلام. فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م،  
ص ٣١ وما بعدها.

(٢) الفاروقي، إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص ١٠٠.

وحكمته، وكل تجاهل لها هو سبب فاعل في إفساد الحياة، يقول مراد هوفان:  
"العواقب الوخيمة لتجاهل وجود الله أخطر ما يتهدد البيئة." (١)

كما أن هذا التوافق الخُلقي "يتجاوز التوافق التركيبي الاشتراك بين الإنسان والكون في عنصر التركيب إلى الاشتراك في الكيفية التركيبية، فكلاهما مقدر على كيفية التزاوج، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وكلاهما يسري عليه قانون التقدير الذي خلق الله به الأشياء كلها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وهو القانون الذي يضبط المقادير الكمية والكيفية المحددة في الموجودات كلها، فيتم به توازن الموجودات وتكاملها جميعاً." (٢)

إذا كان الأمر كما تقرر سابقاً فإن الإنسان يتقاسم مع الطبيعة التوافق في الامتثال الخُلقي الطوعي لسُنن الله في الوجود، فلا يختار الإنسان - وغيره من المخلوقات - وجوده ولا فناءه ولا نظام الحياة فيه، ولا استطاعة له على البقاء خارج ما قُدِّر له. وإذا كان ذلك فلا يستفاد منه تساوي قيمتها، حيث الإنسان قَوَّامٌ ومُكْرَمٌ في الكون ابتداءً من خَلْقته حيث أسجد الله له ملائكته ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وقدرته على العلم بمكونات الطبيعة - وهي مسخرة طائعة - وفهم نواميسها والإفادة من ذلك في بناء العمران وإصلاح الأرض.

أما في الغرب وبعد انسداد أفق النظرة المادية الميكانيكية التي ترى أن وظيفة العلم هي قهر الطبيعة أو الانتصار عليها وكأنها عدو، استيقظت أصوات تدعو إلى عودة الوفاق مع الطبيعة والتلطف معها ومحبتها وبذل الجهد لمعرفة قوانينها، مثل سيرج موسكوفيتسي Serge Mosovici الذي دعا إلى إعادة تحديد العلاقة بين الإنسان والطبيعة على أسس جديدة، ويؤكد هانز جوناكس Hans Jonas على مسؤولية الجيل الحالي تجاه الأجيال القادمة، وميشال سير Michel Serres الذي نادى بوضع "عقد

(١) هوفان، مراد. الإسلام كبديل، ترجمة: عادل المعلم، القاهرة: مكتبة الشروق، ط١، ١٩٩٥م، ص١٢٤.

(٢) النجار، فقه التنحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص١٢٨-١٢٩.



طبيعي" (١) شبيه بـ "العقد الاجتماعي"، يحدد لنا واجباتنا تجاه الطبيعة والحياة والأحياء. وفي نفس السياق طرح عبد الوهاب المسيري فكرة "العقد الاجتماعي الجديد" (٢) القائم على مراعاة حفظ المشترك الإنساني.

### - أخلاق التعاون:

لا شك أن الطيبات المبتوتة في الكون مسخرة لبني آدم أجمعين، وعلى الإنسانية أن تتعاون على الحفاظ عليها، والاستفادة منها بالعدل، وإصلاح ما قد يقع في توزيعها من فساد، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢٠]، ليس فقط التعاون بين آحاد الأفراد، وإنما التعاون الدولي لمعالجة المشكلات البيئية الكبرى، ومعلوم أن إباحة الطيبات وتحريم الخبائث من صور تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من الخلق، وأن عمارة الأرض ليست مسؤولية المسلمين وحدهم، ولا الغرب وحده، بالرغم من عدم التكافؤ في الإفساد بين الدول الغنية والدول الفقيرة، بل هي عمل جماعي تضامني يشترك فيه الجميع، وتتعاون فيه الديانات والثقافات والأجناس والأعراق المختلفة. ولعل ذلك ما يقصده روجي جارودي بحديثه عن "المجتمع التضامني"، وهو المجتمع الذي تلتزم فيه المعرفة بالقيم الذي ما فتئت الرسائل السماوية تذكر به، ولا يزال الواقع ينقل لنا الحاجة إليه باستمرار، فمنذ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والبشرية في أمس الحاجة إلى ربط المعرفة بالقيم.

إن استمرار عطاء الأرض لا يكون إلا بوعي المستخلفين، مسلمين وغيرهم، بضرورة التعاون بينهم، أفراداً وهيئات ومنظمات ودول على النهوض الجماعي بعبء الإصلاح والعمارة ومدافعة الفساد، وخاصة إذا كان الفساد منظماً ومحمياً بقوة المال والسلطة والنفوذ. والمسلمون باعتبارهم أمة الاتباع مطالبون باستيعاب روح المنهاج

(1) Serres, Michel. *Le contrat naturel*, Paris: François Bourin, 1990.

(٢) المسيري، عبد الوهاب. "نظام القيم ومركزيته في البناء الحضاري"، مجلة الإحياء، العدد (٢٨)، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٥٨.

القرآني الكلية وتمثلها فكراً وعملاً وسلوكاً، حتى تتحقق فيهم الاستقامة عليه، ثم اقترحها على أمة الاستماع بثقافتها المتنوعة حتى تسمع كلام الله في معاناتها النفسية والفلسفية والسلوكية.

إن المسلمين معنيون بالتعاون أكثر من غيرهم، فعليهم تقع مسؤولية تبليغ ما عندهم من مناهج إلى الإنسانية، ومد يد المطاوعة للجميع، بوصفهم أمة اتباعٍ للمرسلين، شاهدة على العالمين، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. لتدبير منافع الجميع وتحقيق مصالح الكون والمتعاشين فيه، وتجنبيهم كل ما من شأنه أن يضر بمصالحهم جميعاً، لذلك كان المقصد الأكبر للدين هو "عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها وصلاحتها بصالح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كُلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع."<sup>(١)</sup>

### ت- على المستوى القانوني والسياسي:

إذا كانت المسؤولية البيئية إلزاماً مشتركاً بين جميع الناس في المعمورة، فإن ذلك يستدعي بالإضافة إلى ما سبق وبناء عليه، إقامة تشريعات بيئية كونية وإصدار قرارات عالمية ملزمة، تُجمع عليها جميع الأطراف، وتستمد من روح الأسس المشتركة ديناً ومعرفة وعمراناً وطبيعة، تحدد طبيعة الأزمة البيئية وحجمها وعاقبتها، وعلى أساس ذلك تتحدد الحلول والواجبات الدولية المشتركة، والاتفاق على منظومة التنفيذ ومنظومة الالتزام بالتشريعات، وأخيراً منظومة التقييم والتقويم للتشريعات وسياسات تنفيذها.

يعتبر إعلان ستوكهولم سنة ١٩٧٢م، أشهر التشريعات البيئية العالمية، ويضم ٢٦ مبدأً،<sup>(٢)</sup> تركز في عمومها على حق الفرد في أن يحيا في ظروف بيئية سليمة تحفظ

(١) الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

(٢) أضيف له مبدأ جديد في مؤتمر ريو دي جانيرو، عام ١٩٩٢م.

كرامته، في مقابل واجبه في حماية البيئة من التلوث والدمار، كما ربط الإعلان بين البيئة والتنمية والبشر والموارد،<sup>(١)</sup> إلا أن هذا الإعلان جاء متأثراً بالرؤية الرأسالية الغربية ومركزاً على الفرد الذي توطئه أخلاق اللذة وحتمية الاقتصاد. ناهيك عن كونه لا يلزم الأطراف القوية المتسببة أكثر في حدوث الأزمة البيئية بتنفيذه والامتثال لتوصياته. فمن يضمن تطبيق التشريعات البيئية في عالم المستكبرين الذين لا يعثون بالقوانين إلا إذا كانت تجر لهم نفعاً اقتصادياً؟ بل أحياناً تجد بعض الدول الصناعية الكبرى ترفض حتى التوقيع على تلك التشريعات الدولية المشتركة، ولا أحد من الناس يستطيع أن يلزمها بالتوقيع فضلاً عن التطبيق. فمؤتمر استوكهولم نفسه وبضغط من تلك الدول اعتبر أن "الفقر هو أكثر الملوثات خطراً"،<sup>(٢)</sup> والحقيقة أن فسوق المترفين وتبذير المبذرين إخوان الشياطين هو العدو الأول للبيئة.<sup>(٣)</sup>

لما وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٢م على البيان العالمي من أجل الطبيعة، والذي ورد فيه: "يجب على البشر الاسترشاد بدستور أخلاقي للعمل... يجب احترام الطبيعة وعدم تمزيق سيرورتها الأساسية،"<sup>(٤)</sup> طرح السؤال العملي: من يسهر على التنفيذ والتتبع وقد دخلت البشرية مرحلة الاضمحلال البيولوجي؟

من أشهر المؤتمرات البيئية أيضاً: مؤتمر قمة الأرض سنة ٢٠٠٢م بجوهانسبيرغ في جنوب افريقيا، وهو ثاني مؤتمر لقمة الأرض، حضره معظم قادة العالم ليتباحثوا في القضايا البيئية الكبرى كتغير المناخ والتنوع البيولوجي ومشكل الطاقة، وفي اتخاذ قرارات دولية بصدددها، وتنسيق الجهود لتفعيلها وتفعيل القرارات السابقة في مؤتمر ريو ديجانيرو سنة ١٩٩٢م. لكن المشكل الأكبر هو عدم التفاهم حول الحل. حيث

(١) الخولي، البيئة وقضايا التنمية والتصنيع، مرجع سابق، ص ٢٠ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢.

(٣) السامرائي، نعمان عبد الرزاق. نحن والحضارة والشهود [ج ٢]، سلسلة كتاب الأمة (٨١)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)، ص ٤٠-٤١.

(٤) زيمرمان، الفلسفة البيئية، مرجع سابق، ص ٣٤٧.

رفضت بعض الدول الكبرى التوقيع على بنود المؤتمر العالمي، ونشب صراع حاد بين الدول المصنعة والدولة النامية، هذه الأخيرة اعتبرت أن "العولة ظاهرة تهمش الدول النامية وتزيدها تخلفاً وفقراً واستغلالاً وضعفاً في التكامل الفعلي بين الأبعاد الاجتماعية والبيئية، والنقص في الموارد المالية، وتخلف نقل التكنولوجيا والمعلومات من الدول الصناعية إلى النامية"،<sup>(١)</sup> بينما الدول الكبرى تتمسك بطبيعة اقتصاداتها الاستهلاكية، وهي تعلم أن "الأزمة الحالية تتركز في الاستغلال المفرط وغير العادل لموارد البيئة في غالبية الدول الصناعية، حيث العقلية الصناعية التي أصبحت تتحدى نفسها في كيفية زيادة حجم الإنتاج، وتحقيق أكبر عائد اقتصادي في عالم يتسم بتطور العلوم والتكنولوجيا، ويتضخم حجم المعرفة، وتبادل المعلومات وسرعة الاتصال. والسير على وتيرة تصاعد استغلال المواد الخام لدوافع اقتصادية من دون الأخذ بالاعتبارات البيئية وبالتوازن الطبيعي للبيئة".<sup>(٢)</sup>

اهتماماً بالمشكلات البيئية المشتركة حاول البيئيون إيصال ندائهم وتحذيرهم إلى قادة العالم لعلهم يجعلون في مقدمة انشغالهم قضية البيئة وما تحمله من تهديد لحاضر الإنسانية ومستقبلها، ولعلهم يستعملون سلطتهم في إنقاذ العالم من تدمير منظم يكاد يفنيه. غير أن السياسيين خيخوا الآمال بانشغالهم المفرط بالقضايا اليومية والرأي العام والإعلام ورفاهية الشعوب، وعدم التفاتهم لقضايا يتطلب تدبيرها جيلاً بل أجيالاً، وتوضيحات وقرارات كبرى. وإن كان للهيئات الحكومية نصيب من المشاركة في الحفاظ على البيئة عبر ما يسمى بـ"الحلول التدخلية" عن طريق العقوبات الزجرية والقوانين الرادعة، والرقابة الأمنية وفرض القوانين على الشركات الملوثة ومراقبة أعمال النظافة. حيث "يدعم مناصرو السوق الحرة فكرة تحميل الملوثين المسؤولية القانونية عن آثار أعمالهم. فمثلاً قد تضع الحكومة سجلاً

(١) الشراح، "التربية البيئية ومأزق الجنس البشري"، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

للمواد الملوثة، وتراقب تدفق الملوثات إلى الغلاف الجوي، وتنفذ ما يتعلق بالمسؤولية القانونية عن الأضرار.<sup>(١)</sup>

لقد عقدت المعاهدات والاتفاقات والمؤتمرات والقمم الدولية وأصدرت "قوانين بيئية دولية" لحماية البيئة وردع المفسدين عن طريق سن قوانين زجرية تأديبية قابلة للتطبيق، وهو ما ينسجم مع قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ آلِهِمْ لَسُدَّ فِي السُّبُلِ مَنَافِعُهَا فَذَرَوْهَا خَالِيَةً﴾ [هود: ١١٦]. وإذا "كانت الحركة الخضراء العالمية النامية تعبيراً مهماً أيضاً عن الاهتمام بالأيكولوجيا السياسية. وفي حين تخلفت الولايات المتحدة وراء كثير من البلدان، فإن السياسة الإيكولوجية في قسم كبير من العالم تتمثل الآن بحركات وأحزاب خضراء مهمة... وقد تراكمت هذه التطورات السياسية مع نمو سريع في أدبيات النظرية السياسية الخضراء،"<sup>(٢)</sup> فإن تغيير أنماط التفكير وأنماط الحياة وحده المدخل الأصح من أجل شراكة حقيقية في إنقاذ البيئة، بل في إنقاذ أنفسنا.

نستنتج مما سبق أن الأزمة البيئة أزمة كونية مشتركة تعم الكون بأكمله ولا تقتصر على جزء منه فحسب، كما أن إصلاح الحياة البيئة وترشيد استغلال الثروة الطبيعية مطلب مشترك ثابت للإنسانية لا يطاله التقادم أو الإلغاء، يبدأ بالافتتاح العالمي باستفحال الأزمة البيئية، وتقدم الوعي بانعكاساتها الخطيرة على حياة الإنسان وباقي الأحياء، ويتم بـ "عقد بيئي عالمي" يشترك فيه الجميع بناءً على أسس المشترك الديني والمعرفي والعمراني، ويتعاون على تنفيذ بنوده الجميع وهذا غير العقد الذي يضعه طرف ما ويلزم به الآخرين دافعاً بحجة كونيته! آنذاك يلتقي الوعي الإنساني بمقاصد القرآن الكلية التي لا تقف سداً في وجه التفكير الإنساني والتقنين التشريعي، بل تصحح الرؤية وتنبه الفكر وتوقظ الوعي وترشد السلوك إلى ما فيه خير للعالمين.

(١) زيرمان، الفلسفة البيئية، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٣.

## الخاتمة

لقد مثل لي هذا الكتاب سفراً ممتعاً وشاقاً في الآن ذاته، عبر التدبّر في كتاب الله تعالى المفتوح للقراءة والتدبر والاستبصار والتثوير، وكذا عبر الاطلاع على ما أنتجته البشرية من معرفة علمية وفلسفة وحكمة إنسانية، في حدود ما أمكنني الاطلاع عليه بخصوص إشكالات البحث، والتي تغطي حقولاً معرفية متنوعة: الدين، الفلسفة، العمران، العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية، الاستمولوجيا، فلسفة وعلم البيئة، ورسا بحمد الله تعالى على ما نعتقده مدخلاً لتأسيس نظرية متكاملة في المشترك الإنساني، هذه النظرية التي حاولت أن أسهم في التأسيس لها على أربعة مستويات كبرى هي الدين والعلم والعمران والبيئة. وفي ما يلي أختصر ما انتهت إليه هذه الأطروحة من نتائج، وما قدمته من إجابات، وما أسفرت عنه من اقتراحات.

طبيعة العلاقة بين المسلمين والغرب اليوم في حاجة إلى تجاوز فلسفة الصراع التي تقسم العالم إلى دار الغرب وفيها جميع القيم الإيجابية؛ العلم، الحداثة، الديمقراطية، التقدم... ودار المسلمين وتُنسب لها جميع القيم السلبية؛ الجهل، التبعية، الإرهاب، التخلف... إلى فلسفة المشترك الإنساني التي تنقذ العالم من رؤية فكرية وحضارية تجعل من الصدام والمواجهة الصماء بؤرة الوجود والتفكير والفعل، وتنتشل الإنسانية المعذبة من فتن الاستكبار والاستفساد. وليس من حلٍّ - في نظرنا - يفيد التجاوز سوى مقترح المشترك الإنساني الجامع بين الكليات الدينية والعلمية والعمرانية والطبيعية التي لا تختلف فيها الملل والشعوب.

ولا شك أن العالم مؤلف من ثقافات متنوعة، إلا أن تنوعها لا يمنع من إيجاد قواسم مشتركة كبرى يلتقي فيها كل بني الإنسان على اختلاف عوائدهم وعاداتهم، وتتلاقح فيها أفكارهم وتتكامل ثقافتهم، وتلتقي مصالحهم ويحصل التعارف

والتعايش والتعاون. وهذه القواسم نتحدث عن الحضارة الإنسانية المشتركة التي تؤسسها الأصول الدينية والعلمية والطبيعية والعمرائية، وما تحمله من قيم كونية خالدة خلود الحياة الإنسانية على الأرض.

يعد الدين في كلياته الكبرى ومقاصده العليا أهم الأسس التي يقوم عليها المشترك بين المسلمين والغرب، فهو شجرة واحدة ممتدة جذورها عبر السلسلة النورانية النبوية إلى مرحلة ختم الرسالات، وترتكز فلسفة الدين أساساً على مبدأ التوحيد، وهو المبدأ العقدي والمعرفي والسلوكي والعمرائي الذي جاء به جميع الأنبياء ودعوا أقوامهم لفهمه والعمل بمقتضياته، وقدموا لهم الأسوة من أنفسهم ومن معهم من الأصحاب والحواريين والأتباع، فكان الأنبياء إخوة يؤسسون لحضارة الأخوة. لذلك بعودة الإنسانية إلى كنز التوحيد تظفر بأصل جامع يُنبئ الأخوة والتعارف والتعاون والتضامن، مثلما يصحح المعرفة ويرشد الرؤية الكونية لله والإنسان والكون. فيتصالح الإنسان مع الفطرة الأولى التي يولد عليها ابتداء من غير تعلم أو تكلف، ويتحقق من جملة القيم الحاكمة التي عليها مدار الحياة البشرية السوية، كالعدل والحرية والسلم.

إضافة إلى ذلك فالتمسك بالأصل التوحيدي المشترك يحمي الإنسانية من السقوط في النزعة الإلحادية ومن الافتتان بالناذج المادية المتحيزة التي تصرف الناس عن دينهم وتستغفل فيهم نداء الفطرة وحكمة العقل، مثلما يعالج نقائص النزعة الوضعية، التي تنكر الألوهية والآخرة والنبوات والقيم الدينية، ولا ترى في الإنسان المُكْرَم سوى كائن تطور في الطبيعة وتفوق على باقي الكائنات وغزا الفضاء وسيطر على الطبيعة. وغير خافٍ ما وصلت إليه هذه الرؤية من تذويبٍ لإنسانية الإنسان وترذيلٍ لقيمته وتشبيهِ لهويته. "وكل شيء يحيط بشخصية الإنسان ويحيله إلى شيء فهو أمر لا إنساني... إن تقليص الإنسان إلى مجرد وظيفة إنتاجية استهلاكية حتى -ولو كان له مكان في عمليات الإنتاج والاستهلاك- ليس علامة على الإنسانية، وإنما هو سلب لإنسانيته."<sup>(١)</sup>

(١) بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، مرجع سابق، ص ٨٨.

المعرفة العلمية بمناهجها وموضوعاتها وقضاياها وما يتعلق بها من إنجازات تقنية أو مشاكل علمية مشتركة إنسانية، فهي ثمرة إجهاد الإنسان لقواه الإدراكية والبدنية في فهم واستثمار الأشياء المسخرة له وفق السنن الكلية الناطمة لوجودها. سواء منها المعرفة التي تتخذ من أشياء الطبيعة وظواهرها وخصائصها موضوعاً لها، أو تلك التي تتخذ من موضوعات هوية الإنسان وقيمه وحرية والغاية من وجوده قضيتها الأساس ومحور بحثها وتفكيرها وعملها؛ أي العلوم الإنسانية والاجتماعية.

المعرفة التي أنتجتها العلوم الطبيعية في مختلف تخصصاتها وخصائصها هي "مشترك إنساني عام، وذلك لأن مناهجها تحاول أن تتحقق بالحياد العلمي، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية عموماً هي السبيل لاكتشاف "حقائق" هذه العلوم، التي هي بنت الدليل، والدليل لا يختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين والباحثين. ومن ثم فهي لا تتغير بتغير القوميات والحضارات إن هي تخلصت من التحيزات اللاعلمية السابقة عن العلم ذاته، ولم تتوسع أكثر مما تقتضيه علميتها. كما أن موضوعات هذه العلوم -المادة وظواهرها- واحدة هي الأخرى، لا تختلف ولا تتغير باختلاف وتغير الحضارات، فعلوم الرياضيات بفروعها والكيمياء والطبيعات والطب والجيولوجيا والجغرافيا... لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات.. قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها، لكن "حقائق" علومها؛ أي "فكرها العلمي" سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات،"<sup>(١)</sup> وقد استطاعت أن تثبت علميتها وعالميتها من خلال دقة مناهجها وفاعلية نتائجها وتراكم إنجازاتها.

هذه العلوم هي مُيسرة للإنسان باعتبار إنسانيته المؤهلة بجملة من القدرات العقلية والحسية والروحية، التي بها يستطيع أن يلاحظ ويجرب ويحلل ويركب ويقارن ويستنتج ويقيس، من أجل معرفة الحق وإصلاح الحياة وتعمير الأرض وحفظ البيئة.

---

(١) عمارة، الغزو الفكري؛ وهم أم حقيقة؟ مرجع سابق، ص ١٦.



أما حقائق العلوم الاجتماعية فهي مشتركة من حيث كونها إسهام بشري في دراسة الإنسان، غير أن هذه العلوم لها خصوصية معرفية ومنهجية، ترجع إلى تعلقها بمعطين اثنين هما: كون الكائن البشري ليس كتلة جامدة كما هو الحال في الظاهرة الطبيعية التي يحكمها مبدأ العطالة، وإنما هو ذات عاقلة واعية، ثم كون هذا الإنسان الدارس والمدروس، الذات والموضوع هو جزء لا يتجزأ من ثقافة ما تختلف عن ثقافات أخرى إن كلاً أو جزءاً. وعلى كل حال فهي تحتفظ بصفة العلمية ما لم تستغلها الدراسات الأيديولوجية المتحيزة أو تستغلها القوى الاقتصادية والسياسية المتحكمة في البحث العلمي والموجهة له. وتسحبها من العلم المحض إلى التوظيف السياسي والاقتصادي والإعلامي المتحيز. وبالتالي فالحقائق العلمية وإن كانت تتصف بالنسبية والتغير فهي إنجاز بشري مشترك، شريطة أن يُخلص من فلسفة توظيفه لغايات غير علمية.

العلم والعقل والتجربة مشتركات إنسانية، وهي مسخرات إلهية للإنسان المستخلف كي يتذكر ويتعلم ويعمل ويعتبر، والعلوم سواء علوم التيسير التي تستمد من الوحي، أو علوم التسخير التي تستمد من الكون، أو علوم الاستبصار التي تستمد من دراسة الإنسان، هي علوم متكاملة ومتداخلة، وهي التي تستحق تسمية العلم الجامع، الذي يشمل النظر في النص والنظر في الكون والنظر في الإنسان. بهذه القراءة الجامعة تفتح أمام الإنسانية المعاصرة إمكانات هائلة لنقد وتجديد أسس المعرفة الإنسانية وإعادة بنائها استشرافاً لعالمية المشترك الإنساني الذي لا تعلق فيه ثقافة على أخرى، ولا تستبد أمة بأخواتها.

من المشتركات الإنسانية الكبرى؛ فاعلية الإنسان واستخلافه في الأرض مادياً وروحياً وزمناً. وُضعت بين يديه الإمكانيات وسُخرت له الأسباب، وبُعِثت من أجله الرُّسل تكريماً له وتكليفاً، ومُنح استطاعة هائلة على التمييز والاعتبار والعمل، لقصْدٍ كبير وهدفٍ عظيم، وهو إعمار الكون بالصلاح بعد تحقيق التوحيد الذي يحرر الذوات

من الأنانيات والشهوانيات والعبوديات للأشياء وللناس. من أجل ذلك توجه كُل نبي إلى قومه قصد إصلاح مجموع أوضاعهم حتى يتحقق العمران في الأرض وما يتعلق به من قيم الخير والحق والعدل والرحمة، وهذه هي مقومات العمران الإنساني، وهي تراعي البعد الروحي الإيماني، والبعد المادي الأرضي، والبعد الزمني التاريخي. واستخلاف الإنسان نوعان؛ استخلاف عام تشترك فيه الإنسانية، واستخلاف خاص هو للأمة الشاهدة بالقسط؛ أي الأمة التي تكون خير الأمم إن هي خرجت للناس بنموذجها العلمي والعمراني، الذي يستوعب مقومات الحضارة السائدة ويتجاوز نقائصها ويعالج أزماتها.

من خلال استقراءنا لمادة "العمران" في القرآن يتبدى لنا أن مجال العمران يشمل عمران الإنسان وعمران الأرض وعمران الحياة، وهو مجال مشترك بين جميع الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم وأعرافهم وألوانهم وثقافتهم. فالإنسان بإنسانيته مستخلفٌ لإقامة العمران، ومسؤول عن فعله وتركه، فرداً وجماعة وأمة، وإن خلقت الأرض قبل تكليفه فإن ما بُثَّ فيها مخلوق وميسر له. ومسؤولية الإنسان العمرانية تقتضي استخدامه لكل ما وهبه الله من قوى ذاتية، وما أنزل عليه من آيات ربانية، وما يسر له من إمكانات كونية، في بناء عمرانه واستصلاح أوضاعه، على الوجه الذي لا يوقع فساداً لا في الذوات ولا في الأرض. وحيث لا ينفصل مفهوم العمران عن مقصد الإصلاح، فإن الإنسانية مطالبة بإصلاح عمرانها إصلاحاً شاملاً ومستمرّاً ينقلها من وضعٍ أفسده الناس بما كسبت عقولهم وأيديهم، إلى وضعٍ أصلحه الناس باتباع منهاج ربهم.

لا ينفصل المشترك الإنساني العام عن المشترك الطبيعي البيئي، مثلما لا ينفصل الكل عن مجموع أجزائه، حيث إن الكون هو الوعاء والحاضن للمشارك بين الناس أجمعين، نظراً لاستحالة الحياة البشرية والعمران البشري إلا على ظهر الأرض التي هي المهاد المسخرٌ للخليقة الآدمية. وهو ما تبينه آيات الخلق والتسخير والاستخلاف،

حيث يكون الإنسان مستخلفاً مؤتمناً على البيئة التي يعيش فيها وينمي فيها معاشه الاقتصادية والعلمية والتقنية والسياسية. وتكون البيئة مُسخرة له حاملة لمشروعه العمراني في الوجود. لذلك تطرح اليوم المشاكل البيئية أو المشاكل المرتبطة بالبيئة الطبيعية على مستوى عالمي، نظراً لارتباطها بالإنسان من جهة، لاعتباره الفاعل المؤتمن في الكون، بغض النظر عن الانتفاء الجغرافي والديني واللغوي والعرقي وغيره، وبالأرض من جهة ثانية لاعتبارها محل هذا الائتمان ومجاله، وهي التي لا سعي للإنسان إلا عليها. والنهوض بمعالجة المشكلات البيئية لم يعد أمراً داخلياً يخص دولة بعينها لكنه أمسى أمراً عالمياً يؤرق جميع الأمم؛ إذ البيئة لا تعرف حدوداً سياسية أو جغرافية أو ثقافية، مثلما لا يتوقع لاقتراحات الحلول أن تكون ناجعة إلا إذا استحضرت الأبعاد العالمية والشمولية والغائية، وتخلصت من إसार الفلسفة المادية التي تنسف جميع القيم والمثل العليا وتدع الإنسان شبحاً يواجه مصيره ببلادة، لَمَّا تسقطه في التمرکز حول الطبيعة أو حول ذاته، والقول بتأليه أسيائها، وتنفي مبدأ الخلق والغاية من الوجود، وتفسر النظام وسيرورة الأحداث وحتمية السنن بحركة طبيعية ذاتية ليس وراءها سوى الفراغ والعدم، وتلحق الكائن المستخلف الذي أسجد الله له ملائكته بالظواهر الطبيعية القابلة للتكميم!

تحققنا من أن طبيعة الأزمة التي تعانيها الأمة المسلمة هي أزمة تربوية وفكرية في أساسها، وعنها تترتب باقي الأزمات السياسية والاقتصادية والتقنية والعسكرية والمجتمعية عموماً. وقد حملها تصوران مختلفان منهجياً لكنها متكاملان وظيفياً، هما التصور التراثي الموغل في "الماضوية" والذي يتمسك بالأعجام السابقة ويقف عندها دون اجتهاد ولا إبداع، فيطري الذات ويتهّم الغير ثم ينسحب من المعركة منهزماً. والتصور التغريبي الموغل في "الاستلاب" من طرف الغرب المتفوق تقنياً واقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، حيث يرى أصحاب هذا التصور أن طريق التحرر والبناء والإنجاز يمر بالضرورة عبر التغريب. أي "أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما

يُحِبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب." (١)

واقنعنا بأن تجاوز هذه الأزمة وإصلاح المعاطب التي خلفتها بغية تحقيق الإصلاح في المنهج والمعرفة والواقع، وإقامة "حالة السواء" لا يتم إلا من خلال إصلاح جذري للنظام الفكري للعقل المسلم أولاً، والتخلص من آفات التقليد والاستتباع، وحيث تعاني ثقافة المسلمين من جملة اختلالات أقعدتهم عن إقامة نموذج معرفي يستقيم فيه النظر على جادة المنهاج القرآني النبوي بخصائصه العالمية والشمولية والغائية والتكاملية والاستيعابية والوسطية. وبإصلاح الفكر يُسهم المسلمون من جهة خيريتهم في تأسيس حضارة المشترك الإنساني، باعتبارها الحضارة الوارثة. وليست حضارات الصراع التي تؤججها فلسفات الكراهية الآيلة إلى زوال. وهذا يتطلب اجتهاداً تجديدياً وجماعياً وشاملاً، عبر عملية نقدية ضرورية لكل ما وَصَلْنَا مِنْ تراثنا أو من تراث غيرنا، ومراجعة منهجية تعيد ترتيب أولويات التفكير والإنجاز من جديد في ضوء المستجدات الحياتية الواقعة والمستقبلية، وفق المقاصد القرآنية الكبرى.

لا ينهض بحل مشاكل الإنسانية على تعقيداتها المتنوعة إلا المشروع الذي خَبَّرَ البشرية حقاً، وهذا المشروع لا يحمله الفكر البشري من غير الاهتمام بالقرآن الكريم المنزل من لدن حكيمٍ عليمٍ بَمَنْ خَلَقَ وبما يصلح لهذا الخلق. فهو كتاب عالمي بخطابه وموضوعاته ومقاصده، وهو برهان وفرقان وإحسان به يتميز الحق من الباطل والخير من الشر، والفساد من الصلاح، وبه يرقى الإنسان أو يشقى. والإنسان مخلوق يتفاعل مع جميع القيم الثقافية والأنساق الحضارية، ليقومها ويتجاوزها، ومع جميع المناهج المعرفية، ليستوعبها ويصححها. فهو خاتم الرسالات والمهيمن عليها هيمنة تصحيحية إتمامية تركز على المشترك الديني، الذي هو توحيد الله والتخلق بقيم الهدى ودين الحق في إطار الأصل الآدمي والحنفية الإبراهيمية، وليست هيمنة إغائية أو إقصائية؛ إذ التاريخ شاهد على أن رسالة القرآن الخالدة تحتضن التفاعل الأكبر بين

---

(١) حسين، طه. مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٤١.

الأجناس والأعراق والشعوب والأمم، وقادرة على استيعاب قضايا العالمين وتقديم النموذج الناجح، الذي يرتبط نجاحه بالتركيز على الأسس المشتركة بين الإنسانية والاعتراف بتكامل الثقافات وتداخلها وتنوع عناصرها.

أما بخصوص الغرب فهو مقبل بعد فشل إيديولوجيا الصدام والإقصاء على استثمار المواقف الفكرية التي انتبعت إلى خطر التفرد والتغريب وانتقدت الفلسفات الصراعية والفوضوية والعنصرية، من أجل الاقتناع بضرورة الانفتاح على مرجعيات الآخرين المختلفة واحترام خصوصياتهم والتركيز على القيم المشتركة معهم، موازاة مع مراجعة الوعي الذاتي المشوه بالتمثيلات الإيديولوجية والفلسفية المغرضة. فالمشترك الإنساني يبدد أوهام الاختلاف الحاد والتصادم المطلق، دون أن ينفي واقع الاختلاف بين الحضارات والتكامل بينها وحاجة بعضها إلى البعض.

المستقبل تمكين للدين الحق، في عالمية ثانية، عالمية رحمة وعدل وإحسان، والأمة تملك - ما تزال - قدرات هائلة على مراجعة ذاتها وتجديد رؤيتها وبناء نموذجها وتجويد علاقتها بغيرها. إن هي استرشدت بنور القرآن وهدايته في معرفة الحق والعمل بمقتضاه في الأنفس والآفاق، حتى يتحقق العمران الإنساني الأخوي الذي يعز فيه الإنسان المستخلف بالعلم والعمل والإيمان. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

في الوقت الذي تتعالى فيه أصوات التعبير عن الأزمات والنهايات والصراعات، وتزداد حمية الصراع بين الأقوياء لمزيد من النفوذ والسيطرة والتأثير على المستضعفين وقهرهم، في غياب عدالة دولية وأخلاق عالمية تلجم النزعات الشمولية والاستكبارية والعنصرية الطاغية ببأس المال والإعلام والسلاح، مما يشكل خطراً على سلام الإنسانية وتوقانها إلى عمران مشترك جامع، لقد آن الأوان ليستمع العالم لكلام الله وينصت لندائه لعله يظفر بالرحمة المكنونة فيه، ويحيا السعادة الممتدة من خلاله، وتجاوز نزعات التفريق والتهميش والإقصاء ونشر الكراهية والبغضاء بين الشعوب،

والانخراط بكامل الوعي في حضارة المشترك العمراني المتآخي المتعارف تحقيقاً  
للمقاصد الكبرى من الحياة الإنسانية على وجه المعمورة.

إن العالم اليوم بصدد استقبال عالمية جديدة تعود إلى الأصل والمشارك وتقصد  
إسعاد الإنسان وتحريره من الأوهام الموروثة والنوازع المقيتة. وعلى أساس هذا الفهم  
المنهاجي سيظهر الإسلام دين الإنسانية من جديد على نحوٍ عالمي، ما دامت عالميته  
حتمية مستقبلية، وذلك في إطار الاعتراف بالاختلاف، والحوار مع المختلف، والسلم  
في التعارف والتبادل والتعايش في إطار تعاقدية عالمي ينمي ثقافة التقارب والتعارف  
والتعاون، ويؤمن بالاختلاف الثقافي والخصوصيات المجتمعية في العالم ولا يمحوها.

وأخيراً لا يفوتني التذكير بأن هذا الكتاب لا يدعي الإحاطة بموضوعه من جميع  
جوانبه، كما لا يزعم الإجابة عن كامل أسئلته، بقدر ما هو محاولة تأسيسية - يطولها  
التقصير - لمدخلٍ علمي عام لنظرية المشترك الإنساني في معالمها الكبرى من خلال  
المرجعية القرآنية، وهي تسعى لتقدم إسهاماً ينضاف إلى إسهامات كثيرة تفتل في حبل  
تصورٍ تجديدي في الثقافة الإسلامية العربية لقضايا التفكير الديني والفلسفي والثقافي  
ذات البعد العلائقي مع الآخر المشترك والمختلف.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى من  
اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين



## المراجع

### أولاً: المراجع العربية:

- آرثر، تشارلس فليب (الأمير). "الإسلام والغرب"، محاضرة ألقيت في: مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ١٩٩٣م.
- آل شبير، محمد طاهر. نقد المذهب التجريبي، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٨٧م.
- إبراهيم، عبد الله. المركزية الغربية، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠م.
- أحمد، إبراهيم خليل. محاضرات في مقارنة الأديان، القاهرة: دار المنار، ط٢، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ابن الأزرق، محمد بن علي الأندلسي. بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، بغداد: وزارة الإعلام، ط١، ١٩٧٧م.
- اسبوزيتو، جون. ومجاهد، داليا. من يتحدث باسم الإسلام؟، ترجمة: عزت شعلان، القاهرة: دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٩م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إساعيل. مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الحدائث، ط٢، ١٩٨٥م.
- أشفيتسر، ألبرت. فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الأندلس، ط٣، ١٩٨٠م.
- الأصبحي، أبو عبد الله مالك بن أنس. الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).
- أصفري، أمين حسين. "الشعب اليهودي وبنو إسرائيل"، مجلة المستقبلية، العدد (٢)، ٢٠٠١م.
- الأعظمي، محمد ضياء الرحمن. دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ط٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- إقبال، محمد. تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).



- أشتاين، جين بتكي. "هل توجد قيم إبراهيمية مشتركة"، مجلة التفاهيم، العدد (٣٣)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، بيروت: دار الفكر، (١٣٩٤هـ/١٩٧٧م).
- إمام، زكريا بشير. في مواجهة العولمة، الخرطوم: منشورات مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات، ط١، ٢٠٠٠م.
- إمام، عبد الفتاح إمام. هوبز فيلسوف العقلانية، بيروت: دار التنوير، ط١، ١٩٨٥م.
- أمزيان، محمد محمد. "العلوم الإنسانية في المنظومة الغربية؛ دراسة نقدية في الأسس المنهجية"، مجلة المنعطف، العدد (٩)، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- الأنبا غريغوريوس، وهيب عطا الله جرجس. موسوعة الأنبا غريغوريوس «اللاهوت المقارن»، القاهرة: شركة الطباعة المصرية، ٢٠٠٣م.
- الأهواني، أحمد فؤاد. فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية، ١٩٥٤م.
- أوزدمير، إبراهيم. البيئة في الإسلام، القاهرة: دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- إيزوتسو، توشييهيكو. بين الله والإنسان في القرآن؛ دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، ترجمة: عيسى العاكوب، حلب: دار الملتقى، ط١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- ابن باجة، أبو بكر محمد بن يحيى الأندلسي. "تدبير المتوحد"، رسائل ابن باجة الإلهية، تحقيق وتقديم: ماجد فخري، بيروت: دار النهار للنشر، ط١، ١٩٦٨م.
- باسيم، بولس. الكتاب المقدس "العهد القديم والعهد الجديد"، بيروت: دار المشرق، ط٢، ١٩٨٨م.
- باشلار، غاستون. العقلانية المطبقة، باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٤٩م.
- الباهي، حسان. "العلم بين الأخلاق والسياسة"، مجلة الإحياء، العدد (٢٦)، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٣، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

- بدر، عبد الرحيم. الكون الأحذب؛ قصة النظرية النسبية، بغداد: مكتبة النهضة، ط ٣، ١٩٨٠ م.
- بدوي، أحمد زكي. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٨٢ م.
- برنار، كلود. المدخل لدراسة تطور الطب التجريبي، باريس: فلانماريون، ١٩٨٤ م.
- بريانتي، رالف. "الإسلام والغرب تعاون أم صدام؟" ترجمة: عبد الله جاد الله وعبد الغني خلف الله، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٠)، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- البزري، نادر. وآخرون، الطبيعة، سلسلة مفاهيم علمية، إشراف: نادية التازي، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- بسيس، صوفي. الغرب والآخرون: تاريخ تفوق، باريس: منشورات لاديكوفارت، ٢٠٠٣ م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. معالم التنزيل «تفسير البغوي»، الرياض: دار طيبة، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- بلدي، نجيب. دروس في تاريخ الفلسفة، الدار البيضاء: دار توبقال، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- بنمخلوف، علي. "التمدن والحضارة"، ضمن كتاب: صراع الحضارات أم حوارها، إشراف: سليمان بشير ديان، البيضاء: مطابع النجاح الجديدة، ٢٠١٠ م.
- البوشيخي، الشاهد، مظاهر تكريم الإنسان في القرآن الكريم، سلسلة دراسات مصطلحية (٥)، فاس: مطبعة أنفو-برانت، ٢٠٠٩ م.
- بوبر، كارل ر. أسطورة الإطار؛ في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يمنى الخولي، سلسلة عالم المعرفة (٢٩٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣ م.
- بوفريس، رينه. "علوم الإنسان والفلسفة"، ترجمة: محمد علي مقلد، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد (٦)، ١٩٨٩ م.
- بيغوفتش، علي عزت. الإسلام بين الشرق والغرب، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

- بينيت، طوني. وغروسيرغ، ولورانس. وموريس، ميغان. مفاتيح اصطلاحية جديدة، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠١٠م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- الترابي، حسن. قضايا التجديد؛ نحو منهج أصولي، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- تركي، إبراهيم جمال. علاقة الإنسان بالطبيعة عند المعتزلة، طنطا: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٩م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي. جامع الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
- تريفيل، جيمس. لماذا العلم؟، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة (٣٧٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠م.
- التريكي، فتحي. والتريكي، رشيدة. فلسفة الحداثة، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٢م.
- التطاوي، عبد الله. في الطريق إلى المشترك الإنساني؛ مؤشرات وتدايعات، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ٢٠٠٨م.
- التهانوي، محمد بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.
- التهانوي، محمد بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت: دار صادر، (د. ت.).
- التويجيري، عبد العزيز بن عثمان. "بيداغوجيا التسامح في حوض البحر الأبيض المتوسط"، ندوة دولية، تونس: ٢١-٢٢ أبريل ١٩٩٥م.
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحليم. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، بيروت: دار عالم الكتب، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحليم. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الرياض: مطابع المجد التجارية، (د. ت.).

- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. درء تعارض العقل والنقل، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٧٩م.
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. الرد على المنطقيين، بيروت: دار المعرفة، (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م).
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. الرد على المنطقيين، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. رسائل من السجن، المحمدية: مطبعة فضالة، ط١، ٢٠٠٥م.
- ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم. مجموع الفتاوى، الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- الثعالبي، محمد بن الحسن الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
- الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة؛ دراسات ومناقشات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٩م.
- الجابري، محمد عابد. العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط٤، ١٩٨٤م.
- الجابري، محمد عابد. العقل الأخلاقي العربي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠١م.
- الجابري، محمد عابد. "العولمة والهوية الثقافية"، مجلة فكر ونقد، العدد (٦)، (فبراير ١٩٩٨م).
- الجابري، محمد عابد. "الغرب والإسلام"، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد (٣)، ١٩٩٧م.
- الجابري، محمد عابد. فهم القرآن الحكيم؛ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط١، ٢٠٠٩م.

- الجابري، محمد عابد. مدخل إلى فلسفة العلوم (ج ٢) المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ط ١، ١٩٧٦ م.
- الجديع، عبد الله بن يوسف. تقسيم المعمورة في الفقه الإسلامي وأثره في الواقع، بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر، ط ١، (١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م).
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي. التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م).
- جسوس، عبد العزيز. إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي العربي المعاصر، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط ١، ٢٠٠٧.
- جمال، محمد عاكف. تطور نظرة الإنسان إلى الطبيعة، العين: مطبعة الرافدين، ط ١، ١٩٨٧ م.
- جولد تسيهر، لاجنتس. "موقف أهل السنة القداماء إزاء علوم الأوائل"، التراث اليوناني للحضارة الإسلامية؛ دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: دار النهضة العربية، ط ٣، ١٩٦٥ م.
- جونسون، جورج. بحث في نظام الكون، ترجمة: أحمد رمو، دمشق: وزارة الثقافة/ الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. الصحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٩٠ م.
- الجيراري، عباس. "مفهوم التعايش في الإسلام"، مجلة إسلام اليوم، العدد (١٤)، (١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م).
- الجيوسي، عودة. "البيئة والتحول نحو التنمية المستدامة"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٧٢)، (ربيع ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م).
- حاج حمد، محمد أبو القاسم. الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م).
- حاج حمد، محمد أبو القاسم. منهجية القرآن المعرفية؛ أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م).

- الحافي، عامر. "الموضوعية في دراسة الأديان"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٦٠)، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ٢٠٠٨م.
- الحسن، إحسان محمد. موسوعة علم الاجتماع، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ط١، ١٩٩٩م.
- حمد، إنصاف. المعرفة والتجربة؛ دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م.
- حنفي، حسن. التراث والتجديد؛ موقفنا من التراث القديم، بيروت: دار التنوير للنشر، ١٩٨٠م.
- حنفي، حسن. حصار الزمن، الجزء الأول (إشكالات)، بيروت والجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ٢٠٠٧م.
- حنفي، حسن. من العقيدة إلى الثورة، بيروت: دار التنوير للنشر، ١٩٨٨م.
- الحيدر أبادي، محمد حميد الله. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٥٦م.
- الخادمي، نور الدين. الاجتهاد المقاصدي؛ حجته وضوابطه ومجالاته [ج١]، سلسلة كتاب الأمة رقم: (٦٥)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- خالد، إسماعيل علي. القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، بيروت: دار المتقين للثقافة والعلوم والطباعة والنشر، ط١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- الخشت، محمد عثمان. فلسفة الدين في ضوء تأويل جديد للنقدية؛ الكانطية، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ط١، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- خطاب، عبد الحميد. مفهوم الحرية بين الدين والفلسفة والعلم، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٩م.

- الخطيب، محمد عبد الفتاح. قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة، سلسلة كتاب الأمة (١٣٩)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- الخطيب، محمد. الفكر الإغريقي، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ١٩٩٩م.
- الخطيب، محمد. قيم الإسلام الحضارية؛ نحو إنسانية جديدة، سلسلة كتاب الأمة رقم (١٣٩)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشداوي، الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، ٢٠٠٥م.
- أبو خليل، أسعد. "الإسلام والروابط الدولية"، التشريع الدولي في الإسلام، تنسيق: فاروق حمادة، الرباط: منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (٧٠)، ١٩٩٧م.
- خليل، خليل أحمد. جدلية القرآن، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٤م.
- الخوارزمي، محمد بن أحمد. مفاتيح العلوم، القاهرة: دار النهضة العربية، (د.ت.).
- الخولي، أسامة. "البيئة وقضايا التنمية والتصنيع"، مجلة عالم المعرفة، العدد (٢٨٥)، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن. سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ.
- دراز، محمد عبد الله. دستور الأخلاق في القرآن الكريم، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، الكويت: دار البحوث العلمية، ط٦، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- دراز، محمد عبد الله. الدين؛ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، الكويت: دار القلم، ط٢، (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).
- دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم؛ نظرات جديدة في القرآن، الكويت: دار القلم، ط٣، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- الدسوقي، فاروق أحمد. استخلاف الإنسان في الأرض، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

- الدغامين، زياد خليل. "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥٤)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- الدواي، عبد الرزاق. "مجتمع المعرفة؛ معالم رؤية تكنولوجية جديدة للعالم"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٤٠)، يناير-مارس ٢٠١٢م.
- الدواي، عبد الرزاق. موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، بيروت: دار الطليعة، ط١، ١٩٩٢م.
- دوهيم، بيار. مصادر الفلسفة العربية، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٥م.
- ديكرات، رينيه. مقالة الطريقة، ترجمة: جميل صليبا، بيروت: المكتبة الشرقية، ط٢، ١٩٧٠م.
- ديورانت، ول. قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م.
- الداودي، محمد. "مصاعب الغرب في التأهل للحوار مع العالم الإسلامي"، مجلة الإحياء، العدد (٢٨)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٥٥م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح، سوريا: دار الإرشاد للنشر، ط٢، ٢٠٠٨م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل. تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، بيروت: دار النفائس، ط١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل. الذريعة إلى مكارم الشريعة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، ط٤، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).



- الرفاعي، عبد السلام. فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م.
- رانيل، أ.ل. الماضي المشترك بين العرب والغرب، ترجمة: نبيلة إبراهيم، مراجعة: فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة (٢٤١)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- رزق، خليل. الإسلام والبيئة، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- رسل، برتراند. حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة (٧٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣م.
- رسل، برتراند. النظرة العلمية، تعريب: عثمان نوية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠٠١م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي. المقدمات في الفلسفة «المسائل في المنطق والعلم الطبيعي والطب»، تحقيق: أسعد جمعة، تونس: كلية الآداب بالقيروان، ٢٠٠٨م.
- رضا، محمد رشيد. تفسير المنار، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.
- الرفاعي، حامد بن أحمد. "الوسطية مرتكز لحوار الثقافات لتحقيق المشترك الإنساني"، الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، كتاب المنتدى (١)، عمان: منتدى الفكر العربي، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- رفيع، محماد. "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، مجلة إسلامية المعرفة، السنة (١٧)، عدد (٦٦)، ٢٠١١م.
- رفيع، محماد. النظر المقاصدي؛ رؤية تنزيلية، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

- الريسوني، أحمد. الفكر المقاصدي؛ قواعده وفوائده، الرباط: منشورات جريدة الزمن، رقم (٩) سلسلة كتاب الجيب، ١٩٩٩م.
- ريشنباخ، هانز. نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٧٩م.
- ريكور، بول. الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٥م.
- ريكور، بول. العادل، ترجمة: عبد العزيز العيادي وآخرون، قرطاج: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، ٢٠٠٣م.
- زاير، عادل عبد الجبار. معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٧م.
- الزبيدي، محمد مرتضى بن محمد الحسيني. تاج العروس، دمشق: دار الفكر، ط١، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- زقزوق، محمود حمدي. "إعادة الثقة بين العالم الإسلامي والغرب"، مجلة الإسلام اليوم، العدد (٢٢)، ٢٠٠٥م.
- زقزوق، محمود حمدي. "الحضارة فريضة إسلامية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٦٣)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٩٦٥م.
- أبو زهرة، محمد. محاضرات في النصرانية، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٣، (١٣٨١هـ/١٩٦٦م).
- زوزو، فريدة. "مقصد حفظ البيئة وأثره في عملية الاستخلاف"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٨)، (ربيع ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- زياكا، أنجيليكي غريغوري. "القيم الأخلاقية ودورها في نشر السلام"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- الزبيدي، كاصد ياسر. الطبيعة في القرآن الكريم، بغداد: منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ط١، ١٩٨٠م.

- زيمرمان، مايكل (محرراً). الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة (٣٣٣)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م.
- سالمة، عبد الجبار. الدين والسياسة، القاهرة: منشورات المؤسسة العربية للنشر والإبداع، ط١، ١٩٩٤م.
- السالمي، عبد الله بن محمد. "الإيمان والعمل الصالح؛ رؤية مفتوحة لعالم جديد"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- السامرائي، نعمان عبد الرزاق. نحن والحضارة والشهود [ج٢]، سلسلة كتاب الأمة (٨١)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- سبيلا، محمد. وبنعبد العالي، عبد السلام. الطبيعة والثقافة، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط٢، ١٩٩٦م.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).
- السرجاني، راغب. نظرية المشترك الإنساني؛ نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، (١٤٣٢هـ/٢٠١٠م).
- سعيد، جلال الدين. معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس: دار الجنوب للنشر، ١٩٩٤م.
- سعيد، جودت. مذهب ابن آدم الأول، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٥، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة: طبعة الكليات الأزهرية، (د. ت.).
- أبو سليمان، عبد الحميد. "الخطاب الإسلامي المعاصر وتشوهات الخلط والتسطيح"، في: الخطاب الإسلامي المعاصر دعوة للتقويم وإعادة النظر، تأليف نخبة من الباحثين، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).

- أبو سليمان، عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية؛ المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، القاهرة: دار السلام، ط ١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- سوذرن، ريتشارد. صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة وتقديم: رضوان السيد، بيروت: دار المدار الإسلامي، ط ٢، ٢٠٠٦م.
- السيد، رضوان. "شواهد التغيير ومشاهده في القرآن الكريم"، مجلة التفاهم، العدد (٣٤)، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.).
- الشاروني، حبيب. فلسفة فرنسيس بيكون، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨١م.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.
- شبار، سعيد. "الثقافة والعودة؛ قراءة في جدل المحلي والكوني أو ظاهرة الثاقف"، مجلة الإحياء، العدد (٢٥)، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- شبار، سعيد. "من مظاهر التحيز في العلوم الإسلامية"، مجلة الإحياء، العدد (٢٩)، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- الشراح، يعقوب أحمد. "التربية البيئية ومأزق الجنس البشري"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٣٢)، يناير-مارس ٢٠٠٤م.
- الشعبي، أحمد قائد. وثيقة المدينة؛ المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة (١١٠)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).
- شلبي، أحمد إبراهيم. البيئة والمناهج الدراسية، الرياض: مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٤م.
- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

- صباريني، محمد سعيد. والحمد، رشيد. البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة (٢٢)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩ م.
- الصعيدي، عبد الحكيم عبد اللطيف. البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط٢، ١٩٩٤ م.
- الصغير، عبد المجيد. "حوار مع عبد المجيد الصغير"، مجلة الإحياء، العدد (٢٦)، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
- الصغير، عبد المجيد. "فصل المقال فيما بين المنطق والشريعة من الاتصال؛ النزعة الغزالية في الغرب الإسلامي"، مجلة المناظرة، الرباط، العدد (٣)، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- صليبا، جميل. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧١ م.
- زاهر، عادل. الفلسفة والمسألة الدينية، بيروت: دار نلسن، ط١، ٢٠٠٨ م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
- طه، أنيس مالك. التعددية الدينية؛ رؤية إسلامية، حلب وكوالالمبور: دار الملتقى والجامعة الإسلامية العالمية، ط١، ٢٠١١ م.
- حسين، طه. مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ م.
- عاشور، أحمد محمد. والكوني، جمال عبد المنعم (جامعين). حُطَب أبي بكر الصديق ورسائله ووصاياه ومسنده وفتاواه، القاهرة: الدار الذهبية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤ م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس والجزائر: الشركة التونسية للتوزيع والدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٧٧ م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط٢، ١٩٨٥ م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧ م.

- ابن عاشور، محمد الفاضل. روح الحضارة الإسلامية، هردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٤، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).
- عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٤م.
- عبد الرحمن، طه. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٥م.
- عبد الرحمن، طه. روح الحداثة؛ المدخل إلى تأسيس حداثة إسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٦م.
- عبد الرحمن، طه. رُوح الدِّين؛ من ضيق العَلْمانية إلى سَعَة الاثْنائية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠١٢م.
- عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق؛ مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٠م.
- عبد الرحمن، طه. سؤال العمل؛ بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠١٢م.
- عبد الرحمن، طه. العمل الديني وتجديد العقل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ٢، ١٩٩٧م.
- عبد الرؤوف، فيصل. رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط ١، ٢٠٠٨م.
- عبد السلام، جعفر. والسايح، أحمد. المسلمون والآخر؛ أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي، القاهرة: جامعة الأزهر، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- العدوي، مصطفى محمد. "العلم بين التاريخ والفلسفة والدين"، مجلة الكلمة، العدد (٣٠)، ٢٠٠١م.
- عرفان، عبد الحميد فتاح. "إسلامية المعرفة ومنهجية الثاقف الحضاري مع الغرب"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥)، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

- العروي، عبد الله. مفهوم العقل، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٦ م.
- عطاء الرحيم، محمد. عيسى يبشّر بالإسلام، ترجمة: فهمي الشما، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨٦ م.
- العلواني، طه جابر. ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف، مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- العلواني، طه جابر. أفلا يتدبرون القرآن؟ معالم منهجية في التدبر والتدبير، القاهرة: دار السلام، ط ١، (١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م).
- العلواني، طه جابر. التوحيد والتزكية والعمران، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣ م.
- العلواني، طه جابر. الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣ م.
- العلواني، طه جابر. نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، بيروت: دار الهادي، ط ١، ٢٠٠٤ م.
- عمارة، محمد. "إسلامية المعرفة؛ البديل الفكري للمعرفة المادية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٦٣)، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م).
- عمارة، محمد. "الاستخلاف"، مجلة الإسلام اليوم، العدد (١٣)، ١٩٩٥ م.
- عمارة، محمد. الإسلام في مواجهة التحديات، القاهرة: دار نهضة مصر، ط ٣، ٢٠١٠ م.
- عمارة، محمد. الإسلام والسياسة، القاهرة: دار السلام، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- عمارة، محمد. الغرب والإسلام، سلسلة في التنوير الإسلامي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧ م.
- عمارة، محمد. الغزو الفكري؛ وهم أم حقيقة؟، القاهرة: مطابع روز اليوسف، ط ١، ١٩٨٨ م.
- عمارة، محمد. "فلسفة الإسلام"، مجلة حراء، العدد (٩)، ٢٠٠٧ م.
- عمارة، محمد. معالم المنهج الإسلامي، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م).

- العماري، علي محمد حسن. "من حديث القرآن عن الإنسان"، مجلة دعوة الحق، العدد (٨٧)، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- عمر، إبراهيم أحمد. فلسفة التنمية؛ رؤية إسلامية، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- عمر، السيد. الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق: دار الفكر، ط١، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- عمور، عبد الحي. النظرية الإسلامية للعقل، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- عناية، عز الدين. "قراءة في أعمال المؤتمر الدولي للحوار بين المسيحية والإسلام"، مجلة الحياة الثقافية، العدد (١٠١)، ١٩٩٩م.
- عويس، عبد الحليم. "الحضارة قبل أن تولد"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٨)، العدد (٣٢)، (شوال- ذو القعدة- ذو الحجة- ١٤٠٢هـ).
- غارودي، روجيه. من أجل الحوار بين الحضارات، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت: دار النفائس، ط١، ١٩٩٠م.
- غارودي، روجيه. وعود الإسلام، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. القسطاس المستقيم، تعليق: محمود بيجو، دمشق: المطبعة العلمية، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المستصفى من علم الأصول، تحقيق: مصطفى أبو العلا، القاهرة: مكتبة الجندي، (د. ت.).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. معيار العلم في المنطق، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- غليون، برهان. "العقلانية ونقد العقل"، مجلة الوحدة، العدد (٥١)، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).
- غليون، برهان. وأمين، سمير. حوار الدولة والدين، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٦م.



- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان. آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، بيروت: دار المشرق، ط ٤، ١٩٧٣ م.
- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان. كتاب الحروف، تحقيق: محسن مهدي، بيروت: دار المشرق، ١٩٧٠ م.
- فارب، بتر. بنو الإنسان، ترجمة: زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة (٦٧)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. الصحاح في فقه اللغة، تحقيق: مصطفى الشويمي، بيروت: مؤسسة بدران، ١٩٦٣ م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء. معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ط ٢، (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).
- الفاروقي، إسماعيل. "الاجتهاد والإجماع كطرفي الديناميكية في الإسلام"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٤)، العدد (٩)، (محرم ١٣٩٧ هـ / يناير ١٩٧٧ م).
- الفاروقي، إسماعيل. "الأساس المشترك بين الإسلام والمسيحية"، مجلة العلم والإيمان، العدد (٦)، (١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م).
- الفاروقي، إسماعيل راجي. إسلامية المعرفة، قضايا إسلامية معاصرة، بيروت: دار الهادي، ط ١، (١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م).
- الفاروقي، إسماعيل راجي. التوحيد؛ مضامينة على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ط ١، ٢٠١٤ م.
- الفاروقي، إسماعيل. "صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية"، ضمن كتاب: الصحوة الإسلامية المعاصرة والعلوم الإنسانية، جمع وتقديم: علي سيف النصر، تونس: المطبعة العربية، ط ١، ١٩٩٠ م.
- الفاروقي، إسماعيل راجي. "نحن والغرب"، مجلة المسلم المعاصر، السنة (٣)، العدد (١١)، (رمضان ١٣٩٧ هـ / سبتمبر ١٩٧٧ م).
- الفاسي، علال. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، (١٣٨٢ هـ / ١٩٦١ م).

- الفاسي، علال. النقد الذاتي، الرباط: مطبعة الرسالة، ط ٦، ١٩٩٩ م.
- فتح الدين، عبد اللطيف. "الهاجس الإبتيمولوجي في فكر الجابري"، ضمن كتاب: في العقل ونقد العقل، قراءات في أعمال المفكر محمد عابد الجابري، الدار البيضاء: مطبعة بيست أمبريمري، ط ١، ٢٠١٠ م.
- الفراك، أحمد. فلسفة المشترك الإنساني؛ بحث في العوائق المنهجية والمعرفية، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط ١، ٢٠١٦ م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢ م.
- فروم، إريك. بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، مراجعة: لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة (١٤٠)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨ م.
- فرويد، سيجموند. مستقبل وهم، ترجمة: جورج طرايبشي، بيروت: دار الطليعة، ط ٥، ٢٠١٠ م.
- أبو الفضل، منى عبد المنعم. نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٩٩٦ م.
- جدعان، فهمي. المحنة؛ بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام، عمان: دار الشروق، ط ١، ١٩٨١ م.
- فوكو، ميشال. الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، بيروت: مركز الإنهاء القومي، ١٩٩٠ م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م).
- قاسم، قاسم عبدو. ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة (١٤٩)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠ م.
- القديدي، أحمد. الإسلام وصراع الحضارات، سلسلة كتاب الأمة (٤٤)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١، (١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م).

- القرضاوي، يوسف. الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٢، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).
- القرضاوي، يوسف. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، القاهرة: دار الشروق، ط ٣، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).
- القرضاوي، يوسف. رعاية البيئة في شريعة الإسلام، القاهرة: دار الشروق، ط ١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
- القرضاوي، يوسف. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٣، ١٩٩٢م.
- القرضاوي، يوسف. قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، القاهرة والمنصورة: دار الصحوة ودار الوفاء، ط ٢، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).
- القرضاوي، يوسف. مدخل لمعرفة الإسلام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).
- القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).
- قطب، سيد. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، القاهرة: دار الشروق، ط ١٢، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
- قطب، سيد. في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ط ٧، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
- قطب، محمد. منهج التربية الإسلامية، بيروت: دار الشروق، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
- قنبي، حامد صادق. الكون والإنسان في التصور الإسلامي، الكويت: مكتبة الفلاح، ط ١، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- قوعيش، جمال. "أزمة الفيزياء المعاصرة أو محاولة البحث عن النظرية النهائية للكون"، مجلة التسامح، العدد (٢٦)، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت: دار الكتب العلمية، ج٣، ط١، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الكويت: دار القلم، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- كانط، إيمانويل. أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٦٥م.
- كانط، إيمانويل. مشروع للسلام الدائم، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م.
- الكتاني، محمد. منظومة القيم المرجعية، الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، القاهرة: مكتبة الصفا، ط١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة، ط٥، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
- كوديرك، بول. النسبية، ترجمة: مصطفى الرقي، باريس: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٠م.
- كوكلر، هانس. المسلمون والغرب؛ من الصراع إلى الحوار، ترجمة: حميد لشهب، الدار البيضاء: الدار العالمية للكتاب، ط١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- كونزمان، بيتر. وبوركارد، فرانز. وفيدمان، فرانز. أطلس الفلسفة، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: المكتبة الشرقية، ط١، ٢٠٠١م.
- كيلاني، منذر. "الكلي والجزئي في أنتروبولوجيا الدين"، مجلة كتابات معاصرة، العدد (٧٧)، ٢٠١٠م.

- كينغ، هانس. مشروع أخلاقي عالمي؛ دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وأورسولا عسّاف، بيروت: دار صادر، ط ١، ١٩٩٨م.
- لاتوش، سيرج. تغريب العالم؛ بحث حول دلالة ومغزى وحدود تنميط العالم، ترجمة: خليل كلفت، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩م.
- لالاند، أندريه. موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عويدات، ط ٢، ٢٠٠١م.
- لفلوك، جيمس. وجه غايا المتلاشي؛ تحذير أخير، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة (٣٨٨)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م.
- مارسيل، روبي. تاريخ التفكير بالإله، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ط ١، ٢٠١٠م.
- ماركوز، هيربرت. الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرايبيشي، بيروت: دار الآداب، ط ٣، ١٩٨٨م.
- الماقوري، سالم أحمد. المثل الأعلى للمجتمع الإنساني كما تحدث عنه القرآن الكريم، طرابلس: دار اقرأ، ط ١، ١٩٨٥م.
- المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- مجمع اللغة العربية. معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار إحياء التراث، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- المحاسبي، الحارث بن أسد. شرف العقل وماهيته، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- محفوظ، محمد. الإسلام، الغرب وحوار المستقبل، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨م.
- مخوخ، عبد النبي. فلسفة نيوتن الطبيعية (١) الزمان والمكان، الرباط: مؤسسة مفاتيح العلوم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٠م.
- مرسلي، محمد. دور المنطق العربي في تطوير المنطق المعاصر، الدار البيضاء: دار توبقال، ط ١، ٢٠٠٤م.

- المسيري، عبد الوهاب. إشكالية التحيز، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٩٩٥ م.
- المسيري، عبد الوهاب. العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢ م.
- المسيري، عبد الوهاب. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط ٢، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- المسيري، عبد الوهاب. "نظام القيم ومركزيته في البناء الحضاري"، مجلة الإحياء، العدد (٢٨)، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- مطر، أميرة حلمي. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، القاهرة: دار إنباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨ م.
- معرفي، مصطفى. "تمهيد: الإنسان والبيئة"، مجلة عالم الفكر، العدد (٣)، المجلد (٣٢)، يناير-مارس ٢٠٠٤ م.
- معلوف، حبيب. على الحافة: مدخل إلى الفلسفة البيئية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- مفتاح، محمد. الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي، سلسلة ندوات ومناظرات (٦١)، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٥٩)، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- ملكاوي، فتحي حسن. منظومة القيم العليا: التوحيد، التزكية، العمران، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
- ملكاوي، فتحي حسن. منهجية التكامل المعرفي؛ مقدمات في المنهجية الإسلامية، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- منتصر، عبد الحليم. كتاب تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة: دار المعارف، ط ١، ١٩٧٣ م.

- المنصور، خالد منصور. العلاقات الإنسانية في الإسلام، السعودية: مكتبة التوبة، ط ٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي. لسان العرب، بيروت: دار الجليل، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- موران، إدغار. تربية المستقبل؛ المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة: عزيز لزرقي ومنير الحجوجي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط ١، ٢٠٠٢م.
- مؤنس، حسين. الحضارة؛ دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٧)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ٢، ١٩٩٨م.
- ميشيل، سير. العقد الطبيعي، باريس: فلانماريون، ١٩٩٠م.
- الميلاد، زكي. المسألة الحضارية؛ كيف نبكر مستقبلنا في عالم متغير؟، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٩م.
- ابن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٦٩م.
- ابن نبي، مالك. المسلم في عالم الاقتصاد، بيروت: دار الشروق، (د. ت.).
- ابن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م.
- النجار، عبد المجيد. "الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية"، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٧٧)، ١٩٩٥م.
- النجار، عبد المجيد. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- النجار، عبد المجيد. "العمران والإيمان"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٨)، (١٤٢٧هـ/١٩٩٧م).
- النجار، عبد المجيد. مراجعات في الفكر الإسلامي، تونس: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٨م.

- النجار، عبد المجيد. مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ٢٠٠٨ م.
- نخبة من العلماء والباحثين، قاموس القرآن الكريم، الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط ١، (١٤١٦هـ / ١٩٩٢ م).
- نخبة من علماء اللاهوت. قاموس الكتاب المقدس، بيروت: مطبعة الحرية، ط ١٣، ٢٠٠٠ م.
- ابن نصر، محمد. "تأصيل العلوم الإنسانية والاجتماعية"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٢-٤٣)، (٢٠٠٥-٢٠٠٦ م).
- النقاري، حمو. منطق الكلام؛ من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، الرباط: دار الأمان، ط ١، (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م).
- النورسي، بديع الزمان سعيد. صيقل الإسلام «محاکمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة»، ترجمة: إحسان قاسم الصالح، القاهرة: دار سوزلر للنشر، ط ٢، (١٤١٥هـ / ١٩٩٥ م).
- نوفاك، مايكل. "المجتمع المدني العالمي والأخلاق"، مجلة التسامح، العدد (٨)، (خريف ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م).
- نيوتن، ليزا هـ. نحو شركات خضراء، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة (٣٢٩)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦ م.
- هاشم، مازن موفق. مقاصد الشريعة الإسلامية مدخل عمراني، هرنند: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، (١٤٣٥هـ / ٢٠١٤ م).
- هوفمان، مراد. الإسلام كبديل، ترجمة: عادل المعلم، القاهرة: مكتبة الشروق، ط ١، ١٩٩٥ م.
- ابن الهيثم، الحسن. الشكوك على بطليموس، تحقيق: عبد الحميد صبرة، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧١ م.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٤١٢هـ.



- هيدجر، مارتن. "حوار مع مارتن هيدجر"، أجراء: ريتشارد فيسر، ترجمه عن الألمانية: إسماعيل المصدق، مجلة فكر ونقد، العدد (٢٣)، ١٩٩٩ م.
- هيشور، محمد. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، هرنندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦ م.
- وزيري، محمد يحيى. العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة (٣٠٤)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤ م.
- ياسين، عبد السلام. حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، الدار البيضاء: مطبوعات الأفق، ط١، ١٩٩٤ م.
- ياسين، عبد السلام. العدل؛ الإسلاميون والحكم، الدار البيضاء: دار الآفاق، ط١، ٢٠٠٠ م.
- ياسين، عبد السلام. محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، الدار البيضاء: مطبوعات الأفق، ط١، ١٩٩٤ م.
- اليسوعي، صبحي حموي. معجم الإيمان المسيحي، بيروت: دار المشرق، ط٢، ١٩٩٨ م.

#### ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Arendt, Hannah. *Condition de l'homme moderne*, Paris: Clamann-Lévy, 1983.
- Bachelard, Gaston. *La formation de l'esprit Scientifique; Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*, Paris: Librairie J Vrin, 2000.
- Blanche, Robert. *la science Actuelle et le Rationalisme*, Pais: Presses Universitaires de France, 1973.
- Comte, Auguste. *Cours de Philosophie positive*, Paris: Armand Colin, T. IV, Leçon.
- Ducasse, Pierre. *Méthode et intuition chez Auguste comte*, Paris: librairie Félix Alcan, 1939.

- Duhem, Pierre. *La théorie physique, son objet, sa structure*, Paris: marcel Rivière et Cie, 1906.
- Durkheim, Émile. *Les règles de la méthode sociologique*, Paris: Flammarion, 1988.
- Goldmann, Lucien. *Sciences humaines et philosophie*, (Bibliothèque Méditations, 46), Paris: Gonthier, 1966.
- *Grand Larousse de la langue française*, Paris: Librairie Larousse, 1976.
- Guilbert, Louis. et Lagane, René, et Niobey, Georges. *Grand Larousse de la langue française*, Paris: Librairie Larousse, 1976.
- Gunn, T. Jerenny. "the Complexity of Religion and the Definition of Religion in International Law", *Harvard Human Rights Journal*, vol. 16, 2003.
- Hick, John (Edi.). *The Myth of God Incarnate*. Philadelphia: Westminster Press, 1977.
- Hottois, Gilbert. *De la renaissance a la post-modernité*, Paris: Bruxelles, 1997.
- Huntington, Samuel. *The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order*, New York: Touchstone, 1977.
- Illich, Ivan. *De la convivialité*, Paris: éd. Points, 1973.
- Juergensmeyer, Mark. *The New Cold War? Religious Nationalism Confronts the Secular State*, Berkeley: University of California Press, 1993.
- Ladrière, Jean. *La dynamique de la recherche en sciences sociales*, Paris: Presses Universitaires De France, 1994.
- Lewis, Bernard. *Islam and The West*, New York: Oxford University press, 1993.

- McTaggart, W. Donald. "la Géographie Moderne et LA Pensée Écologique", *Cahiers de Géographie du Québec*, Vol. 32, No. 87, décembre 1988.
- Morin, Edgar. *Science avec conscience*, Paris: Librairie Arthème Fayard, 1982.
- Morin, Edgar. *Sociologie*, Paris: Fayard, 1984.
- Norman, Daniel. *Islam and the West: The Making of an Image*, Edinburgh: University of Edinburgh Press, 1980.
- Raymond. Aron, *Les étapes de la pensée sociologique*, Paris: Gallimard, 1981.
- Rey, Alain (direction). *Le Robert Dictionnaire Historique de la langue Française*, Paris: Dictionnaires le robert, 2000.
- Rocher, Guy. *L'action Sociale*, Paris: Seuil coll, 1968, P. 132.
- Serres, Michel. *Le contrat naturel*, Paris: François Bourin, 1990.
- Simpson, J. A. & Weiner, E. S. *The Oxford English dictionary*. Oxford: Clarendon press, 1989.
- Simpson, J.A. & Weiner, E.S.C., *The Oxford English Dictionary*. Oxford: Clarendon Press 2nd ed, 1989.
- Simpson, John. and Weiner, Edmund (Editors). *The Oxford English Dictionary*, Oxford: Clarendon Press, Second Edition, 1991.
- Stroup, Richard L. & Baden, John A. *Natural Resources, Bureaucratic Muths and Enviromental Management*, California, USA: Pacific Institute for Public Policy Research. 1983.
- Thom, René, *Apologie du logos*, Paris: Hachette Littérature, 1990.

- Toynbee , Arnold. *A Study of History: The Growths of Civilizations*,  
New York: Oxford University Press, 1962.

- Wahl, Jean. *Traité de métaphysique*, Paris: Payot, 1968.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

- <http://alinjil.net>

- <http://www.hansking.com>

- <http://www.merriam-webster.com/dictionary/religion>



## الكشاف

	أ
أخلاق العدل العالمية: ٣٢٦	آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٤، ٤٨، ٦٨، ٧١، ٨٠، ١٠٠
أخلاق دينية: ١٠٠.	١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٣، ١٢١
أخلاق عالمية: ٥٦، ٧٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٩.	١٣٣، ٢١٧، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١
أخوة إنسانية: ٧٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣١٦.	٢٤٥، ٢٤٨، ٣٢٣، ٣٣٢.
أدلة عقلية: ٢٠٦.	أدمية: ٣٦، ٣٩، ٧٨، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥
إرادة إلهية: ٢٩٠	١٢٢، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٤، ١٥٩، ٢٤٠
أرسطو: ١٥٢، ١٥٤، ١٦٢، ١٦٤، ٢٠٨.	٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٤.
٢٧٨، ٢٨٠.	آيات الكون: ١٦٠، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٣٤
أركان إيمانية: ٧٤.	٢٥٨، ٢٩٧.
أزمة التغذية: ٣٠١.	آيات النفس: ٢٠٢، ٢٥٨.
أزمة التلوث: ٣٠١، ٣٠٥.	آيات الوحي: ٢٠١، ٢٠٢.
أزمة السكان: ٣٠١.	آية السيف: ١٣٧.
أزمة بيئية: ١٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١.	إباحية: ٧٢، ٢٠٦.
٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٩، ٣٢١.	إبداع إلهي: ٢٩٢.
٣٢٨، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٦.	إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٦٢، ٦٥، ٦٩، ٧٥، ٧٩
أزمة غذائية: ٣٦.	٩٥، ١١٤، ١٤٨، ١٩١.
أساس ديني: ٥٣، ٥٥، ٧١، ٧٢، ٧٣.	إبراهيمية: ٢٤، ٥١، ٦٩، ١١٣، ٣٤٣.
أساطير: ١٣٤، ١٩٤، ١٩٥.	الاتحاد السوفييتي: ٣١.
أساقفة: ٩٥.	اتفاقات: ٥٦، ٣٣٦.
أسبانيا: ٣٢.	اجتماع إنساني: ٢٢٥، ٢٢٩.
استحواذ: ٣٣، ٣١٤.	أجرام سماوية: ١٥٨، ٢١١، ٢٧٨، ٢٩٢.
استخلاف: ٢٥، ٤٢، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥.	احتباس حراري: ٣٠١، ٣٠٢.
١٣٣، ١٤٧، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٠.	اختبار تجريبي: ١٥٦، ١٥٧.
٢٠١، ٢١٤، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١.	أخلاق التعاون: ٣٣٢.
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠.	أخلاق التوافق: ٣٢٩.
٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٩.	

- ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣١٤، ٣٣٢،  
٣٣٥، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٣.  
إعلان ستوكهولم: ٢٧٦، ٣١٣، ٣٣٣، ٣٣٤.  
إعمار الكون: ٢١٣، ٣٤٠.  
أفعال التفكير: ١٦٤.  
أفعال إلهية: ٢٥٩.  
أفغانستان: ٣٢.  
الأفغاني، جمال الدين: ٢٣٥.  
أفانيم: ٨٧، ٨٩، ٩٣.  
إقصاء: ١٨، ٤٩، ١٠٢، ١٣١، ١٣٢، ١٤٢،  
٢٦٤، ٣٤٤.  
إلحادية: ٩٢، ١٩٩، ٣٣٨.  
ألوهية: ٨٦، ٨٧، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ٣٣٨.  
إمبراطورية ألمانية: ٣١.  
إمبراطورية رومانية: ٣١.  
أمة صالحة: ٢٣١.  
أمة قطب: ٢٢٢.  
أمة مسلمة: ١٥٢، ١٧٦، ١٩٦، ٢١٠، ٣٤٢.  
أمراض جنسية: ٣٠٣.  
أمريكا: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٩٩.  
إنجيل: ٥٨، ٨١، ٨٧، ٩٢، ١٠٥، ١٢٦.  
الأندلس: ١٣، ٣١، ١٥٤.  
إنسان بدائي: ٢٧٩.  
إنسان معاصر: ٥٥، ١٤٧، ٢٩٩.  
إنسانية: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١،  
٢٢، ٢٣، ٢٥، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠،  
٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٥٢،  
٥٣، ٥٧، ٥٨، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١،  
٧٢، ٧٥، ٨١، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٩،  
١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩،
- ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٥،  
٢٩٩، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤،  
٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٦،  
٣٢٧، ٣٤٠، ٣٤١.  
استخلاف وجودي: ٢٦٢.  
استدلال فلسفي برهاني: ١٥٢.  
أستراليا: ١١٣.  
استشراف المستقبل: ٢٠، ٢١.  
استشراق: ١٣.  
استعلاء وجودي: ٣٢٣.  
استعمار: ٢٥، ٩٣، ٢١٩، ٢٢٣.  
استغفال الإنسان: ٢٧٩.  
استقامة: ٢٥، ٦٩، ١١٣، ١٢١، ١٢٧، ٢٠٥،  
٢٦٥، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٣.  
استقامة علمية: ٢٠٥.  
استكبار: ١٤، ١٨، ٣٣، ٣٧، ٤٥، ٤٨، ٥١،  
٧٠، ٧٣، ١٣٤، ١٤٢، ١٧٣، ٢١١،  
٢٣٧، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٨٦، ٣١٤،  
٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٤.  
أسرة إنسانية: ٣٨، ١٠٢.  
أسس دينية: ١٥.  
الإسكندرية: ٩٧.  
إصلاح معرفي عقدي: ٢٦٦.  
أصول فكرية: ١٣.  
أصول مشتركة: ١٩.  
اعتبار: ١٣، ١٦، ٢٨، ٣٣، ٤٤، ٥٢، ٧٨،  
١١٦، ١٢٠، ١٤٤، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٩،  
١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٢، ١٩٢،  
١٩٥، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٦،  
٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٦٥، ٢٨١، ٢٨٣،

- بروتستانت: ١٢٤، ٩٨، ٩٧، ٣٢.
- بريطانيا: ٩٨، ٩٩.
- بطارقة: ٩٥.
- بُعد أخلاقي: ٣١٩.
- بعد زمني: ٢١٨، ٢٨٢، ٣٤١.
- بعد زمني تاريخي: ٢١٨، ٣٤١.
- بُعد علائقي: ٣٤٥.
- بُعد نفسي: ٥٧.
- بناء عمراني: ٤٠، ١٢١، ٢٤١، ٢٥٢، ٣٣١.
- بيكون، فرنسيس: ١٧٣، ٢٠١، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥.
- بيئة اجتماعية: ٢٧٦.
- بيئة طبيعية: ١٧، ٤٨، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥.
- ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣١٤، ٣٤٢.
- ت**
- تثليث: ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩.
- تجربة حسية: ١٥٣، ١٥٦.
- تجارب: ٣٣.
- تدافع حضاري: ٢٦٣.
- تدبير إلهي: ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٦٠.
- تراث ديني: ١٣.
- تربية بيئية: ٣٢٥.
- تسخير: ١٧، ٢٢، ٤٣، ١٠١، ١٠٥، ١٠٧، ١٥٩، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٥، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٤٠، ٣٤١.
- ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٤١، ١٤٤، ١٤٧، ١٥١، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥.
- أنشتاين، ألبرت: ٢٨٢.
- أنهاط السلوك: ١٢٩.
- أهل الكتاب: ٤٢، ٤٣، ٨١، ٨٢، ١٤٨.
- أهل المناظرة: ١٤٣.
- إيكولوجي، إيكولوجية: ٢٧٧، ٢٨٨، ٣٠٧، ٣١٦، ٣٣٦.
- ب**
- باشلار، غاستون: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٩٤.
- بحث علمي: ١٦٩، ٢٨٣، ٣٤٠.
- براغماتية: ١٣، ١٦، ٥١، ٣١٤.
- برنار، كلود: ١٥٥.



- تسخير إلهي: ٢٢٤.
- تصحر: ٣٠٥، ٣٠٤.
- تصور فلسفي: ٢٨٤.
- تطبيع ثقافي: ١٢٩.
- تطور تكنولوجيا: ١٤٦.
- تعارف عمراني: ٢٦٤.
- تعايش: ١٥، ١٦، ١٧، ٣٧، ٣٩، ٤٣، ٥١، ٧٤، ٨٠، ١١٩، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٧٣، ٢٠٠، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤٧، ٢٥٠، ٣١٦، ٣١٤، ٣٢٢، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤٥.
- تعايش سلمي: ١٣٩، ١٤١.
- تعدد مفهومي: ٢٧.
- تغريب: ٣٠، ١٢٨، ٣٤٢، ٣٤٤.
- تفكير إنساني: ١٨، ٣٣٦.
- تفكير ديني: ٣٤٥.
- تفوق: ١٢، ١٥، ٨٠، ١٠١، ١٤١، ١٥١، ١٨٧، ٢٠٩، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٦٤، ٢٧٩، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٣٨، ٣٤٢.
- تقليد، تقليد: ١١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٤١، ٥١، ٦٣، ٨٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٩، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٧، ١٨١، ١٨٩، ١٩٤، ٢١٠، ٢١١، ٢٤٦، ٢٤٨، ٣٤٣.
- تكامل بين العلوم: ٢٠٤.
- تكامل بين المعارف: ٢٠٤.
- تكامل معرفي: ١٧١، ٢٠٤.
- تكاملية المعرفة: ٢٥٨، ٢٠١.
- تكليف إلهي: ٢٤١، ٣١٠، ٣١٦.
- تلوث بيئي: ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٥.
- تمثلات تراثية: ١٩.
- تنافس: ١٩، ٢٠، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٥٢، ٧٠، ١٠١، ١١١، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٦، ١٧٣، ٢٦٤، ٣٠٧.
- تناكر: ١٤، ٣٣، ٣٥، ٣٩، ١١٩، ٢٦٣.
- تنشئة اجتماعية: ١٢٩.
- تهميش: ٣٠٤، ٢٧٩، ٣٤٤.
- توافق وجودي: ٢٧٣، ٣٣٠.
- توراة: ٥٥، ٥٨، ٨١، ٨٣، ٩٠، ٩٦، ١٠٥، ١٢٦.
- ث
- ثقافات: ١٥، ١٦، ١٨، ٢٤، ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٨٠، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٦، ١٧٢، ١٨١، ٢٠٥، ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٥١، ٢٦٣، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٤.
- ثقافة إسلامية: ٢٨، ٤٠، ١٦٣، ٣٤٥.
- ثقافة بابلية: ٢٠٧.
- ج
- الجابري، محمد عابد: ١٨٦، ١٩٨، ٢١١، ٢٨٣، ٣٢١.
- جارودي، روجي: ٣٣٢.
- جامعة لندن: ١٩٧.
- جامعة هارفرد: ٩٩.
- جاهلية: ٧٥، ١٠٧، ١١٤، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٢، ٢٤٦.
- جماعات دينية: ١٤٢.
- جماعة إنسانية: ٢٢٨.
- الجمعية العامة للأمم المتحدة: ٢٧٦، ٣٠٠، ٣٣٤.

جنس بشري: ٢٢، ١٩٠، ٢٦٢، ٣٠١، ٣٠٥.  
جوناس، جوهانز: ٣٣١.

## ح

حالة السواء: ٣٤٣.  
حدائثة: ١٢، ٤٩، ١٩٦، ٢٨٣، ٣٣٧.  
حديث السفينة: ١٣٣، ٢٦٨.  
الحراني، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: ٦٥،  
٦٨، ٧٧، ١١٢، ١١٣، ١٧٧، ٢٠٦،  
٢٣٦.  
حرب تدميرية: ١٣٦.  
حرب عالمية: ١٢٤، ١٣٥.  
حرب قتالية: ٣١١.  
حروب صليبية: ١٤٧، ٣٠٨.

حضارات: ١٦، ٣٨، ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢،  
٥٣، ٧٣، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠،  
١٥٨، ١٦١، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٣،  
٢٦٤، ٢٧٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٤.  
حضارة إسلامية: ٢٤، ٢٥، ٢٠٩.  
حضارة بشرية: ٢٣٠، ٢٣٨.  
حضارة غربية: ١٥، ٥٢، ٣١٢، ٣٤١.  
حقائق علمية: ٥٧، ١٥٧، ١٦١، ١٩١،  
١٩٢، ٣٤٠.

حقوق الإنسان: ٣٦، ٥٠، ١٠٨، ١٢٧.  
حكم عقلية: ٢٣٧.  
حكم قانوني: ٦٣.

حكمة التدبير: ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩.  
حكمة إلهية: ١٢٩، ١٩٣.  
حل قرآني: ٢٢، ٢٩٨، ٣١٣.  
حلف شمال الأطلسي: ٣١.  
حنفية إبراهيمية: ١١٣، ٣٤٣.

## خ

خبرة تجريبية: ١٥٤.  
ختم النبوة: ٤٩، ٦٥.  
خراب العمران: ٢٣٢.  
خرافات: ٨٦، ١٢٤.  
خطاب تحريضي: ١٦.  
خطاب قرآني: ٤٣، ٥٠، ١٠٨، ١١٠، ١٩٠،  
٢٢٩، ٢٥٧، ٢٦٣، ٢٦٥.  
خطيئة آدم: ١٠٦، ٢٣٩، ٢٤٠.  
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ٩٢، ١٣٣،  
٢٠٠، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢.  
خلق إلهي: ٢٥٧.

## د

داء السكري: ٣٠٣.  
دار الإسلام: ٣٥.  
دار الحرب: ٣٥.  
دائرة الأنفوس: ١١٠.  
دائرة الأبدان: ١١٠.  
دائرة الجماعة: ١١٠.  
دستور أخلاقي: ٣٣٤.  
دعوة عيساوية: ٩٣.  
دلالات العمران: ٢٢، ٢١٣، ٢١٨.  
دلالة تاريخية: ٢٧.  
دلالة جغرافية: ٣٠.  
دلالة فلسفية: ٣٠.  
دلالة قرآنية: ٢٧، ٢٨، ١٦٢، ٢١٤.  
دلالة لغوية: ٢٨٧.  
دلالة معجمية: ٢١٤.  
دلثاي، فلهلم: ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.  
ديكارت، رينيه: ١٣١، ١٥٦، ٢٨٤.

- ديمقراطية: ١٢، ٣٤، ٥٠، ٣٣٧.
- ديورانت، ول: ٨٥، ٨٦.
- ر
- رسالات إلهية: ٤٥، ٦٦، ٢٣١.
- رسالات سماوية: ٢٢، ٥٥، ٧٠، ٧٣، ١٣٦، ٣٣٢.
- رسائل سماوية: ٢٨، ٤٢، ٥٨، ٩٤، ١٢٦، ٢٤٩، ١٢٨.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد: ١٢٢، ٢٨٠، ٢٠٠.
- روسيا: ٣٢.
- الروم: ١٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩.
- رومية: ١٥، ٨٧.
- رؤية أحادية: ١٨.
- رؤية رأسمالية غربية: ٣٣٤.
- رؤية قرآنية كونية: ١٥، ١٩٠، ٢٠٧.
- رؤية منهجية: ١٣.
- رياضيات: ١٥٨، ١٦١، ١٧١، ١٧٥، ١٩٣، ٣٣٩، ٢٠٩.
- ز
- زمن النبوة: ١٥.
- س
- سببية: ١٥٩، ٢٣٤، ٢٧٧.
- سرطان: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦.
- سفسطة: ١٦٣.
- سلوك جماعي: ٢٥٢.
- سمو وروحي: ٢٤٩.
- سند فلسفي: ١٨.
- سنن إلهية: ١٨، ٢١٩.
- سنن قرآنية: ٢٦٨.
- سنن كونية: ٤٣، ١٣٢، ٢٦٨.
- سنن نفسية: ٢٥٤، ٢٦٨.
- سياق إسلامي: ١٢.
- سياق غربي: ١٢، ١٣.
- سيرورة تركيبيية: ٧٢.
- ش
- شركات عملاقة: ٣٠٦.
- شعب مختار: ٨٠، ٢٦٣.
- شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٢٦، ٢٥٦.
- ص
- صراع عبثي: ١٣٦.
- صقلية: ١٣، ٢١٠.
- صلاح العمران: ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٦٦، ٢٦٨.
- صلاح فطري: ٢٧١.
- الصين: ٣١، ٣٢.
- ط
- طغيان: ٢٢، ٧٠، ١٠٤، ١١٣، ١١٥، ١١٨، ٢٠٣، ٢١١، ٢٣٧، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣١٣، ٣٢٦.
- طليلة: ١٣.
- طوائف مسيحية: ٩٥.
- ظ
- ظاهرة طبيعية: ١٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ٣٤٠.
- ظواهر إنسانية: ١٧٧، ٢٨٣.
- ع
- ابن عاشور، محمد الطاهر: ١٠٩، ١٢٣، ١٢٨، ٢٤١، ٢٦٧.
- عالم إسلامي: ٥٦، ٢٠٥.
- عالم طبيعي: ٢١١، ٢٥١، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٨٩.

- علم تجريبي: ١٥٧، ٢٠٨.
- علم لدني: ١٩٥.
- علم نشأة الكون: ٢٨٩.
- علماء الفيزياء: ١٥٩.
- علماء اللغة: ٢٦٣.
- علمانية: ٨١، ٩٢.
- علوم اجتماعية: ٢٢، ١٧٧، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ٢٨٣، ٣٤٠.
- علوم استخلاف: ٢٠١.
- علوم الكون: ١٧، ١٦٠، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٩٧.
- علوم النفس: ١٧، ٢٠٨.
- علوم إنسانية: ٢٥، ١٦٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢.
- علوم تجريبية: ١٧٥، ٢٠٩، ٣٣٧.
- علوم شرعية: ٢٠٤، ٢٠٨.
- علوم طبيعية: ١٧، ٢٢، ١٥٤، ١٥٩، ١٦١، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨.
- ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦، ٣٣٩.
- علوم كونية: ١٦٠، ٢٠٤، ٢٩٧.
- علوم معاصرة: ٢٠٧.
- علوم نافعة: ٢٠٨.
- عمارة الأرض: ٤٢، ٤٧، ٢١٣، ٢١٦، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣٣.
- عمارة المسجد: ٢١٦، ٢١٨، ٢٣٦، ٢٣٧.
- عمران: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣.
- ٣٠٥.
- علم علوي سماوي: ٢١١.
- علمية المنهاج القرآني: ٢٦٧.
- عامل ذاتي: ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤.
- عدل اجتماعي: ٢٣٩.
- عدل إلهي: ٢٠٨.
- العراق: ٣٢، ٣٣.
- عصبية دينية: ٧١.
- عقائد مادية: ٢٤٨.
- عقد اجتماعي: ١٤، ٢٤٤، ٣٣٢.
- عقد بيئي عالمي: ٣٣٦.
- عقدية: ١٩، ٤٥، ٨٢، ١٤٦، ١٥١، ٣٢٦، ٣٢٧.
- عقل أخلاقي: ١٦٧.
- عقل إنساني: ١٦٥.
- عقل بشري: ٢٠، ١٤٤، ١٦٧، ١٧١، ١٧٣، ٢٠٧، ٢٨٤.
- عقل علمي: ٢١١.
- عقل فطري: ١٦٦، ١٦٧.
- عقل مكتسب: ١٦٧.
- عقلانية: ١٢، ١٦، ٥٣، ١٦٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٥، ٢٣٥، ٢٨٤.
- عقلانية ديكرتية: ٢٨٤.
- عقلانية علمية: ١٦٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٥.
- عقيدة توحيدية: ١٤٤.
- علم البيئية: ٢٧٥، ٢٧٧، ٣٣٧.
- علم العمران: ٢٢، ٢١٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.
- علم الغايات: ٢٠٢.
- علم المنطق: ١٦٤.

- عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٦، ٧٩،  
٨٦، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٢٦،  
١٣٧.
- غ
- غايات مقاصدية: ١٤.  
غائية: ٤٣، ١٠٣، ١٢٨، ٢٠٢، ٢١٩، ٢٧٠،  
٢٨٧، ٣٤٣، ٣٤٢.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: ١٢٥،  
١٦٦، ١٩١، ٢٢١.  
غزو الفضاء: ٣١٢.  
غلاف جوي: ٢٧٦، ٣٣٦.  
غنوصيون: ٩٦.  
غولدمان، لوسيان: ١٨٥.
- ف
- فارسية: ١٥.  
الفاروقي، إسماعيل راجي: ٢٠، ٢٤، ٥٦،  
١٠٦، ٢٥١.  
فائدة عقلية: ١٤٥.  
الفرس: ٣٥، ١٢٧، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩،  
٢١٤، ٢١٥، ٢٢٦.  
فرعونية: ٥١، ٢٥٣.  
فرقة ناجية: ٢٦٣.  
فروم، إريك: ٥٢.  
فطرة إنسانية: ٤١، ٤٣، ٩٢.  
فقه العمران القرآني: ٢٤٤.  
فكر إسلامي: ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٤٦.  
فكر إنساني: ١٩، ٧٢، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٦.  
فكر صدامي: ١١.  
فكر عقلاني: ١٦١.  
فلاسفة: ٢٣، ٣٣، ٥٦، ١٥٢، ١٦٥، ٢٠٩،  
١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣،  
١٣٤، ١٥١، ١٥٩، ١٦٣، ١٩٧، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،  
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٦٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،  
٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥،  
٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢،  
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٥، ٣٠٧،  
٣١٣، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥.
- عمران إنساني: ٤٠، ١٠١، ٢١٣، ٢١٨،  
٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٤٨،  
٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٣، ٣١٦، ٣٢٦، ٣٤١،  
٣٤٤.  
عمران إنساني مشترك: ١٧، ٢٥٤.  
عمران كمي: ٢٣٥، ٢٣٨.  
عمران كوني عالمي: ٢١٨.  
عمران كيفي: ٢٣٠.  
عناية إلهية: ٢٢٠، ٢٨٧.  
عنصرية: ٤٠، ٤٥، ٥١، ٧٥، ١٣٨، ٢٤٨،  
٣٤٤.  
العهد الجديد: ٨٦، ٨٨.  
العهد القديم: ٨٣، ٨٥، ٨٦، ١٣٨، ٢٣٩،  
٢٤٠.  
عهد المدينة: ١٣٩.

٩٠، ٨١، ٧٥، ٧٤، ٧١، ٦٧، ٦٦، ٦٢  
٩١، ٩٤، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦  
١٠٧، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧  
١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨  
١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٢  
١٤٦، ١٤٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣  
١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣  
١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ١٩٦  
١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧  
٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩  
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥  
٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥  
٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦  
٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠  
٢٧٣، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢  
٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣١٦، ٣١٧  
٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٠  
٣٣٣، ٣٣٦، ٣٤١.

قضايا ذهنية: ١٧٠، ١٧١.  
قطب، سيد: ٥٠، ١٩٢، ٢١١، ٢٢٢، ٣٠٢.  
قنبلة سكانية: ٣٠٢.  
قوانين طبيعية: ٢٣٩.  
قوانين كونية: ٣٧، ٢٢٠، ٢٥٨.  
قيصر: ٩٣، ٩٤.  
قيم أخلاقية: ١٢، ١٦، ٣٦، ٤٨، ١٠٠.  
٢٣٦، ٢٥٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣١١،  
٣٢٠.  
قيم الصراع: ١١١.  
قيم إنسانية كلية: ١٤.  
قيم دينية: ٢٨، ٤٦، ٥٨، ١٠٠، ١٢٦، ٢٤٧.

٢٧٨، ٢٨١، ٢٩٢، ٣١٢.  
فلاسفة اليونان: ١٦٣، ٢٩٢.  
فلسفة البيئة: ٢٣، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣١٤، ٣١٥.  
فلسفة الدين: ١١، ٢٣، ٣٦، ٥٦، ٧٠، ٧١،  
٨١، ٣٣٨.  
فلسفة بيئية: ٢٩٨، ٣١٤، ٣١٥.  
فلسفة حديثة: ١٦٢، ٢٨٥.  
فلسفة سياسية: ١٤.  
فلسفة طبيعية: ٢٧٧، ٢٨٢.  
فلسفة مادية: ١٤١، ١٩٠، ١٩٨، ٢٧٤،  
٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٧، ٣٤٢.  
فلسفة ماركسية: ٢٨٣.  
فلسفة وجودية: ١٣١، ٢٠٦.  
فلسفة وضعية: ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٦،  
١٨٧، ٢٨١، ٢٨٢.  
فلك: ١٦١، ١٧٩، ٢١٠، ٢١١.  
فوضوية: ١٩، ١٧٢، ٢٤٤.

## ق

قانون: ١٤، ٣١، ٣٣، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٧١،  
٩٦، ١٠٦، ١٠٩، ١٣٧، ١٥٤، ١٦٢،  
٢٣٠، ٢٦٢، ٢٨٢، ٢٩١، ٣٠١، ٣١٧،  
٣٢٠، ٣٢٢، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٦.  
قانون الإيوان: ٩٦.  
قانون سماوي: ١٠٩.  
قدر كوني: ٢٥٩.  
قراءات تقليدية: ١١.  
قراءة جامعة: ١٨٧، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١،  
٢٠٣، ٢١٠، ٣٤٠.  
قرآن كريم: ١٤، ٢٣، ٢٨، ٤٢، ٤٣، ٤٤،  
٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٨.

- ٣٣٨ .مجتمع البدو: ٢٢٧ .
- قيم سلبية: ٣٣٧ .
- قيم قرآنية: ٤٢، ٤٨، ١٣٥ .
- قيم مشتركة: ١٨، ١٩، ٢١، ٢٥، ٣٤٤ .
- ك
- كاثوليكية: ٣٢، ٧١، ٧٢، ٩٧، ١٢٤، ١٨١ .
- كانط، إيمانويل: ٣٣، ٦١، ٧٣، ١٧٤، ١٨٢، ٣١١، ١٨٥ .
- كائنات عضوية: ٢٧٥، ٢٧٦ .
- كتاب مسطور: ١٧٤ .
- كتاب مقدس: ٢٣، ٩٨، ١٢٤، ٢٢٦ .
- كتاب منظور: ١٧٤ .
- كراهية: ١٦، ١٨، ١٩، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٧٠، ٨٣، ١١١، ١٣١، ١٤٢، ٢١١، ٢٣٢، ٢٤٨، ٢٥٤، ٢٨٤، ٣٤٣، ٣٤٤ .
- كليات كبرى: ١٢٥ .
- كنيسة توحيدية: ٩٩ .
- كواكب سابحة: ١٦٠ .
- كيمياء: ٩٩، ١٥٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٣٣٩ .
- كينغ، هانس: ٢٥، ٣٨، ٥٦، ١٢٦، ١٣٨ .
- ل
- لاهوتية: ١٣، ١٧، ٨٩، ٩٧، ٢٠٨، ٢٨٤ .
- لغة قرآنية: ٤٤، ٢١٥، ٣١٧ .
- لغة لاتينية: ٣٠ .
- لوك، جون: ١٥٢، ٢٨١ .
- لويس، برنارد: ٢٩ .
- م
- مبدأ التوحيد: ١٢٢، ٣٣٨ .
- متعة وجدانية: ١٤٥ .
- متكلمون: ١٥٢، ١٦٣، ١٦٥ .
- مجتمع إنساني: ٣٨، ١١٩، ١٧٣، ٢٥٣ .
- مجتمع صالح: ٢٣١ .
- مجتمع وثني: ٩٣ .
- المجوس: ١٤٩ .
- محاكم التفتيش: ١٢٤، ٢١٠ .
- محموسات: ١٥٧، ١٦٠، ٢٠٢، ٢٨٢ .
- مدارس فلسفية: ٦١ .
- مدرسة التحليل النفسي: ١٦٩ .
- مدرسة تجريبية: ١٥٥، ١٥٧ .
- مدرسة تفكيكية: ١٦٩ .
- مدرسة فينومينولوجية: ١٦٩ .
- مدرسة نقدية: ١٥٥، ١٦٩ .
- مذهب تجريبي: ١٥٢، ١٥٧ .
- مذهب وضعي: ١٨٠ .
- مرجعية مادية: ٤١، ٢٧٧، ٢٨٦ .
- مرجعية معرفية قرآنية: ١٥١ .
- مرحلة كلاسيكية: ٣٠ .
- مستشرقون: ٢٨، ٢٩ .
- مسؤولية قانونية: ٣٣٥، ٣٣٦ .
- مسيحية: ١٣، ٢٥، ٣٢، ٣٥، ٥٦، ٧٠، ٧٢، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٢٤، ١٣١، ١٣٧، ١٦٢، ١٨١، ٢٦٣، ٢٨٩ .
- المسيري، عبد الوهاب: ١٨٣، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٣٢ .
- مشترك إنساني: ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٢، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٧٢، ٧٣، ١٠٠، ١١٠، ١٣٦، ١٤٧، ١٥١، ١٩٦، ٢٤٢ .

- مقاصد القرآن: ٥٠، ١٠٤، ٢٦٣، ٢٨٩، ٣٤٣، ٣٣٦، ٣٢٣.
- مقاصد كبرى: ٤٥، ٣٤٥.
- مقصد إصلاحى: ٢٦٥.
- مقصد العمران: ١١١.
- مقصد تعارفى: ٢٦٢، ٢٦٤.
- مقصد تعبدى: ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥.
- مقصد قرآنى: ٢٦٣.
- ملكاوي، فتحي: ٢٣٨.
- مناهج فلسفية إنسانية: ٢١٥.
- منظومة قرآنية: ٧٤.
- منهاج استخلافي: ٣١٠.
- منهاج قرآنى: ١٤، ١٩، ٢٠، ٤٠، ٤٧، ١٠٧، ١٢٧، ١٢٨، ١٩١، ١٩٦، ٢٠٩، ٢٣٣، ٢٤٨، ٢٦٧، ٣٣٣، ٣٤٣.
- منهج الوسطية: ٤٧.
- منهج تاريخي: ٢١.
- منهج تجريبي: ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٦، ٢١٠.
- منهج تحليلي: ٢١.
- منهج مقارن: ٢١، ١٨٠.
- منهج نقدي: ٢١.
- منهجية قرآنية: ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦.
- منهجية معرفية: ١٩٠، ١٩٢، ٢٠٢.
- مواطنة إنسانية: ٢٤٨، ٣١٦.
- مؤتمر ريو دي جانيرو: ٣٣٣، ٣٣٤.
- مؤتمرات: ٥٦، ٢٦٣، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٣، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٢٠.
- موران، إدغار: ١٨١، ٢٨٦.
- ٢٧٣، ٢٧٨، ٣١٧، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥.
- مشترك بيئي: ٢٠، ٢٧٣، ٢٩٨، ٢٩٩.
- مشترك توحيدى: ٥٥، ٩٤.
- مشترك طبيعى: ٢٧٣، ٣٤١.
- مشترك علمي معرفي: ٢٢، ١٥١.
- مصالح مادية: ٥٠.
- مطلب الحرية: ١٢١.
- مطلب العدل: ١١٨، ٣٢٦.
- مطلق: ١٥، ٢٨، ٢٩، ٣٨، ٥٧، ٥٨، ٦٢، ٦٣، ٧١، ٧٧، ٩٣، ١٠٢، ١١٨، ١٢٦، ١٤١، ١٦٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٧، ٢٦٠، ٣٦١، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٢٠، ٣٤٤.
- معالم ثقافية: ١٩١.
- معاملات اجتماعية: ١٢٠.
- معاهدات: ١٣٩، ٣٣٦.
- معرفة تجريبية: ١٥١، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٩.
- معرفة علمية: ١٥١، ١٥٢، ١٥٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨٢، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٩.
- ٣٣٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨٢، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٩، ٣٣٩.
- مفاهيم إسلامية: ٤٦.
- مقارنة الأديان: ٢٣، ٩٩.
- مقاصد العمران: ٢٥٤، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٨٩، ٣٠٧.



- مؤسسات تربوية: ٣٢٠.
- مؤسسة الأسرة: ١١٥.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٦٩، ٧٠، ٨٣، ٨٥، ١٢٦، ١٤٨، ٢٣٢.
- ميثاق الأسرة: ١١١، ١١٥، ١١٦.
- ميثاق الفطرة: ٧٨، ١١١، ١١٣، ١١٤.
- ٢٥٦.
- ميثاق النبيين: ١١١، ١١٤، ١١٥.
- ميثاق غليظ: ١١٥، ١١٧.
- ميثاق كوني: ١١٤.
- ميكانيكا: ١٥٤، ١٧١، ٢١٣، ٢٨١، ٢٨٧، ٣٣١.
- الميلاد، زكي: ٣٠١.
- ن
- ناظم منهجي: ٢٠٥.
- ناموس: ٨٨، ٩٠، ١٠٩، ٢٧٣.
- نبوغ: ٢٤٣.
- نجران: ٧٩، ٨٠، ١٣٤، ١٤٠.
- ندوات: ٥٦، ٢٦٣.
- نسبي: ٢٩، ٥٨، ١٧١، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٣٣٤، ٣٤٠.
- نسيج اجتماعي: ١١٧.
- نصارى: ٤٢، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩.
- نصارى الحيشة: ١٣٤، ١٤٦.
- نصارى نجران: ٨٠، ١٣٤، ١٤٠.
- نصرانية: ٨٠، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٢٦، ١٤٠.
- نصوص قرآنية: ٢٤١.
- نظام ثقافي: ٢٧٥.
- نظام طبيعي: ٢٧٥، ٢٩٢.
- نظر استبصاري: ٢٠٣.
- نظر اعتباري: ٢٠٣.
- نظر إنصافي: ٢٠٣.
- نظرة مادية: ١٩٧، ٣٣١.
- نظريات فيزيائية: ١٥٩.
- نظم اقتصادية: ٢٤٨، ٢٥٨.
- نفس إنسانية: ٥٧، ٧١، ١٤٥، ١٨٩، ٢٩٠، ٢٩٥.
- نمط ليبرالي: ٥٠.
- نمو ديمغرافي: ٣٠٢.
- نموذج إلهي: ٢٠٧.
- نموذج معرفي قرآني: ٣١٥.
- نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٦٥، ٦٨، ٧٧، ٢١٧.
- نوع إنساني: ٥٣، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ٢٤٥.
- نيتشه، فريدريك: ٢٨١، ٢٨٦.
- نيوتن، إسحاق: ٩٨، ١٩٣، ٢٨٢.
- ه
- هايكل، أرنست: ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧.
- الهند: ٣١، ٣٢، ١١٣، ١٣٧، ١٦١.
- هندوس: ١٣٧.
- هيدجر، مارتن: ١٩٩، ٢٣٥.
- هيوم، دافيد: ١٥٢، ٢٨١.
- هيومانية: ٢٨٤.
- و
- واقع تاريخي: ٢١.
- واقع علمي: ١٨٣.
- واقع عملي: ١٢٧.

- واقع محسوس: ١٧٠.
- وثيقة المواطنة: ١٣٩.
- وحدانية: ١٩، ٢٠، ٤٥، ٧٣، ٨٨، ١٠١،
- ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٠١.
- وحدة آدمية: ١٣٠.
- وحدة الشرائع: ١٠٢.
- وحدة العقل البشري: ١٦٧.
- وحي إلهي: ٧٨.
- وسط حضاري: ٢٧٥.
- وسطية: ٢٢، ٤٦، ٤٧، ٣٤٣.
- وعى إنساني: ٣٩، ٤٣، ٣٣٦.
- وعى بيئي: ٣١٤، ٣١٩.
- وعى عمراني: ٢١٣.
- الولايات المتحدة الأمريكية: ٩٨، ٣٢٢.
- ي**
- اليابان: ٣٢.
- يهود: ٣٢، ٤٢، ٧٩، ٨١، ٨٥، ٨٦، ٨٨،
- ١٠٨، ١٢٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.
- يهودية: ٢٥، ٧٠، ١٠٨، ١٢٦، ٢٠٧، ٢٦٣.
- يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٦٨، ٢٤٢.



صدر حديثاً

# أفريقيا ومسألة الإسلام

نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين  
حتى ظهور الاستشراق

أحمد ربيمة

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

صدر حديثاً

# الفكر التربوي الإسلامي المعاصر

مفاهيمه ومصادره وخصائصه وسبل إصلاحه



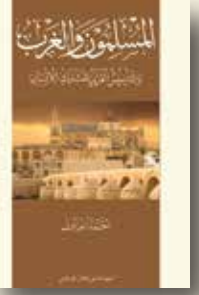
الدكتور  
فتحي حسن ملكاوي





## هذا الكتاب

يعالج موضوعاً فكرياً أتعب الفكر الإسلامي المعاصر، وشغل العقل المسلم حيناً من الدهر، وملاً الإنتاج فيه حيزاً كبيراً من المكتبة الإسلامية العربية، ويتعلق الأمر بإشكال "علاقة المسلمين بالغرب" وتداعياته على الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم في ارتباطها المعاصر بالغرب. ويجيب على جملة من التساؤلات المستجدة التي تطرح بصدد البحث في هذا الإشكال، ليقدم تصوراً أكاديمياً جديداً يحاول تجاوز الخلل المنهجي الذي غلب في معالجة مثل هذه الموضوعات.



ووعياً بقضايا الإنسان المعاصر ومتطلبات المستقبل المشترك، وما تحمله الإنسانية معها من إرث تاريخي يختلط فيه الحق بالباطل، والخير بالشر، والأصيل بالدخيل، واستحضاراً لما تمر به الإنسانية اليوم من محن فكرية وواقعية تراكمت عبر الزمن وأنتجت مقولات مغلقة، نشعر بالحاجة إلى تصحيح المنطلق وتجديد الرؤية واستشراف المستقبل الذي تتجاوز فيه الإنسانية أنانياتها وتحيزاتها إلى أفق أرحب، يحتضن الإنسان احتضاناً مستوعباً للاختلاف والتنوع والتنافس، يقبل الآخر ولا يلغيه، ويحضره ولا ينفيه، ويشاركه ولا يفصيه.

ويقترح الكتاب مدخلاً منهجياً ومعرفياً من شأنه أن يؤسس لنظرية معرفية تستمد رؤيتها من المرجعية القرآنية النبوية، عبر اكتشاف المنهج العلمي والعملية الذي يقدم قراءةً جامعةً بين التدبير في الكتاب، والتفكير في الكون، والتبصر في الإنسان، ومستوعباً لكل قضايا الإنسان والأديان والعمران، متجاوزةً لعيوب القراءات الأيديولوجية والفلسفات المتحيزة والمذاهب المتقلصة... وهو ما من شأنه تقريب الشقة وتنظيم الاختلاف ونزع فتيل الصدام.

من أجل ذلك يهدف الكتاب إلى إبراز أصول المشترك الإنساني؛ الدينية والعلمية والطبيعية والعمرانية والبيئية بين المسلمين والغرب، بما يُمكن من رسم المدخل العام لـ "نظرية المشترك الإنساني" الذي يستوعب الخصوصيات الدينية والقومية والجغرافية والعرقية، ويستحضر معها التطور التقني والثقافي والسكاني والاقتصادي لعالم اليوم.

## أحمد الفراك

- ولد عام ١٤٩٣هـ/ ١٩٧٣م بمدينة وادي زم؛ وسط المغرب. وبها تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي.

- حصل على الإجازة في شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس؛ تخصص فلسفة عامة، من جامعة محمد الخامس بالرباط، عام ١٩٩٧م. ودبلوم الدراسات العليا المعمّقة (D.E.S.A) في تخصص "مناهج المنطق وتطبيقاتها في العلوم" عام ١٩٩٩م من الجامعة نفسها، والدكتوراه في الفكر الإسلامي من جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال عام ٢٠١٣م.



- أستاذ الفلسفة بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين (الشاوية-وردیغة)، ويقوم بالمغرب.

- صدر له كتاب "ضرورة العمل الجماعي" عام ٢٠٠٩م، وكتاب "الدولة المدنية وإشكال الهوية" عام ٢٠١٣م، وكتاب "رسالة العلماء في الإسلام بين الواقع والواجب" عام ٢٠١٤م، وثمة كتب تحت الطبع من أهمها: كتاب "الوجيز في الفلسفة"، و"آليات تشغيل المنطق في الفكر الإسلامي العربي القديم"، و"المشترك الإنساني وضرورة النقد المزدوج".

- عضو هيئة تحرير مجلة منار الهدى، وهي مجلة علمية محكمة تصدر في المغرب.

- البريد الإلكتروني: Elfarrak@gmail.com

